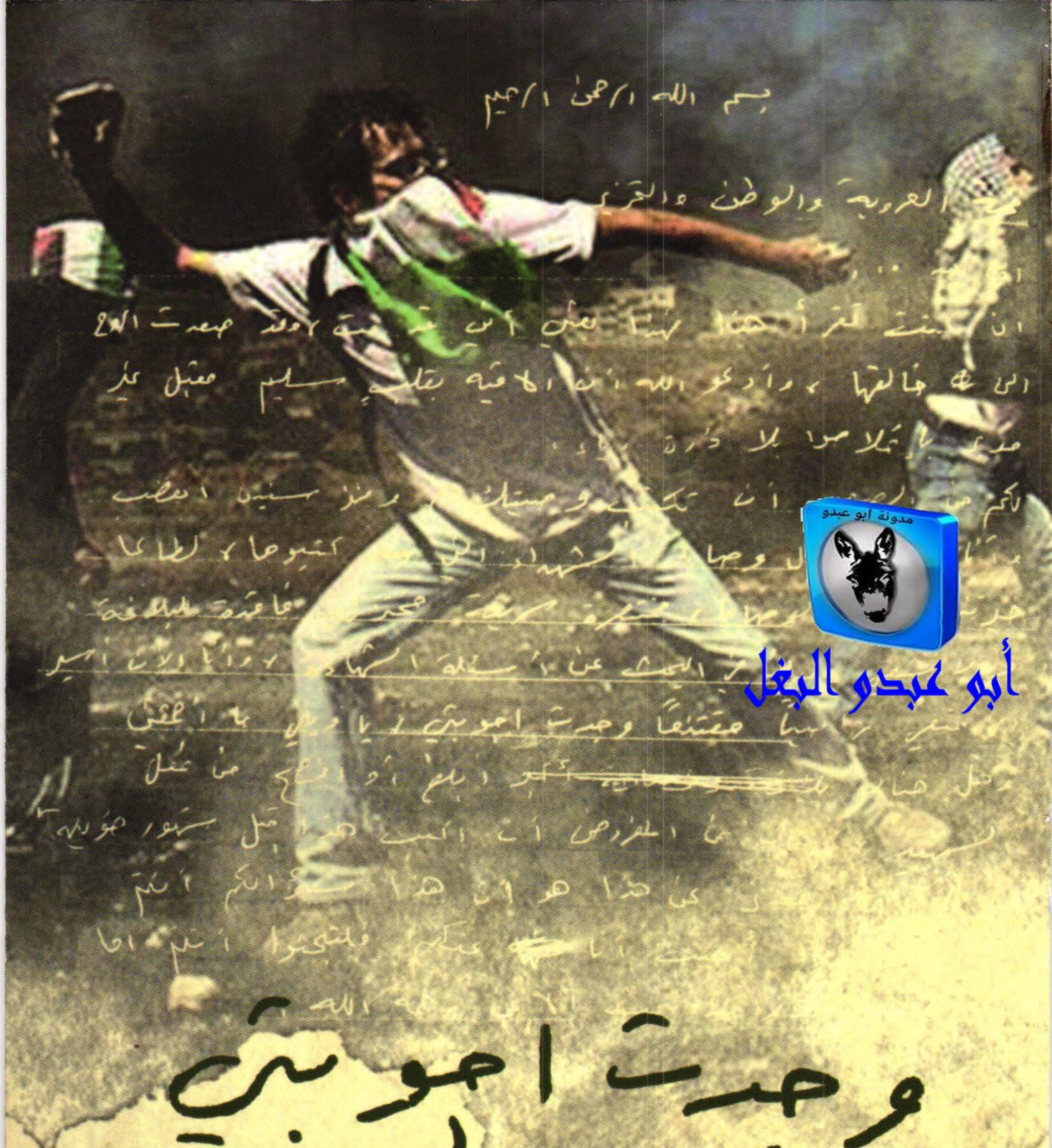


وجدت أجوبتي

هكذا تكلم الشهيد باسل الأعرج

بيسان

وجدت أجوبتي

هكذا تكلم الشهيد باسل الأعرج

بيسان

اسم الكتاب: **وجدت أجوبتي**

هكذا تكلم الشهيد باسل الأعرج

الطبعة الأولى: آذار (مارس) 2018

ISBN: 978 - 3899 - 11 - 239 - 9

الناشر:

بيسان

ص. ب: 13 5261 بيروت لبنان

تلفاكس: 00961 1 351291

E-mail: info@bissan-bookshop. com

Website: www. bissan-bookshop. com

Facebook: مكتبة بيسان للنشر والتوزيع

المحتويات

كلمات

وَجدَ أجوبته ومضى لِيولدَ من جديد

في فجر السادس من آذار، كان باسل متحصناً في سدة ضيقة، وهو الذي عاش اتساع الوطن في التجوال والحكايات، مُبادراً إلى إطلاق النار على العدوّ. في وقائع استشهاده ما يُكثفُ رحلة عمره القصير، وحياته العريضة، أطلّ في بدايتها من نافذة غرفته في قرية الولجة، على أرضه المنهوبة، وعلى الساحل الفلسطيني حيث تلتقي الأرض بالسماء "ببحر أكبر من أن يُحاصر" كما هتف يوماً في مظاهرة غاضبة على حصار غزة.

مُروراً بنشاط نضالي متواصل توّزع على كافة أشكال الممارسة الكفاحية؛ المسيرة والمظاهرة والاعتصام، والعمل التطوعي المجتمعي والتثقيف الوطني، وُصولاً إلى تجربة العمل الفدائي المسلح، تنظيماً واختفاءً، ومواجهة الاعتقال بالإضراب عن الطعام، وصعوداً إلى شهادة صاخبة مدوّية، بجسد مطرّز بـ٢٢ رصاصة وشظية. ليُوارى الثرى في قبر، حَدّدَ سلفاً مقاييسه بالتفصيل، على ربوة تطلّ على ذات المشهد الأول، حيث تلتقي الأرض بالسماء ببحر أكبر من أن يُحاصر.

الحكاية أصل الحكاية

مسحوراً بالحكايات، حكايات بلادنا فلسطين وأبطالها الشعبيين، عاش باسل حياته موّزعة على عالمين، عالم الواقع وعالم الحكاية، ولعل عالم الحكايات كان هو عالمه الحقيقي، الذي زرع بذور التمرد في شخصيته على واقع يحياه ولا يعترف بواقعيته، فالحقيقة هناك في عالمه الذي نشأ فيه من الصغر، مع حكايات الجد، عم الأب خليل الأعرج، تروي تاريخاً جميلاً وموجعاً، منسوجاً من قصص وسير الأبطال والثائرين، ورجال الهمّة العالية المُقاتلين.

كَبُر باسل وكبرت حكاياته معه، يَقُصها كشاهد لا كسامع، كأنه كان هناك في كل زمان ومكان، حيّة ملتهبة. وكبر أكثر فصار يجمع الحكايات، يلملمها ويَرحل في طلبها، من مصادرها الأولى ممن عايش وعاين أساساً، وممن كتب، يجدل حكاياته من المصدرين بخفة ومهارة. يقصّ أثر وطن مسلوب ومقاومة ملحمية فيما يرويه الناس وما خَبروه، لعل هذا ما جعله يحتفي بالملموس وينفر من المجرد، متخففاً من الإيديولوجيات، باحثاً عن حكمة الحياة في الوقائع المتحققة، يلاحقها بهمة المأسور بهوى فلسطين وأبطالها.

في نصه الموسوم "لماذا نذهب إلى الحرب؟"، وهو نص شفيف رهيف، يقطُر صدقاً وصراحة، يبوح باسل بأنّ رومانسية الحرب هي ما يجعل الذهاب إليها أمراً مرغوباً وجميلاً، يُحيل تعبير "رومانسية الحرب" إلى بطولة ترفض ما تُمليه الشروط الموضوعية من خيارات، بل وقادرة على توهين هذه الشروط والتمرد عليها. ويحيل أيضاً إلى الإيمان بالسرديات البطولية سلاحاً فاعلاً في أيدي المغلوبين في مواجهة مستعمريهم، سلاحاً قادراً على توليد "الأسلحة"، وتوالد المقاومين. لعل هذا النصّ يلمح إلى الذي أراده باسل من تجربته الفدائية الأخيرة، كان يريد أن يصنع فعلاً مقاوماً غير اعتيادي في حيثياته، يصير حكايةً أسطوريةً، تُحرِّضُ على الفعل والمتابعة.

دفعتهُ رومانسيتُهُ الثورية الحالمة، والرومانسية الحالمة صفةٌ ملازمةٌ لكل ثائر ومتمرد، إلى العودة إلى الجبل، الموطن الأول للهمم العالية والأحلام الكبيرة في الذاكرة الوطنية الفلسطينية، حيث "العزّ في رؤوس الجبال، والجبال في صدور الرجال". ولا تخلو "العودة إلى الجبل" من محاولة للتمرد على "المخيّال الاستعماري" لفلسطين كجغرافيا تمّ إخضاعها بالكامل تضيقُ بالمقاومين. "البلاد وساع" كما قال يوماً.

الصداقة والأصدقاء

تلتقي بباسل للمرة الأولى، وتفترقان كصديقين. كان باسل "ماكينة اجتماعية" لصناعة الأصدقاء، بكل فطريّة وصدق، بروح أليفة خفيفة الحضور ثقيلة الغياب. وهكذا وُلِدَ مصطلح "أصدقاء باسل"، يحيل إلى مجموعة من الصداقات العابرة للحدود الاجتماعية والطبقية والأيديولوجية، والمناطق والدول. قد تختلف على كل شيء ولكنها تلتقي على حبّ باسل وحكاياته. في هذا ما يشذ عن سير المقاومين المعتادة، حيث يغلبُ على المقاوم الاعتزالُ ومحدوديةُ دائرته الاجتماعية، وعادةً ما يكون هذه الجانب الاجتماعي هامشياً في سيرهم. ولا نتحدث هنا عن صداقات أملاها انتماءٌ حزبيٌّ أو تنظيميٌّ كما عرفته الساحة الفلسطينية تحت مسميات من الأخ والرفيق.

هذه الروح المضيافة للآخرين، وهذه القدرة التلقائية على التصادق، تشكل بحد ذاتها حالة مقاومة اجتماعية، في زمن العلاقات الرأسمالية محسوبة المردود بدقة، في مجتمع يعاني حالة من التشظي السياسي والاجتماعي نتيجة اختراق اجتماعي سلطوي واستعماري عنيف.

من هذه الكثرة الكاثرة حوله، اختار باسل مجموعته الفدائية، مكونة ممن توسم فيهم

الاستعداد للذهاب بالخيار الثوري الى مداه الأخير.

الثقافة في وظيفتها الوطنية

لا تفعل الثقافة فعلاً سياسياً مقاوماً، إلا إذا كانت مشتقة من ممارسة كفاحية، ومعبّرة عنها. تتوزع الممارسة الثقافية في سيرة باسل وشخصيته المتعددة، على انكباب على دراسة التاريخ الفلسطيني في وقائعه المفصلة، خاصة تاريخ المقاومة والمقاومين، هي استمرار لولعه بالحكايات والسيَر الشعبية، والاطلاع على التجارب الثورية العالمية ومنظريها، في سبيل الاستفادة العملية من هذه التجارب. وممارسة الكتابة السياسية الناقدة، بنَفَس ساخر لاذع في أحيان كثيرة، تنقضُ ثقافة الهزيمة والقهر والارتزاق بمصادرها المختلفة. بالإضافة إلى الكتابة البحثية التاريخية المهمومة بإيقاظ الذاكرة الجمعية الكفاحية.

مع كل هذا الانغماس في الثقافة وعمل المثقف، إلّا أن باسل كان يتطيّر من مسمى "مثقف"، والحديث عن وظيفة له عنوانها الاختصاص. يمكن القول بأن الثقافة عند باسل تتحدد بوظيفتها الوطنية بمعناها المباشر والصريح، مضافاً إليها وظيفة صياغة الذات ثورياً بالتخلق بالقيم الوطنية المُتعرَف عليها في سير الشهداء والمناضلين.

كان باسل وهو يبحث ويكتب، يبحث عن ذاته ويكتبها، هذا البحث الذي تكثف في سؤال سرّ المقاومة وينبوعها والباعث عليها، مفتوناً بلحظات التحوّل واتخاذ القرار عند المقاومين، وهو بحث استمر عشرين عاماً انتهى بجواب الشهادة.

«المقاومة جدوى مستمرة»

في الجولة الثانية من سلسلة "جولات في تاريخ المقاومة"، والتي ترافقت مع مساق تاريخ المقاومة في فلسطين، والذي تطوع لتقديمه في "الجامعة الشعبية"، تحدث باسل، بلغة يقينية تستأنس بالتاريخ، عن الاستيطان الصهيوني وعلاقته بالمقاومة مستشهداً بمثال مثلث جنين، "مثلث النار" كما أسماه، وخلوه من المستوطنات حتى يومنا هذا، لسبب أرجعه إلى مقاومة مستمرة منذ البداية حوّلت الاستيطان في تلك المنطقة إلى مشروع مستحيل، " فكل ثمن تدفعه في المقاومة، إذا لم تأخذه في حياتك، ستأخذه لاحقاً، وهذه فكرة: المقاومة جدوى مستمرة".

لم تكن المقولة شعاراً يرفع، وإنما استنتاجاً متأملاً لتاريخ المقاومة في فلسطين، من وقائعه الميدانية. تتجه هذه العبارة كَسهم إلى قلب فلسفة القمع الصهيونية، والتي تُكثفُها مقولة "الجدار الحديدي"، والتي تُحيل إلى قوة الأمر الواقع والقمع الصهيوني التي "ستساعد" الفلسطيني على الوصول إلى قناعة ذاتية بلا جدوى من المقاومة.

تَصدُرُ هذه المقولة عن وعي تاريخي بحالة مستمرة من المقاومة، وإن كانت لم تحقق الانتصار على المشروع الصهيوني، فإنها على الأقل عَطّلت، وتعطل، وصوله إلى حسم الصراع منذ أكثر من مئة عام. كما تَصدُر، عن إيمانٍ بدور البطل المقاوم في هذا التاريخ، البطل الناجي مِن خراب الزمان، والمتمرد على الزمن الخَرِب، رافعاً راية الأمل من جديد. هذا الذي عاينه باسل في بحثه الدائم عن الحبل السري الذي تتغذى منه النفوس الكبيرة في التاريخ الوطني الفلسطيني.

«فلتبحثوا أنتم؟»

في رحلته النضالية، اجتمعت في باسل مظلوميات عدة، حيّاً وميتاً؛ قمع تبعه تعذيب خسيس من قبل سلطة لا سلطة لها، لم تكتف بكشفه للعدو وتعذيبه، بل تمادت إلى البطش بأهله وأصدقائه ضرباً وتشهيراً، وانتهاء بتسجيل سابقة تاريخية بمحاكمة شهيد على وقائع استشهاده، وصولاً إلى إرهاب فرق الموت الصهيونية وتجميد جسده الشريف في أبو كبير، وهمز ولمز من نفوس سوداء مريضة، قعيدة لا تنهض إلا لنهش النفوس العالية الحليمة. مع كل هذا وذاك، انتصر باسل في معاركه كلّها، حيّاً وميتاً، وعاد، عاد ليجيء دوماً، في الـ١٧ من آذار مع تفتح شقائق النعمان، مرفوعاً على الأكتاف، عالياً، تعلو به هامات مشيعيه، مُستقبَلاً بتحية عسكرية، من أبٍ مكلوم كتوم، أعادت للتحية العسكرية شرفها المنتهك.

ترك لنا باسل وصيةً غير مألوفة، بسيطةً متخففةً من مفردات الخطابة الوطنية المعهودة، ولا تخلو من تأمل فلسفي، في معنى الحياة والوجود، والكدح في سبيل البحث عن الحقيقة والحريّة، حيث الوطن هو موطن المعنى.

ختم باسل وصيتَه بـ "فلتبحثوا أنتم". لا تُحيل الجملة الطلبية إلى "تلغيز"، بقدر ما تحضّ على الفعل والاستئناف، فقيمة فعل الشهيد لا تتحدد فقط بما أنجزه، وإنما أيضا بما أراد أن ينجزه.

كأن باسل يقول لنا: قد قمتُ بما آمنتُ به، فبحثتُ وحكيتُ وكتبتُ وتجولتُ وخططتُ ونظّمتُ واشتريتُ السلاح وتجهّزتُ واعتقلتُ وأضربتُ عن الطعام، فتحررتُ وطوردتُ وبادرتُ بالاشتباك واستشهدتُ. هذه بعض أجوبتي، فابحثوا أنتم لتستمر الملحمة، ولتستمر الحكاية...

هكذا تكلم الشهيد باسل الأعرج

الأبحاث والمقالات

الذاكرة الجريحة للنكبة

تستدعي مفردةُ النكبة إلى الذاكرةِ ذلك الحدث الجلَل الذي أصاب العرب في عام ١٩٤٨م، ولم يكن قسطنطين زريق عندما استخدم المصطلح لأولِ مرةٍ إلا مصيبًا ومحقًّا في توصيفه لهذا الحدث. فالنكبةُ تركت أثرًا ممتدًا غيّر منطقه كحدث لحظيٍّ عن ما تبعه من أحَداث؛ فالنكبةُ حدثٌ ممتدٌّ ابتدأ قبل العام ١٩٤٨م ولم ينتهِ الأثر أبدًا ولا الفعلُ بمجرد قرار الهدنة؛ فالمشاريع الإحلالية الاستيطانية الاستعمارية ليست حدثًا (حربًا أو معركةً) لحظيًّا، بل هي عملية بنيويةٌ ممتدةٌ تحاول إحلال مجتمعٍ مكان مجتمعٍ آخر.

ومفهومُ النكبةِ الذي يعتبرُ تجسيدًا مستمرًا لمأساة الفلسطينيين صنع حولهُ الفلسطينيون ذاكرتين من حيث الموضوع والأفراد والجماعة، أمّا من ناحية الموضوع فقد تأسّست لدى الفلسطينيين ذاكرةٌ جريحةٌ تحمل في ثناياها الجرائم التي اقترفها العدو في الشعبِ وتحمِل أيضًا في ثناياها حجم الخسارةِ التي خسرها الفلسطينيون، وذاكرةٌ بطولةٍ وتضحية تحملُ في ثنايا الفعلَ البطوليّ الذي قام به العربُ ومن ساندهم من قلّةٍ قليلةٍ منّ أحرارِ العالم في سبيلِ الدفاعِ عن الأرضِ والوطن.

ومن ناحيةِ أخرى، فقد ولد عند الفلسطينيين ثلاثةُ أنواعٍ من الذاكرةِ والروايةِ حول النكبة، روايةٌ فرديةٌ يحملها الأفرادُ الذين عايشوا النكبة وقد ورث سلفُهم تلك الرواية، لتذوب تلك الروايةُ الفردية في ذاكرةٍ "جماعية"، ولتشكّل حصيلةُ الذاكرات "الجماعية" ذاكرةً "جمعيةً" واحدة.

وقد "فرّق مورس هلبواكس بين الذاكرةِ الجمعية والجماعية، فبالنسبةِ إليه فإنّ الذاكرة الجماعية هي ذاكرةٌ تخصُّ جماعةً معينةً بالمجتمع، أمّا الذاكرةُ الجمعيةُ فهي تلك الذاكرة التي تجمعُ ذاكرات الجماعاتِ المختلفة، أي أنّها عبارةٌ عن مجموعةٍ من الذاكرات الجماعية". (زايد، ٢٠١٣، ٢٧)

ويلاحظُ الدارسُ للروايةِ الشفويةِ الفلسطينية حول النكبة أنّها تنطلقُ من الحديث حول الحياةَ في القرية /المدينة قبل الهجرة، ليغلبَ على الرواية تصويرُ فلسطين على أنّها الفردوسُ المفقود أو الجنّةُ التي فقدها الفلسطينيون، مع أنّ ذات الرواية لا تخلو من

الحديث عن الفقر والتّعب والكدّ الذي كان يعانيه الفلسطينيُّ قبل النكبة نتيجةَ البُنيةِ الاجتماعية والاقتصادية والسياسات الاستعمارية الظالمة، ويرى صالح عبد الجواد أنَّ هذا الأمر جاء من بابِ الشعور الحقيقيِّ بعِظم الخسارة والذي يتقاطعُ أيضًا مع موضوعِ المسؤوليةِ عن الخسارة والهزيمة، فلا يتردَّدُ الفلسطينيون في تحميلِ العالم كلّه مسؤوليةَ مأساتهم وحتى تحميلِ ذواتِهم والتبخيسِ أيضًا من نضالهم وجلدَ الذات نتيجةَ الإحساس بعِظم الفقد الذي عانوه.

وإن كان الجيلُ الأولُ من اللاجئين حمل ذاكرةً مختلطةً حول الوطن والقرية تجمع ما بين الشقاء والسعادة، إلا أنّ الأجيال الأخرى قامت بجعلِ رواية السعادة المفترضة في الوطن المفقود طاغيةً على روايةِ الشقاء والفقر، ليتمَّ رسمُ صورةٍ ليست دقيقةً أبدًا حول فلسطين.

وما بعد ٦٧ عامًا ما زال الفلسطينيون يحملون قراهم ومدنهم في شتاتهم إمّا بأسماء الأبناء والبنات أو يافطات المحالّ أو حتّى بالمحافظة على بقايا التشكيل الاجتماعيِّ الأصليِّ للقرية الفلسطينية، فقد سكن اللاجئون في المخيمات، كلُّ قريةٍ في جهةٍ من المخيم، وكذلك كلُّ حمولةٍ وكلُّ عائلة، وحملوا تراثهم وعاداتِهم وتقاليدهم معهم إلى شتاتهم وإن كان ذلك التراث تعرَّض لنوعٍ من التثاقُف أو التلاقُح مع القرى والمدن الأخرى.

يتناولُ هذا البحث الاستكشافيُّ الجانبَ المباشر من الذاكرة الجريحة للفلسطينيين حول النكبة، فمنَ الصعب تماماً حصرُ الجراح التي تركتها النكبةُ في الفلسطينيين لثلاثِ أسباب، الأوّلُ لأنها حدثٌ مستمرٌّ لم ينقطع، والثاني لأنَّ كلَّ جماعةٍ وكلَّ فردٍ حمل في داخله من الجراحِ التي يصعبُ تناولها وحصرها، والثالثُ هو أنَّ كلَّ حديثٍ عن فلسطين وكينونتها قبل النكبة يحملُ في طيّاته وجَعًا وجرحًا ولن نذهب لحصرِ الخسائر الاقتصادية، الاجتماعية، والثقافية للمجتمع الفلسطيني، لذلك سنتطرقُ فقط للذاكرة الجريحة المباشرة. والذاكرةُ الجريحةُ للفلسطينيين حول النكبة تتحدثُ عن الفعل المباشر للعدوِّ في الفلسطينيين، فهي تنقسم إلى أحداثِ الحرب، وأدواتِ الإبادة والمجازر وسببِ الخروج، والمسار الطويل إلى المخيمات وما رافقه من معاناةٍ وألم.

وأسفرت النكبةُ عن فقدان ٧٨٪ من مساحةِ فلسطين الانتدابية وتدمير ٥٣١ قرية ومدينة فلسطينية وتطهيرها عرقيًا، وتهجير ٨٠٥،٠٧٦ فلسطينيًا، و "اقتراف ٣٥ مجزرةً موثّقةً مع أنَّ المجازر فاقت الـ١٠٠" (أبو ستة، مقال)، واستشهاد ١٦،٧٢١

ممّن قاتلوا في صفّ الفلسطينيين، وهؤلاء ممّن عُرفت أسماؤهم أو أعدادهم أو مواقعُ استشهادهم أو تاريخ الاستشهاد أو اسم القرية (العارف، ١٩٥٨، ٩).

يقدّم البحث عدّة سيَر مكانية ومحاورَ قصصية، ليكون المكانُ هو محور القصّة ويغيبُ عن البحث السيَر الذاتية للظّرف الموضوعيّ لمحتويات البحث؛ حيثُ أنّ الحدث كان أكبرَ بكثيرٍ من أن يتمّ اختزاله في سيرة فرد، وأنّ الأفراد المذكورين في البحثِ لم يقدّموا ذواتهم إلا على أنّهم شهودُ عيانٍ على النكبة، ليتجاوز في روايته ما هو فردي.

قدّم البحثُ ثلاثَ سير مكانية ومحورًا قصصيًّا حول المجازر؛ الطنطورة ودير ياسين و الدوايمة، وثلاثة محاورَ قصصية حول أدوات الإبادة، الإبادةُ بالحرق في طيرة حيفا، والإبادةُ بالحرب الجرثومية في عكّا، والإبادةُ عبر مسيرةِ الموت في اللّد والرملة.

ميزان القوى بين العرب والحركة الصهيونية

عشيَّة بدايةِ الحرب كان تعدادُ القوّات الصهيونية ٥٠ ألف مقاتلٍ مسلّحين جيدًا وبمساندة سلاح جوٍّ وسلاح بحرٍ ووحدات دبابات ومدفعيّة، وكانت بمواجهتهم مجموعاتٌ فلسطينية شبه نظامية لا يتجاوز عددها ٧٠٠٠ مقاتل، ومجهزين بأسلحة رديئة مع غياب الهيكلية والهرمية القيادية، بالإضافة إلى ٣٠٠٠ آلاف متطوع عربيّ، وعشرات المتطوعين الألمان والأتراك والباكستانيين واليوغسلاف والأفارقة وعدد قليل من الإنجليز. وبعد ١٥ أيار ارتفع تعدادُ المقاتلين الصهاينة إلى ٨٠ ألف جنديٍّ ودخل إلى فلسطين ٥٠ ألف جنديٍّ عربي.

ونشطَ على هامش القوّةِ العسكريةِ الصهيونية مجموعتان مقاتلتان؛ الأرغون التي انشقّت عن الهاغاناه عام ١٩٣١م وكان يقودها مناحم بيغن، ومجموعة "شتيرن" التي انشقّت عن الأرغون عام ١٩٤٠م. وكان هناك وحدات كوماندوز صهيونية تمّ إنشاؤها عام ١٩٤١م باسم البالماخ.

مراحل تطور الاستراتيجية الصهيونية في النكبة

خلال العشرة أيام الأولى بعد قرار التقسيم كان الفعلُ الصهيونيّ يراوحُ في مكان عملٍ هجمات انتقامية ضدّ الفلسطينيين، حتى ١٠ كانون أول ١٩٤٧م انتقل الفعلُ الصهيونيّ نحو الانهماك في حملة تخويف منهجية، وبدأت بحملة تهديدات منسّقة جيداً، فكانت مجموعاتٌ من الهاغاناه توزّعُ منشوراتٍ تهدّدُ القرى بعدم التعاون مع جيشِ الإنقاذ،

وقامت وحداتٌ خاصّةٌ باقتحام القرى والبحث عن المتطوّعين، وكانت لا تتردَّدُ بإطلاقِ النار بشكلٍ عشوائيٍّ في حال وجدوا أيَّ مقاومة، وسُمِّيت تلك العملية بـ "الاستطلاع العنيف"، وكانت الفكرة هي دخولُ القرى غير المسلّحة وغير المحصّنة مع بدايةِ الليل والبقاءُ فيها لبضعةِ ساعاتٍ وقتل كلِّ من كان يخرج من بيته في محاولةٍ لإظهار القوّة والتأديبِ والانتقام وبثِّ الذعر.

وفي ١٧ كانون أول ١٩٤٧م اجتمعت الهيئة الاستشارية الصهيونية وقرَّرت القيامَ بمزيد من العملياتِ والانتقال إلى مرحلةٍ جديدةٍ، والتي تشملُ تدمير قرًى وطرد أهلها، واختيرت حيفا لتكون الهدف.

كان يسكن حيفا ٧٥،٠٠٠ عربيٍّ مقابل ٢٠ ألف صهيوني، واتّخذ اليهود من الهدار مسكنًا لهم، فقد استوطنوا حيفا في أعلى الجبل؛ لتكون الأحياءُ العربيةُ في نهايةِ سفح الكرمل، وعمد الصهاينةُ إلى دحرجةِ براميل ممتلئةً بالمتفجرات والكرات الحديدية باتّجاه الأحياءِ العربية الأقلِّ ارتفاعًا من ناحيةِ طبوغرافية، وصبُّوا نفطًا ممزوجًا بالبنزين على الأحياءِ العربية، ليتحول الفلسطينيون الذين حاولوا إطفاء النيران إلى أهداف تحصُدها الرشاشاتُ الصهيونية، وتعمّدوا إلى تفخيخ السيارات وتفجيرها في الأحياء العربية في المدينة، بالإضافة إلى إلقاء القنابل على التجمعات العربية، وصدر في حينها قرارُ محاولة تجربة تدمير قريةٍ وإخلائها، فكانت قريةُ بلد الشيخ هي الهدف، ووقع الهجوم في ٣١ كانون أول ١٩٤٧م وأسفر عن استشهاد ٦٠ فلسطينيًّا، لكن لم يتمَّ نجاح خطّة التهجير. وتزامنَ هذا مع تفجير وإخلاء حيٍّ كاملٍ في حيفا لتلحقها عمليةُ تدميرٍ لقرية حواسة المجاورة لحيفا وهجّرت ٥٠٠٠ فلسطيني.

رافق هذا أيضًا عملياتُ تفجيرٍ في مدن أخرى، مثل تفجير مبنى السِّراي في يافا وفندق سميراميس في القدس، واستمرّت الهجمات الصهيونية بنفس النمط حتى شهر شباط. ففي شهر شباط اتّخذت العمليات بعدًا استراتيجيًا في محاولةٍ أوليةٍ لربط عمليات التهجير والإبادة الجماعية مع فكرةِ ربطِ حركة المواصلات بين التجمّعات الصهيونية الرئيسية تحت مسمّى عملية لاميد هيه، وتمَّ اختيارُ قيسارية وقريتين في محيطها لتكون الهدف، في ٥ شباط تمَّ أخذُ القرار باحتلال تلك القرى وطردِ أهلها وتدميرها، ونجح العدو في احتلالِ قيسارية وطرْدِ سكانها الفلسطينيين في ١٥ شباط ١٩٤٨م لتكون أوّل قريةٍ ينجح العدو في طرد أهلها في النكبة.

في بداية آذار تم إقرارُ عملية دالت "خطة يهشواع" لتكون الخطة الرئيسية للتطهير العرقي، حيثُ قامت الخطّة بتقسيم فلسطين إلى عدّة مناطق، وقامت بتقسيم قوّات الهاغاناه إلى ١٢ لواءً وتلقّى كلُّ قائدِ لواءٍ قائمةً بأسماء القرى التي يجب عليه تدميرها وترحيل أهلها مع التواريخ الدقيقة لها.

وكانت أولُ عملية في خطة داليت عمليةُ نحشون، التي استهدفت القرى الواقعة على الطريق بين القدس وتل أبيب لتبدأ في ١ نيسان، وشهد ٨ نيسان سقوطَ قريةِ القسطل واستشهاد عبد القادر الحسيني، وفي اليوم التالي حدثت مجزرةُ دير ياسين الشهيرة، وبعد المجزرة اتَّجهت القوات الصهيونية نحو تدميرِ وطرد الفلسطينيين من المدن، فكانت طبريا أوّل المدن في عملية داليت، وتبعتها حيفا ومن ثم صفد وازدادت الهجمات على القدس، ومع دخولِ شهر أيار هوجمت عكا وبيسان، وقبل الانسحاب البريطاني من فلسطين بيومين في ١٣ أيار ١٩٤٨م تمَّ احتلالُ يافا.

وفي عشيَّةِ إعلانِ قيام كيانِ العدو أصبحت عملياتُ القتل والتهجير والتدمير أكثرَ منهجيةً، وحدثت إحدى أكبر وأشرس المجازر في ٢٢ أيار في قرية الطنطورة.

وشهدت الفترة الواقعة بين حزيران وأيلول تصاعداً في الأحداث وهدنتين وعدةَ عملياتٍ عسكرية من مثل عملية النخلة "ديكل"، التي استهدفت المجدل والناصرة وبعض جيوب المقاومةً في القرى في الجليل، وتبعتها عملية الشرطي التي احتل فيها طيرة حيفا وكفر لام وعين حوض جنوب حيفا، وجاءت عمليةُ داني لاحتلال اللّد والرملة. وما جاء شهر تشرين أول حتى كانت عملية داليت تقريبًا قد أتمَّت مهمّتها بعمليةِ "حيرام" التي استهدفت وادي عارة وستُكملُ احتلال باقي الجليل الأعلى، ومع تشرين الثاني كانت العملياتُ العسكرية انتقلت إلى جنوب فلسطين لاحتلال النقب وغزة وطردِ الجيش المصري واستمرت العملية حتى آذار ١٩٤٩م وشهدت تلك الفترة مجزرة الدوايمة (كوهين، ٢٠٠٧، بتصرف).

المجازر الصهيونية

يختلفُ المؤرِّخون حول عدد المجازر التي حدثت في النكبة، فسلمان أبو ستة يتحدث عن ٣٤ مجزرةً موثقةً وأنَّ الحقيقة تقولُ أنَّ هناك أكثر من ١٠٠ مجزرة، في حين أنَّ الدكتور خالد الصالح يتحدث عن ١١٠ مجازر موثَّقة وِفق الأرشيف الصهيوني، والبعضُ أيضاً

يتحدَّث عن ٥٠ مجزرة. ومن الواضح أنَّ سبب الاختلاف في تعداد المجازر ليس فكرةَ حقيقة حدوث الحدث بل تعريفُ الحدث كمجزرة، والسبب أنّه لا يوجد تعريفٌ قانونيٌّ أو تعريفٌ أكاديميٌّ متَّفقٌ عليه، وتتباين التعريفاتُ في المراجع القانونية من أحدها لآخر (علي، ٢٠٠٩، ١٢).

وتعتبر أشهرُ المجازر الصهيونية في النكبة هي العباسية والخصاص، الشيخ بريك وبلد الشيخ، ومنصورةُ الخيط والطيرة وسعسع والحسينية ودير ياسين وقالونيا واللجون وناصر الدين وتل لتفنسكي، وهوشة وحيفا والرامة والخيرية وعين زيتون، وبيت الخوري وعرب صبيح، وخبيزة و برير وأبو شوشة وبيت دارس والطنطورة وجمزو ومذبحة مسجد دهمش في اللّد، والمثلث والدوايمة وعيلبون وصلحة والبعنة ودير أسد وأبو زريق ومجد الكروم وأمّ الشوف والصفصاف ومذبحة جيز.

مجزرة الطنطورة

تقع الطنطورة على بعد ٢٤ كيلومترًا جنوب حيفا على الساحلِ مباشرةً وترتفع على تلٍّ صغير"٢٥ مترًا عن سطح البحر"، وكان فيها محطةُ قطارٍ ويسكنها حسب إحصاء ١٩٤٥م عدد ١٤٩٠ عربيٌّ في ٢٠٢ بيت، وكان فيها مدرسةٌ للبنين ومدرسةٌ للبنات واعتمدت القرية على الزراعة و صيد السمك.

في ٢٢ و٢٣ أيار هاجمت الكتيبة الثالثة والثلاثون في الهاغاناه (الكتيبة الثالثة في لواء إسكندروني) القرية (الخالدي، ١٩٩٨، ١٠٦-١٠٨).

في ١٥ أيار عرضَ ضبَّاطُ الاستخبارات اليهودية على أهل الطنطورة الاستسلام، إلا أنَّ أهالي القرية رفضوا العرض، وهوجمت القريةُ في ٢٢ أيار ليلًا من أربعِ جهاتٍ وهذا يخالفُ سيرَ العمليات السابقة كلها بحيثُ أنَّ العمليات كانت تهاجم من ٣ جهاتٍ لترك الجهة الرابعة لغرضٍ تكتيكيٍّ لتكون بمثابة بوابةٍ مفتوحة لطرد الناس، وجُمِعَ السكانُ على الشاطئ ثم فُصِلت الرجال عن النساء والأطفال (بأبيه، ٢٠٠٧، ١٤٥).

ويقدِّمُ فوزي محمود أحمد طنجي شهادته "جمَّعونا بالقرب من شاطئ البحر، الرجالُ على حدة، والنساء على حدة، ووُضِعَ الأولادُ والشبَّانُ الذين تبلغ أعمارهم من ١٢ عامًا فما فوق مع الرجال، بينما وُضِعَ الأصغر منهم سنًّا مع الفتيات، بعد ذلك انتقوا سبعةً إلى عشرةٍ من الرجال، وأحضروهم إلى مكانٍ قريبٍ من مسجد القرية، وهناك أطلقوا

عليهم النار.. ثم عادوا واقتادوا مجموعةً أخرى وهكذا، ليصل العددُ في النهاية إلى ما يقاربُ تسعين شخصًا.. مع كلّ مجموعةٍ كانت تذهب مجموعةٌ من الجنود، بينما كان بعضُ أهالي القرية يقفون ويشاهدون ما يجري.. بعد ذلك أخذوا كلَّ من تبقَّى إلى مقبرةِ القرية، وأوقفوهم هناك، وهمُّوا بإطلاقِ النار على الجميع.. حيث وصل حوالي خمسين إلى ستين شخصًا من سكّان كيبوتس "زخرون يعقوب"، وفي اللحظة التي رأوا فيها ما يحدث، تدخَّل عددٌ من كبار المسئولين منهم، وأوقفوا المذبحة وقالوا: كفى.."

ويضيف "هؤلاء الجنود، الذين لن أنسى ملامحَ وجوههم ما حييت، بدوا لي مثلَ ملائكة الموت، عندما وقفتُ هناك، كنت واثقًا بأنَّها اللحظاتُ الأخيرة في حياتي، وأنهم سيأتون بين لحظةٍ وأخرى ليأخذوني أيضًا، ويطلقوا النار عليّ.. لا أعرفُ لماذا فعلوا بنا ما فعله الألمان بهم.."... وينفجر العجوز أبو خالد البالغ من العمر ٧٤ عامًا، والمقيم اليوم في مدينة طولكرم فجأةً ليجهش بالبكاء وهو يقول: "كان من الأفضل لو أنِّي متُّ هناك دون أن أحمل معي هذه القصَّة حتى اليوم." (تيودور كاتس، مقابلة)

واختلفت الشهاداتُ والأبحاث في تحديدِ عددِ الشهداء في المجزرة، إلا أنَّ أقلَّ تقدير كان ٩٠ شهيداً وأكثر تقديرٍ ٢٥٠ شهيدًا، وأُجبرَ الشهداءُ على حفرِ قبورهم بأيديهم قبل قتلهم.

مجزرة دير ياسين

وقعت هذه المجزرة في قرية دير ياسين، التي تقعُ غربي القدس بتاريخ ٩ نيسان عام ١٩٤٨م على يد الجماعتين الصهيونيتين: الأرغون (التي كان يتزعَّمها مناحيم بيجين، رئيس وزراء إسرائيل فيما بعد)، وشتيرن ليحي (التي كان يترأسها إسحق شامير الذي خلف بيجين في رئاسة الوزارة، أي بعد أسبوعين من توقيع معاهدة سلامٍ طلبها رؤساء المستوطنات اليهودية المجاورة ووافق عليها أهالي قرية دير ياسين.

وراح ضحيةً هذه المذبحة أعدادٌ كبيرةٌ من سكان القرية، من الأطفال وكبار السن والنساء والشباب، عددُ من ذهب ضحية المذبحة مختلفٌ عليه؛ إذ تذكرُ المصادر العربية والفلسطينية أنَّ ما بين ٢٥٠ إلى ٣٦٠ ضحيةً تم قتلها، بينما تذكر المصادر الغربية أن العدد لم يتجاوز ١٠٧ قتلى.

عدد ضحايا المجزرة

في عام ١٩٤٨م، اتَّفق الكثيُر من الصحفيين الذين تمكّنوا من تغطيةِ مذبحة دير ياسين

أنَّ عدد القتلى وصل إلى ٢٥٤ من القرويين. ومذبحة دير ياسين تُعدّ من الأحداث القليلة التي تلتقي فيها الرغبة العربية واليهودية على الارتفاع في عدد القتلى فمن الجانب العربي، ارتفاع عدد القتلى سيؤثّر في النظرة الإنجليزية لليهود تأثيرًا سلبيًّا حسب تقدير القيادة الصهيونية، ومن الجانب اليهودي، سيقوم العدد الكبير لقتلى المذبحة على إخافة القرى العربية الأخرى ويعمل على تهجيرها طوعاً بدون استنفاذ جهد يهودي.

ففي فجر ٩ نيسان عام ١٩٤٨م دخلت قوات الأرغون من شرق القرية وجنوبها، ودخلت قواتُ شتيرن من الشمال ليحاصِروا القرية من كلّ جانبٍ ما عدا الطريق الغربي، حتى يفاجئوا السكان وهم نائمون.

قوبِلَ الهجومُ بالمقاومة في بادئ الأمر، وهو ما أدّى إلى مصرع ٤ وجرح ٤٠ من المهاجمين الصهاينة. وكما يقول الكاتب الفرنسي باتريك ميرسييون: "إنَّ المهاَجمين لم يخوضوا مثل تلك المعارك من قبل، فقد كان من الأيسر لهم إلقاء القنابل في وسط الأسواق المزدحمة عن مهاجمة قريةٍ تدافع عن نفسها.. لذلك لم يستطيعوا التقدُّم أمام هذا القتال العنيف".

لمواجهةِ صمود أهل القرية، استعان المهاجمون بدعم من قوات البالماخ في أحد المعسكرات بالقرب من القدس، حيث قامت من جانبها بقصفِ القرية بمدافع الهاون لتسهيل مهمَّة المهاجمين. ومع حلول الظهيرة أصبحت القريَة خاليةً تمامًا من أيِّ مقاومة، فقرَّرت قوات الآرغون وشتيرن (والحديث لميرسييون) استخدام الأسلوب الوحيد الذي يعرفونه جيدًا، وهو الديناميت، وهكذا استولوا على القرية عن طريق تفجيرها بيتًا بيتًا.

وبعد أن انتهت المتفجرات لديهم قاموا "بتنظيف" المكان من آخر عناصر المقاومة عن طريق القنابل والمدافع الرشّاشة، إذ كانوا يطلقون النيران على كلّ ما يتحرَّكُ داخل المنزل من رجالٍ، ونساء، وأطفالٍ، وشيوخ"، وأوقفوا العشرات من أهل القرية إلى الجدران وأطلقوا النارَ عليهم، واستمرَّت أعمالُ القتل على مدار يومين (ياسر، ٢٠٠٩، ٤٠).

قامت القوّات الصهيونية بعمليات تشويه متعمَّدة (تعذيب، اعتداء، بتر أعضاء، ذبح الحوامل والمراهنة على نوع الأجنّة)، وأُلقي بـ ٥٣ من الأطفال الأحياء وراء سورِ القرية القديمة، واقتيد ٢٥ من الرجال الأحياء في حافلاتٍ ليطوفوا بهم داخل القدس طواف

النصر على غرارِ الجيوش الرومانية القديمة، ثم تمَّ إعدامهم رميًا بالرصاص.

وألقيت الجثثُ في بئر القريةِ وأُغلق بابُه بإحكام لإخفاء معالم الجريمة، وكما يقول ميرسييون: "وخلال دقائق، وفي مواجهة مقاومةٍ غير مسبوقة، تحوَّل رجالُ وفتياتُ الآرغون وشتيرن، الذين كانوا شبابًا ذوي مُثُلٍ عليا، إلى "جزّارين"، يقتلون بقسوةٍ وبرودةٍ مثلما كان جنود قوات النازية يفعلون".

منعت المنظَّمات العسكرية الصهيونية مبعوثَ الصليب الأحمرِ جاك دي رينييه من دخولِ القريةِ لأكثر من يوم. بينما قام أفراد الهاجاناه الذين احتلُّوا القرية بجمع جثث أخرى في عنايةٍ وفجَّروها لتضليل مندوبي الهيئات الدولية وللإيحاءِ بأنَّ الضحايا لقوا حتفهم خلال صدامات مسلحة (عثر مبعوثُ الصليب الأحمر على الجُثث التي ألقيت في البئر فيما بعد) (الخالدي، ٢٠٠٧، ٦١٩-٦٢٠). [٢٠١]

مجزرة الدوايمة

في ٢٩ تشرين أول ١٩٤٨م، وبينما كان أهالي قرية "الدوايمة" في أسواقِهم أو في منازلهم على عادتهم في مثل هذا اليوم (الجمعة) من كلِّ أسبوع، ولم يكن في القرية أيًّا من مقاتلي المقاومة العربية أو أيّةِ قوة من قوّات الجيوش العربية المحاربة في فلسطين، قام جنودُ عصابات "شتيرن" و"أرجون" بحصار القرية واقتحمها آخرون، قُتل الكثير من ذكورِ القرية في سن القتال دونما ضرورة عسكرية ما، فيما لم يكن هناك في القريةِ قوّةٌ تدافع عنها أو مكامنُ نشاطِ مقاومةٍ أو مخازنُ سلاحٍ يُخشى منها (الخالدي،١٩٩٨،١٦٠-١٦١).

وأعقب المجزرة عملية نزوح كثيفة للسكّان من المنطقة خوفًا على حياتهم. وبعد أن احتُلّت البلدة جمعت العصابات ما بين ٨٠-١٠٠ من النساء والأطفال وقام الصّهاينة بتحطيم رؤوسِ الأطفال بالعصيِّ حتى أنّه لم يبقَ بيتٌ في البلدة إلا وفيه قتيل، كما تمَّ احتجازُ النساء وكبار السنِّ من الرجال داخل البيوت وحرمانهم من الماء والغذاء، وعندما حضر خبيرُ المتفجِّرات رفض هدم بيتينِ على رؤوس كبار السنِّ في القرية، ولكنَّ أحد الجنود تبرَّع بذلك وهدموا كثيرًا من البيوت على رأس الأحياء.

وبعد تسرُّب أنباء عن المذبحة، وهجوم الصهاينةِ على بعض الكهوف التي التجأ إليها السكانُ حيث قاموا بتوقيفِ ما بين ٥٠٠ عربيٍّ في صفٍّ واحدٍ وقتلوهم بنيران الرشاشات.

وبعد أن انتشرت أخبارُ المذبحة تمَّ إجراءُ تحقيقٍ صُوَريٍّ مع أفراد الكتيبة التي هاجمت البلدة، وجاء في التقرير أنَّ سكان القرية قاموا بمهاجمة مستوطناتٍ يهوديةٍ قريبة، ومساعدتهم في الهجومِ على غوش عصيون.

لقد أكَّد الجندي الإسرائيلي أنَّ الكتيبة ٨٩ تكوّنت من إرهابيين سابقين من عصابتي الأرغون وشتيرن، وشدّد على أنّ المذبحة ارتكبها قادةٌ ومثقفون... وتحوّلوا إلى مجرمينَ حقيرين... ووضع القادة الإسرائيليين عقباتٍ أمام زيارةِ البلدة من قبل مراقبي الأمم المتحدة، وبعد عدد من الطلبات تم السماح للضابط البلجيكي "هوفي" وفريقُه بزيارة القرية، وشاهد الدُّخان المتصاعدَ من المنازل وذلك لإخفاءِ الجُثث المتعفِّنة في القرية وأكد على ذلك قائلًا: "أشتمُّ رائحةً غريبةً وكأنَّ بداخلها عظمًا يحترق"، وعندما سأل الضابطُ البلجيكي عن سبب تفجير المنازل، أجاب الضابط الإسرائيلي: أنَّ بها حشراتٍ سامّة، ولذلك قام بنسفها.

وعلَّق وزيرُ الزراعة الإسرائيلي في حينه (هارون سيزلينغ) أمام مجلس الوزراء الإسرائيلي: "أشعرُ أَنَّ هناك أشياء تحدث وتؤذي روحي وروحَ عائلتي وأرواحنا جميعًا... اليهود أيضاً تصرَّفوا مثل النازيين وأحسُّ بأنَّ كياني كلَّه قد اهتز".

شهادات موثّقة عن المجزرة

بعد اقتحام العصابات الصهيونية للقرية وارتكابِ ما سبق ذكره من أعمالٍ نوردُ هنا مجموعةً من الشهادات الموثّقة على لسان عدد من العسكريين والساسةِ اليهود في إسرائيل ظهرت في السنوات التاليةِ للمجزرة في قرية "الدَّوايمة" توضِّح بعض تفاصيل ما جرى في القرية:

تبجَّح أحدُ الجنود أمام زملائه قائلًا: "لقد اغتصبتُ امرأةً عربيةً قبل أن أطلق عليها النار" طبقًا لما أورده الباحث "أحمد العداربة" في كتابه "قرية الدوايمة" من منشورات جامعة "بيرزيت"..[٣] وأفاد آخرُ أنه أجبرَ إحدى النساء من حاضنات الأطفال الصغار على نقلِ الجُثث ثم قتلها هي وطفلها. آخرون أخذوا ثلاث فتياتٍ في سيارتهم العسكرية ووُجِدنَ "مغتصباتٍ ومقتولات" في إحدى أطراف القرية.

وطبقًا لشهادة مختارِ القرية فإنَّ بعض جنود عصابة "أرجون" الصهيونية أطلقوا النار على طفلٍ يرضَعُ من صدر أمِّه فاخترقت الرصاصةُ رأسه وصدر أمِّه فقتلتهما والطفل يلثُم الثدي وبقايا الحليب تسيلُ على جانبي فمه.

وبعد هذه الجرائم فزع المتبقّون من أهالي القرية العُزّل ولجأوا إلى جامع القرية الذي أعتُبر الملجأ الأخير والمعروف بـ"جامع الزاوية"، وكان المكان الرئيسي لتجمُّع أهل القرية كما قال "إسماعيل أبو ريان" أحد رجالات "الدوايمة" في كتابه الموسوم "قرية الدوايمة" وكان يستخدم كمركز تجمُّع لأفراد الحمولة، واستقبال الضيوف، وأبناء السبيل، وللمناسبات مثل العزاء والزواج، ومركز استعلامات، وكذلك كان يقصده الشعراء والرواة.

وكان اللُّجوء في المسجد هذا التلا في خطر العصابات الصهيونية ولكنَّ العصابات الصهيونية لاحقوهم وقتلوهم داخلَه وقُدِّر عددُ الذين استشهدوا فيه "٧٥" شخصاً معظمهم من كبار السن والعجزة ممّن لم يستطيعوا الفرار على الأقدام، وأحرق المسجد بمن فيه بعد إغلاقه بإحكام خوفًا من خروج جرحَى محتملين منهُ ليشهدوا على الجريمة، وتمَّ دفنُ جزءٍ من الشهداء في حفرة قرب الجامع حيثُ كان الأهالي يحفُرون لتوسعةِ المسجد والجزءُ الباقي منهم دُفِن في قبرٍ جماعيٍّ ولم ينجُ منهم إلا امرأةً واحدةً.

وبعد ذلك قامت العصابات الصهيونية بتقييد الرجال الذين تمَّ الإمساكُ بهم بالحبالِ والسلاسل وقادهم الجنود كما تُقاد الأغنامُ ووضعوهم في أحد المنازل ومنعوا عنهم الماء ثم قاموا بتفجيرِ المنزل بالديناميت على رؤوسٍ من فيه وتمَّ كشفُ تفاصيل المجزرة عام ١٩٨٥م من المرحوم الشيخ حسن محمود هديب مختار القرية السابق للصحف الإسرائيلية.[٤]

شهادات دولية عن المجزرة

في ٨ تشرين ثاني وصل فريقٌ من مراقبي "الأمم المتحدة" إلى القرية برئاسةِ ضابطِ الصفِّ البلجيكي "فان فاسن هوفي" بصحبة مجموعةٍ من العسكريين الإسرائيليين، وعندما طلب أحدُ المراقبين الدخول إلى المسجد المغلَق تم منعه بحجّةِ أنّ للمسجد قدسيةً عند المسلمين ولا يجوز دخولُه لغير المسلم.

ولكنَّ المراقب شاهد دخانًا يتصاعدُ من المسجد فاقترب من النافذةِ وشم رائحة جُثث بشريةٍ تحترق وعندما سأل الضابط اليهودي المرافق عن الدخان والرائحة الكريهة تمَّ منعه من إكمال التحقيق، وعندما سأله عن منزلٍ كان يُعدُّ للنسف، عن سبب ذلك قال له: "المنزلُ يضمّ حشراتٍ طفيليةٍ سامّة ولذا سنقوم بنسفه"(بابيه،٢٠٠٧).

ولم يُسمح لفريق الأمم المتحدة بزيارة جنوب القرية بحجة وجود الألغام... مدّعين أنَّ سكان القرية قد هربوا قبل أن يصل الجيش الإسرائيلي إليها.

ضحايا المجزرة

يتباين عددُ شهداء مذبحة الدوايمة وفقًا لتقديرات العرب و"الأمم المتحدة" والاحتلال الإسرائيلي ما بين ٧٠٠ إلى ١٠٠٠ مواطنٍ عربيٍّ عدا الذين كانوا يحاولون التسلّل للقرية لأخذ أمتعتهم وطعامهم بعد أيامٍ من حصول المجزرة.

عكا: الحرب الجرثومية في النكبة

بعد سقوطِ حيفا في ٢٢ نيسان ١٩٤٨م، تدفّق آلاف اللاجئين من حيفا إلى عكا، وازدحمت بسكّانها، وكانت لا تزال تحت الحماية البريطانية. وفي الأسبوعِ الأوّل من أيار، بدأت القواتُ الصّهيونية بمحاصرة المدينة، ثمّ أطلقت عليها وابلاً من قنابل المورتر، وكانت مياهُ الشرب تصلُ إلى المدينة من قناة تأتي من القرى الشمالية قرب كابري التي تبعد ١٠ كم عن عكا، و تُعرَف في بعضِ مواقعها بقناة الباشا.

وتعترضُ طريق القناة إلى عكا مستعمراتٌ صهيونية، شرقي و غربي المزرعة التي تبعد حوالي ٦ كم عن عكا. وفي نقطة ما عند القناة، حقن الصهاينةُ المياه بجرثومة التيفوئيد، وسرعان ما انتشرت حُمّى التيفوئيد بين الأهالي والجنود البريطانيين.

ويقول تقريرُ الصليب الأحمر رقم (٨٢/GC، G٣/١/G٥٩) أنّه يوم ٦ أيار ١٩٤٨م توجّه مندوبُ الصليب الأحمر «دي ميرون» من حيفا إلى عكا بصحبة الدكتور ماكلين طبيب الصحة لتفقّد أحوالِ اللاجئين بعد تفشّي التيفوئيد بينهم.

وجاء في التقرير: "إنّ الوضع خطير، وأنّ تفشّي المرض شمِل المدنيين ورجال الجيش والشرطة". وقال البريجادير بفردج مدير الخدمات الطبّية العسكرية، إنّ هذه أوّلُ مرّةٍ يحدث فيها هذا الوباء في فلسطين (رغم حالات النزوح والهلع بين السكان في أنحاء فلسطين). وقال التقرير إنّ هناك خوفًا أن ينتشر الوباءُ عن طريقِ اللاجئين المتّجهين إلى لبنان. وفي أوّل إحصاءٍ يقول التقرير إنّ المصابين ٧٠ مدنيًا و٥٥ بريطانيًا، وإنّ هذا هو الحدُّ الأدنى للإصاباتً لأنّ كثيراً من السكّان يخشون الإبلاغ عنها. (بابيه، ٢٠٠٧)

وفي نفس اليوم عُقد اجتماعٌ موسّعٌ في مستشفى الصليب الأحمر اللبناني في عكا حضرهُ البريجادير بفردج والكولونيل بونيت عن الجيش البريطاني، الدكتور ماكلين عن الخدمات الطبّية المدنية و"دي ميرون" عن الصليب الأحمر والمستر كينيون قائم مقام

القضاء، والسّيد حكيم حاكم صُلح عكا والأطباء دهان والأعرج من الصليب الأحمر اللبناني ومهندسو البلدية وآخرون، وقرّروا الآتي: لقد انخفض عدد سكان عكا من ٢٥،٠٠٠ إلى ٨٠٠٠، (بسبب النزوح)، واكتُشفت ٧٠ حالةً من الإصابة بالتيفوئيد.

وقرّر الحاضرون أنّ "الوباء محمولٌ بالمياه" وأنّ هناك حالات كثيرةً مختفيةً وأخرى متفرّقةً بين القرى. وتمَّ تنظيم عملية تطعيم لكلِّ الأهالي ورشّ المدينة بالمطهِّرات وتعقيمِ المياه وتجهيزِ كلّ المستشفيات الخاليةً وأخرى مؤقتة لاستقبال الإصابات، و تحديداً تنقل الأهالي. كما قرّر الحاضرون عدم استعمال مياه القناة، واستعمال الآبار الارتوازيّة والمياه من المحطّة الزراعية شمال عكا بدلًا من ذلك.

ووافق الجنرال ستوكويل في حيفا على طلبِ الصّليب الأحمر بإرسال طائرة خاصّة إلى القدس لإحضار عقاقيرَ طبية. وفي تقرير مؤرَّخ في ١٢ أيار، ذكر مندوبٌ الصليب الأحمر أنَّ الحالة ازدادت سوءًا، وأنَّ الكهرباءَ انقطعت عن المدينة، وأنَّ غياب رئيس البلدية الذي سافر إلى بيروت أضعفَ من السلطة المحلّية، وأنّه رغم إلحاحِ الصليب الأحمر فإنَّ البلدية لم تتمكّن من إصلاحِ قناة المياه "التي هي مصدرُ الوباء"، وأنّ نتيجة الوباء هي "منع الأهالي من العودةِ إلى ديارهم".

وفي تقريرِ بتاريخ ١٣ أيار، يذكرُ المندوب عدم تمكُّن السلطات البلدية - خصوصًا بغياب رئيس البلَدية - من وضعِ حدٍّ لنزوح الأهالي من المدينة، و يمدحُ الأطبّاء و الممرضين التابعين للصّليبِ الأحمرِ اللبناني بعملهم الإنساني الكبير، و قد جاء ليساعدهم الدكتور دباس من يافا والسيدة بهائي من حيفا.

وفي تقرير ١٦ أيار، يشرحُ المندوب كيف اشتدّ هجوم الهاجاناه على المدينة بالمدافع وقذائف المورتر، وطافت سياراتٌ إسرائيليةٌ بها مكبّراتُ الصوت تنادي "أمامكم الاستسلام أو الانتحار، سنبيدكم إلى آخرِ رجل". ممّا أدّى إلى سقوطِها بتوقيع بعض وجهاءِ المدينة على وثيقة الاستسلام.

وبدأت حالةٌ من الإرهاب الصهيوني تعمُّ المدينة، فاعتُقل كلُّ شابٌ وشيخ واعتُبر أسير حربٍ حتّى لو كان مدنيًّا، وانتشرت عملياتُ النهب في المدينة وهامت النّساء والأطفال بدون مأوى وطعام.

وحقّق الصليبُ الأحمر في صحةِ واقعة اغتصاب صبيّةٍ أمام أهلها على يد عددٍ من جنود الهاجاناه، وجاء في تقريرٍ مفصّلٍ "للفتنانت" بيتيت مراقب الهدنة الذي زار المدينة بعد سقوطها أنَّ عملية نهبٍ منظمةٍ لمحتويات المنازل قام بها اليهود لاستعمال المهاجرين الجدد ولمنع الأهالي من العودة.

وقال أنّ اليهود اقترفوا مذبحة سقط فيها ١٠٠ مدنيٍّ، خصوصًا من سكّان المدينة الجديدة الذين رفضوا النّزوح إلى المدينة القديمة حسب الأوامر الإسرائيلية، ويذكر قصّة محمد فايز صوفي من هؤلاء الذين رفضوا الانتقال. لقد نجا محمد بأعجوبة ومات ثلاثةٌ من زملائه بإرغامهم على شربِ سمّ السيانيد ثمّ أُلقيت جثثُهم في البحر (أبو ستة).

الاغتصاب

لا نملك أرقامًا دقيقةً حول حالات الاغتصاب في النكبة، إلا أنّ بعض المصادر تشيرُ إلى أنّ هناك ١٨ حالةً موثقة، والمصادر التي تمنحنا هذه المعلومات، هي التاريخ الشفوي للاجئين كما حدث من شهادات نساءٍ من الطنطورة، وتوثيق الأمم المتحدة والصّليب الأحمر كما وثّقت لحالات اغتصاب في يافا أو في قرية الشوكة التحتا، والمصدر الأخير هي الأرشيفات الصهيونية حتّى أنَّ بن غوريون قام بذكر حالةٍ في مذكراته (كوهين، ٢٠٠٧، ٢٣٦-٢٣٧).

قرية الطيرة: الإبادة بالحرق

تقع قرية الطيرة على بعد ٧ كم جنوب حيفا، وهي ثاني أكبر قرية في المنطقة (٦٠٠٠ نسمة عام ١٩٤٨م) بعد إجزِم، ويزرعُ أهلها الحبوب والفواكه، وكانت مشهورةً باسم طيرة اللّوز لكثرةِ أشجار اللوز فيها.

تعرّضت القريةُ لعدة غاراتٍ يهودية منذ إعلان مشروع التقسيم وبعد سقوط حيفا، وساعدت القوات البريطانيةً على إخلاءِ بعض السكان على دفعات، وصمدت القريةُ للحصار لمدّة شهرين مثلها مثل عين غزال، وبقيت جزيرةً عربيةً بعد احتلال كلّ ما حولها إلى أن سقطت في ١٦ تموز ١٩٤٨م بعد هجوم من البرّ والبحر عليها. ودخلتها قوّاتُ اللواء الكسندروني وذلك قبل يومين من إعلانِ الهدنة الثانية في ١٨ تموز.

من واقع شهادة الشهود النّاجين، والمسجّلة في ملف الأمم المتحدة، يمكنُ إعادة ترتيب حادث حرق الأهالي أحياءً على الشكل الآتي: في يوم ١٦ تموز، دخل اليهود القرية بعد

أن سقط ١٢ شهيدًا منها. انسحب المقاتلون الشباب إلى خارج القرية، وبقي كبار السنّ الذين استسلموا للجيش الغازي، ثم نقل اليهود حوالي ٣٠ شخصًا من متوسّطي العمر إلى عكّا، ولم يُعرف عنهم شيء (اتّضح فيما بعدُ أنّهم أرسلوا إلى المعتقل)، وبعد فترة نقل اليهود حوالي ٣٠٠ شخص في ٢٠ باصًا إلى منطقة اللجّون، وكانت ترافقُ كلَّ باصٍ مجموعةٌ من الحُرّاس اليهود يحملون مدافع رشّاشة، وقرب خطوط القوات العراقية، طردوهم في اتّجاه المنطقة العربية بعد أن أطلقوا خلفهم زخّاتٍ من الرصاص.

وفي ٢٥ تموز ١٩٤٨ (١٩ رمضان) عاد اليهودُ إلى القرية التي لم يبقَ فيها إلا العجزة وكبارُ السن، وبعضهم ضرير، ونقلوا ما تبقّى من الأهالي (حوالي ٨٠-٦٠ شخصًا) في باصات تحت حراسة يهودية قوامها ١٠-١٥ شخصًا، ووصلوا إلى منطقة شرق اللجّون حواليَ الساعة الثامنة مساءً.

وقفت الباصات على طريق العفّولة، قرب بعضِ البيوت الجديدة التي هُدِم بعضها حديثًا، وأمر اليهود الركاب أن ينزلوا ويحمل كلٌّ منهم صرّته، ويجلسوا في دائرةٍ تبعد حوالي ٢٠٠ مترٍ عن الطريق العام في حقل قمحٍ محصود، وأخبرهم أنّهم قريبون من الخطوط العربية.

سلّم الحرّاسُ هذه المجموعة إلى حراسٍ يهود من مستعمرةٍ قريبة (اتّضح أنّها مركز شرطةٍ احتلّه اليهود، وكانت قبّعاتهم تماثلُ قبعات الشرطة). اشتدَّ العطشُ بالأهالي بعد يوم طويلٍ من السّفر في رمضان، فطلبوا ماءً ليشربوا فطلبوا منهم الانتظار، بعد قليلٍ عادوا بغالوناتٍ من البنزين وصبُّوه على الأهالي الجالسين على صُرَرِهم وعلى الحصاد الجافِّ حولهم، أشعلوا فيهم النّيران، وتركوهم يحترقون، وأطلقوا النار عندما حاول بعضُهم الهرب.

تقول رحمة إبراهيم الحاج في شهادتها: "عندما وصلنا شرقيّ اللجّون قال اليهود انزلوا من الباصات وكلّ واحدٍ يجلسُ على صرّة ملابسه على شكل دائرة، كنّا في غاية العطش وطلبنا الماء، قال اليهود بالعربية انتظروا وذهبوا في اتّجاه الباصات وعاد كل واحد منهم يحمل تنكةً وبدأوا يصبّون محتوياتها على الصُّررِ وعلى العجزة، ثم أشعلوا النّار فيهم وذهبوا.

كنتُ أصغر وأقوى من البقيّة، فلمّا شمَمتُ أنَّ السائل بنزين وليس ماءً، هربتُ من الجهة البعيدة عن النار وجريتُ واختبأتُ تحت صخرةٍ إلى الصباح، وكنت أرى النار

مشتعلةً والناس يصرخون ويستغيثون، وفي الصباح ذهبتُ إلى مكان المحرقة، وعندما وقعَ بصري على عدّة جُثث متفحّمة، استبدَّ بيَ الرُّعب، فلم أبقَ لحظةً واحدةً لأعُدَّهم، وجريتُ إلى أن وصلتُ إلى قرية زُلفة حيث وقعتُ على الأرض من الرُّعب والإعياء واعتنى بي أهالي القرية ثم أخذوني إلى جنين" (أبو ستة، مقال).

أصاب الأهالي الذعرُ والنار تأكُلهم، ولم يعرفوا أين يتّجهون في الظلام، ومعظمُهم عاجزٌ عن الحركة لكبر السن، ومنهم عاجزٌ عن الرؤية، فصاروا يصرُخون ويستغيثون، واليهودُ يراقبونهم، وكان الحرّاس يتكلّمون العربية ويقولون لهم (ما في الله)، هربَ بعضُهم وأخبروا بما جرى.

ليس من المعلوم تمامًا كم نجا من المحرقة لأنّهم تفرّقوا بعد ذلك، ولجأوا إلى مخيّمات نابلس وإربد ودمشق وصيدا، وتمكّن مراقبو الأمم المتحدة من تسجيل شهادة عشرة أشخاص من أصل ١٥ يُعتقد أنهم نجوا. أمّا الأحياءُ الذين أحرقوا فيصلُ عددُهم إلى ٥٥ كحدٍّ أقصى (أبو ستة). [٥]

اللد والرملة: مسيرة الموت

يتردَّد المصطلح ثلاثَ مرّات في التاريخ وكُلّها ارتبطت بعملية إبادةٍ جماعية؛ الأولى مسيرة المورسكيين نحو المغرب إثرَ تشريد محاكم التفتيش لهم، والثانية مسيرة قبائلَ من السكّان الأصليين في أمريكا إلى غرب الميسسبّي، والثالثة مسيرةُ اليهود إلى معسكرات الاعتقال النّازية.

جاءت عمليّة داني لتهجير وإبادة الفلسطينيين في اللّد والرملة، حيث بدأت العملية بقصف للّد من الجوّ وتبعَ القصفَ هجومٌ مباشرٌ على وسط المدينة، وإثر انسحاب القواتِ العربية وجيش الإنقاذ احتمى الرّجال في مسجد دهمش في وسط البلد مسلّحين ببنادقَ قديمة، وبعد ساعاتٍ من القتال استسلموا ليتمَّ تسجيلُ أنَّ ٤٢٦ طفلًا ورجلًا وامرأةً قُتلوا في المسجد.

وفي اليوم التالي قام العدو بتجميع ٥٠ ألف فلسطينيٍّ من سكّان اللّد والرّملة وأجبروهم على المشي باتّجاهِ الشرق، وقد أجبروا على هذا في أحرِّ أشهر السنة في أكثر المناطق حرارةً، وأوردت الصحفية كيث ويلر في "شيكاجو صن تايمز" أنّه رأت العديد من الجثث على جانبي الطريق، وأورد كينيث بيلي في نيويورك هيرالد تريبون أنه شاهد جثثَ

رجالٍ ونساءٍ وأطفالٍ عرب متناثرةً على طول الطّريق. (بابيه،٢٠٠٧، ١٩٥-١٩٨)

المصادر والمراجع

١. الموسوعة الفلسطينية.
٢. زايد، أمل، رواية اللاجئين الفلسطينيين عبر النكبة، جامعة بيرزيت، ٢٠١٣.
٣. العارف، عارف، النكبة والفردوس المفقود، الجزء السادس، الطبعة الأولى، دار الهدى، ١٩٥٨
٤. علي، ياسر، المجازر الصهيونية، مركز الزيتونة، بيروت، ٢٠٠٩.
٥. الخالدي، وليد، كي لا ننسى، مؤسسة الدراسات الفلسطينية بيروت، ط٢، ١٩٩٨.
٦. بابيه، ايلان، التطهير العرقي في فلسطين، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٠٧.
٧. تيودور كاتس، مقابلة تلفزيونية على تلفزيون الجزيرة.
٨. أبو ستة، سلمان، دراسة فلسطين وحقوق الأراضي المغتصبة
٩. صايغ، ماري روز، استبعاد النكبة الفلسطينية من دراسات الصدمة، مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد ٩٩، ٢٠١٤.
١٠. أبو ستة، سلمان. حق العودة. غزة: المركز القومي للدراسات والتوثيق،١٩٩٩
١١. شبيب، سميح، محرر.. معنى النكبة ١٩٤٨. فلسطين: المركز الفلسطيني للدراسات والنشر والاعلام، ٢٠٠٦.
١٢. عبد الجواد، صالح. ٢٠٠٦. "لماذا لا نستطيع كتابة تاريخنا المعاصر من دون استخدام المصادر الشفوية؟". في "نحو صياغة رواية تاريخية للنكبة: إشكاليات وتحديات". حيفا: المركز العربي للدراسات الاجتماعية التطبيقية، ٢٠٠٦.
١٣. شهادات شفوية من موقع فلسطين الذاكرة.

الهوامش:

[١] للاطلاع شهادة شفوية حول دير ياسين، موقع "فلسطين في الذاكرة"

[٢] شهادة شفوية أخرى حول دير ياسين، موقع "فلسطين في الذاكرة"

[٣] تفاصيل تقارير وشهادات الجنود مذكورة في كتاب

[٤] شهادة الشيخ حسن محمود هديب من قرية الدوايمة:

[٥] شهادة عبد الصمد أبو راشد من طيرة الكرمل، الدقيقة ٢:٢٠:٠٠

العونة

مقدمة

يجري استخدام مصطلح العونة كثيرًا هذه الأيام للإشارة إلى العمل التطوعيّ في فلسطين، ويتم استحضار هذا المفهوم لإعطاء تعبير عاطفيّ، ثقافيّ، تاريخيّ واستثارة الهمم من أجل نشر ثقافة التطوع في فلسطين.

تقوم الفرضية العامة للبحث على أنّ "العونة نوعٌ من أنواع التنظيم المجتمعي لمواجهة الظروف السياسية والاقتصادية الناتجة عن غياب الدولة أو مواجهة سلطة الدولة وتحديات المناخ والاقتصاد". لتأتي الأسئلة: ما هي العونة؟ ما مجالات العونة؟ لماذا اتّبع الفلسطينيون العونة؟ ما علاقة البنية الاجتماعية والظروف السياسية والاقتصادية في وجود العونة؟ كيف أثّرت العونة في الحياة الاقتصادية والسياسية والثقافية والفنية والنضالية والمجتمعية في فلسطين؟ هل المفهوم المتداول للعونة قاصر؟

يحاول الباحث الإجابة عن كثير من هذه الأسئلة كهدف عام للبحث. واتّبع الباحث المنهج التاريخي والوصفي التحليلي كمنهج رئيسيّ للبحث، واستخدم الباحث أيضًا المنهج القانوني والمقارن كمناهج ثانوية. ويعتمد هذا البحث على أدبيات مختلفة من كتب ودراسات ودوريات وإنترنت وصحف، بالإضافة إلى المصادر الأولية من مثل المقابلات. ويأتي إطار البحث زمانيًا ومكانيًا، ليكون الزمان منذ بداية القرن الثامن عشر حتّى الآن، ويتحدد مكانيًا داخل حدود فلسطين الانتدابية.

يمرّ البحث عبر عدة مباحث، يبدأ بتعريف لغوي واصطلاحي لمفهوم العونة السائد ولمفاهيم العمل التطوعي، ومقارنة المفهوم بالامتداد العربي المحيط من مثل لبنان والأردن وسوريا والعراق ومصر.

ويسلّط النظر على مجالات العونة ودلالاتها في الثقافة الشعبية من الأغنية والأمثال، وتشكيل البنية الاجتماعية للمجتمع الفلسطيني، وخصوصًا القرية التي خرج منها هذا المفهوم، وأثر العونة كسلوك في تشكيل الوعي والثقافة والتراث الفلسطيني، وتحليل ضرورات اللّجوء إلى العونة في ظلّ تلك البنية الاجتماعية؛ لتتم الإجابة لاحقًا على الأسئلة والخروج بالاستنتاجات العامة للبحث.

العونة لغةً واصطلاحًا

يأتي مصطلح العونة باللهجة الفلسطينية الدارجة لذلك لا بدّ من ردّه إلى جذره الثلاثي في اللغة الفصحى: (عَوَن). والعونُ لغةً: "الظهير على الأمر، الواحد والاثنان والجمع والمؤنث فيه سواء ... وتقول: أَعَنْتُه إعانة واسْتَعَنْتُه واستَعَنْتُ به فأعانني... والمعونة مَفْعَلَة من العون مثل المَغُوثة من الغَوْث .."[1]، "وتعاونوا واعتَوَنوا: أعان بعضهم بعضًا "[2]، "مُعِين: مساعد، مُساند، ظهير"[3].

والعونة اصطلاحًا هي "صفة ملازمة لأبناء القرية.. يقومون أيضًا في مساعدة ذويهم وأصدقائهم في موسم الحصاد وجنْي الثمار .."[4]، "فعندما كان أيّ رجل يحرث أرضه أو يجني ثماره أو يحصد زرعه ويعرف الناس أنه بحاجة إلى مساعدة إلا وتجد الآخرين قد هرعوا إليه بكلّ سرور وانشراح يشاركونه العمل، ويسمّون هذه المساعدة "العونة". وهذه كانت من أنبل وأشرف المواقف التي كان يقفها أبناء البلدة مع بعضهم البعض"[5]،"وفي عملية البناء مثلها مثل الأعمال الزراعية.

"وكان الشعب يمارسه بكافّة فئاته لأنه كما ذكرنا اعتُبر جزءًا من تراث الشعب الفلسطيني، عدا عن الدافع الديني أيضًا.. وكان الناس يتهافتون لبيت فلان من أجل عرض خدماتهم التطوعية وكان هناك أيضًا ما سُمي بالعونة في قطف الزيتون وعقد سقوف البيوت والحصاد وقلع السمسم وحصاد القمح"[6]، وهو"العمل الطوعي غير المُمأسس"[7].

وتساهم العونة في "ترسّخ قيم التعاون المتكامل لخير المجموع، وهي تساوي بين الرجل والمرأة بأبهى صورها، مما يعزّز الإنتاج ويقلل كُلفة جمع المحصول. ويشير إلى أنّ تلك الظاهرة تمثّل جانبًا مشرقًا ومضيئًا من نظام العادات والتقاليد في المجتمع الفلسطيني، وهي إحدى الطرق التي تخفّف حدة المشاكل والخلافات وتجمع ولا تفرّق"[8]، وهي "عمل خالٍ من الربح والعائد المالي". "ورغم عدم توفّر أيّ مرجع تراثي ينسب "العونة" إلى زمنٍ محدّد، إلا أنّها كسائر الظواهر الاجتماعية تبدأ بالحاجة وتتطور لتصبح حالة اجتماعية تسدُّ الفراغ الناجم عن غيابها"[9].

ويلازم الحديث عن العونة مصطلحاتٌ أخرى مثل "الفزعة"[10]، وكلمة "فزعة" مشتقة من الفعل "فَزَعَ" أي أسرع[11]، "ولقد عزّز هذا من هذا النوع من العمل الفوري اثنتين من القيم الفلاحية العميقة الجذور، وهما :الرّجولية والواجب"[12].

وتتّخذُ العونة معناها في دول بلاد الشام كما في فلسطين وفي لبنان[١٣]، والأردن[١٤]، وفي العراق أيضًا استُخدم المصطلح بما يفيدُ نفس التعريف إذ تمّ في أوائل العشرينات تشكيل "فرق العونة الموسمية لفقراء الفلاحين"[١٥].

لكن في مصر تحمل العونة معنًى آخر تمامًا مغايرًا للهلال الخصيب، "وهي عمليةٌ أوسعُ في تفاصيلها من عمليةِ زراعة الأرض الأوسية وحصادها، حيثُ تتضمّن إلى جانبِ ذلك حفرَ القنواتِ وتطهيرَ المصارف وإنشاء دار الأوسية.."[١٦]، حيث أنها كانت نوعاً من أنواعِ عملياتِ السُّخرة التي يُجبَر الفلاحون عليها.

وهناك دلالةٌ لغوية لإضافة "أل" التعريف إلى العونة؛ فتُقسم "أل" التّعريف إلى نوعين، للعهدِ وللجنس، أما الأولى فإنها للتأكيد على أنّ الأمر "يكون حاضرًا في الذهن، لذا قالوا عنها: إنّها للعهد الذكري أو الذهني"، والثانية فيُقصد بها "التعميم والشمول والاستغراق"[١٧]، وهناك دلالةٌ صرفيةٌ في صرف كلمة العون إلى "عَوْنة" فالكلمات التي تُبنى على "(فُعلة) للدّلالة على المبالغة والتوكيد"[١٨].

العمل التّطوعي

هناك عدّة تعريفاتٍ للعمل التطوعي:

١. "هو الجهدُ الذي يبذلهُ أيُّ إنسانٍ بدون مقابلٍ لمجتمعه وبدوافعَ منه للإسهام في تحمُّلِ مسؤوليات المؤسَّسات الاجتماعية التي تعملُ على تقديم الرّفاهية الإنسانية على أساس أنّ الفرص التي تتهيّأ لمشاركة المُواطن في أعمالِ تلك المؤسسات الديمقراطية ميزةٌ يتمتّعُ بها الجميع وأنّ المشاركة تمثّل نوعاً "من الالتزام بالنسبة لهم"[١٩].

٢. "هو ما تبرَّعَ به الإنسانُ من ذاتِ نفسه ممّا لا يُلزِمُه وغيرُ مفروضٍ عليه"[٢٠].

٣. "الجهدُ أو النّشاط الذي يقومُ به المواطنُ بدافعٍ ومبادرةٍ والتزامٍ شخصيٍّ ذاتيٍّ من أجلِ تعزيز المسؤولية الاجتماعية، ويساعدُ الآخَرين ويُسهم في تَحقيق حياةٍ أفضل. ويمكن الإضافة على هذا التعريف من التجربة الفلسطينية: أنّه النّشاط الذي يهدفُ لخدمة وبناء المجتمع والقضية الوطنية التحرُّرية"[٢١].

مجالات العونة

مداهمةُ الوقت والحاجة إلى أيدٍ عاملة أكثر هما العاملان الأكثر تأثيرًا على تحديد مجالات العونة كما تَرِدُ في المصادر والشهادات. فينحصرُ الحديث تقريبًا عن مجالات العونة:

- في حصاد القمح وقطف الزيتون: وذلك خوفًا من هطول المطرِ قبل الانتهاء أو من فساد المحصول، ولا تتمّ عادةُ العونة في كلّ مراحل الزراعة من تهيئة الأرض والحراثة والتسميد والتّقنيب، بل تكادُ تنحصرُ في قطف المحصول، وكانت تجري عادةً في مناطقَ كثيرةٍ في فلسطين بأن يتمّ تقديم المهلّبية والهيطلية كغداءٍ للعَوْنة.
- في البناء: وتحديدًا في مرحلة "العقد" لضروراتٍ هندسية تفرضُها طبيعةُ البناء والمواد المستخدَمة التي يجبُ أن تتصلّب في وقتٍ متقاربٍ لمنع حدوث أيّ تشققات في السّقف، لذلك تحتاجُ إلى أكبر عددٍ من الأيدي العاملة، ولا تتمُّ العونة في التحضيراتِ وجمع الحجارة وتحضير الشّيد وحفر البئر والتّشطيبات اللاحقة، وكان لزامًا على أصحاب البيت أن يُطعموا من يُعاونهم.
- صناعة الأغذية: وذُكرَ في مصدرٍ وحيد أنّ العونة تعدَّت إلى مجالٍ آخرَ وهو صناعةُ بعض أنواع الأغذية التي تتطلّبُ جهدًا كبيرًا[٢٢].

العونة في الأمثال الشّعبية

تأتي الأمثالُ الشّعبية من عدّة مصادر، من الحكايا ومن التّراث والدين وخُلاصة التّجارب والممارسات المجتمعية وتوصيفٍ دقيقٍ لأعماق النفس البشرية.

وتأتي الأمثالُ الشّعبية الخاصة بالعونة إمّا حضًّا على هذا السّلوك أو التّنبيه من سلوكياتٍ مغايرةٍ أو التذكير بضرورة الفعل أو التشكّي. ومن الأمثال المذكورة:

جبتك يا عبد المعين تعين، لقيتك بدّك مُعين (يُستخدم للتشكّي).

الدنيا سَداد ودين (يُستخدم للتّنبيه).

شعرة على شعرة بتصير دقن (يُستخدم لضرورة الاستعانة بالكثرة).

العونة يا فلاحين من كل بلد راجل (يستخدم للحض على العونة).

كل شيء قرضة ودين حتى دموع العين (للتذكير).

العونة هونة (في فضل العونة).

مثل ما بتراني يا جميل براك (للتذكير)[٢٣].

الأغاني والأهازيج الشّعبية

يترافقُ مع العونة الغناءُ وإطلاقُ الصّيحات والأهازيج لشدِّ عزمِ العوينة ولتقضية الوقت وللترويح على النفس والتّشجيع والشّكر والعِرفان والتّأكيد عَلى ضرورة العونة لترسيخها أكثر كقيمةٍ اجتماعيةٍ ضرورية.

فمثلًا يُستخدم في البناء:

من عاونّا عاونّاه

من عاونّا عانُه الله

حجّت الحجاج لأحمد والبعير قبل إيديه

والغزالة زارتو زارتو واختارتو[٢٤]

وفي أعمال الحصادِ وقطفِ الزيتون:

نسهر ليالينا عَ سطحِ الدّار

ونكتب أغانينا قمح وبْذار

مشوارنا بدينا ورَحْ نكمّل المشوار

نِعْشَق روابينا ونسطِّر الأشعار

عَ العونة رْبينا نلبِّي الجار

الخوّان فينا عُمْرو قصير وبْيُولي[٢٥]

وهناك اعتقادٌ شائعٌ بأنّ أصل الدلعونا يأتي من (مدّ يد العون)، إذ كلّما أراد أهلُ القرية التّعاونَ فيما بينهم لإنجاز عملٍ ما، مثل جَنْي المواسم، أو سَلق القمح أو عند البناء أو في مواسم القِطاف، كانوا يتنادون (دلعونا) طلبًا لمساعدة أهل القرية، وعند إنجازهم لهذه الأعمالِ، كانوا يعقدون حلقات الدّبكة مغنّينَ الدلعونا، وذكر زكي ناصيف أنّ الدلعونا أصلُها سِريانيٌّ مؤلفةٌ من "ال" التعريف السريانية "د"، وكلمة الـ"عونا" والتي تعني "المساعدة".[٢٦]

علـــــى دلعونـــة وعلــــى دلعونـــــة
زيتـــون بـــــلادي أجمـل مــــا يكونـــــا
زيتون بلادي واللوز الأخضر والميرامية ولا تنسى الزعتـر
وقراص العجّـة لما تتحمّـر ما أطيب طعمها بزيت الزيتونا
خبـز ملتوت وجبنـة طريـة أكلـة تدفّينـا بالشتويـــة
وصحون السحلب والهيطلية[٢٧]خلّتنـا ننّسى بـردك كانونـا[٢٨]

وهناك نمطٌ غنائيٌّ آخرُ يسمّى بالمواواة، والمواواة هي صوتٌ مرتفعٌ لشخص يعلو أعناقَ الرّجال يطلقُ فيها أبياتًا شعريةً تعبّرُ عن النّخوةِ في المساعدة في هذا الموقف.

ففي الصّداقةِ والوفاءِ يقال:
يا صاحبي ما بخليك هالواو
ما دام كيفي براسي
لاسحب سيفي وأباريك
من فوق حمرا خماسي
وفي مدح الصاحب يقال:
يا بو محمّد ما بخليك هالواو
وتظلّ في العز دايم
ميتين حمرا تباريك
من دارك لدار العزايم[٢٩]

الأثر الاقتصادي والسياسي والثقافي للعونة ومبرّراتها

سَعَت كلُّ الأديان والفلسفات ومنظومات الأخلاق إلى دَفْع المجتمعات البشريّة إلى التعاون والتكافُل وإسناد بعضها البعض، لتبْني منظومةً أخلاقيةً قِيَميةً كاملةً تُغطّي فيها البُعد المادّي المباشر لأثَر التّكافل المجتمعي، ونحنُ هنا لسنا بصَدد دراسة هذه المقولات الفلسفيّة والدينيّة والإنسانية ولا تَعداد مصادرها، بل نريدُ أن ندرس الأمرَ بوقائعِه المادّية البحتة بعيدًا عن إعطاء الأمر بعدًا رومانسيًا.

تأتي العادات والتقاليد والسّلوكياتُ التّي تتْبعُها لأيِّ مجتمع ما من الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وتأتي تلك السّلوكياتُ في محاولةٍ لمواجهة ذلك الواقع.

ويجدُر بنا لدراسة العونة -التي كانت سلوكًا مُرتبطًا بالفلاحين- أن نقومَ بتقسيم الفلاحين إلى وحدات قروية ليصبح هذا أوّلَ عاملٍ حاسم ينبغي استيعابُه من أجل فهم تنظيمِهم المجتمعيّ ووعيهم؛ فالفلاح دائمًا يشيرُ إلى قَريته في معرض تحديد هُويّته وولائه وقد صاحَبَ الفلاحين الفلسطينيين هذا حتّى إلى مخيّمات اللجوء.

وللفهم أكثر يجبُ النّظر إلى القرية كوحْدة إداريّة في العهدين العثماني والبريطاني، فقدْ ظلّت القريةُ كوحدةٍ أكثر الوسائل اقتصادًا لجمعِ الضّرائب والسّيطرة على الفلاحين، حيثُ كان الفلاحون يتعرّضون إلى سلسلة طويلة من أدواتِ القهر والاضطهاد عبر تراتُبيّة تبدأ من الحكومة المركزيّة حتّى تَصلَ إلى المشايخ والمخاتير والإقطاعيين، وكان عليهم توفيرُ الضرائب والالتزامُ للحكومة وتوفيرُ المجنّدين للجيش أحيانًا، وقد قبل الفلاحونَ بهذا الاضطهاد على أساس أنّهُ جزءٌ من قدرهم.

في تلكَ العلاقة مع السُّلطة اضطرّ الفلاحونٍ إلى الاحتيال على السُّلطة عبر تشكيل جبهة موحّدة ضدّ السلطة وتنظيم ذواتِهم أفقيًّا إمّا للمواجهة أو اتّقاء شرّ السُّلطة، فتارةً كانت تأخذُ طابع الصّدام العنيف المُباشر مع السُّلطة وتارةً تأخُذُ طابع المقاومة بالحيلة كخطاب سُفْليٍّ خفيٍّ يتبعُه سلوكٌ للاحتيال على السُّلطة. والأمرُ أبسطُ ممَّا نتصوّر؛ فتحويلُ القرية إلى وحدةٍ إدارية واحدة أوصل الناس إلى قناعة بأنّه من المستحيلِ النّجاة فُرادى وأنّ النجاةَ تكمُنُ في الخَلاص الجماعيّ، وعزّز هذه القناعة إجراءاتُ العقوبات الجماعية على القرية، ويصلُ الأمرُ عند الفلاحين للانكفاء على الذّات والمُحاولة قدر المستطاع البقاء بعيدًا عن السّلطة أو الاحتكاك بها، ونجدُ العديد من الأمثال الشّعبية والحِكم التي تُوصي بهذا، إذن فهي مجموعةُ سلوكياتٍ يتمُّ تحويها وتغليفُها بمجموعة قيم تَستقي أُسُسَها إمّا من الدّين أو الثّقافة أو الفلسفاتِ أو التّجارب السّابقة والحِكم الشعبيّة المُتواترة.

بدايةً لا بُدّ من التّنويه إلى أنّ هناك مصطلحًا أعمُّ وأشملُ من العونة، ولقد جرى استبعادُه حديثًا لأسبابٍ عديدة ألا وهو"الفَزْعة"، فالفزعة ما هو أوسعُ من العونة ومن مجالاتها حتّى تصلَ إلى ضروراتِ الدّفاع والحماية. والفَزْعةُ أسلوبُ تنظيمِ مجتمعيٍّ

أفقيٌّ قائمٌ فعليًا على تنظيم مُحكم جدًا وليسَ ردّةَ فعلٍ فوريّةٍ يلجأُ لها الفلاحون وقتَ الخطر أو الحاجة، لكنَّ مع طولِ فترة استخدام هذا النّمطَ من التّنظيم الأفقيّ المجتمعيّ تحوّل إلى نمط حياة؛ فمثلًا الإسراعُ إلى مساعدة أحد ما في فترة الحصاد ليس سلوكًا فوريًّا أبدًا، لكنّ مرور الزّمن وتقادُم هذا السُّلوك وتحوُّله إلى قيمة مجتمعية يوحي بهذا، ففعليًّا يُدرك الفلاحُ في مواسم الحصاد أنّ جزءًا من وقتهِ وجهده سيتمُّ بذلُهُ في تقديم العونة للآخرين ويبدأ التخطيطَ والإعداد لهذا قبل الموسم.

ونرى أنَّ استبعاد مفهوم "الفزعة" بعد انطلاق الثّورة الفلسطينية الحديثة، يعودُ لسببيْن رئيسيين، الأوّلُ أنّه مع اللّجوء وتفكُّك النّسيج الاجتماعيِّ وتفكُّك القرية كوحدة إدريةٍ واحدةٍ وتأثُّر الفلسطينيين بفكرة الدّولة الحديثة، اضطرّ قادةُ الحركة الوطنية في الخمسينات والستينات إلى اللّجوء لإعادة تنظيم المجتمع بوسائل التّنظيم السائدة في العالم، وكانَ الحزبُ اللينينيّ الهرميّ هو الخيار الذي اتّبعه أغلبُ قادة المجتمع، وهذا يتعارضُ مع مفهوم الفَزْعة كونها نمطَ تنظيم أفقيّ، والثاني أنّه بعد النّكبة والهزيمة تمَّ تحميلُ "الفَزْعة" المسؤوليّةَ المُباشِرة للهزيمةً؛ لأنّها تَخْلو من التّخطيط الاستراتيجيّ الذي يحتاجُ إلى مركزيةٍ في القرار.

ولكن احتاجت القيادة الوطنية الفلسطينية النّاشئة إلى استحضار مصطلح العونة لإسقاطه على مفهوم العمل التّطوعيِّ في محاولةٍ لإعطاء العمل التطوعيِّ أصْلًا تاريخيًّا وتأطيرًا قيَميًّا مُجتمعيًّا لحضّ المجتمع عليه.

اعتمد النشاط الاقتصاديُّ الرئيسيُّ للفلاحين في فلسطين على الزراعة، وكانت قبل عام ١٨٥٨م ملكيةُ الأراضي جماعيّة، حتى جاء القانونُ الذي كان فيه نوعٌ من الاستجابة للوضع القائم أصلًا، إلا أنَّهُ تمّ استحداثُ أمرين: الملكيةُ الفردية للتسجيل، وتسجيلُ الأراضي بدائرة الطّابو.

والقانون يقسِّم الأراضي لفئات الملك والأميرية والوقف والموات والمتروكة، وقد كانت أغلبُ الأراضي من ضمن فئة الأميريّة؛ أي التي تعودُ ملكيّتها إلى الأمّة وتكون حقوقُ التصرُّف كاملةً في يد من يفلحُها وحقّ الرقبة في يد "بيت المال"، وعليها مترتّباتٌ أميريةٌ كضريبةٍ سنوية.

وقد أقرّ القانونُ بأنّ من لم يفلحْ الأرض لمدة ثلاث سنوات بدون عذرٍ شرعيٍّ -الخدمة العسكرية مثلًا-، تُعتبرُ الأرضُ أرضًا "محلول"، ويعودُ للدّولة الحقُّ في التصرف بها.

وكانت أراضي المشاع قائمةً كمنظومة للتصرّف وفلاحة أراضي القرية -كان بالقرى خاصّةً-، ويتمُّ تقسيمٌ دوريٌّ للأشخاص لقطع معينة من الأرض، من كان يُحيي أرضَ الموات كان يملكُ حقَّ التصرُّف عليها (المادة ١٠٣) وذلك دون دفع أيِّ مقابل-، أمّا إذا أحياها دون إذنٍ كان عليه دفعُ قيمتها (بدل الطابو) قبل الإحياء.

وقد جاء هذا من رغبة الحكومة التركية في إقرار إصلاحات تساعدُ على تشجيع زيادة استصلاح الأراضي لزيادة الإنتاج ممّا يعني زيادة الضرائبِ ومدخولات الدولة[٣٠].

قبل ١٨٥٨م لم يكُن هناك نصٌّ قانونيّ بالملكية الفردية، بل كان الأمرُ من باب التّسليم بالشيء والواقع الذي تمَّ فرضُهُ عبرَ الزّمن. في البدايةِ كان نظامُ السيباهية، حيثُ يكونُ المكلَّفُ بجمع الضرائب في القرى أحدُ العسكر الأتراك المقيمين في المنطقة ويكونُ عليه واجباتٌ وحقوق، ومن ثمّ اتّجهت الدولةُ نحوَ منح الالتزام إلى عائلاتٍ وعشائر وقوًى محلّيةٍ ليتمّ تدعيمُ عصر الإقطاع.

غيابُ الدولة المركزيّة وقوّتها وسُلطتها تارةً دفَع إلى تسلُّط الحكّام المحلّيين والإقطاع على النّاس وإجبارهم على دفع ضرائبَ أكثر، وتارةً حضورُ الدّولة وحاجتُها إلى مداخيلَ ماليةٍ أكثر لتمويل خزينة الدّولة أيضًا دفَعَ لزيادة الضّرائب على الناس.

في مثل هكذا نظام حُكم اضطرّ المجتمعُ أن يُحافظ على وجودِه على إيجاد نظام تعاونيٍّ يساهمُ في زيادة قدرة المجتمع على تحمُّل الأعباء، فقد كان من يتأخّرُ في دفع ضرائبه يتعرَّضُ أحيانًا للعقاب الفرديّ وأحياناً يتعرضُ كلُّ المجتمع للعقاب الجماعيّ، وإذا ما تعرّض الفردُ إلى العقاب الفرديِّ كان هذا يعني إمكانيةَ الترحيل والتهجير وبهذا يتفكّكُ النسيجُ المجتمعيّ القائم، أو يتمُّ مصادرةُ الأرض التي يزرعُها، وبالمحصّلة ستخسرُ القريةُ تلك المساحة من الأرض ولن يعود أحدٌ يستفيد منها، لذلك وُجدتْ العونة لمنع هذه الأضرار من أنْ تترسّخ.

ولاحقًا في عهد الانتداب البريطانيّ تحوّل أمرُ العونة لمواجهة قوانين الانتداب السّاعية لمصادرة أراضي الفلسطينيينَ لتمليكها للحَركة الصُّهيونيّة، لتأخذَ العونة بُعدًا سياسيًا بجانب بُعدها الاقتصادي. في المحصّلة تبدو العونة على أنّها ليست -فقط- نمطًا خيريًا أخلاقيًا، بل نمطًا وجوديًا اضطرَّ المجتمعُ على إيجادها وترسيخها ليحافظ على ذاته.

وتمّ استدعاءُ هذا النّموذج مرّةً أخرى بعدَ النّكبة لمواجهة الواقع السياسيّ والاقتصاديّ، عبر نشر العمل السياسيّ تحتَ غطاء العمل الاجتماعيّ والتطوع ليُساهمَ لاحقاً في بناء قيادةٍ فلسطينيةٍ وقوى مقاومةٍ قادرةٍ على قيادة الصراعِ مع العدو.

ومن الجدير ملاحظتُه أنَّ العونة قد ساهمت في صنع الفضاء العام في القرية، أو أنّ الحاجةَ لذلك الفضاء العام قد دفع المجتمع لإيجاد العونة. فمثلًا: كانت العونة في البناء تتمُّ فقط في مرحلة العقد، ولا تتمُّ في مراحل أخرى (لاحقًا لأسباب عديدة لم تعُد العونة في البناء إلا في صناعة الشّيد)، وعندَ السؤال عن الأمر تجدُ أنَّ هناك سببًا هندسيًا لضرورة إكمال العقد في نفس اليوم لتفادي حدوث تشقُّقات، لكن ستجدُ أن سقف البيوت كان في القرى يمثّلُ فضاءً جماعيًا يملكه كلُّ سكّان القرية، فإمّا كان يُستخدمُ لضرورات عسكريةٍ دفاعيةٍ لحماية القرية حيثُ يكشفُ موقعُ القرية وتخطيطُها عن الوظيفة الدفاعيّة الّتي تؤدّيها؛ فقد كان يتمُّ اختيارُ مواقع جبليّة للقرى، وكانت طريقةُ البناء والهندسة لكافّة البيوت متينةً ومتراصّةً ومرتفعةً، وإمّا كانت تُستخدمُ سقوفُ البيوت لحاجات السّهر والاحتفالات والأعراس.

وترك هذا الأمرُ لدى الفلسطينيين حسًّا ناضجًا لمعنى البيت؛ فهو يتجاوزُ معنى السّكن ليصبح معنًى للانتماء، وترك هذا الأمرُ أيضاً بُعدًا سياسيًا حتّى اليوم، فما أن يتمّ هدمُ أيّ بيتٍ من بيوت الفلسطينيين حتّى يهبَ الناسُ لتقديم العونة لصاحب البيت، وقد ترسّختْ هذه العادةُ منذُ بدايات الانتداب البريطاني حتّى اليوم.

وأمّا في مجال الزّراعة والحصاد، فأماكنُ زراعة المحاصيل التي تدخلُ في مجال العونة، يتمُّ استخدامُ تلك الأراضي لأهداف أخرى مثل الرّعي، ولا تحتاجُ لإذن أنْ تدخلها عكس الأراضي التي لا تدخلُ في مجالات العونة.

وتركت العونة أثرًا كبيرًا على الثقافة والفنّ الفلسطيني؛ فمن الغناء والأمثال والحكم[٣١] إلى الدبكة؛ فالدبكة "بدأت في القرية حين كان الفلاحونَ يبنون بيوتهم من طين، يصطفّون ويعجنون بأقدامهم التّراب مع الماء، وهم يردّدون الأغاني الفلكلورية، صوتُ وقْع خُطاهم على الطّين وترديد الأغاني شكلًا ما يسمّى اليوم بالدبكة. ويتّفقُ الباحثونَ على أنَّ الدبكة نبعت من أعماق النّاس وحياتهم وكتعبيرٍ عفويٍّ عمّا امتاز به المجتمعُ من روح التعاون المشترك المُتبادَل وهي ليست مُلكًا لفردٍ واحدٍ بل مُلكًا للجماعة"[٣٢].

في الخاتمة، يتبيّنُ لنا أنّ العونة كمفهوم هو جزءٌ من المفهوم الأكبر□الفَزْعة□، وأنّ الأمر ليس من باب العمل التطوعيّ المُبنيّ على الخير والقيم العليا الإنسانيّة، بلْ هي نمطُ حياة وأسلوبُ تنظيم مجتمعيّ لجأت له المجتمعاتُ نظرًا للتقلب المستمرّ السياسيّ والاقتصاديّ لمواجهة التحدّيات وللبقاء والحفاظ على الوجود، وهو أقربُ ما يكونُ تنظيمًا أفقيًّا نابعًا من القاعدة المجتمعية العريضة، وقد ترسّخت هذه المفاهيمُ والسلوكياتُ في المجتمع الفلسطينيّ حتّى تُستخدم إلى هذه الأيام.

الهوامش:

[١] ابن منظور، لسان العرب.

[٢] الفيروز أبادي، القاموس المحيط.

[٣] مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، القاهرة.

[٤] أبو خيارة،عزيز، وآخرون، الولجة حضارة وتاريخ، جمعية الولجة التعاونية عمان ١٩٩٣ ص ٩٣.

[٥] الزعانين،محمود، بيت حانون تاريخ وحضارة، الفصل الثالث.

[٦] جريدة القدس، ٢٠٠٨/٢/٩.

[٧] العمل التطوعي في الأرض المحتلة: إنطلاق التراث إلى الفعل السياسي والمؤسسي، فراس جابر.

[٨] ثقافة العونة ما زالت حية في الريف الفلسطيني، فلسطين أونلاين.

[٩] المصدر السابق.

[١٠] لاجئون يستذكرون طقوس الزراعة قبل النكبة، وكالة الصحافة الفلسطينية (صفا)، ٢٠١٤,٠٥,١٩.

[١١] المعجم الوسيط.

[١٢] صايغ، روز ماري، الفلاحون الفلسطينيون من الاقتلاع إلى الثورة، ص١٥.

[١٣] علي، زين الدين، الزراعة في لبنان واقعها وآفاق تطورها.

[١٤] الفزعة الأردنية، وكالة عمون، ٢٠١٣,٠١,١٢.

[١٥] القضية الفلاحية في العراق المعاصر، الحوار المتمدن، ٢٠٠٧/٠٦/٢٦.

[١٦] الرفض والاحتجاج في المجتمع المصري في العصر العثماني، ص ١١٠.

[١٧] عفيفي، محمد، دراسة في الدلالة والوظائف النحوية، مكتبة زهراء الشرق.

[١٨] سيبويه، تحقيق عبد السلام هارون، دار سحنون، تونس ١٩٩٠.

[١٩] رحال، عمر، الشباب والعمل التطوعي في فلسطين، ٢٠٠٦.

[٢٠] غنطوس، جورج، العمل التطوعي في فلسطين ما بين النظري والعملي، جمعية الشباب العرب، ٢٠١٤، ص٩.

[٢١] جابر، فراس، العمل التطوعي في الأرض المحتلة، مجلة حق العودة، بديل، ٢٠١٢، ص٨.

[٢٢] الملبن حلوى شعبية فلسطينية من العنب مهددة بالإنقراض، نقطة وأول السطر، ٢٨, ٤٠, ٢٠١١. http://bit.ly/2Cw9zzG

[٢٣] طاهر، جمال، موسوعة الأمثال الشعبية دراسة علمية.

[٢٤] http://www.wajeb.org/index.php?option=com_content&task=view&id=688&Itemid=309

[٢٥] صفحة "اللبن الشرقية" في موقع "فلسطين في الذاكرة".

[٢٦] الدلعونا، موقع "فيوتيست".

[٢٧] كانت الهيطلية تقدم كوجبة غداء رئيسية للعوينة، وفي الأبيات السّابقة ترابطً قويً من حيث أكثر من دلالة مع مواسم قطف الزيتون.

[٢٨] صفحة قرية مرده في موقع "فلسطين في الذاكرة".

[٢٩] مصدر سابق، الولجة حضارة وتاريخ، ص١٦٢/١٦٣.

[٣٠] مقابلة مع د. أحمد أمارة مختص بالقانون العثماني للأراضي.

[٣١] ذكرناها سابقاً.

[٣٢] شريف كناعنة، مجلة التراث والمجتمع، عدد ١٨.

الكفّ الأسود

"فضلًا عن جنودٍ مجهولينَ في عصابة الكفّ الأسود وغيرها، وفي إطار تلك الظّاهرة، سيلقى شيئًا من هذا المصير من الطمس والتشويه"(عايد، ٢٠١٥، ١٧٩) لربّما هذه أفضلُ جملة لافتتاح البحث عن الكفِّ الأسود، في الحفر عن الكفِّ الأسود التي أسميت مرّةً بالمنظمة أو الجماعة أو الجمعيّة أو العصابة.

سنجدُ صعوبةً هائلةً جدًا في الوصول إلى الحقيقة نظرًا لحجم الروايات المتضاربة والمتناقضة حول طبيعة هذه الجماعة أو نشأتها أو مؤسّسها/مؤسّسيها وسنة ظهورها وما قامت به، ونظرًا لقلّة المراجع والمصادر حولَها ولغيابِ أيِّ دراسة سابقة، ولاجتهادات بعض المؤرّخين وخلْطهم بينها وبين تنظيماتٍ أخرى، بحثتُ في الكفِّ الأسوَد وأرّختُ لها.

تتّفقُ -تقريبًا- أغلبُ المصادر التي تحدّثت عن الكفِّ الأسود بأنّها "منظّمةً عسكريةً معاديةً للصهيونيّة والإنجليز، ظهرت في فلسطين في حقبة الانتداب" (Yaari، ١٩٧٠، ٤١). وقد اتّفق Yaari مع Tom Segev أنّ هذا التنظيم قام بتشكيله الشّهيد "عز الدين القسام في عام ١٩٣٠م وقد وصل عددُ أعضاء التّنظيم بين ٢٠٠ و ٨٠٠ عضوٍ مدرّبٍ في عشية ١٩٣٥م" (Segev، ١٩٩٩، ٣٦٠)، "والتي كانت تهدفُ إلى قتلِ اليهود أو إرهابِهم بشكلٍ عام في منطقة الشمال" (Kedourie، ١٩٨٢، ٦٣).

وأكّدَ الشيخ عبد الفتاح المزرعاوي -أحد أعضاء الجمعية- أنَّ "جمعية "الكف الأسود" شكّلها رفاقُ الشيخ عزّ الدين القسّام، وهدفُها تصفيةُ العملاء والجواسيس، وتحرّكت الثورةُ على حدود لبنان وتشكّلت من مجموعات، كلّ أربعةٍ يعرفون بعضهم البعض، ولا يعرفهم الباقون" (عرار، مقال منشور)، وجاءت أغلبُ المصادر على أنّ الجمعيةَ قد قادها القسّاميون بعد استشهاد عزّ الدين القسّام.

وممّا يظهرُ لنا أنّ التنظيم لم يكن تنظيمًا هرميًا، وتؤكّدُ هذه المقولة شهادة عبد الفتاح المزرعاوي الذي لم يكن يعرفُ إلا رفاقه في المجموعة، وممّا يؤكّدُ هذا أيضًا ما ذكره مصطفى كبها في دفاتر النّكبة عن الشّهيد سرور برهم: "ذلك الكمينُ الذي استشهد فيه بالإضافة للحنيطي المجاهد سرور برهم، قائد جمعية الكفِّ الأسودِ في حيفا وأحدُ

تلامذة الشيخ عزّ الدينِ القسّام البارزين.... وتفيدُ أغلبُ الروايات أنّ الذي قام بتفجير الشاحنة كان الشّهيد سرور برهم، الذي كان قد رأى استشهادَ القائد وصحبِه؛ ففضّل أن يفجّر نفسَه والشاحنة كي لا تقع غنيمةً بيد القوّات اليهوديّة. والشهيد سرور برهم من مواليد ١٩٠٣م، وقد كان قد انضمّ للفصائلِ المسلّحة التي أقامها الشيخ عزّ الدين القسّام في مطلع الثلاثينات في منطقة حيفا والشمال، وفي أثناء ثورة ١٩٣٦ - ١٩٣٩م كان مسؤولًا عن تزويد فصائل الثورة بالمُؤَن والذخيرة وتزعّم تنظيم الكفِّ الأسود الذي لاحق سماسرة الأراضي والعملاء" (كبها، من دفاتر النكبة، مقال منشور).

وذكر أيضًا كبها أنّ القسّام "خرج ومعه ١٥ عضوًا من أعضاء تنظيم جماعة الكفِّ الأسود كانوا ينتمون إلى النواة الضيّقة للمجموعة المقربة جدًّا من قائدها" (كبها، ثورة، مقال منشور). وذكر رشيد الأسعد أنّ "أحمد عبد المعطي نوفل قائدُ فصيلٍ من قادة وأبطال المقاومة الفلسطينية المسلّحة في ثورة ١٩٣٦-١٩٣٩م، من أركان وأعوان الشيخ القائد عزّ الدين القسّام في منطقة إجزِم والسّاحل، عمل مساعدًا للقائد يوسف سعيد أبو درّه (أبو العبد) ومسؤولًا عن عُصبة (الكفِّ الأسود) الاقتحامية الفدائية في المنطقة الساحلية من فلسطين، هو ومجموعته كانوا بالمِرصاد لكلِّ من تُسوّلُ له نفسُه التعاون والتعامل مع الاحتلال أو عصابات الصهاينة لطعن المقاومة أو من تُسوِّلُ له نفسُه التفريط بجزء من الأرض. وقد تمّ قتلُ أحد هؤلاء بعد توفُّر كامل الإثباتات والأدلة ضدّه" (الأسعد، قرية إجزم، مقال منشور).

وجاء أيضًا أنَّ "مجموعةً قساميّةً صغيرةً شكّلت مجموعةَ الكفِّ الأسود في دمشق، قادها الشيخ عطية أحمد عوض برفقة فرحان السعدي" (Kedourie، ١٩٨٢، ٨٠)، وقد اتّسعت القائمةُ في أعضاء الكفِّ الأسود المرتبطة بالقسّام وتلامذته لتشمل المئات.

ومن الأعمال التي تُنسَبُ إلى جماعة الكفّ الأسود التي ارتبطت بالشهيد عزّ الدين القسام ورفاقه، "أنّ الجماعةَ هاجمت أهدافًا يهوديةً بين سنوات ١٩٣٠-١٩٣٥م أسفرت عن مقتل ٨ يهود على الأقل" (Lozowick، ٢٠٠٣، ٤٨)، بالإضافة لقتل ٣ صهاينة في كيبوتس ياجور في ١٩٣١م وقتل صهيونيين في مستعمرة نحلال ١٩٣٢م، "وقتل أحمد نايف" (عرار، مصدر سابق)، "وهو شخصٌ عمل على تعقُّب جماعة القسام، وهو ضابطٌ سرّي، عمل مع الإنجليز، اغتيل في ٧/ ٨/ ١٩٣٦م من قبل مجموعة من الثوار، وقد رفض أبناءُ حيفا الصلاةَ عليه، ورفضوا دفنه في المقبرة" (زعيتر، ١٤٨).

بالإضافة لقتل الضابط أندرسون (عرار، مصدر سابق)، "ويذكرُ أنّ يوسف الشمبور كان يقومُ بتصفية العملاء بمساعدة زوجته التي كانت تلبسُ المَلاءة (غطاءٌ يغطّي كامل الجسم بالسّواد)، ومعها المسدّسُ الكاتمُ للصوت، ولم تكن النساءُ يتعرّضْنَ للتفتيش، فكان يطلقُ النار على العملاء ثم يُعطي المسدّس لزوجته ويعود بسلام. وأغلبُ عمليات التصفية كانت تُنفّذ في مدينة حيفا"، و "هاجم فصيلُ الراية السوداء (عصبة الكفّ الأسود) برئاسة قائده أحمد عبد المعطي مستعمرة (اشلوتا) ومستعمرة (ألشلاله) وقتل بعضُ أفرادِها الصهاينة" (الأسعد، مصدر سابق).

بالإضافة إلى "اغتيال حليم بسطة" (زعيتر، ٢٨٧)، واغتيال حاكم منطقة الجليل لويس أندروز يوم ١٩٣٧/٩/٢٦، بالإضافة لعمليات تفجير لسكك القطار واغتيال سماسرة الأرض وترهيب أعضاء الشرطة العرب واغتيال ضبّاط كبار ومهاجمة المستعمرات، وقد نشطت الجماعةُ في عملها في كلّ فلسطين.

وشاركت النساءُ في الكفّ الأسود "الذي نشط في منطقة القدس وبعث النساءُ الناشطات فيه رسائل تهديد للشرطة، وبعضٌ من عضواته اعتُقلْنَ وتمّت محاكمتُهنَّ في محاكمَ عسكريةٍ وسجنهنّ. وواحدةٌ من عضوات التنظيم كانت منيرة الخالدي أرسلت للسجن عام ١٩٣٧م" (عبده، مقال منشور)، ووثّقت فيحاء عبد الهادي مشاركةَ النساء في الكفّ الأسود في كتابها "أدوارُ المرأة الفلسطينية في الثلاثينيات".

ولاحظ الباحثُ أنّ هناك أيضًا مجموعاتٌ نشطت باسم الكفّ الأسود في أكثر من منطقة وفي فترات زمنية متفاوتة، بعضُها التزم بالخطّ القسّاميّ والآخرُ انحرَفَ عن الخطّ أو استغلّ الاسم، فقد ذكر إبراهيم عباس أنّ "جمعية الكفّ الأسود تأسّست في ١٩١٩م في يافا" (عباس، ٢٣، ١٩٩٠).

وعدَّدَ عباس بعضَ الأسماء التي كانت في الجمعيّة، واستندَ إلى كتاب تاريخ فلسطين الحديث لعبد الوهاب كيالي، واتّضح بعد الفحص أنّ الكاتب اختلطَ عليه الأمرُ بين جمعية الفدائية والكفّ الأسود. وذهبَ بعضُ الباحثين إلى الاستناد إلى تقرير مخابرات في عام ١٩١٩م في الأرشيف الصّهيوني أنّه عن الكفّ الأسود، والتقريرُ معنونٌ بـ(CZA Z ٤/٤..١٦، ٢٠/ ٥/ ١٩١٩)، إلا أنّه بعد الفحص تبيّن أنَّ التقرير عن جمعيةِ الفدائية.

وقال فيصل عبد الرازق -ابن القائد القسّامي عارف عبد الرازق- إنَّ الكفّ الأسود قد تأسَّست في بداية ١٩٢٠م وقد سُجن على إثرها والده من ١٩٢٣ إلى ١٩٢٦م (swedenburg، ٢٠٠٣،٩٤)، ويميلُ الباحثُ إلى الظنِّ بأنّ فيصل عبد الرازق أخطأ لما هو معروفٌ أنّ عارف عبد الرازق كان أحدَ القسّاميين ونشط في الكفّ الأسود، وكان سجنه في بداية العشرينات ليس مُرتبطًا بالكفّ الأسود.

إلا أنّ المثير في الأمر أنه ثبت للباحث أنّه كان هناك ٣ أجسام قبل ١٩٣٠م تسمّت باسم الكفّ الأسود؛ فنشرُ بيانٍ في شرق الأردن في أواسط كانونً أول ١٩٢٧م باسم الكفّ الأسود (أبو نوار، ٢٠٠٠)، كذلك في عام ١٩٢٦م تمّ نشرُ بيانٍ يدعو إلى الثورةِ في الأردن باسم الكفّ الأسود (مجلة الأديب، ١٩٧٢)، وظهرت جمعيةً في مصر في عام ١٩٢٥م بنفس الاسم.(Burdette، ١٩٩٦).

وفي نفس فترة تشكيل الكفّ الأسود التابعةِ لعزّ الدين القسّام ظهر في سوريا على يد الشيخ محمد المكّي الكتنيّ جمعيةً بنفس الاسم في عام ١٩٢٢م، وقام بتدريب ٤٠ شابًا وكانت الجمعيةُ تهدفُ إلى محاربةِ الاستعمار في فلسطين والمغرب وليبيا (مقال منشور،Al-Sayyid al-Sheikh)، كذلك نُشرَ مقالٌ عن الفلاح يوسف الزعبي الشرق أردنيّ، الذي شارك في القتال في فلسطين في الثلاثينات والأربعينات بتنظيم أسَّسهُ و أطلق عليه العدو اسم الكفّ الأسود. (الزعبي، مقال منشور).

وظهرت في أواسط الثورة أيضًا تنظيماتٌ تحملُ اسم الكفّ الأسود والتي مارست التهديد والابتزاز المالي، وذكرَ محمد عزة دروزة في مذكّراته عن أنَّ مجموعةً في يافا وأخرى في حيفا أيضًا ادّعت هذا الاسم ومارست الابتزاز والتهديد والقتل (دروزة، ١٩٩٣، ٤١٣، ٤١٧).

كذلك نشرت Jewish Telegraphic Agency في تاريخ ٣٠-٤-١٩٤٦م عن أنّ بيانًا تمّ توزيعُه في يافا وتل أبيب يحرّضُ على مقاطعة البضائع الصهيونية ويهدّدُ التجار العرب واليهود. وكان آخر ظهورٍ لاسم الكفّ الأسود في ١٧-٣-١٩٥٤م حينما قتلت مجموعةً من عربِ العزازمة المُمتدّة بين النقبِ وسيناء ١١ صهيونيًا (Morris، ١٩٩٣،٦٤).

ويرجّحُ الباحث بعد هذا العرضِ وفي ظلّ وجود عدّة أجسام حملت اسم الكفّ الأسود وعملت في فتراتٍ متزامنةٍ أو مختلفةٍ، أنّه لم يكُن هناكَ تنظيمٌ هرميٌّ متماسكٌ

اسمه الكفُّ الأسود، بل كانت هناك مجموعاتٌ وخلايا أفقيّةٌ شبكيةٌ متواصلةٌ أحيانًا (كما حالةُ الخلايا التابعة لتلاميذ القسام)، وأحيانًا منفصلة تمامًا ولا علاقةَ لها ببعضها، بل إنّ الاسم استعارته جماعةِ القسّام أو غيرهم كحالةٍ توصيفية لطبيعة العمل والمهام والتنظيم والبُنية تماهيًا مع تجربةِ الكفِّ الأسود الصِّربية التي كانتَ تدعو إلى وحدة صِرْبيا، والتي قامت باغتيالِ وريث العرش النمساوي فرانز فرديناند وزوجته في سراييفو عاصمة البوسنة والهرسك، إذ تجمّعت لتنفيذ ذلك مجموعةً من ستة أشخاصٍ هم نيديليكو كابرينوفيك، سيفيتكو بوبوفيتش، محمد باسيك، غافريلو برينسيب، ترِيفكو غاربيز وفاسو كبريلوفيك.

المصادر:

١. عايد، خالد، قصة الثائرة أبو جلدة، مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد ١٠٤، ٢٠١٥.

٢. Yaari ,Ehud,Strike Terror: The Story of Fatah, ,Sabra Books, ١٩٧٠.

١٩٩٩ .٣, Segev, Tom . One Palestine, Complete. Metropolitan Books.

٤. Kedourie,Elie , Zionism and Arabism in Palestine and Israel (RLE Israel and Palestine), frank cass, ١٩٨٢

٥. عرار، عبد العزيز، القادة الفلاحون في معمعان الثورة الفلسطينية ١٩٣٦-١٩٣٩، ٦.
كبها، مصطفى، من دفاتر النكبة .

٧. كبها، مصطفى، ثورة ١٩٣٦ -١٩٣٩ والذاكرة الشعبية الفلسطينية /

٨. الأسعد، رشيد، قرية إجزم ومقاومة المشروع الصهيوني.

٩. Lozowick, Yaacov . Right to Exist: A Moral Defense of Israel's Wars. Doubleday،.٢٠٠٣

١٠. زعيتر، أكرم، الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩٣٥-١٩٣٩.

١١. عبده، جنان، ناريمان خورشيد وتنظيم زهرة الأقحوان.

١٢. عباس، إبراهيم فؤاد، البعد الإسلامي في الحركة الوطنية الفلسطينية، ١٩٩٠م.

١٣. Memories of Revolt: ١٩٣٩-١٩٣٦ Rebellion in the Palestinian Past، ٢٠٠٣

١٤. أبو نوار، معن، تاريخ المملكة الأردنية الهاشمية، المؤسسة الصحفية الأردنية، ٢٠٠٠.

١٥. مجلة الأديب، ١٩٧٢م.

١٦. Al-Sayyidal-Sheikh, http://privat.bahnhof.se/wb٠٤٢٢٩٤Texter/bionotes/bio_kettani_m_makki.html.

١٧. دروزة، محمد عزة، مذكرات دروزة، المجلد الثاني، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٣.

١٨. ,١٩٩٦, Burdett ,Arab Dissident Movements ١٩٥٥–١٩٠٥

١٩. الزعبي، أشرف فالح، الكف الأسود.

٢٠. Morris, Benny, Israel's Border Wars, ١٩٩٣, ١٩٥٦ - ١٩٤٩

الاقتصاد في الانتفاضة

مقدمة

تهدفُ أدوات المقاومة الشعبية إلى حرمانِ العدو من ممارسة سيطرة سياسيةٍ أو اجتماعية، وإلى بناء البنية المادية القادرة على أن تكون رافعةً لوسائل وأدوات الفعل المباشر(مقاومة مسلحة، اشتباكات، تخريب)، والانفكاك من الشّرط الاستعماري كشرطٍ للتحرّر منه ومواجهته. وليس من الموضوعية ولا العقلانية القيامُ بالفصل بين أشكالٍ وأدوات وبنى المقاومة الشعبية؛ هي كلّها مكملةٌ لبعضها البعض ورافعةٌ لبعضها البعض، متداخلةٌ في الوظيفة والهدف والتأثير.

يجري العمل على ثلاثةِ محاورَ رئيسة في الانتفاضات الجماهيريّة الشعبية، المواجهة المباشرة (إضرابات ومظاهرات وعمل عسكري وشعبي وتخريب...الخ)، وتنظيم المجتمع (تشكيل اللّجان والأطر والحركات السياسية والنقابات...الخ)، والمقاومة من أجل التنمية (بناء الذات الاقتصادية والاجتماعية، الاكتفاء والاستقلالية). يقوم هذا البحث الاستكشافيّ بمحاولة التركيز على جانب "المقاومة الاقتصادية " التي اتبعها الشعبُ الفلسطينيّ في الانتفاضة الشعبية عام ١٩٨٧م.

ولأنّ الانتفاضة لم تكن معزولةً عن تبلور أدواتها من جهة، ووعي ضرورة التغيير على المستوى الشعبيّ من جهةٍ أخرى، كان من الضرورة التعريج سريعًا على بواكير الانتفاضة وسردٌ مختصرٌ بحدود الذكر للهبّات والانتفاضات الفلسطينية في الأراضي المحتلة ١٩٦٧م لغاية عشيّة الانتفاضة. ولإظهار ترابط مجالات أشكال المقاومة وتأثيرها المتبادل في بعضها البعض. لإضفاء صفة الشّمول، كان لا بدَّ من المرور على مجالات المقاومة الشعبية، إن كان سياسيًا أو اجتماعيًا أو اقتصاديًا.

ومن ثمَّ قام الباحث بتوضيح أشكال وأساليبِ المقاومة الشعبية من الالتحام الشعبي وحرب الشوارع، والمظاهرات والإضرابات والعصيان المدني. ثمّ انتقل إلى الوضع الاقتصادي والاجتماعي قبل وعشيّة الانتفاضة لفهم بنيةِ الاقتصاد المحليّ وتوضيح سياسة الدمج والإخضاع وأهدافها والكيفيّة التي قام الاحتلال بالعمل عليها، وذكر وتحليلِ آثار سياسات الاحتلال على الأوضاع الاقتصاديّة والاجتماعيّة. وقام الباحث

بالمرور على نداءات الانتفاضة واستخلاص الشقّ الاقتصادي منها، وذكر أهمّ تلك النّداءات وإظهار كيفية التدرُّج في المقاومة الاقتصاديّة والسعي لبناء وتنمية الاقتصاد الوطني. وأخيرًا قام الباحث بذكر وتحليل إجراءات الانتفاضة الاقتصادية وآثارها على المجتمع والاقتصاد.

يقع الإطار الزماني للبحث في الفترة الواقعة بين ١٩٨٧-١٩٩٣م، والإطار المكاني له في الأراضي الفلسطينية المحتلّة عام ١٩٦٧م. واستخدم الباحث عدّةَ مصادر ومراجع وكتب، مصادرَ أولية وصحفٍ ودراساتٍ وأبحاث.

سرد تاريخي للهبات التي سبقت الانتفاضة

تميّزت المقاومة الفلسطينية في داخل الأراضي المحتلة ١٩٦٧م بحالة من المدّ والجزر، وفقًا للظّروف ولاعتباراتٍ عديدة. وتميّزت بالتفاوت في مراحلها المختلفة، لتشكّل الانتفاضة الأولى قمّة سنام العمل الوطني. وشهدت هباتٍ جماهيرية وانتفاضاتٍ شعبيةً واسعةً متفاوتةً في الحجم والقوّة، وشهدت عملًا عسكريًا أو تسلّلًا من دول الطّوق، أو عبر استخدام استراتيجية المجموعات العسكرية السريّة المسلّحة واتّخاذ الأراضي المحتلة كقاعدةٍ خلفيةٍ وأماميةٍ في نفس الوقت.

ومن أهمّ الأحداث التي حدثت في الداخل المحتل ١٩٦٧م والتي أخذت طابعًا شعبيًا:

أحداث ١٩٦٧م: حدثت بعد أشهرٍ من النكسة.

هبة ١٩٧٤م: التي جاءت رفضًا للاحتلال ورفضًا للوصاية التي حاولت قوًى إقليمية فرضها.

احتجاجات ١٩٧٦م: رفضًا لمشروع الإدارة المدنية الاحتلالية.

احتجاجات ١٩٧٩م: رفضًا لاتفاقية كامب ديفيد.

أحداث ١٩٨٢م: التي تفجرت إثر قتل جنديٍّ لشابٍّ في المسجد الأقصى في ١١ نيسان.

مرحلة الطّعن بالسكاكين ١٩٨٥م.

أحداث ١٩٨٦م.

هبّة نيسان ١٩٨٧م تضامنًا مع إضراب الأسرى.

أدّت تلك الأحداثُ إلى مراكمة الخبرة والأدوات والتقنيات والتكتيكات التي اكتسبتها

الجماهير عبر الممارسة، وأسّست لرفض الاحتلال جماهيريًا ودفعت إلى مقاومته، واتّسمت بالاتّساع المكاني والزماني وشمولها كافة أنماط المقاومة الجماهيرية.

محاور قصصية

قصة العصيان المدني في مدينة بيت ساحور.

ثقافة العمل المجتمعي في قرية كفر نعمة إبان انتفاضة ١٩٨٧م.

قصة جمعية سعير التعاونية.

قصة أدوات التخريب الشعبي في الانتفاضة.

قصة تنمية الاقتصاد المحلي في الانتفاضة (مدخل ومقدمة).

مجالات المقاومة الشعبية في الانتفاضة الأولى وبواكيرها

المجال السياسي

شملت نشاط جميع المنظّمات الجماهيرية والشعبية من خلال تنظيم الأكثرية العُظمى من قطاعاتها الشعبية؛ للوصول إلى تنظيم جماهيريٍّ شعبيٍّ مرتبط عضويًا بالتنظيم السياسي الذي يقوم بتعبئتها واستقطاب المزيد. وحدّدت عددًا كبيرًا من المهام المرتبطة بتلك القطاعات لاستثمار جهود كل فردٍ ممكن، وساعدت تلك القطاعات في الرّبط بين التنظيم السياسي والجماهير، للوقوف على مسائل الشعب واحتياجاته ومشاكله للعمل على حلّها، ووفّرت جوًّا ملائمًا للعمل الدّعائي وتحريض الجماهير وتوطيد قيم ثورية تحاربُ تقاليد بالية وترسّخ مسلكياتٍ جديدة، وقد راكمت المنظمات الجماهيرية عبر العمل مع القطاعات المختلفة في نضالها اليوميّ، التجربة الكفاحية على مدى سنيّ الثمانينات وعزّزت الثقة بها ومكانتها بين الجماهير.

المجال الاجتماعي

ركّزت على خلق أُطرٍ جماهيريةٍ شعبيةٍ مغايرة للأطر التقليدية؛ للمساعدة في تحرُّر الفرد ممّا يتعارض مع متطلبات المقاومة، وتساعد على إيجاد المناخ الملائم لتطوير الفرد ذاتيًا واجتماعيًا وتطوير إمكانياته الذهنية والثقافية؛ للاشتراك بشكلٍ فعليٍّ فعّالٍ في المقاومة وتطويرها، وترسيخ مفهوم المسؤولية الفردية وحثّ الجماهير على التعاون لحلّ المشاكل الاجتماعية والعائلية في ظروف المقاومة ورفع مستوى الوعي السياسي الاجتماعي والكفاءة النقابية والارتقاء بالعمل الجماعي.

واعتمد روّاد المجال الاجتماعي على العمل التطوعي وإنشاء أجسام له بعد ١٩٦٧م، واستُخدم كوسيلة للتأطير السياسي للجماهير كما تفيد شهادات روّادُ العمل التطوعي، حيث تمّ في عام ١٩٧١م بداية البذرة عبر اجتماع في بلدية البيرة، وكان أول نشاط منظم لتلك المجموعة في تنظيف سوق البيرة، وما لبثت تلك التجربة أن انتشرت وأصبحت أكثر تنظيمًا واتساعًا ومن ثم تمّ مأسستها عبر جامعة بيرزيت، وشكّل العمل التطوعي والأنوية التي خلقتها، بذور الانتفاض قبل انتفاضة ١٩٨٧م بـ١٦ سنة، ومن هؤلاء رئيس بلدية البيرة حينها عبد الجواد صالح والدكتور منير فاشة وخالدة جرار ومحرم البرغوثي وغيرهم (في الهامش، توثيقٌ لشهادات عدد كبير من روّاد العمل التطوعي الذين أيضًا تحوّلوا إلى قادة في الانتفاضة الأولى ورعوا عددًا كبيرًا من المبادرات الاقتصادية والتعاونية)[1]

المجال الاقتصادي

المجال الاقتصادي المرتبط بالمنظّمات الاجتماعية المهنية والاقتصادية والنّقابية التي سعت إلى معرفة مشاكل الجماهير المعيشية والسّعي إلى حلّها بما يخدم المقاومة، والتوجيه والتدريب لرفع الكفاءة الإنتاجية لخدمة المقاومة وفي تحقيق الاكتفاء والاستقلالية، إنشاء التعاونيات الاستهلاكية والإنتاجية لزيادة القدرة الاقتصادية للجماهير دعمًا للمقاومة، وتخفيفًا عن كاهل الجماهير المعيشية، وتحقيق القدرة على الصمود، و تنظيم حلقات البحث المهنية والمتخصّصة لدراسة المشاكل الاقتصادية والتقنية التي تجابه المقاومة وجماهيرها، لوضع حلولٍ آنيّة وبعيدة المدى (سوداح، ص ٤٥).

مما سبق يتبين لنا مدى الارتباط الوثيق والتكامل ما بين كلّ المجالات.

أشكال وأساليب المقاومة الشعبية في الانتفاضة و بواكيرها

الشكل الأول: الالتحام الشعبي والاشتباك الميداني في الشوارع

أنتجت المقاومة الشعبية اشتباكات في الشوارع من طرازٍ جديد، تقاتل فيها الجماهير العريضة بأبسط الأسلحة ضدّ جيشٍ مدجّج بالسلاح حتّى أسنانه، وغدت مقاومةً لا تنحصر في ميدانٍ واحدٍ من ميادين الحياة، بل منتشرةً على امتداد الضفة والقطاع، ووصلت إلى كلّ مؤسسةٍ ومصنعٍ ومدرسةٍ وجامعةٍ ومؤسّسة تعاونية، وانتشرت على طول المناطق المحتلة ٦٧، وانضمّت الفئات الشعبية بشكلٍ متتابعٍ إلى هذه الاشتباكات. ولعلّ

ما ميّز هذا الشكل من المقاومة الشعبية، تحمّل الجماهير لمشاقّها وصعوباتها وآلام الحياة اليومية المتواصلة من الشهداء والجرحى والمعتقلين والمبعدين، وارتفاع نسبة الفقر في أوساطهم، لاسيّما داخل الطبقة العاملة والكادحين.

أخذت اشتباكات الشوارع والالتحام الشعبي عددًا من الأشكال المعبرة، تمثّلت بـ: الاشتباكات المستمرة بين قوات الاحتلال والجماهير في المدن والقرى والمخيمات، ولم تكن عفويةً غير منظمةٍ وغير هادفة، على العكس، فغالبية الصدامات والمواجهات تسلّحت بأسلحة بدائيةٍ، في مخيمات جباليا وبلاطة والدهيشة والنصيرات وغيرها من المواقع. وعزْلُ قوات الاحتلال ببعض الشوارع والأحياء، وشنُّ الهجوم عليها، وتكرار حالات الانفراد في أزقّة المخيمات عبر رشقها بالحجارة، متزامناً مع خروج القوات الضاربة المتمركزة على أسطح المنازل، وما حمله من التكامل والتعاون بين المواقع الجغرافية المختلفة، في عمليات المواجهة للدّعم والتخفيف عن المنطقة المحاصرة (الثورة الشعبية في فلسطين، ص ٢٠٩).

واستخدام عنصر المفاجأة في مواجهة قوات الاحتلال، وأثبتت تقاريرها الميدانية أنّه ما أن يطمئنَّ أفرادها لهدوء منطقة ما، حتى تعلو سحب الدخان سماءها، وتبدأ الحجارة والزجاجات الحارقة بالسّقوط بشكلٍ مكثّف عليها، وينقسم الشبّان إلى مجموعات صغيرةٍ لا يتعدّى عدد أفرادها ثلاثة شبّان، ويتمُّ تقسيم المنطقة لعدّة أقسام تسيطر على كلِّ قسمٍ فيها ٤ وحداتٍ منظّمة، بطريقة المقدّمة والمؤخرة و الجناحين الأيمن والأيسر. وإرهاق الاحتلال في عمليات المطاردة، من شارعٍ لشارع، ومن بنايةٍ لأخرى، بحيث لا تشعر قوّاته بأيِّ استقرارٍ وراحة، وأمكن مشاهدة عشرات النماذج يوميًّا، عبر تحطيم حافلات المستوطنين، ووضع المتاريس في الشوارع الرئيسة، والاشتباك الدائم مع الجنود.

وتمثّلت بالمرونة العالية في التكتيك وتغييرِ أساليب المواجهة بشكلٍ مستمرّ، بهدف شلّ القوة العسكرية للاحتلال؛ لأنّ موازين القوى إذا تمّت مقارنتها بين الجانبين، ستميل حتمًا لصالحه بلا منازع، لكنّ الوضع الملموس خلال تلك المرحلة التاريخية لم يكن كذلك، حيث نجحت حربُ الشوارع ومواجهات الالتحام الشعبي من خلال تكتيكاتها المرنة، والتغيير الدائم في أشكالها في تعطيل هذه القوّة (عند الاحتلال) إلى حدٍّ كبير، ووضعها في حالة عجزٍ دائمة (عدنان أبو عامر، المقاومة ص١٢٦).

كما اعتمدت اشتباكات الشوارع على أجهزة العمل العنفي، أي لجان المقاومة الشعبية المنتشرة في أنحاء الأراضي المحتلة، التي تحوّلت تدريجيًّا إلى "جيش شعبي" بكل ما للكلمة من معنى، ومن نماذج التحول، العروض الميدانية في الضفة والقطاع، بمشاركة مئات الملثّمين بالكوفية، حاملين الأعلام ولافتات بالعربية والإنجليزية، مستخدمين مكبّرات الصوت اليدوية، ويطوفون وسط البلدة، ويومًا بعد يوم أخذت تتبلور هوية الجيش الشعبي، الذي لم ينحصر في مدينة معينة أو مخيم وقرية، بل بات موجودًا في كلّ المناطق (الشنار، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية ص٣٨).

الشكل الثاني : التظاهرات الشعبية

شهدت المراحل الأولى من الستينات والسبعينات نمطًا معيّنًا من المقاومة الشعبية، تمثّل بالمظاهرات الجماعية، والمهرجانات الحاشدة، وسارت أكبر المسيرات في تشييع الشهداء، ترافقت معها الهتافات المدوية ورفع الأعلام، لتعبّر الإرادة الشعبية عن نفسها بأبسط الوسائل، وتنوّعت أسباب التظاهرات من القضايا الوطنية العامة، لتلك الأكثر خصوصية، بلديًا وفئويًا، ولم يمرّ أسبوعٌ واحدٌ دون وقوعها، وأخذت عدّة مناحٍ، من تحدي منع التجول وتشييع الشهداء والتعبير عن الغضب، إلى رفض الطلاب للسّياسات التعسفية ومظاهرات من أجل الأسرى، تشكلت بشكلٍ رئيس من أمّهات الأسرى. وتمّ استغلال كلّ حدثٍ وطنيٍّ واجتماعيّ وديني، والمناسبات النضالية المحلية والعالمية لتسيير المظاهرات.

ثمَّ انتقلت التظاهرات الجماعية إلى مرحلة أكثر دقةً واختيارًا، وتمّ استبدالها بمجموعات من الشباب والفتية، المتميزين بلياقتهم البدنية وجرأتهم النوعية، وخبرتهم في الكرّ والفرّ ونصب الكمائن، وتوزعت هذه المجموعات بعد انتهاء التظاهرة لاصطياد الدوريات العسكرية، الراجلة والمحمولة، في الأسواق وعلى مداخل المخيمات وأطراف الحارات (الناطور، الشروط الذاتية). واقترنت المظاهرات الشعبية بالهجوم والإعداد للاشتباك الشعبي مع قوات الاحتلال ودورياته العسكرية، لاسيّما بعد خروج التلاميذ من مدارسهم، حيث تتزايد الإطارات المشتعلة على قارعة الطريق.[٢]

الشكل الثالث: الإضرابات التجارية والعصيان المدني

برزت الإضرابات كأهمّ مظهرٍ من مظاهر المقاومة الشعبية، حدادًا على الشهداء كردِّ فعلٍ عفوي في منطقة الشهيد والمناطق المجاورة، ولاحقًا تحوّل لشكل يُعلَن من خلاله

موقفٌ سياسي أو مطلبٌ وطني، وحددت البياناتُ تاريخ الإضراب ومناسبته وسببه.

منذ أواخر الستينات وأوائل السبعينات ارتفع الإضراب، ليصبح سلاح التحدي الأول، وبات من هموم سلطات الاحتلال فتح المحلات التجارية بالقوة، وإقفالها في ساعات العمل التي تحددها المقاومة. وقد مورس الإضراب على عدّة أصعدة، الإضراب الشامل والجزئي والمناطقي وإضراب المواصلات والعمال والإضراب التعليمي. وارتبطت بشكلٍ مباشرٍ مع العصيان المدني والإضرابات دعواتُ ضرورة الاكتفاء الذاتي، لرفع الشعار ذاته والتوجه نحو إجراءاتٍ تصعيدية، تمثّلت في توقف العمال عن العمل في المشاريع الإسرائيلية، وترشيد الاقتصاد والزراعة، ومضاعفة الإنتاج البيتي والمشاريع الصناعية والتحويلية متناهية الصغر، والمقاطعة، والعصيان المدني ورفض الأوامر وتسليم الهويات، وعدم دفع الضرائب.

الوضع الاقتصادي والاجتماعي قبل وعشيّة الانتفاضة

لا بدَّ من التنويه أنّ الدافع الأساسي للانتفاضة هو الدافع السياسي والوطني، غير أنّ الظروف الاجتماعية والاقتصادية السيئة التي كانت قائمةً جعلت الأمور المطلبية والحياتية تساهم في تعبئة الكثير من القطاعات الجماهيرية وفي تسييسها وتأطيرها، وربطت الانتفاضة بين مصالح الشعب الحياتية الآنية بمطلبهم السياسي. هناك ارتباطٌ عضويٌّ ما بين السياسة والاقتصاد، وكما قال لينين فإن السياسة هي تعبيرٌ مكثّف للاقتصاد. أما شلومو جازيت فيقول: " ... من الناحية العملية فإن كلّ قرارٍ اتُّخذ حتّى ولو لم يقف خلفه الاعتبار الاقتصادي، فقد كان له أبعادٌ هامّة سواءً على الاقتصاد الإسرائيلي أو على اقتصاد المناطق المحتلة" (جازيت، العصا والجزرة، ص ٢٩٩).

منذ احتلال الضفة وغزة، اتّبع الاحتلال سياسة "الدمج الاقتصادي" انطلاقًا من هدفها الرئيس في دمج الاقتصاد الفلسطيني مع الاقتصاد الإسرائيلي، ونتيجةً لهذا، فقد تم تدمير الأسس التقليدية للاقتصاد المحلي، ودمجه إلى حدٍّ كبيرٍ بعجلة الاقتصاد الإسرائيلي.

وكانت تهدف سياسة الدمج الاقتصادي إلى عدة أهداف:

توفير الاستقرار الأمني: كان لا بدَّ من توفير ظروف مستقرةٍ نسبيًا تحول دون انفجار الوضع، لأنّ انفجار الوضع كان ليضعضع التواجدَ والسيادة الإسرائيلية على الأراضي

المحتلة، وتلبية الحد الأدنى من شروط المعيشة لغالبية السكان، كان ضروريًا لضمان عدم قيام قلاقل، كذلك استخدمت الامتيازات الاقتصادية وتصاريح ممارسة النشاط الاقتصادي كحوافز للتعاون وكأداة ضغط.

التدابير الاقتصادية كأداة لحلّ مشكلة الديمغرافيا، حيث أنّ الضم كان يتطلب عدم زيادة السكان وحلّ مشكلةً اللاجئين وإسكانهم في مدنٍ وقرًى وتشتيتهم جغرافيًا بحيث يتمّ القضاء على قضيتهم السياسية وحقوقهم، عبر إذابتهم في المجتمع المحلي، وتشجيع الهجرة.

إقامة ظروف اقتصادية ملائمة لخلق حقائق عملية على طابع الحل السياسي في المستقبل وصنع علاقةٍ غيرٍ متكافئة والحفاظ على نمط التبعية والإخضاع.

الاستفادة القصوى من الموارد الاقتصادية المحلية.

تحويل الأراضي المحتلة كرأس جسرٍ للبضائع الإسرائيلية إلى الدول العربية على أمل التطبيع الاقتصادي مستقبلًا.

ولتحقيق ذلك، تمَّ العمل على منع استثمار رؤوس الأموال الإسرائيلية في تطوير الاقتصاد المحلي وتحديد فرص استثمار رؤوس الأموال الأجنبية والعربية؛ لكي لا تشكل عائقًا أمام تزويد الإنتاج الإسرائيلي بالمزيد من الأيدي العاملة الرخيصة وضمان عدم إنتاج منتج محليٍّ منافس، ولكي لا تشكل بادرةً للاستقلال الاقتصادي، وضمان استهلاكٍ أقلّ للفلسطينيين للموارد الطبيعية تحديدًا المياه والأراضي.

وتم إتاحة كامل الفرص أمام الاقتصاد الاسرائيلي وحركة الاستيطان لنهب الأراضي المحتلة ١٩٩٦م، وسعت أيضًا إلى ألّا تشكّل مصروفات السلطة عبئًا على الميزانية، بل تحمّل هذه المصروفات للفلسطينيين. واستهدف الاحتلال بإجراءاته تلك محاولة الاستفادة القصوى من المصادر الطبيعية عبر الاستيلاء على الأرض، واستغلال الموارد البشرية واستغلال الموارد المالية عبر الضرائب المباشرة وغير المباشرة، والرسوم الجمركية والغرامات والرسوم الباهظة على المعاملات الرسمية واحتكار البنوك الإسرائيلية للنشاط البنكي والمصرفي. كما استهدف الاحتلال كل القطاعات وفروع الاقتصاد المحلي من زراعة وصناعة، والبناء والتجارة والبنوك والمصارف والسياحة والبنية التحتية للاقتصاد المحلي والخدمات العامة.

آثار سياسات الاحتلال على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية

أدّت تلك السياسات إلى حالة من الركود في الاقتصاد المحلي تجلّت بانخفاض معدلات النموّ لجميع الفروع والمرافق الاقتصادية، وازدياد التضخّم وارتفاع الأسعار، ونافست المنتجات الاسرائيلية السلع المحلية مما دفع العديد من المؤسسات إلى إعلان إفلاسها وإغلاق أبوابها؛ فغياب الحماية للمنتج الصناعي الفلسطيني أمام منافسه الإسرائيلي أدّى إلى توقّف نموّ الصناعة المحلية (سمارة، اقتصاد، ص٣٠).

انخفاض القيمة الشرائية للعملة النقدية وارتفاع الأسعار أدى إلى ضعف القدرة الشرائية عند الفلسطينيين، وفي الوقت الذي تفاقمت فيه النزعة الاستهلاكية، تضاءلت القدرة الشرائية وازداد العجز في تلبية الاحتياجات الذي أدى إلى ظهور آثار سلبية على نمط المعيشة. وبالرغم من مظاهر الانتعاش الاقتصادي الزائفة، أدّت تلك السياسات إلى سحق فئات واسعة من الشعب واقتلاعهم من أراضيهم ومصانعهم، ليعملوا كأجراء في مرافق الاقتصاد الإسرائيلي. وأدّت تلك السياسات إلى آثار عميقة في التركيب الاجتماعي للسكان، من ظهور قلة من المستثمرين المرتبطين مباشرةً بالاقتصاد الإسرائيلي، ولكنّ الغالبية من السكان تحولوا إلى شرائح كادحة مسحوقة، مما أدّى إلى ازدياد عدد العمال بالأساس.

ومن الجدير ذكره، أنّ تفاقم المشكلات الاقتصادية - الاجتماعية أدّى إلى ازدياد الحنَق على الاحتلال، فالرّكود الاقتصادي دفع إلى تفشّي البطالة خصوصًا لدى خريجي الجامعات، كما حصل تشويهٌ في الاستقرار الاجتماعي داخل المجتمع بين أصحاب الوظائف والمهمات المختلفة في الاقتصاد والمجتمع، فعامل البناء في "إسرائيل" أجرته تعدّت أجرة المعلم.

ودفعت سياسات التدابير الاقتصادية لمواجهة الديمغرافيا إلى تفاقم أزمة السكن، وانعدام التطوير للقطاع الصحي أدّى لتدنّي الخدمات الصحية وانتشار الأمراض، (وانخفاض مستوى الدخل وضعف القدرة الشرائية) ساهم في جعل مستوى التغذية والكساء أقلّ من المطلوب، وكان معدّل الوفيات لدى الأطفال في مناطق ٦٧ضِعف المعدل في مناطق ٤٨.

وأدّت الإجراءات ضدّ المؤسسات التعليمية إلى المسّ بالقطاعات الشابة والمثقفة

ودفعتهم إلى الصدام مع المحتل، أما العمال فإن الاضطهاد المزدوج، القومي بشكل أساسي والطبقي بشكل ثانوي، الذي يتعرض له العمال، جعلهم يتجاوبون مع الانتفاضة ومطالبها. بالإضافة إلى مصادرة الأراضي وقطع الأرزاق وهدم البيوت والإبعاد والقتل. كل هذا بالإضافة للعقوبات الجماعية الاقتصادية، أدّى إلى توحُّد مشاعر الفلسطينيين ومصالح غالبيتهم.

حركة المقاومة الاقتصادية

وإن كانت المبادرات الفردية والجماعية لها أهميةٌ قصوى في التحديد والتوجيه والحثّ على "المقاومة الاقتصادية" عبر مواجهة الإجراءات والقوانين الإسرائيلية واقتراح البدائل والحلول، إلّا أنّ القيادة الوطنية الموحدة وعبر نداءاتها المتتالية، هي من رسمت إلى حد كبير سياسة تلك التنمية، وكان عزت غزّاوي وسمير شحادة وسمير صبيحات أول من صاغوا بيانات القيادة الوطنية الموحدة.

ولا ننسى دور الشهيد فيصل عبد القادر الحسيني في تشكيل القيادة الوطنية الموحدة (المولود في بغداد عام ١٩٤٠م، وأبوه الشهيد عبد القادر الحسيني قائد الجهاد المقدس الذي استشهد في معركة القسطل، درس في القاهرة وحلب وتعرف على ياسر عرفات وساهم في تأسيس بعض التجمعات الفلسطينية وفي تأسيس منظمة التحرير، بعد ١٩٦٧م قام بافتتاح بيت الشرق في القدس، سجن عدّة مراتٍ وتوفي في ٢٠٠١م، كان من أهمّ قادة انتفاضة ٨٧).

لا ينسى النداء رقم(٢) الصادر في ١٠-١-١٩٨٨م توجيه الدّعوة إلى العمال لمقاطعة العمل أيام الإضراب، وأيضًا وُجِّهت الدعوة لأصحاب المحلات التجارية للإلتزام بالإضراب، وكان وقف مصادرة الأراضي ووقف الضريبة الإضافية من شعارات الانتفاضة الأساسية. وجاء النداء رقم (٣) كانون الثاني ١٩٨٨م بإرسال تحية لأصحاب المحلات التجارية، وحثّهم لمواصلة تشكيل اللجان الخاصّة بالتجار في كلّ مدينةٍ وحيٍّ وشارعٍ من أجل صياغة موقفٍ وطنيٍّ جماعيٍّ لرفض دفع الضريبة الإضافية، ودَفع النداء العمال للاستمرار بوقف العمل في المرافق الإسرائيلية؛ لإيقاع أكبر الخسائر في اقتصاد العدو، وناشد النداء القطاعات الأخرى الدوائية والرأسمالية الوطنية والمقتدرين للتبرُّع لمواجهة إجراءات الاحتلال، وجاء النداء (٤) و (٥) بما يصلّب النداء السابق.

وحثّ البيان (٦) ٢ شباط ١٩٨٨م على الاستمرار بما سبق من توجيهات، والامتناع عن دفع الغرامات وتخفيف العبء على المستأجرين بتأخير مواعيد الاستيفاء للإيجارات، وتشجيع الاقتصاد الوطني ومقاطعة البضائع الإسرائيلية. أما البيان (٨) ١٩ شباط ١٩٨٨م فإنّه دعا للمقاطعة الشاملة، وشرح أهميّتها الاستراتيجية والتكتيكية ودعا لأوّل مرة للعودة الى الأرض والزراعة وتشجيع الاقتصاد المنزلي والحدائق المنزلية وإنشاء المزارع البيتية الصغيرة الحيوانية والنباتية منها، وجاء النداء (٩) ليضيف إلى ما سبق، ضرورة عمل القطاعات الإنتاجية الفلسطينية بأقصى طاقتها ونظّم مواعيد العمل في المهن الحرفية، وأكمل النداء (١٠) تفاصيل المنتجات الواجب مقاطعتها فورًا ودعا لضبط الأسواق من التلاعب. أما البيان (١١) فإنّه طالب بوقف العمل الفوري في كافّة المستوطنات، وطالب القطاعات الاقتصادية الفلسطينية باستيعاب تلك القوى العاملة وفصل القطاعات الواجب العمل على الاستثمار فيها، والبيان (١٢) قام بتوجيه النداء للمهندسين الزراعيين لتدريب وتعليم الجماهير، ونادى أصحاب المشاتل وذوي الخبرة بالعمل فورًا لتحقيق أقصى درجات الاكتفاء الذاتي.

وجاء البيان (١٤) ليؤكّد على ضرورة بناء التعاونيات والترشيد في الاستهلاك، كما أكّدت البيانات التالية على تلك الإجراءات ودعمتها وواصلت المطالبة باستكمالها، ودفعت نحو تنظيم المجتمع والتكافل الاجتماعي. وتدرّجت الإجراءات المُواجِهة لإجراءات الاحتلال الاقتصادية بسلاسة، لينادي النداء (٢١) لتحريم ترويج المنتجات الصهيونية وبدءِ عقاب مروّجيها لحماية المنتج الوطني، والمطالبة بسحب حسابات التوفير من البنوك الإسرائيلية وتحسين ظروف العمال واحتساب أيام الإضراب من أيّام العمل، وإنشاء لجان حراسةٍ لحماية المنشآت الاقتصادية والزراعية الفلسطينية.

ليتبعه البيان (٢٢) ليحرّم قطعًا دفع الغرامات والكفالات، والدعوة لمقاطعة منشآت العدو السياحية. وأشاد النداء (٢٣) بالمبادرات الفردية والجماعية في الاقتصاد والتكافل، وذهب للدعوة للتحضير للموسم الشتويّ الزراعي وعدد الأصناف الواجب زراعتها، وطالب بتخفيض رسوم العلاج، وجاءت البيانات اللّاحقة لتضع البنود الخاصة في القطاعات الاقتصادية الزراعية والصناعية في خانةٍ وتتابع المتغيّرات وتتماشى مع المتطلبات ومواكبة المواسم وتضمينها في بنود.

وجاءت النداءات التالية بما لا يختلف مع ما سبق، وتتماشى مع المرحلة والمتغيرات

الاقتصادية والمالية والمناخية والأمنية، لتعالج كلّ تلك المتغيرات مع وضع مصلحة الانتفاضة والقطاعات الكادحة في سُلّم أولوياتها.

إجراءات الانتفاضة الاقتصادية وآثارها على المجتمع والاقتصاد

١. ترشيد الاستهلاك: عمل العدو على تكريس النّزعة الاستهلاكية وتعميقها لمنع الادّخار، ولتبذير الأموال وامتصاصها وتحويلها إلى الاقتصاد الإسرائيلي. وجاءت الانتفاضة لتقلب تلك المعادلة -ولو جزئيًا- وبشكل تدريجيّ لتنقله من نمط الاستهلاك إلى نمط الحماية، عن طريق التحوّل إلى نمط الإنتاج كما ظهر في تطوّر وتدرّج النداءات، وظهر في عشيّة الانتفاضة تقلّصٌ في حجم الاستهلاك والابتعاد عن شراء الكماليات ومظاهر الترف ومقاطعة سلع العدو ذات البديل الوطني والأجنبي.

ويمكن المرور سريعًا على التّحول في أنماط الاستهلاك والتقشُّف الذي رافقه، فقد ظهر انخفاضٌ ملحوظٌ في الحركة الاقتصادية وتغير سُلّم الأولويات في المشتريات، وتمّ اختزال الكثير من الكماليات في الحياة اليومية، إضافةً إلى انخفاض شراء مواد التجميل والثياب والأحذية والسجاد والأثاث وتقلّص قصد المطاعم والمزينين والمصورين والخياطين واقتصرت احتفالات الزواج على أقل ما يمكن (شنار، الأوضاع الاقتصادية، ص ٤).

ويعلّلُ عادل سمارة هذا الأمر بأنّه "اتخاذ موقف دفاعيٍّ ذاتي" (سمارة، اقتصاد الضفة، ص ٢٠)، وساهم هذا مع انخفاض القدرة الشرائية، ولاحقًا أدّى ذلك الموقف الذاتي الدفاعي إلى تطوّر الوعي بضرورة اتّخاذه كمنهج طوعيٍّ ثابت. وأدّى الانتقال الميكانيكي إلى التقليص، وصولًا إلى التنازل عن القيم الاستهلاكية، وبزخم الحراك الشعبي والهوية الوطنية المتأجّجة إلى القبول الاجتماعي بالمنتجات المحلّية الأقل جودة، ومقاطعة البضائع الصهيونية ولو بشكلٍ جزئيّ وتدريجي، وفي اللحظة التي كان هناك تقلصٌ في الصناعات الإسرائيلية فإنّ المصانع العربية شهدت نموًا سريعًا، وسيطرت بعضُ الشركات العربية على حصّة السوق لشركات إسرائيلية (سلفانا وجولدن سويت سيطرت على حصّة شركة عيليت) كذلك قطاعُ السجائر والمشروبات الغازية، وأثبتت الانتفاضة أنّ مقاطعة المنتجات كانت فعّالةً

جدًا، وإن كانت تعود جزئيًا إلى انخفاض مستوى النشاط الاقتصادي (سمارة، اقتصاد الضفة).

٢. تنمية الاقتصاد المحلي: فرضت التطوّرات على نمط الاستهلاك ومقاطعة بضائع العدو نفسها على السوق المحليّ ودفعت الاقتصاد المحلي للسّعي من أجل مسايرة وملائمة نفسه مع المتطلبات الجديدة للمستهلك، فزاد الطلبُ على الإنتاج الوطني وتقلّص إنتاج السلع الكمالية، ونتيجة للظّرف الذاتي للاقتصاد الفلسطيني وإمكانياته، وللظّرف الموضوعي من إجراءات الاحتلال فإن العديد من المبادرات قد ظهرت من أجل تلبية الحاجات الاستهلاكية من خلال المشاريع التعاونية الأسرية أو الجماعية بحيث تؤمّن الحد الأدنى من استهلاكها أو جزءًا منه، وتمثّلت تلك الظواهر والمبادرات وفقًا لتسلسلها واتساعها وانتشارها حسب ما يذكر سمارة بـ:

أ. ظاهرة الاقتصاد المنزلي: إنشاء الحدائق المنزلية وتربية الدواجن والمواشي لتوفير التّموين للبيت، وتشجيع الصناعات الغذائية البيتية وإقامة مشاريعَ إنتاجيةٍ مثل النسيج، وممارسة الحرف البسيطة.

ب. ظاهرة التعاونيات: وقد برزت في أشكال التعاون في استصلاح الأراضي غير المستغلّة ونشوء التعاونيات الاستهلاكية، وتعاونياتٍ لجباية وتوزيع المساعدات العينية، وانعكست هذه الظاهرة على مناحٍ أخرى، منها التعاون في تنظيف الأحياء، وانتشار العمل التطوعي بشكلٍ أكبرٍ في مساعدة المزارعين في أراضيهم (كانت نداءات القيادة الموحّدة توجّه في كلّ موسم نداءً للمتطوعين للقيام بهذا) وتأمين المستلزمات الصحية، والمتطوعين المؤهّلين في مراكز العمل الصحي وانتشار ظاهرة التعليم الشعبي وإغاثة المنكوبين والمحتاجين وأدّى ذلك إلى توطيد روح التعاون والتكافل الاجتماعي وتوحيد المشاعر ومجهودات مقاومة الاحتلال (سمارة، ص ٣٠-٣١).

يرتدُّ أساس التعاونيات في الضفة الغربية إلى فترة الحكم الأردني، إذ أقيمت خلالها التعاونيات بمفهومها الرّسمي كحالة اقتصادية "تعاونية" على أسسٍ رأسمالية، بإشراف الحكومة الأردنية، بدأ نشاط التعاونيات الأولى سنة ١٩٥٢م، وذلك بموجب قانون التعاون رقم ٣٩ والذي تمّ تجديده بقانون رقم ١٧ لعام ١٩٥٨م

(سمارة، أداء الاقتصاد، ص١٩). واعتُبرت تلك التعاونيات نموذجًا جديدًا يقوم على أساس مادي، وعلى توجّه إنتاجي - تشغيلي، بهدف استيعاب الأعضاء العاملين ليعتمدوا في حياتهم اعتمادًا تامًا على التعاونية. وهذا يبيّن اختلافها عن التعاونيات الخدماتية (تعاونيات النقل والتسويق)، و التعاونيات الإنتاجية على أساس تحقيق الرّبح للمساهمين، والتي لا تعدو كونها مؤسّسات خاصّةً موسّعةً وأكثرَ مهارةً في تحصيل القيمة الزائدة، ناهيك عن الحصول الدائم على المساعدات والهِبات من مؤسسات التمويل الغربية. وأفضل مثالٍ لهذه الجمعيات "جمعية مربّي الدواجن في البيرة ورام الله"، وهي أكبرها، ويعتبرها دعاة هذا اللون من التنمية، الجمعية النموذجية.

وجاء هذا النمط التعاونيُّ بعد أن اتّضحت محدودية الإنتاج المنزلي (وإنْ كانت تشاركه التوجُّه لإنتاج الأساسيات والتخلّص من التبعية)، والإنتاج مباشرةً باليد، والهدف التشغيلي وليس الربحية، واستغلال ما هو متوفرٌ محليًا من الإمكانات الاقتصادية. واتجهت أغلب تلك التعاونيات نحو الزراعة بخلاف الاستثمارات الرأسمالية، وخصوصًا التعاقد من الباطن. لقد تكوّنت عشرات التعاونيات من هذا الطراز في الضفة والقطاع خلال الانتفاضة، وهي تضم ٥ -٢٠ عضوًا/عضوة. اتّسم أغلبها بأن بنيتها الداخلية كانت بدائيةً فمنها ما لا يتجاوز كونه تعاونًا في الإنتاج المنزلي، مثل التعاونيات التي تنتج المخلّلات في الأحياء، وهي تعاونيات مكونة من مجموعة شابات في الحي أو ربّما القرية. وعلى الرغم من أنّ الأسس التي كانت تحكم طبيعةً هذا العمل "غير رأسمالية -أو هناك توجّهٌ جدّيِ لتجاوز الأسس الرأسمالية -" فإن طبيعة التعاونية نفسها لا تزال بدائية.

ومنها ما يتجاوز هذا المستوى إلى العمل الزراعي وتربية الدواجن والأغنام والأبقار وتوزيع الحليب. وقد اعتمد بعض هذه التعاونيات، في التمويل، على تبرعات الأعضاء، والبعض الآخر على تبرعات أو "مساهمة" أهالي القرية، وكانت العناصر المكوّنة لهذه التعاونيات هي في معظمها من الشبان. وهذا ما جعلهم هدفًا للاعتقالات من قبل سلطات الاحتلال، بل إنّ الاحتلال قام في بعض الأحيان بإغلاق بعض هذه التعاونيات (تعاونية قرية بتير قرب بيت لحم). (سمارة، أداء، ص٣١).

ج. ظاهرة العودة إلى الأرض: أدّى امتناعُ العمّال للخروج إلى العمل أيام الإضراب إلى وجود وقت فراغ إضافةً إلى انحسار الدخل، و بالتوائم مع مشاعرهم الوطنية بضرورة العودة إلى الأرض والحفاظ عليها والفرص الاقتصادية الناشئة نتيجة مقاطعة بضائع العدو إلى تكثيف العودة إلى الأرض والاستثمار فيها (سمارة، ص ٣٠-٣١)

"لقد تمَّ استغلالُ ٩٠٠ ألف دونم من الأراضي المهملة في منطقة طولكرم، وقد لجأ المزارعُ الصغير هناك إلى استئجار الأدوات والآلات بدل شرائها وكانت النتائج المتحقّقة جيدة" (سمارة، أداء، ص٣٧).

٣. الضرائب وجباية الاحتلال: جاءت نداءات الانتفاضة بضرورة وقف دفع الضرائب وتحديدًا القيمة المُضافة، وتدرّج هذا من حثٍّ إلى مطالبةٍ إلى تحريم، وقد لوحظ الانخفاض الهائل في معدل الجباية، ولم يكن فقط النّداء هو الذي أدّى إلى تخفيض الجباية عبر الامتناع، بل إنّ تقلّص الاستهلاك والمقاطعة ونقص مبيعات السلع المحلّية الكمالية ساهم في هذا، وظاهرة التخزين والتصنيع الغذائي البيتي، وساهم بشكلٍ كبير استقالة موظفي الضرائب ومهاجمة الجماهير لأفراد طواقم الجباية في تقلّص جباية الضرائب، وساهم أيضًا بشكلٍ غير مباشر الإجراءات العقابية الاحتلالية ومنع التجول وقطع الطرق ومحاربةِ الزراعة المحلية في جعل الضريبة المضافة ضئيلة (شنار، ص٤٩).

وكان لتجار المدن، ولاسيّما أصحاب المتاجر الصغيرة، دورٌ حاسمٌ في تعزيز الإضراب التجاري، وقيادة التمرّد على الضرائب، ومقاطعة الإدارة المدنية الإسرائيلية التي سجّلت ذروةً جديدةً للانتفاضة في ربيع سنة ١٩٨٨م. وقد كان انخراطُها المنسّق مع القيادة الوطنية الموحّدة حاسمًا في تحديد الوتيرة اليوميّة المطّردة للعصيان، وفي تحدّي قدرة الجيش الإسرائيلي على فرض رؤيته الخاصة لـ"الحياة الطبيعية" في شتّى المناطق. ومع تذبذب مواجهات الشوارع على نحوٍ دوريٍّ خلال ١٩٨٩-١٩٩٠م، ومع تناقص تأثير اللجان المحلية في الضواحي، ظلّت الإضرابات التجارية من أجلى معالم العصيان ظهورًا (تماري، ١٩٩٠، ص٦).

٤. تقليص القوّة العاملة في دولة الاحتلال: شكّل استنزاف الأيدي العاملة هدفًا

إسرائيليًا لشلّ الاقتصاد الفلسطيني، ومع الانتفاضة، لبّى العمال (الذين لا يخلو أي نداء من إرسال التحية لهم) نداءات المقاطعة والإضراب إلى حدٍّ كبير، وأدّى عدم انتظامهم في سوق العمل الصّهيوني إلى خسائر كبيرة بالاقتصاد الصهيوني، وأدّت تلك الإضرابات والمقاطعة إلى الشعور بأنّ العمل في السوق الصهيوني ما هو إلا مؤقتٌ وأنّ مواقعهم هي في الاقتصاد المحلي، وبدأ الكثيرون، إثر هذا، بالتكيُّف مع الواقع الجديد ومحاولة إيجاد بدائل ولو جزئية في السوق المحلي (شنار، ص٤٩).

وأدّى تضاؤل الدخل الناجم عن النقص في العمل في دولة الاحتلال وعن تعطيل الإنتاج والتجارة، إلى انخفاض مستويات الدخل بنسبةٍ تُقارب ٣٥٪ مع نهاية العام الثاني من الانتفاضة. كما توقّف الإنتاج والاستهلاك المحليّ للكماليات، وانصرفت معظم القدرة الإنتاجية المتاحة نحو تلبية الحاجات المحلية.

وأدّى هذا إلى تطوّر الإنتاج الصناعي بدرجةٍ تُثير الدّهشة؛ إذ مع ازدياد توظيف رأس المال المحليّ توسّعت عمليات الإنتاج القائمة لتلبية الحاجات المحلية، أو لقيام أنواع جديدة تمامًا من الإنتاج. وبموافقة القيادة الموحّدة، سُمح للصّناعات التي تُنتَجُ للسوق المحلية بأن تمدّد ساعات العمل، وحتّى بأن تتوقّف عن دفع الضرائب كي تتفادى توقّف الإنتاج للسلع الحيوية.

في البدء، حدث تراجعٌ كبيرٌ في المنتوجات التي كانت تُشحن في الماضي للتسويق داخل دولة الاحتلال أو في الخارج، عبر قنوات إسرائيلية. وجرى تحويل معظم هذه القدرة الإنتاجية المتركزة أساسًا في قطاع النسيج، إلى تلبية حاجات السوق المحلية، بينما استمرّت المساعي للوصول إلى قنواتٍ للتصدير المباشر بنجاحٍ متفاوت.

أما المنتجات المصنّعة التي شهدت نموًا سريعًا، فهي تشكل جميع الأغذية المعالجة، كعصير الفاكهة والخضروات والفاكهة المعلّبة واللحوم المعلّبة ومنتجات الألبان والمشروبات غير الكحولية والوجبات السريعة والزيوت النباتية. كما تشمل أيضًا الأثاث والمنتجات الجلدية (وهذه للتصدير) ومواد البناء والبلاستيك، على أنواعه، وعلف الحيوان والدجاج، وطبعًا النسيج والملابس والتبغ والأدوية الطبّية وبرامج الكمبيوتر (computer software) باللغة العربية.

وعلى الرغم من أنّ العديد من الصناعات التي تعتمد على التصدير قد تراجعت، وخصوصًا منذ اندلاع أزمة الخليج فإن القطاع الصناعي قد شهد -ولا ريب- عملية تحوّلٍ بنيوي ونمو كبيرين. وعلى الرغم من غياب الإحصاءات الدقيقة، فإن المؤشرات العامة تدلّ على أنّ النمو الصناعي قد فاق نسبة ٣٠٪ (العبد، ١٩٩١، ص١٢).

٥. التقارب الاقتصادي والاجتماعي على جانبي الخط الأخضر: ورغم أهميّة هذه الظاهرة في بعث روح الوحدة القومية إلا أنّها شكّلت أيضًا منفذًا من الناحية الاقتصادية، وقدّم فلسطينيو ٤٨ مساعداتٍ ماديةٍ وعينيةٍ أرسلوها إلى المناطق المحاصرة.

٦. التخريب الشعبي والالتحام المباشر: أدّت المظاهرات والاحتجاجات وما تتطلّبه من تكاليف لمواجهتها لإيقاع خسائرَ هائلة في اقتصاد العدو، و إثقال كاهله بمصاريف كان يحاول ألا يتحمّلها سابقًا، وأدّت عمليات التخريب عبر استهداف المصالح الصهيونية والبنوك والمصانع والمزارع عبر مهاجمتها وحرق وتخريب منتجاتها ومقاطعة التعامل معها وسحب أرصدة التوفير، إلى خسارة هائلة في الاقتصاد الصهيوني ومساهمة في نموّ الاقتصاد الفلسطيني لما كانَ يمنحُه من فرصٍ استثماريةٍ مناسبةٍ للسوق المحلي.

وقد أبدع الفلسطينيون في صناعة طرقٍ وأدواتٍ جديدةٍ للتخريب الشعبي الموجّه للاقتصاد الصهيوني. ففي بيانٍ تمَّ توزيعه من إحدى الفصائل الفلسطينية، عُممت وسائل التخريب الشعبي، فقد تحدث البيان عن استهداف كافّة القطاعات الصناعية والزراعية والإنشائية التي يعمل فيها العمال الفلسطينيون داخل الخط الأخضر، فقسّمهم إلى عمال بناء ومصانع وصناعة بوظة وعمال الدهان وعمال المناجر والزراعة وعمال مزارع الدواجن والأبقار وعمال الأفران، وفصّل لكل قطاع عُمّالي أدواتٍ وأفكاراً للتخريب. "ضع حشرات بكونتينر البوظة، ابصق فيها، خفِّفً الشمينتو بالخلطة و أضف له السكر، عدم شدّ السلك في الطوبار، إضافةً إلى وضع الصراصير في العجين". كل هذه التوجيهات في عدم الإتقان في العمل كانت تهدف إلى تكبيد العدو خسائرَ بنيويةٍ اقتصاديةٍ من حيثُ لا يدري و في نفس الوقت عدم قطع رزق العامل نهائيًا عبر منعه بشكلٍ نهائيٍّ من العمل في المنشآت الاقتصادية (مجلة الرفاق، ١٩٩١). ملاحظة: بيانُ التخريب موجود!

نماذج

بيت ساحور

تشكّل تجربة بيت ساحور في الانتفاضة نموذجًا شبه متكاملٍ لإجراءات الانتفاضة الاقتصادية التي اتّبعها الفلسطينيون في انتفاضة ١٩٨٧م. حيث أنّه في كانون الثاني ١٩٨٨م قام السيد جاد إسحاق وعيسى الطويل من بيت ساحور بإحضار ٥٠٠ شتلة وتوزيعها على الجيران والأقارب للحثّ على العودة إلى الأرض، سرعان ما اضطروا لإحضار آلاف الأشتال والبذور نظرًا للإقبال الشديد عليها، بالإضافة للأسمدة والمبيدات والخراطيم وأقفاص الدجاج، وشكّلوا جمعيةً تعاونيةً من ١٤ شخصاً استثمروا ١٤ ألف دولار في افتتاح نقطة بيع وشراء جرّارٍ زراعي.

وفي شباط ١٩٨٨م قامت بيت ساحور بالامتناع عن دفع الضرائب وكان الالتزام كاملًا، ممّا دفع جيش الاحتلال بعد ٥ شهور إلى اتّخاذ إجراءاتٍ عقابيةٍ عبر فرض غراماتٍ وفواتير مضاعفةٍ على الأهالي، وجاء ردُّ أهالي بيت ساحور غير متوقع، لأنهم رفضوا الدفع وقاموا بإعلان العصيان المدني الكامل عبر جمع أكثر من ألف هوية وتسليمها للحاكم العسكري للمنطقة، لتستمر حملة رفض دفع الضرائب أكثر من سنة، لتعود سلطات الاحتلال مرةً أخرى في أيلول ١٩٨٩م لمحاولة فرض الدفع وكسر العصيان المدني.

جاد إسحاق أكاديمي وناشط سياسي واجتماعي من مدينة بيت ساحور، يحمل شهادة الدكتوراه وله عدّة كتبٍ ودراساتٍ منشورة، ويرأس مركز أريج في مدينة بيت لحم، ويعتبر من أهم أصحاب تجربة العمل التعاوني والتطوعي خلال الثمانينات وخلال الانتفاضة.

وفي شهادة غسان انضوني لمركز المعلومات الفلسطيني في ٣١ أيلول ١٩٨٩م يقول: "منذ ١٩ أيلول العام ١٩٨٩م وبيت ساحور محاصرةٌ بالمئات من القوات الإسرائيلية. تمّ إنشاء مجمّع عسكريٍّ جديد بالقرب من حقل الرعاة لعمليات الاستجواب والتنفيذ السريع للأوامر العسكرية، وأصبح ما بَدأ كحملةٍ لفرض دفع الضرائب، حملةً عسكريةً واسعة النطاق ضد سكّان بيت ساحور، وهادفةً إلى تدمير اقتصاد المدينة وكسر العظام واعتقال حتّى الأطفال، ونهب المحلات والمصانع. وكانت السلطات غير قادرة على إجبار

أي مواطن على التفاوض معهم، أو حتى دفع مبالغ تافهة لاستعادة ممتلكاتهم، انتقلت الحملة من المحلات التجارية إلى المنازل، وفي بعض الحالات استولوا على محتويات المنازل بالكامل تقريبًا، ووُضعت في شاحنات، وأُخذت إلى مكان البيع بالمزاد العلني. وتمَّ قطع خطوط الهاتف، ومُنعت الصحافة من الدخول، خلال ٤٢ يوماً تمّ اعتقال المئات من السكان واستُخدِموا كرهائن في مقابل دفع الضرائب".

كان الياس رشماوي أحد الأشخاص الذين شاركوا في الامتناع عن دفع الضرائب، و قال "اهتمت اللجان الزراعية بزراعة الخضراوات التي نحتاج إليها في كلّ قطعة أرض حول كلّ منزل، كذلك اهتمت بتربية الأرانب والدجاج لتأمين اللحوم حتى في ظلّ حظر التجول. كان الجنود يصابون بالهستيريا عندما يشمّون رائحة اللحم المشوي في جميع أنحاء بلدة بيت ساحور أثناء الحصار ومنع التجول. وفي أيلول عام ١٩٨٩م، بدأت الحملة العسكرية الأطول والأصعب على الضرائب ضدّ بلدة بيت ساحور الصغيرة، حيث كانت المدينة بأكملها تحت الحصار. وتمّ إغلاق جميع مداخل البلدة، وقطعت خطوط الهاتف، وتمّ منع دخول الإمدادات الغذائية والطبية إليها. بدأت المواجهة الكبرى. وهي المرة الأولى عندما قامت اللجان في المناطق المحيطة بالتعاون مع اللجان الشعبية واللجان المهنية بإعلان حالة التأهّب للبدء بعملها ليلًا ونهاراً. في أحد المنازل بعد أن أوشكوا على المغادرة، سمعوا امرأةً تصرخ طالبة منهم الانتظار، وارتسمت الابتسامة على وجوههم وقالوا لأنفسهم أخيراً قرر أحدهم الدفع، ولكنهم كانوا غاضبين جدًا عندما قامت تلك السيدة برمي جهاز التحكم عن بعد وتقول لهم انسوا ما جئتم لأجله" (قمصية، ص ٢١١).

قرية كفر نعمة

تقع كفر نعمة شمال غرب مدينة رام الله بنحو ١٣ كيلو مترًا، وهي تنتشر على شكل شريطٍ يمتدّ ٣ كم على جانبي الشارع الموصل إلى رام الله، وترتفع عن سطح البحر ٥٠٠ مترٍ بشكل عام، ويحدها من الشرق قرية "دير بزيع" عبر طريقٍ معبّد طوله حوالي أربعة كيلومترات، ومن الغرب تحدّها قرية بلعين عبر طريقٍ بنفس الطول تقريبًا، ومن الشمال قرية "رأس كركر" ويفصل بينهما الوادي، ومن الجنوب "بيت عور التحتا" و "صفّا "عبر سلسلة جبال (عطايا، مدونة).

شكّل نادي شباب كفر نعمة دورًا مهمًّا في زرع قيم وثقافة جديدة ذات طابع وطنيّ وبلورة قيم ديمقراطية في التعامل، ومارس النادي نشاطات متنوعة رياضية وثقافية وكشفية واجتماعية وحاز على لقب النادي المثالي عام ١٩٨٢م. ومع دخول الانتفاضة كان البناء الاجتماعي والقيمي في القرية قد انتقل إلى مرحلة أخرى، ليساهم هذا الانتقال في إعطاء نموذج مهم جدًا. فقد وجدت على صعيد الخدمات الصحية في كفر نعمة ٤ عيادات طبية، ومارست تلك العيادات نشاطها بتنسيق غير مكتوب لتوفر الخدمات الطبية على مدار الأسبوع للقرية، وتوزّع نشرات توعوية وتقيم ندوات حول العناية بالأطفال.

أمّا على مستوى الخدمات التعليمية فقد تمّ إنشاء روضتين ومشروع لمحو أميّة الإناث. وعلى صعيد المؤسسات التعاونية تشكّلت خمسة مشاريع، فتمّ تشكيل جمعيتين استهلاكيتين غطّت ٧٠٪ من احتياجات القرية من المواد الاستهلاكية، وتأسّس في القرية مشروع اللجنة الزراعية الذي أشرف عليه "اتحاد العمل الفلسطيني"، حيث قام المشروع بالعمل على توفير حاضنات بيض. وساهم مشروع التطريز الذي وُجد قبل الانتفاضة، في توفير فرص عمل للنساء في القرية، وعمل على إدخال وعي نسويّ في القرية، بالإضافة إلى مشروع خبز طابون وتجميع منتجات طبيعية (الزعتر). وقامت عدّة لجان بالمساهمة في القرية، منها اتّحاد اللجان الزراعية الذي ربط بين العمل التعاوني والأبعاد الكفاحية، وعمل على ترسيخ ونشر مشاريع الزراعة البيتية وتقديم خدمات من توزيع البذور والاشتال (مجموعة، ١٩٩٠، ٢٩٢-٣٠٩).

التعاونيات

١. تعاونية سعير الإنتاجية: تقول السيدة لمياء شلالدة في شهادتها الشفوية عن تجربة الجمعية التعاونية "ولدت في بلدة سعير ودرست فيها ثمّ في الخليل ثمّ جامعة بيت لحم، وأنهيت دراستي الجامعية (بكالوريوس لغة عربية) ولم أقم بالعمل في مجالي؛ لأني كنت أتطوع في تلك الفترة في عدّة جمعيات ومؤسسات، وانتمائي لإطار نسوي تابع لإطار حزبي دفعني للعمل الاجتماعي بدلًا من العمل التربوي حسب تخصصي، وكرّست جهدي لغاية ١٩٩٤م لهذا المجال من العمل".

مع الانتفاضة الأولى تطوّرت فكرة الإنتاج البيتي، الذي ساهمت فيه عدة عوامل، ومع عمليات القمع كان لا بدّ من خلق بدائل للمجتمع، فكان أحد أشكالها،

التعاونيات واللجان الشعبية، وتميّزت تلك الفترة بوجود مجموعة نقاشات بين الرجال والنساء على حد سواء، حول البدائل التي من الممكن لها أن تجعل الشعب قادرًا على الاستمرار في حياته ومقاومته، فكان مثلًا، من الضروري خلق تجربة التعليم الشعبي لوجود جيلٍ يجب تعليمه في ظلّ إغلاق المدارس والجامعات. وإذا لم تقم بصناعة اقتصاد منزلي فإن الناس سوف تجوع، وإذا جاعت الناس فسوف تحدث حالة إحباط، لذلك كان من الضروري تعزيز الصمود وبناء نفسية أفضل، كانت تلك قضايا أساسيةً في تجسيد قيم مجتمعية رائعة تحتوى على قيم التضامن الاجتماعي الذي كان سلاحًا ماضيًا في يد الفلسطينيين، شكّل حالة صمودٍ وحالة تحدٍّ ضد العدو.

قام اتحاد لجان المرأة الفلسطينية بالمبادرة لتنظيم هذه الأفكار على شكل تعاونيات نسوية وتعليم شعبي، والذي يجب الربط بينهما، تلك التعاونيات التي أخذت بُعدين، كانت تحاول ضمن إمكانيات تمويلية متواضعة بمساعدة نساء القرى لتوفير المواد الخام للتصنيع، وكانت المادة الخام تعتمد على طبيعة القرى وإنتاجها الزراعي؛ فاختيار "سعير" إنتاجًا غذائيًا مرتبطٌ بإنتاجها؛ فالخليل مشهورةٌ بالعنب، لذلك، الإنتاج كان موسميًا حسب الموسم الزراعي، ففي موسم العنب كان عمل الجمعية يقوم على إنتاج منتجات بيتية من العنب، أو مثلًا موسم البرقوق يتمّ تصنيعه على شكل مُربّى، أيضًا الإنتاج الزراعي لأريحا وغزة في الحمضيات، في موسم الشتاء كنا نقوم بالعمل على المنتجات المستخلصة من الحمضيات مثل العصير المركّز الطبيعي، وإن كانت الطرق بدائيةً إلّا أنّ تلك الحمضيات كان يتم تصنيعها، أو يتم صناعة المربّى.

الفكرة الراقية التي كانت في موضوع التعاونيات والتي تختلف عن الآن، أنّه كانت هناك محاولة دمج بين التجربة الشعبية والخبرة الشعبية في التصنيع الغذائي كما توارثناه، وفي نفس الوقت، الاطلاع على الموضوع العلمي لخلق منتجات مستدامة ذات صلاحية أطول، كان يتمّ العمل على المقاربة بين المعرفة الشعبية والاعتماد على العلم، وكان هذا دمجًا حقيقيًا ما بين الحداثة والأصالة.

التعاونية بُنيت على مجموعة من البنات من عضوات وصديقات لجنة المرأة الفلسطينية، كانت تلك البنات امتدادًا لأسرٍ لها علاقةٌ بالنضال الوطني من

مُعتقلين ومطاردين، وتتبع العضوات فكرًا سياسيًا تحرريًا. كانت تلك النساء يمارسن نشاطًا اجتماعيًا واقتصاديًا في نفس الوقت، فقد كان هناك شعورٌ بأنّ هذه التعاونية جزءٌ من النضال الوطني الفلسطيني. في ١٩٨٩م بدأ العمل، كنّ تقريبًا ٢٥ فتاةً -عضوات التعاونية-، ابتدأ العمل باستئجار مقرٍّ وقد تمّ تجهيزه بأدوات بسيطة وبدائية من براميل وأوانٍ وعصارات يدوية، وكان العنصر الأساسي هو العمل اليدوي، وأيضًا كان توفير السكر مهمّ جدًا، وتوفير طباخات الغاز، وكان يتمّ شراؤها من المنطقة المحيطة.

وقام اتحاد المرأة الفلسطينية بتوفير المادة الخام للتعاونية، ولم يكن مطلوبًا من النساء شراء تلك المواد؛ لعدم القدرة على شرائها من قبل النساء. العمل لم يكن منظمًا في البداية، لذلك كان هناك اضطرار للتنسيق مع الاتحاد، وكان يُدفع للعضوات بدل ساعات عمل ويقوم الاتحاد بتسويق الإنتاج. وقد أصبح مقر التعاونية منفذ بيع للقرية وكل المنطقة، وقد تم بناء حاضنة شعبية حول التعاونية دون إدراك أو معرفة نظرية بناء الحواضن أو نظرية التنمية بالحماية الشعبية. لكن، تم العمل بشكل فطري حيث كنّ يقمن بالتّسويق للمحيط الاجتماعي، وكان هناك انتماء للمشروع ودعمه لإنجاح التعاونية.

وهناك بُعد آخر للتعاونية غير البعد الإنتاجي، ألا وهو البعد الاجتماعي، فقد كانت زيارة المقر من النساء تقوم بإزالة العقبات الاجتماعية والعائلية بين النساء، وقد ساهمت التعاونية في نشر ثقافة صحية من ناحية البيئة ومحاربة التلوث و السلوكيات الوقائية في العمل. ربّما كان ينقصنا نقطةٌ أساسية، ألا وهي إشراك النساء العاملات في عملية صنع القرار للتعاونية، كانت هذه حلقةٌ مفقودة، حيث كانت الجهة المشرفة تأخذ دور التخطيط عن النساء، لربّما كان من المهم إشراك النساء في اتخاذ قرارات التخطيط والتطوير؛ كان العاملون هم أحرص الناس وأهم المنتمين للتعاونية (مقابلة شفهية).

٢. جمعية عابود الزراعية التعاونية: أقيمت الفكرة على أساس استغلال مساحات الأراضي حول ينبوع مياه وكذلك مساحاتٍ من الأراضي المشجرة ، كما أقيمت مزرعة ثروة حيوانية تضمّ ٣٠ رأسًا من الغنم، وبلغ عدد أعضاء الجمعية ٣٠ عضوًا، ووفّرت عملًا لشخصين، وقامت التعاونية بتسويق حليب الغنم داخل القرية، كما

باعت منتجاتها الزراعية داخل القرية وخارجها بالتعاون مع التعاونيات النسائية للتصنيع الغذائي.

٣. تعاونية بيرزيت: وهي تعاونية ثروة حيوانية أقيمت في ١٩٨٨م وشملت ٧٥ عضوًا من بيرزيت والقرى المحيطة، وكان للجمعية ٥ أبقارٍ هولندية يتمّ تسويق إنتاجها على شكل حليب أو لبنة أو لبن داخل وخارج البلدة.

٤. تعاونية كوبر: أقيمت في العام الأول للانتفاضة وشملت ١٤ عضوًا، وقامت ببناء "بركس" لتربية قطيع أغنام (٢٨ رأسًا)، وأنتجت في العام الأول ٢٢ رأسًا جديدًا، ونظرًا لعدم كفاية الإنتاج للسوق المحلي فقد تم إدخال بقرتين للمزرعة. (مجموعة، ١٩٩٠، ١٨٢-١٨٧).

يمكن القول بناءً على ما تقدّم والخروج باستنتاجات أن تجربة مقاطعة البضائع الصهيونية والاعتماد على المنتج المحلي قد ساهمت في ترسيخ فكرة التنمية المحلية، ودعم ذلك العديد من المبادرات وأهمها بناء التعاونيات الإنتاجية وأهمّيتها، وتلمس الفلسطينيون إمكانية توفير الحد الأدنى من الاكتفاء الذاتي عن طريق ترشيد الاستهلاك وتوفير الموارد المحلية واستثمارها في تطوير البنى الاقتصادية ومنع الاقتصاد الصهيوني من امتصاصها واستغلالها لصالحه.

وبروز آثار الاستغلال الصهيوني للاقتصاد المحلي وما ترتّب عليها من تفاقم الوضع المعيشي قد دفع بقوةٍ إلى نهوض حركة المقاومة الاقتصادية كجزءٍ مكمّلٍ متكاملٍ يؤثّر ويتأثر بحركة المقاومة الشاملة، ودفع إلى النهوض من أجل إزالة الغبن الذي تعرضت له الأراضي المحتلة ١٩٦٧م من خلال سياسة الدمج والإخضاع الاقتصادي، ولقد وجدت حركة المقاومة بمختلف أشكالها جهودَ ومشاعر الفلسطينيين ومصالحهم الاقتصادية في مواجهة القمع والإخضاع الاقتصادي وفي مواجهة العقوبات لاحقًا، ولتحقيق الاستقلال الاقتصادي كجزءٍ لا يتجّزأ من الاستقلال السياسي الكامل.

المصادر:

١. سوداح، سعادة، أسئلة صعبة في زمن الانتفاضة والاستقلال، شرق برس، ١٩٨٨.

٢. الثورة الشعبية في فلسطين، دار ناجي للنشر، ١٩٩٠.

٣. أبو عامر، عدنان ، تطور المقاومة الفلسطينية الشعبية والمسلحة بين عامي ١٩٦٧ -١٩٨٧، مجلة الجامعة الإسلامية، المجلد ١٩، العدد الأول، ٢٠١١.

٤. الناطور، سهيل، الشروط الذاتية لنجاح العصيان الشامل، جريدة السفير، ١٩٨٨.

٥. جازيت، شلومو، العصا والجزرة، مؤسسة بيسان.

٦. العبد، جورج، المجتمع المدني في ظل الانتفاضة، مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد ٥، ص١٠٥، ١٩٩١.

٧. الحصري، ربى، أساطير في انتفاضة نابلس، مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد ٢، ١٩٩٠.

٨. تماري، سليم، مخاطر الرتابة: العصيان المحدود والمجتمع المدني، مجلة الدراسات الفلسطينية ، العدد ٣، ١٩٩٠.

٩. قمصية، مازن، المقاومة الشعبية في فلسطين، مواطن، ٢٠١١.

١٠. سمارة، عادل، أداء المؤسسة الاقتصادية في المناطق المحتلة قبل الانتفاضة وخلالها، مجلة الدراسات الفلسطيفية، ١٩٩٠.

١١. سمارة، عادل، اقتصاد الضفة والقطاع من إحتجاز التطور إلى الحماية الشعبية، دار الأسوار ، ١٩٨٨.

١٢. مجلة الرفاق، كراسات أسرى الجبهة الشعبية في سجون الاحتلال، كراس ٢٥، ١٩٩١.

١٣. عطايا، أحمد ذياب، كفر نعمة الاصل والانسان،

١٤. مجموعة من الباحثين، الانتفاضة مبادرة شعبية: دراسة لأدوار القوى الاجتماعية، ١٩٩٠.

١٥. مقابلة شفوية مع السيدة لمياء شلالدة، جمعية سعير التعاونية .

الكفاح المُسلّح في ثورة ١٩٣٦م

لا يمكن فصل ثورة ١٩٣٦م عمّا سبقها، من ناحية بواكيرها ومن ناحية الأسباب التي دفعت لها.

يُعنْوِنُ عبد الوهاب الكيّالي السنوات من ٢٣ إلى ٢٩ بعنوان "هدوء وركود"(كيالي ١٩٩٠: ١٨٨)، لكن جرت عدّةُ أحداثٍ مُهمّة في تلك الفترة التي أعربت عن مدى الغضب الشعبيّ تجاه الحركة الصهيونيةِ والانتدابِ البريطاني، فقد عمَّ الإضراب أثناء زيارة بلفور إلى فلسطين وخطب خليل السكاكيني خطابًا وطنيًا من فوق منصّة الحرم الشريف في سابقةٍ تاريخيةٍ من نوعها (السكاكيني ١٩٥٥).

ولم تغِب حوادث الصّدام مع الحركة الصهيونية في تلك الفترة إلا أنها كانت أقلَّ من المرحلة السابقة، فقد حدثت صداماتٌ بين العرب واليهود في أواخر ١٩٢٧م جرّاء معارضة العمالة اليهودية السماحَ للعرب بالعمل في المشاريع اليهودية (كيالي ١٩٩٠: ١٩٦)، وزاد حَنَقُ الطبقة الوسطى من العرب على سياسات الانتداب البريّطاني التي خصّت اليهود في تنفيذ وامتلاك المشاريع الكبرى، ويشكّل مشروع روتنبرغ لتوليد الطاقة الكهربائية الذي واجهَهُ الفلسطينيون ممّا دعا الانتداب إلى تغيير قوانين انتخاب البلديات لضمان فوز مُوالين لها للمُوافقةِ على ذلك المشروع (منصور ٢٠١٣)، وتعدّدت أحداثُ المواجهات والصّدامات مع القوات الإنجليزية من مثل محاولة اغتيال المندوب السامي وقائد الطيزان.

وظهرت في تلك الفترة بعضُ المجموعات العصابية التي واجهت الإنجليز والسّماسرة، وإن كانت بدايةُ أعمالهم لم تكن تُصنّف ذات طابع وطنيٍّ إلا أنّها مع الوقت تحوّلت إلى أعمال مقاومةٍ مثل عصابة أبو كباري (عقرباوي ٢٠١٣).

شكّلت مرحلة الركود (١٩٢١-١٩٢٥) تلك محاولةً من الشباب الفلسطيني لتنظيم الذات، إذ سُرعان ما انتشرت الجمعيات والمؤسّسات ومجموعات الكشافة التي لعبت دورًا مُهمًا لاحقًا في الثورة الفلسطينية. وتُشكّل اشتباكات آب ١٩٢٨م يوم عيد الغفران الحدث المُمهِّد لثورة البراق ١٩٢٩م، حيث حدثت اصطداماتٌ بين اليهود والفلسطينيين. وقد استمرّت دعوات المقاطعة العربية للبضائع الصهيونية وإن كانت ليست ذات أثرٍ كبير.

ثورة البراق

مع بداية ١٩٢٩م زادت أحوال الفلسطينيين سوءًا، فلم يكُن الفلسطينيون قد استطاعوا امتصاص أثر الجراد (١٩١٥) والأوبئة التي تتالت عليهم حتى ضَرَب الزلزالُ فلسطين في ١٩٢٧م، وقد جاءت الأزمةُ الاقتصادية العالمية (١٩٢٩-١٩٢٣) لتُعمّق الأزمة الاقتصادية (خلة ١٩٧٤: ٢٧)، أضف ذلك لسياسات الانتداب التي أثقلت كاهل الفلسطينيين بالضرائب، والامتيازات التي حصل عليها اليهودُ في المجالات الصناعية والزراعية.

وسط هذا المُناخ المتوتّر اندلعت الشرارةُ الأولى في ثورة ١٩٢٩م، فقد نظّم الصهاينةُ مظاهرةً ضخمةً يوم ١٤ آب/ ١٩٢٩م في تل أبيب بمناسبة ذكرى "تدمير هيكل سليمان"، أتبعوها -في اليوم التالي- بمظاهرةٍ كبيرةٍ في شوارع القدس لم يسبق لها مثيل، حتّى وصلوا إلى قرب حائط البراق (حائطُ المبكى)، وهناك رفعوا العلم الصهيونيّ، وأخذوا يُنشدون النشيد القوميّ الصهيوني (الهاتكفا - الأمل)، وشتموا المسلمين، وأطلقوا صيحات التحدّي والاستقرار، وطالبوا باستعادة (حائط المبكى) زاعمين أنّه الجدارُ الباقي من هيكل سليمان.

وصادَفَ المولد النبوي بعد يومين حيثُ خرجت مظاهرةٌ من الأقصى باتّجاه حائط البراق، وجاء ١٧ آب لتحدُث مصادماتٌ في القدس جُرِح على إثرها عددٌ من الطرفين، لتعتقلَ سلطات الانتداب عددًا كبيرًا من الشبّان الفلسطينيين دون اعتقال عدد يُذكر من اليهود، وتداعت الأحداثُ في القدس لتصل إلى أوجِها في ٢٣ آب لتحدُث صداماتٌ كبيرةٌ قمعت السلطات فيها العرب دون اليهود (زعيتر ١٩٩٥).

في الأيام التالية تتالت الصّدامات في المدن الأخرى، فقد حدث صدامٌ كبيرٌ في الخليل إثر إرسال اليهود إلى الخليل قوّةً مسلّحةً كبيرةً من الهاجاناه ، ومات إثر تلك الصدامات عددٌ كبيرٌ من اليهود، كذلك حدثت مواجهاتٌ في نابلس وقد هاجم العربُ مراكز الشرطة في محاولةٍ لنزع السلاح، وانتقلت الأحداث إلى بيسان وحيفا ويافا (بويصير ١٩٦٤).

ولم يلبث ٢٩ آب أن حلَّ حتى انتقلت الصدامات إلى صفد ليقع قتلى على إثرها من الطرفين.

أدّت الأحداثُ إلى مقتل ١٣٣ يهوديًا و١١٦ عربيًا، واعتقال ما ينيف على الألف شاب، أكثر من ٩٠٠ شخص من العرب، وقد حُكم ٢٥ شابًا عربيًا بالإعدام في حين حُكم يهوديٌّ واحدٌ بالإعدامِ وقد تمّ تخفيفُ الحكم إلى المؤبّد لاحقًا، وإثر المطالبات المتكرّرة والرسائل المُتتالية إلى المندوب السامي وتدخُّل الملوك العرب اضطرّت بريطانيا لتخفيف أحكام الإعدام إلى المؤبّد إلا لـ ٣ أشخاص، محمّد جمجوم وعطا الزير وفؤاد حجازي ونُفّذ الحكم فيهم في ١٧-٦-١٩٣٠م (الحوت ١٩٨٦).

على إثر الأحداث في صفد لجأ بعضُ الشباب بقيادة أحمد طافش من صفد إلى الجبال حيثُ أنّهم كانوا مطلوبين للقضاء وما لبث أن انضمّ لهم مجموعةٌ من مقاتلي الثورة السورية وشكّلوا تنظيم "الكفّ الأخضر" في تشرين الأول ١٩٢٩م لتستمرّ التجربة أربعة شهور (زعيتر ١٩٩٥)، حيث تمّ القبضُ على أغلب العناصر والباقي التجأ إلى سوريا، وتمّ القبضُ على أحمد طافش في شرق الأردن وسُلّم إلى السلطات البريطانية (تقرير المندوب السامي ١٩٢٩-١٩٣٠). في نفس الفترة حاول أحمد عبد الغني أبو طبيخ من قباطية اغتيال المدّعي العام البريطاني بنتوتيش لتواطئه مع اليهود.

في الفترة اللاحقة توالت الإضرابات والمؤتمرات، فقد أضرب عُمّال الموانئ إثر اكتشاف شحنة أسلحة مهرّبة لليهود (كيالي ١٩٩٠)، فتمّ على إثر هذا عقد مؤتمر التسليح في نابلس (زعيترً ١٩٩٥).

ومع بداية ١٩٣٣م وازدياد الاحتقان وقوّة التنظيمات الشبابية الفلسطينية انطلقت انتفاضة ١٩٣٣م في يافا، واستُشهد على إثرها ١٢ شخصًا، وأعلن الإضراب في كلّ فلسطين وانتقلت الاشتباكات الجماهيرية إلى عكا وصفد والناصرة والقدس وطولكرم وحيفا (كيالي ١٩٩٠: ٢٤١)، وأصيب موسى كاظم الحسيني في المواجهات ليموت بعد عامٍ إثر تلك الإصابة.

في الفترة اللاحقة توالت محاولاتُ تشكيل تنظيمات سرّية لمواجهة الانتداب والصهيونية حيثُ وصل الفلسطينيون إلى قناعة أنّ المواجهةً مع الصهيونية لا بدّ أن تمرّ عبر الاشتباك المُسلّح مع الإنجليز. وشكّلت مجموعةٌ من الفارّين من القضاء الإنجليزي مجموعات هاجمت المصالح البريطانية واليهودية والسماسرة من مثل أبو جلدة والعرميطً وفريد العسعس.

ثورة القسام

جاء عزّ الدين القسام المولود في اللاذقية ١٨٨٢م إلى حيفا في ١٩٢٢م بعد توقُّف ثورة جبل صهيون ضدّ الانتداب الفرنسي في سوريا، واتّخذ من مسجد الاستقلال في حيفا مقرًا له، وبدأ العمل للثورة في فلسطين في عام ١٩٢٥م عبر إعداد مجموعاتٍ سرّية شاركت في الأحداث التي تلت ذلك التاريخ ونشطت بعد ثورة البراق بشكلٍ كبير، فقد تحوّل القساميون إلى قادة عُماليين ونقابيين ومحرِّضين على الثورة وعملوا من خلال الجمعيات والأندية للدعوةٍ إلى الثورة وشاركوا في العمل الجماهيريّ والشعبيّ وحملات المقاطعة وبعد البراق قاموا بعدّة عمليات عسكريةٍ سُجن على إثرها ٣ أفراد من التنظيم وحُكموا بالإعدام إلا أنّهم رفضوا الاعتراف على أيّ صلة بالقسام وفي هبّة يافا قاموا بزرع عبوةٍ ناسفةٍ أسفرت عن قتل يهوديين، ليبدأ تهديدٌ حقيقيٌّ على المجموعة ليتمّ القرار بالخروج من حيفا إلى الجبال تحديدًا الواد الأحمر لإعلان الثورة (شهادة أبو إبراهيم الكبير).

في ١٩ تشرين الثاني ١٩٣٥م حاصرت مجموعةٌ من القوات الانجليزية عزّ الدين القسام وصحبَه في أحراش يعبد ليستشهد وأغلبُ من معه في تلك المعركة، وقد سبقها خلال أسبوعٍ ٣ معارك أخرى.

وقعت المعركة الكبرى بين القساميين والأعداء، وقد استمرّت أربع ساعات هلك خلالها عددٌ غيرُ قليلٍ من رجال السلطة واستُشهد من القساميين الشيخ يوسف عبد الله، وأحمد الشيخ سعيد، وسعيد عطية أحمد، وأحمد مُصلح الحسين، وجُرح عددٌ آخر. واستُؤنفت المعركة الضارية بعد ظهر اليوم ذاته فاستُشهد فيها الشيخ عزّ الدين القسام وجُرح عددٌ من زملائه، أمّا الباقون فإنّهم استطاعوا اختراق الحصار والوصول إلى منطقة الشمال الفلسطينية وهم يحملون جثّة قائدهم الشهيد إلى مدينة حيفا، ووقع عددٌ صغيرٌ من المجاهدين أسرى بأيدي الإنجليز فنقلوهم إلى سجن نابلس (الموسوعة الفلسطينية ١٩٨٤). وتعتبر تجربة القسام هي البروفا الأخيرة لثورة ١٩٣٦م.

الثورة

حدّدت بواكير الثورة والظروف الموضوعية والذاتية استراتيجية وتكتيك الثورة، فكانت حرب العصابات. وحرب العصابات تقنيةً عسكريةً سياسيةً من تقنيات الحرب الثورية،

يستخدمُها الطرف الأضعف ماديًا للتغلُّب على خصم قويٍّ عندما يجد أنّ المُجابهة النظامية ليست من مصلحته وأنّ انتصاره على الخصم يتطلّب اللجوء إلى الحيلة والخداع، والمرونة والحركية ومناعة الأرض والعمل السياسي وتعاون السكّان ومعرفة مسرح العمليات بشكلٍ جيّد (الموسوعة العسكرية:٧٢٣)، تُعتَبر حرب العصابات من الناحية الاستراتيجية جزءًا مكمّلًا للحرب المتحرّكة أو الحرب النظامية ضمن إطار الحرب الثورية، وعلى الرغم من أنّ استراتيجيّتها استراتيجيةً دفاعيةً إلا أنّ تكتيك هذه الحرب هجوميّ (ياسين:٨٨).

اتّخذت العمليات الأولية العسكرية طابع العمل غير المنظّم والارتجاليّ والخالي من التخطيط حتى أواخر آب ١٩٣٦م حتى وصول فوزي القاوقجي، ويُحدّد تاريخ بداية الثورة في العملية التي قادها فرحان السعدي في ١٥-٤-١٩٣٦م على الطريق بين نابلس وطولكرم، ليتبعها صداماتٌ في يافا وعلى إثرِها في ٢٠ نيسان تقرّر الإضراب العام الذي استمرّ ٦ أشهر.

فقد شُكّلت لجان مساعدات لتقديم العون للمتضرّرين وأُلّفت لجان طوارئ مهمّتها قطع العلاقات الاجتماعية والاقتصادية مع اليهود ومراقبة الإضراب، وتمّ إنشاء لجانٍ بديلة لتفادي الاعتقال. وتوقّفت الأعمال الحكومية والزراعية والبناء والميناء في يافا والمواصلات العربية وأُوقفت أهمّ المصانع اليهودية جرّاء إضراب العمال العرب في مقالع الحجر. بلغ عددُ العمليات التي نُفّذت في هذا العام ٤٠٧٦ عملية، منها ١٩٩٦ ضدّ أفرادٍ يهود، ٨٩٥ ضدّ ممتلكات اليهود، و ٧٩٥ ضدّ الجيش والشرطة، و٣٨٠ عملية ضدّ وسائل المواصلات.

وغير الخسائر البشرية فقد استهدف الثوار من خلال عمليات التخريب الشعبيّ (sabotage) ٨٠ ألف شجرة حمضيات و٦٢ ألف شجرة فواكه منوّعة و٦٤ ألف شجرةٍ حرجية وإحراق ٤٠٠٠ فدّانٍ من المحاصيل الأخرى، وقد بلغت خسائر الحكومة حوالي ٣,٥ مليون جنيه أسترليني (الهاجاناه ١٩٥٩: ٦٥٠).

وركّز الفلسطينيون في هجومهم على المواصلات نظرًا لخطورتها وأهميتها بالنسبة للسلطات، ولأنّها شكّلت أهدافًا سهلة، وساهم الإضراب في فرز الأهداف جيّدًا، حيث أنّ المواصلات المتحرّكة هي فقط البريطانية واليهودية.

وبدأت الهجوم على المواصلات اليهودية في مدخل تل أبيب في ٢٩ نيسان، حيث بدأ الأمرُ بأسلوبٍ بدائيٍّ عبر نثر المسامير وانتهت إلى أن حلَّ مكانها المتفجرات والبنادق (خليفة ١٩٨٩).

في بداية الثورة تركّزت أعمال المقاومة في المدينة واعتمدت التكتيكات على مهاجمة المراكز الشرطية والعسكرية ومُمتلكات اليهود عبر التخريب أو عبر إلقاء القنابل والقنْص عبر الشبابيك كما حدث في يافا، هذا سمح بإعطاء الريف مساحة مناورة استغلّها في تنظيم الذات لأنّ السلطات اضطرّت إلى تركيز القوّات في داخل المدن ممّا قلّل القبضة على الريف.

في منتصف أيار ١٩٣٦م بدأ مركز النشاط المقاوم ينتقلُ من المدينة إلى الريف والجبل وقد اتّبع الثوار تكتيكًا عبارةً عن اجتماع مجموعاتٍ منهم في سفوح الجبال وانتظار مرور قوافل السيارات، فإذا مرّت أطلقوا عليها النار ثمّ انسحبوا كلٌّ إلى قريته (قاوقجي ١٩٧٥: ٢١).

وحدث تغييرٌ جوهريٌّ نوعيٌّ مع بداية شهر حزيران، وقد برز أول مظهر من مظاهر التطور في العمليات العسكرية معركة نور شمس التي قادها عبد الرحيم الحاج محمد في ٢١ حزيران ١٩٣٦م، واستمرّت ٧ ساعاتٍ وأعلن الثوار إسقاط طائرةٍ وتدمير ٣ سيارات.

وحدث التطوّر الدرامي اللاحق في معركة بلعا على طريق نابلس طولكرم في ٣ أيلول ١٩٣٦م، واستمرّت المعركةُ على جبهةٍ طولُها ١٢ كم ودمّرت ٣ طائراتٍ غير الخسائر البشرية من الطرفين.

وأعقاب تلك المعركة تمّ إعلان قوانين الطوارئ وتعيين الجنرال جون ديل قائدًا للقوّات في فلسطين.

وتكثّفت العمليات في ١٩٣٧م، فبعد وقف الإضراب إثر تدخّل الملوك العرب سُرعان ما عادت الأمور إلى الاشتعال إثر اغتيال لويس أندورز حاكم منطقة الجليل في ٢٦ أيلول ١٩٣٧م وتصفية مُفتّش الشرطة حليم بسطة.

وتعدّدت أساليب المقاومة في تلك الفترة من هجماتٍ بالقنابل على أفراد الشرطة

والمُستوطنات وأملاك السلطة واليهود، ونسف لخطوط الحديد، وقطع خطوط التلغراف ونسف طرقٍ ومصالحَ حكوميةٍ واغتيالاتٍ مُتعدّدةٍ ضدّ قوات الجيش والشرطة وتفجير خطوط أنابيب البترول.

وتُمثّل معركة عرّابة نقلةً نوعيةً في ٢٣ كانون أول ١٩٣٧م وقادها أبو إبراهيم الكبير، وكانت النقلة النوعية في الأدوات والأعداد إلا أنّ الأهمّ من هذا أنّ التكتيك فيها كان دفاعيًا؛ حيثُ أنّه من اللحظة الأولى كان الإنجليز هم المبادرون إلى الهجوم، وهذا يُعطي دلالةً عن مدى توسُّع الثورة وبداية تشكيل قواعد ارتكاز.

ويلاحَظُ تطوّرٌ هائلٌ في تلك الفترة عند رجال المقاومة فقد بدوا أكثر تدريبًا ووعيًا وإدراكًا من السابق بالإضافة لتنمية حسٍّ أمنيٍّ فأصبح من الصعب اكتشافُهم.

في عام ١٩٣٨م استغلّت الثورة انشغال بريطانيا في أزمة ميونخ، وامتدّت سيطرة الثوار إلى معظم الطرق وكثيرٍ من المدن كما ظهر نشاطٌ بارزٌ في مناطق الجليل وجنين ونابلس والمنطقة الوسطى والجنوبية وتدمير محطات سكّة الحديد بين القدس واللد، واللد إلى الحدود المصرية، كما هوجمت معظمُ مراكز الشرطة وبحلول الصيف كان الثوار قد سيطروا تمامًا على معظم المناطق الجبلية إلى درجة أنّ الثوار كانوا يسيرون في نابلس بحرّيةٍ كاملةٍ في وضح النهار (كنفاني: ٦٧).

وأثّر هذا على انخفاض معدّل الهجرة اليهودية بنسبة ٨٠٪ مقارنةً بعام ١٩٣٠ (ياسين ١٩٦٧: ٩٣).

وجاءت أهمّ عمليات الثورة: معركة بيت إمرين، وكفر صور وأمّ الفحم ومعركة وادي بلعمة ومعركة أمّ الدرج، ومعركة جبل الجرمق، ومعركة سيلة الظهر ونابلس ودير غسّانة والكرمل وحيفا وسعسع (ياسين ١٩٦٧).

والتطوّر المهمّ جدًا في عام ٣٨ هو أنّ الثورة استطاعت التسلّل إلى داخل بعض المدن الرئيسية، فحدثت عملية السيطرة على بئر السبع في ٩ أيلول ١٩٣٨م قادها عبد الحليم الجولاني قائد منطقة الخليل، وتمّ السيطرة عليها لأكثر من ٧٠ يومًا.

وعمليةُ الإغارة على طبريا في ٢ تشرين أول ١٩٣٨م بقيادة أبو إبراهيم الكبير وعملية تحرير نابلس، وعملية تحرير القدس في ١٣ أيلول ١٩٣٨م بقيادة عارف عبد الرازق.

المصادر:

١. كيالي، عبد الوهاب، تاريخ فلسطين الحديث، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١٠، ١٩٩٠

٢. السكاكيني، خليل، كذا أنا يا دنيا، ،القدس، ١٩٥٥

٣. منصور، جوني، تحوّلات في رئاسة بلدية حيفا، ٢٠١٣

٤. عقرباوي، حمزة، عصابة أبو كباري، مقال، ٢٠١٣

٥. خلة، كامل محمود، فلسطين والانتداب البريطاني، بيروت، ١٩٧٤

٦. زعيتر، أكرم، مذكرات أكرم زعيتر: بواكير النضال، مؤسّسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٥

٧. بو يصير، صالح محمود، جهاد شعب فلسطين خلال قرن، بيروت ١٩٦٤

٨. الحوت، بيان نويهض القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ١٩١٧- ١٩٤٨ دار الهدى، ١٩٨٦

٩. الموسوعة الفلسطينية ١٩٨٤

١٠. الموسوعة العسكرية

١١. ياسين، صبحي، حرب العصابات، القاهرة ١٩٦٧.

١٢. تاريخ الهاجاناة، المجلد الثاني، الجزء الثاني، ١٩٥٩

١٣. خليفة، أحمد، الثورة العربية الكبرى في فلسطين، الرواية الإسرائيلية الرسمية، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت ١٩٨٩

١٤. القاوقجي، فوزي، مذكرات فوزي القاوقجي، دار القدس ١٩٧٥

١٥. كنفاني، غسان، ثورة ٣٦.

الفن في فلسطين

توصيف

تهدف هذه الورقة لرصد وحصر الحركة الثقافية والفنية في فلسطين، لتأخذ منهج ذات طابع تاريخي سردي، وتتخذ من فلسطين الانتدابية كإطارٍ مكانيٍ للبحث، وفترة ١٩٢٧ إلى ١٩٣٨ كإطارٍ زمانيٍ له وتركّز على فترة الثورة الكبرى ١٩٣٦م.

قسّم الباحث الورقة إلى ثلاثة أقسام:

الشعر والغناء

الفنون التطبيقية والتشكيلية

والفنون الأدائية

وتم إلحاقُ مُلحقٍ بالورقة يحتوي على مواد سمعيةٍ وبصريةٍ وربطها بمتن البحث عبر تشفيرها في الحواشي.

الشعر والغناء

ينفردُ الشعر عن غيره من الأجناس الأدبية والفنية بمجموعةٍ من الخصائص التي تجعله أكثر التصاقًا بالأحداث الثورية والمُتغيّرات الاجتماعية التي تمثّل سياقًا عامًا له، ومن هذه الخصائص سرعة الاستجابة وقدرته على اصطياد اللحظة الثورية وتكثيفها وإشاعتها (إسماعيل، ١٩٧٤، ٣٢).

من هذا المنطق يُمكن النظر إلى الشعر الفلسطيني الذي صاحَبَ أو سبق الثورة الكبرى مُعبّرًا عن طموحاتها وانكساراتها ورؤاها وبواكيرها، والذي مثّله أقطابُ الحركة الوطنية في ذلك العهد (إسماعيل، ١٩٧٤، ٣٢).

واتّسمت الملامحُ الفنّية للشعر والشعر المُغنّى بالتأثّر بالموروث الدينيّ والقوميّ والتاريخيّ والشعبيّ (أبو عليان، ١٩٩٨، ٢٣)، عبر استحضار الملاحم والبطولات والأساطير والمُعتقدات وإسقاطِها على الواقع، وكان هذا سواءً في الشعر الشعبي والشعر الفصيح.

واتّسمت الصورة الشعرية في معظم الأشعار بأنّها معبرةً تعبيرًا مباشرًا لضغط الحوادث وتَلاحُقِها ممّا جعل الشعر أسرع استجابةً لمتطلّبات حاجة جماهير الثورة (أبو عليان، ١٩٩٨، ٢٣)، وتكثُر مصطلحات الفَقْد في ذلك الشعر والتفجُّع بالإضافة للبطولة، كذلك كلمة "وطن" كانت تُردّدُ كثيرًا في شعر تلك الفترة والذي يتبدّى صراحةً أو ضمنًا في صورٍ متعدّدة.

عالج الشعر عدّة موضوعاتٍ مهمّة في الثورة وما قبلها، وضمن الإطار الزمنيّ للبحث نستطيعُ البدء من حوادث هَبّة البراق ١٩٢٩م حيثُ تمّت صياغةُ التجربة الثورية في قصائدَ وأغانٍ بديعةٍ بسيطة التركيب وغُنّيت بالعواطف.

وليصنع الشعر والأغنية مسردًا زمنيًا للأحداث.

١٩٢٧-١٩٢٩

يؤرّخ شاعرنا الشعبيّ لثورة عام (١٩٢٩) بشعرٍ شعبيٍّ على وزن (الدلعونا):

صارت الثورة في القدس صارت   وديوك العرش في السّما صاحت
شباب العــرب عليها صاحــت   بْسَحب الخناجر على الصهيونـا

صــارت الثــورة بْبــاب الخليـلِ   ودم الصهيوني عالأرض بيسيلِ
شبـابُ العــرب شيـلو المـرتيني   نحمي وطنّــا من الصهيونـــا

يمّــا يـــا يمّــا أوعــي تنــهمّي   فِــدا للوطـن ضـحّيت بدمّــي
مــع القرايـــب وِاولادِ العــمّ   شبــاب الوطـن لا تِنْهَمّونـــا

(شعر شعبي مجهول المصدر)

لتتبعها قصيدة إبراهيم طوقان (صامتٌ لو تكلّما) التي جاءت لوصف الفعل البطوليّ الذي قام به "محمد عبد الغني أبو طبيخ" عند محاولته اغتيال المُدّعي العام البريطاني بنتوتيش ١٩٢٩.

١٩٣٠-١٩٣٣

وجاء إعدام الشهداء الثلاثة في سجن عكّا في ١٧-٦-١٩٣٠ لتثير غضب كلّ الفلسطينيين

وقد وثّقها إبراهيم طوقان في قصيدته "الثلاثاء الحمراء" (طوقان ١٩٩٣: ١٣٢)، وألّف نوح إبراهيم قصيدته المُغنّاة التي أعادت فرقة العاشقين إحياءَها "من سجن عكّا".

وتتابع الأحداث لتشكّل بواكير الثورة الكبرى في بداية الثلاثينات، ليقوم الشعر الشعبي بتوثيق بطولات أبو جلدة والعرميط بأبياتٍ على وزن المربع والدلعونا وأهازيج تتغنّى ببطولاتهم:

قال أبو جلدة وأنا الطموني كل الأعادي ما بهموني

قال أبو جلدة وأنتا العرميطي وأنا إن متت بكفيني صيتي

قال أبو جلدة يا خويا صالح اضرب لا تخطي والعمر رايح

قال أبو جلدة وأنا العرميطي والله من حكم الدولة لفظي

وأبو جلدة ماشي لحاله والعرميط راس ماله

وأبو جلده والعرميط ياما كسروا برانيط

(تراث شعبي)

ولتتصاعد الأحداث حتى وصلت إلى هبّة يافا ١٩٣٣م التي أُصيب بها موسى كاظم الحسيني رئيس اللجنة التنفيذية العربية (والد عبد القادر الحسيني)، والذي تُوفّي بأثر تلك الإصابة لاحقًا، وقد وثّقها الشاعر بقصيدةٍ شعبية:

أما مصيبةً يا جماعة
ما بقي رحمة يا جماعة
لَيّموها حاجِة فظاعة
هللي بيملك شقفة دار
افتكر لي نفسه (روتشيلد)
انتفخ وزاد الأجار
وع المستأجر صار يستبد
لا بترحموا واحد فقير
ولا بترحموا صاحب عيال

من جوركم رايح أطير

يا للي بتعبدوا الأموال

يا ريتنا نموت يا ريت

ونخلص من جور الملاّك

شو هالحالة يا حسرة

حكومتنا غاضّه النظر

ولساها فاتحة الهجرة

لليهود تروح هدر

(اللحام ١٩٣٣)

١٩٣٤-١٩٣٨

في عام ١٩٣٤ كتب إبراهيم طوقان قصيدة موطني (طوقان ١٩٩٣: ٢٦٤. ٢٦٥) ولحّنها الموسيقار اللبنانيّ "محمد فليفل" ليصبح النشيد الرسميّ لفلسطين.

وجاء استشهادُ القسّام ومجموعته في ١٩٣٥م كبروفا أخيرة لاستراتيجية الثورة وتكتيكاتها لتكون حركة القسام[٧] لحظةً مفصليةً في وعي كلّ الفلسطينيين ليتمّ استحضارُها في كلّ مراحل النضال الفلسطيني لاحقًا[٨].

شعر الثورة:

نستطيع تقسيم الشعر أثناء الثورة إلى شعرٍ شعبيٍّ وشعرٍ بالفصحى.

الشعر الشعبي

ترجع أصول الشعر الشعبي، والحكايات الشعبية في المجتمع الفلسطيني إلى جذورٍ عالميةٍ مُشتركة، مع المجتمعات الأخرى، توارثتها الأجيالُ عن الأمم البدائية، ومعتقداتها الدينيّة القديمة، فضلًا عن عوامل محليةٍ إقليميةٍ أخرى.

ثمّة عوامل كثيرةٍ أخرى أثّرت في الشعر الشعبيّ عند المجتمع الفلسطيني، لخصوصية هذا المجتمع، الذي وقع تحت نير الاحتلال، لقرونٍ عدّة.

فهناك قصص حبٍّ رائعة، تكشفُ عن نُبل العواطف، تضاهي روائع الأدب العالمي،

وأيضًا، قصصٌ كفاحيةٌ مرتبطةٌ بالكفاح والنضال ضدّ الاحتلال، منذ العصر العثماني حتّى الآن، تنتقل من الآباء إلى الأبناء، ومن الأجداد للأحفاد. وهي قصصٌ ذات إطارٍ سياسيٍّ، ومضمونٍ وطنيّ، وطبقيّ، في آنٍ (الخزامي ،صامد).

شارك الشعر الشعبي بدورٍ واعٍ في خدمة القضية الوطنية الفلسطينية، مُناهضًا للاحتلال، مُحفّزًا على المقاومة، بجوار الفنون الأخرى. كما تُعدّ ثورة ١٩٣٦م، مُنعطفًا جديدًا في تاريخ الأغنية الشعبية في فلسطين، في موازاة المقاومة في هذه الثورة (حسني ج٤: ١٦. ١٧).

ركّز شعر الثورة الشعبي في ثلاثة موضوعات: شعر المعارك، شعر البطولات الفردية الشعبية، وشعر الحماسة (حسني ج٤: ١٦. ١٧)، بالإضافة للتنويحات والرثاء إن كان للذات أم للآخر.

تُعدّ الاحتفالات الشعبية (المواسم الدينية كموسم النبي موسى) واحدةً من أهمّ وسائل التعبير الثقافي، والتي لاقت اهتمامًا كبيرًا في ثورة ١٩٣٦م، فكان هناك الاحتفال بإحياء المواسم الشعبية الفلسطينية، مع استعراض القوة (سرحان ١٩٨٩ : ١٦-١٧).

وبرز في الثورة عدّة شعراء شعبيين وقد انخرطوا في النضال وخاضوه، والبعض استُشهد والآخر زُجّوا في السجون.

ومن هؤلاء: فرحان سلام، فريد عودة (اعتُقل في سجن صرفند)، والشاعر موسى محمد الرحال الذي كان يحرث الأرض نهارًا ويكمُن للعدوّ ليلًا (عباس ١٩٨٩: ٣٦،٣٧)، بالإضافة لشاعر الثورة نوح إبراهيم، وسلمى الخضراء الجيوسي، والشهيد سبيتان عوض وصبري شبلاق، ومحمود زقوت.

استُخدم الشعر في عدّة مجالاتٍ منها:

صناعة الهوية الوطنية الفلسطينية وتصليب المُجتمع ونبذ التناقضات، فقد قال الشاعر نوح إبراهيم:

يالله يا رجال الأحزاب   تتناسوا الأحقاد الشخصية
أفراد الشعب تطالبكم   والأقصى يحلّفكم
تبقى وحدة كلمتكم   جمعًا لإخلاص النية

(حجاب ٢٠٠٥)

وأضاف في قصيدةٍ أخرى لتجنّب محاولات العدو من تقسيم المجتمع دينيًا وطائفيًا:

المسلم والمسيحي　　اتّحادهم قوي ومنيع
والدين والمذهب لله　　أما الوطن للجميع

(حجاب ٢٠٠٥)

وقام الشعراء الشعبيون بتوثيق وتأريخ ونشر أخبار المعارك عبر الشعر، بالإضافة إلى استخدام الشعر كبيانات عسكرية وأداة لنشر المعرفة والثقافة العسكرية، وكصوت صادح في نشر استراتيجية وأوامر القيادة للشعب (حجاب ٢٠٠٥، ٢٠٢) في كافّة مراحل الثورة ولنشر بطولات الثوار وتخليد ذكرهم وبطولاتهم ووصف المعارك، والحثّ على الاستمرار، كما جاء الشعرُ الشعبيّ لمحاورة والرد على الإجراءات البريطانية والعدو الصهيوني عبر خطابات ساخرة أحيانًا (حجاب ٢٠٠٥: ٢٠٦) وعبر نصائح صيغت بالشعر (قصيدة "يا فخامة المندوب" وقصيدة "دبرها يا مستر ديل") (حجاب ٢٠٠٥: ٢٠٢. ٢٢٧).

وتُعتبر قصيدة محمود زقوت التي وثّق فيها معركة "المنطار / بلعا" أشهر القصائد التي قيلت في المعارك (قصيدة "هزّ الرمح بعود الزين" غنّتها فرقة الفنون الشعبية الفلسطينية)، ووثّق نوح إبراهيم معركة جورة بحلص في الخليل ومعركة بني نعيم، كذلك وثّق إضرابات عمال الميناء مع بداية الثورة، وبأثرٍ رجعيٍّ تغنّى مُحارب ذيب بمعركة الدبّابات في كفر صور ومعركة جبل الكرمل.

وتغنّى الشاعر عبد الهادي كامل بالإضراب:

حيّ البلاد تجيد في إضرابها　　في شيبها وحِسانها وشبابها
عاشت على الإضراب ستة أشهر　　والخير ملء وهادها وشبابها
ظلّت تململ تحت أثقال الأسى　　مزرودة في همها ومصابها
حتى انتهت في صبرها ويقينها　　فبدت تقول اليوم فصل خطابها
يا أيها الرجل الذي أوته في　　أحضانها وكسته في جلبابها
إن لم تذد عنها وعن ساحاتها　　فدع الرجولة لست من أربابها
واقعد مع الجبناء أسوأ مقعد　　ودع السبيل لدعدها وربابها

إن الخطوب إذا مهدت أمامها　　نهشتك أو عضّتك في أنيابها
فاربأ بنفسك أن تكون من الألى　　وهنت عزائمهم أمام صعابها

كذلك استُخدم الغناء كأسلوب مقاومة خفيّة، وتتكرّر الأحداثُ التي استُخدم فيها الغناء بالمجهود الحربيّ المُباشر، مثل أغنية "يا طالعين عالجبل"[11] التي غنّتها النساء لنقل رسائل بين المعتقلين في سجن عتليت وبين الثوّار في الجبال، كذلك مع استحداث الانتداب آلية استخدام الفلسطينيين كدروع بشرية، بحيث كان يتمّ وضع المدنيين في أول أو مؤخّرة القوافل العسكرية لمنع ضربها من قبل الثوار، ليحتال الناس على الإنجليز بالغناء:

على دلعونا وعلى دلعونا　　احنا الأوالى ولا تضربونا
على دلعونا وعلى دلعونا　　احنا الأخارى ولا تضربونا

واستُخدم الشعر في تخليد الثوار، بدايةً من قصائد نوح إبراهيم لرثاء القسام، ومرورًا بتخليد بطولة "حسين بالمرجلة زايد" قائد منطقة الغور والذي استُشهد في الثورة:

يا وجد قلبي على القايد　　سوء الليالي نعشونه
وحسين بالمرجلة زايد　　ما أظن البيض يليدونه
يا حسين ريقك عسل ذايب　　يا حسين ريقك عسل والله
يا حسين ماظل لنا قودة　　حزب المواسير بطناه
يا حسين عصتك سابت　　حرب الموازر له حناة

(زياد ١٩٧٠: ٢٤)

وقام توفيق زياد لاحقا بتخليد ذكرى حسين العلي قائد فصيل بيسان بقصيدته المغنّاة سرحان والماسورة[12].

وتعتبر أشهر قصيدة في الرثاء هي قصيدة الشاعر سبيتان عوض (كلّ المصادر التي اطّلعتُ عليها ومحاورةً مع الفنان محمّد الهباش من فرقة العاشقين يقولون أنّ اسمه عوض النابلسي، إلا أنّي من خلال البحث توصّلتُ إلى أهله وتبيّن أن عوض هو اسم العائلة وقد زودونا بصورةٍ ومعلوماتٍ عن الشهيد)، الشاعر المقاتل من قرية الجية الذي باع مصاغ زوجته لشراء بندقيةٍ وأعدم له أخوان (رفاق وليس أخوة) في الثورة

وقد قال قصيدةً عشية إعدامه كان قد خطّها بالفحم على جدار الزنزانة "يا ليل خلّي الأسير تيْكمّل نواحو" وقد غنّتها فرقة العاشقين.

نوح إبراهيم

ولد نوح إبراهيم عام ١٩١٣م في مدينة حيفا، ونشأ في عائلة شعبية فقيرة، وتلقّى فيها دراسته الابتدائية، ولكنه لم يلبث أن تركها واضطرّ للعمل في إحدى المطابع. تفتّحت فيه روح الشاعر الشعبيّ في سنٍّ مبكّرة فأصبح الروح الحيّة في الأندية والمنظّمات الكشفية ومنظّمات الشباب والعمال فكان يُلقي قصائد حول الأحداث المتلاحقة في تلك الفترة، وكانت له نشاطاتٌ اجتماعيةٌ ووطنيةٌ متعدّدة. وهو يُعرف بأنّه الشاعر الشعبي لثورة (١٩٣٦ - ١٩٣٩) ومن أشهر قصائده المُغنّاة (من سجن عكا طلعت جنازة).

اعتُقل نوح إبراهيم عدّة مرات من قبل السلطات البريطانية، ولم يُسمَح له بنشر أشعاره في كتاب، ولم يُجمع شعره حتّى الآن إلا جزئيًا. وقد تحوّل الكثير من شعره إلى هتافات على أفواه الناس في المسيرات والمظاهرات.

وفي عام ١٩٣٧م اعتُقل، في سجن المزرعة ثم في سجن عكا وقضى فيهما خمسة أشهر، وبعد خروجه من المعتقل التحق بصفوف الثوّار عام ١٩٣٧م.

وظلّ نوح إبراهيم يُقاتل ويكتب ويلحّنُ حتى استُشهد، في معركة حول قرية طمرة، إحدى معارك جبال الجليل، عام ١٩٣٨م وهو في طريقه للاشتراك في اجتماع قيادة الثورة في منطقة الجليل الغربي، ودُفن هناك.

ومن المعارك المشهورة التي شارك فيها الشهيد وتركت أثرًا في نفسه معركتا "جورة بحلص" و "وادي التفاح" في جبال الخليل.

نظّم نوح إبراهيم عددًا كبيرًا من الأهازيج والقصائد الشعبية حول مُختلف القضايا والأحداث الوطنية والسياسية الفلسطينية والعربية في تلك الفترة.. وذاع صيتُ أغانيه بشكلٍ واسع، وبعضها ما زال مُتداولًا حتّى اليوم..

ومن قصائده الشعبية المشهورة التي لحّنها وغنّاها بنفسه، وما زالت كلّ الأجيال التي وعت فترة الثلاثينات تحفظُها عن ظهر قلب.. القصيدة التي قالها إثر استشهاد الشيخ المجاهد "عز الدين القسام" بعد معركته الشهيرة مع الجيش الإنجليزي في أحراش يعبد.

عز الدين يا خسارتك

رحت فدا لأمتك

مين بينكر شهامتك

يا شهيد فلسطين

عز الدين يا مرحوم

موتك درس للعموم

تُعتبر قصيدة "دبّرها يا مستر دلّ" من أشهر القصائد الشعبية لنوح إبراهيم، وقد حفظها في ذلك الزمن الكبير والصغير، وهي قصيدةٌ طويلةٌ تتألّف من عدّة مقاطع، يطلب الشاعر فيها من المستعمر أن يسلّم بحرية شعبه الفلسطيني واستقلاله، ويُندّد فيها بمحاولات الإنكليز قمع الثورة ومُطالبًا بمنع بيع أراضي العرب، ووقف هجرة اليهود إلى فلسطين. والمستر "دلّ" هو القائد العام للجيش البريطاني في بلادنا في تلك الفترة.

ولم يكن المستر "دلّ" الوحيد الذي خاطبه نوح إبراهيم شعرًا وغناءً، بل خاطب الكثيرين من مُمثّلي السلطة البريطانية المركزيين.. ومنهم المندوب السامي البريطاني في فلسطين الجنرال "غرينفيلد وكهوب"، وندّد بتآمره مع الحركة الصهيونية واغتصاب حقوق العرب خلال مدّة حُكمه كلّها.

وواكب نوح إبراهيم بحسّه ووعيه الوطني السياسات البريطانية الجائرة تجاه قضية شعبه وهمّه اليومي، وكان لها بالمرصاد مع رفاقه الثوار لا بالسلاح فقط، وإنّما بالكلمة المقاتلة.. الكلمة الرصاصة. ولمّا كانت الحكومة البريطانية كثيرًا ما تلجأ إلى تشكيل لجان التحقيق نتيجةً للهبّات الشعبية الثورية، لكسب الوقت وطمأنة العرب والاحتيال لتهدئة الأحوال، حتى بلغ عددُ اللجان تلك أربعًا كان آخرُها "لجنة التحقيق الملكية" التي وصلت البلاد في ١٢ تشرين الثاني سنة ١٩٣٦م.

كما غنّى نوح إبراهيم بعد الإضراب المشهور الذي أعلنه بحارة ميناء يافا (على إثر انكشاف عملية تهريب أسلحة للحركة الصهيونية) والذي كان فاتحة حركةٍ إضرابيةٍ سياسيةٍ واسعةٍ جداً (حجاب ٢٠٠٥) (شبيب، ٢٠٠٣) (أبو هدبا ٢٠٠٣: ٣،٤).

الشعر بالفصحى

يمكن القول أنّ الأشعار التي صاحبت ثورة ١٩٣٦م تمثّل المرحلة الثالثة في تطوّر الشعر الفلسطيني، والتي جاءت بين الحربين العالميتين، وقد اتّسمت تلك الأشعارُ بتطوّرٍ ملحوظٍ على مستوي الثيمات الموضوعية، والبناء الفني، فقد كان هناك اهتمامٌ على مستوىً الثيمات بالقضايا السياسية والاجتماعية وعلى المستوى الفني التزم معظم الشعراء بوحدة الوزن والقافية ومع هذا كان هناك نزوعٌ للتجديد تمثّل في التخلص من التكلف واصطناع الزخارف اللفظية وكان هناك اتجاهٌ للبساطة والوضوح والمباشرة، على أنّ أهمّ ما يُمكن رصده في تلك الفترة هو مفهوم "الشاعر/المناضل" كمثال عبد الرحيم محمود الذي استُشهد في معركة الشجرة في فترةٍ لاحقة.

تنوّعت الثيمات الموضوعية للشعر في تلك الفترة، من تنبّؤ الشعراء بالمستقبل، وشعر المُعارضة السياسية وتمجيد البطولة والمديح للأبطال والتغنّي بالمناطِق الثائرة، والتغنّي بالتضحيات ورسم صورة الشهيد ومكانة المرأة في الصراع، ورسم الهوية الجمعية في مواجهة العدو.

ومن أهمّ الشعراء في تلك الفترة: مطلق عبد الخالق، محمد حسن علاء الدين، فدوى طوقان، برهان العبوشي، إبراهيم الدباغ، اسكندر الخوري البيتجالي، عبد الرحيم محمود، إبراهيم طوقان، وعبد الكريم الكرمي أبو سلمى.

الفن التشكيلي والتطبيقي

لم يكن هناك ازدهارٌ حقيقيٌّ للفنّ التشكيلي ما قبل النكبة وذلك يرتبطُ بالانشغال في مواجهة المشروع الصهيوني وبعدم قدرة الفنّ التشكيلي على توفير الاحتياجات الأساسية للفنّانين كما كانت أسبابٌ دينيةٌ وحياتيةٌ تعوّق تطور الفن التشكيلي، لذلك تمّ الاتجاه إلى الفن التطبيقي.

يُعد الرسامين (الصايغ - توفيق جوهرية - داود زلاطيمو) من الطلائع الريادية الأولى لولادة فنّ تشكيليّ فلسطينيّ مُتصل بالنزعة السياحية والجمالية.

وكان الفنان "حنا سعيد حاج مسمار" المولود في مدينة الناصرة عام ١٨٩٨م الذي التحق بالمدرسة الألمانية التي وجد في أحضانها ميله لتعلّم فنّ الخزف كأول دارس أكاديميٍّ في ألمانيا ليفتح بعد تخرّجه عام ١٩٢٥م محترفًا لإنتاج القطع الخزفية ذات اللمسات النفعية التراثية.

والفنان (فضّول عودة) المولود في مدينة الناصرة عام ١٩٠٦م درس في إيطاليا وحصل على الإجازة الجامعية في ميادين الرسم والتصوير، وليعود لفلسطين ومزاولة مهنة تدريس التربية الفنية.

ويُعتبر الفنان جمال بدران المولود في مدينة حيفا عام ١٩٠٩م أول الدارسين في "مدرسة الفنون والزخارف" بمدينة القاهرة والمتخرج عام ١٩٢٧م ليعمل مدرّسًا في الكلية العربية والمدرسة الرشيدية بمدينة القدس، خريج مدرسة الفنون والزخارف بالحمزاوي في مصر، شارك بلجنة إعمار المسجد الأقصى والترميمات التي أجريت فيه عام ١٩٢٩م، وترميم محراب صلاح الدين بالأقصى، ودرّس في الكلية العربية والرشيدية وعمل مفتّشًا مساعدًا للفنون في إدارة المعارف بالقدس قبل أن يوفد إلى بريطانيا حيث درس خلال ثلاث سنوات حوالي ستّ حرف فنية منها الخزف وتطريق النحاس وتصميم النسيج، وعاد إلى القدس عام ١٩٣٧م واستفاد من تدريسه العديدُ من الفنانين (أبو راشد: مقالات).

وكان له أكبر الأثر في كشف المواهب الفنية من الذين تتلمذوا على يديه في فلسطين، ونذكر منهم أخوته "عبد الرزاق، خيري"، وعبد الرزاق بدران الذي التحق بالدراسات الفنية في مدرسة الصناعات الزخرفية (قسم النقش والزخرفة) في بولاق وحصل على دبلومها بامتياز، وفي عام ١٩٣٦م التحق بمدرسة الفنون التطبيقية بالجيزة ليتابع دراسته العليا فيها، فزاد على اختصاصه الأول: الزجاج الزخرفي المُلصق بالرصاص وقد كان أحد مناضلي ثورة، وانتقل إلى فلسطين مُستوحيًا من تراثها الغزير بالجمال ممثّلًا في أزيائها، وليسجل لوحات متأثّرةً بثورة ١٩٣٦م ومتفاعلةً معها، وحين عاد زعماء فلسطين من منفى سيشل قدم لهم وهم في طريق عودتهم من القاهرة لوحة تذكارية حملت معاني الثورة وتضحيات الشعب وأبطاله ١٩٣٦م.

واكتشف بدران أيضًا محمد وفا الدجاني المولود في مدينة القدس عام ١٩١٤م والمُتخرج من مدرسة الفنون التطبيقية في القاهرة من قسم التصميم الداخلي والنحت عام ١٩٣٦م ليعمل مُدرّسًا للتربية الفنية في الكلية العربية والمدرسة الرشيدية والعمرية بالقدس. كان مغرمًا بإنتاج المُجسّمات الفنية المُكرّسة لفلسطين ومدنها الرئيسة.

ومن الأسماء الفنية التي ظهرت إبان وعقب الثورة الفلسطينية الكبرى عام ١٩٣٦م

فيصل الطاهر، خليل بدوية المولودان في مدينة يافا واللذان استُشهدا في الثورة.

فيصل الطاهر من مواليد يافا، أنهى تحصيله بدبلوم الصناعات الزخرفية وعمل في الكويت لمدة سنةٍ واحدةٍ ثم التحق بثورة ١٩٣٦م، واستُشهد بعد أن اشترك في عدّة عملياتٍ ضدّ العدو الصهيوني وقد كان خبيرًا في المتفجّرات.

خليل بدوية: وُلد الشهيد المجاهد خليل إبراهيم بدوية في مدينة يافا سنة ١٩١٧م، وتلقّى دراسته الابتدائية والثانوية في مدينته، ثم سافر إلى القاهرة فانتسب إلى جامعتها، وحينما نشبت الثورة الفلسطينية سنة ١٩٣٦م عاد إلى يافا لينضمّ إلى قوات الثورة.

خاض خليل عدّة معارك وكانت آخرُ معركةٍ يشارك بها هي معركة بلعا الثانية في ٣ أيلول ١٩٣٦م.

داود الجاعوني المولود في مدينة القدس عام ١٩١٦م درس في الأزهر لمدّة عام ثمّ تعلّم الرسم والخط والزخرفة بمدرسة الفنون التطبيقية بالقاهرة عام ١٩٣٨م، عمل مدرّسًا للرسم والخط والزخرفة في مدارس القدس والمجدل حتى عام ١٩٤٨م حيث انتقل لمدينة غزّة ثم الكويت لوحاته مسكونةٌ بجماليات الخط العربي.

وشريف الخضرا المولود بمدينة صفد عام ١٩١٧م والمُتخرّج من مدرسة الصناعات الزخرفية عام ١٩٣٨م وفنّ التصوير الملوّن في معهد "ليوناردو دافنشي" في القاهرة.

وداود زلاطيمو المولود في مدينة القدس عام ١٩٠٦م الذي دخل ميدان الفن من باب الهواية والدراسة الذاتية والتحاقه بالدورات الفنية التي تقوم بها إدارة المعارف والفنون ما بين ١٩٣٠ - ١٩٣٦ والعمل كمدرّسٍ للفنون في خان يونس حتى عام ١٩٤٨م ومن طلابه المميّزين الفنان (اسماعيل شمّوط)، لوحاته تشخيصيةٌ مُخلّدةٌ للتاريخ العربي ورموزه وأبطاله عبر العصور (المناصرة ٢٠٠٣).

الفن الأدائي

يقسم محمد البطراوي في دراسته (البطراوي) المسرح إلى نوعين، المسرح الشعبي والمسرح الحديث.

المسرح الشعبي

"كانت سبل التسلية والسمر تقوم على رواية القصص والألعاب ورواية الملاحم كتغريبة بني هلال والزير سالم وحمزة البهلوان وراس الغول التي كان يرويها الشعراء بمصاحبة الربابة حيث يقوم الشاعر أحيانًا بتلبُّس حالة البطل الذي يروي عنه، فيصولُ ويجولُ وهو جالسٌ في مقعده كأنّه يمتطي حصانًا في المعركة، وفي قمّة الانفعال يقذفُ بقدح الشاي أو القهوة الذي يكون موضوعًا امامه على الطاولة، كان هذا نوعًا من التمثيل شائعًا جدًا في القرى، لا تمرّ ليلةٌ من دونه في دواوين القرية ثمّ مقاهيها بعد أن عرفت القرى المقاهي"(البطراوي)، وكان هناك خيال الظل ويُطلِق عليه "كراكوز وعواز"(البطراوي).

ولاحقًا أُضيف مسرحٌ شعبيٌ جديدٌ في القرى وفي شكله يتّفق تمامًا مع أحدث النظريات المسرحية؛ حيث ينعدم الديكور والإضاءة (لنفي الإيهام بالواقع) وينعدمُ النص (كما يقول غروتوفسكي) ولا يبقى غيرُ الممثّل والنظارة، أي أنّ العمل يقومُ على الخلق العفويِّ المُرتجل للقصة ومسارها وحلِّها وخلق الشخصيات ونمائها.

وكان يُطلق عليه "الشنيعة والمليحة" والمُرجّح أنّ الاسم اشتُقّ من بدايات الشكل المسرحيِّ هذا، حيثُ كان التمثيل يبدأ بثلاث رجال، اثنان منهم يلبسون لباس النساء كزوجتين للممثّل الثالث، وتقوم البداية على مشكلة بين الزوجتين لينحاز الزوج لـ "للمليحة" ضدّ "الشنيعة"، ورغم تعدُّد المواضيع لاحقًا إلاّ أنّ اسم النشاط ظلّ "الشنيعة والمليحة"، وقد ترك لنا الشهيد الشاعر نوح إبراهيم أسطوانةً مُسجّلةً لملحمته التي تتوافق مع هذا النمط من العمل المسرحي بعنوان "مشحّر يا جوز الثنتين".

المسرح الحديث

يرى كمال غنيم أنّ أول مسرحية حديثة تمّ عرضُها في فلسطين تعود لعام ١٨٣٤م (غنيم)، يوثّقُ الدكتور ياسر الملاح ٧٠ مسرحيّةً بين الأعوام ١٩٢٩-١٩٤٨ (الملاح)، وقد وردت أغلبُ أسماء المسرحيات في مجلة الزهرة الحيفاوية، والمقتطف المصرية والأديب اللبنانية، كتبت مجلة الزهرة الحيفاوية أو أعلنت عن المسرحيات.

في مطلع القرن العشرين تمّ إنشاء "جمعية التمثيل العربي في حيفا" لكن لا نعرف شيئًا عن نشاطها، وفي ١٩١٥م قام المنتدى الأدبيّ في القدس بتمثيل رواية "صلاح الدين"،

على أنّ أوّل أثرٍ مكتوبٍ محليًا كان مسرحية "قاتل أخيه" لجميل البحيري والتي طُبعت في ١٩١٩م.

ومن روّاد العمل المسرحي في فلسطين:

جميل البحيري، نجيب نصار، نصري الجوزي، جميل الجوزي، فريد الجوزي، صليبا الجوزي، اميل الجوزي، محيي الدين الحاج عيسى الصفدي، شكري سعيد، إبراهيم طوقان، اميل بيدس، أنور عرفات، إلياس نصر الله، برهان الدين العيوشي، محمود سيف الدين الإيراني، وديع وشفيق ترزي.

وقد أحصيت أكثر من ٤٧ فرقةً مسرحيةً فلسطينيةً قبل النكبة (البطراوي).

أمّا عن الفترة الزمنية للبحث فجديرٌ بالذكر التركيز على عدّة مسرحياتٍ ومسرحيين وفِرَقٍ كان لها دورٌ فاعلٌ في الساحة الثقافية الفلسطينية.

وكان الدور الفاعل في هذه المرحلة خصوصًا في العشرينات لإنماء الحركة المسرحية الفلسطينية ذات الطابع الوطنيّ والقوميّ لثلاثة رجال: محمد عزة دروزة وخليل بيدس الذي أخرج بين عامي ١٩٢٤ و١٩٢٨م في الناصرة مسرحية "وفاء العرب"، والشيخ محمد الصالح مؤسّس مدرسة وروضة المعارف الوطنية وقد مثّلت مدرستُه عدّة مسرحياتٍ أهمّها مسرحية "عبد الكريم الخطابي".

كانت أولى المسرحيات التي أُلّفت في مدينة حيفا من نتاج الأديب جميل حنّا البحري في العام ١٩٢٢م بعنوان "الحقّ يعلو"، وعرضتها الفرقة المتجوّلة في العام ١٩٢٣م، أما الرواية الثانية فؤاد وليلى، فقد كتبها في العام ١٩٣٠م، وقامت بعرضها فرقة الجوزي في العام ١٩٣٦م، وتمّت إذاعتها من الإذاعة الفلسطينية "هنا القدس" عام ١٩٣٧م. وتمثيلية الشموع المُحترقة في العام ١٩٣٠م وطُبعت في العام ١٩٣٦م وعُرضت على المسارح الفلسطينية والأردنية واللبنانية بين السنوات ١٩٣٧ -١٩٤١م.

وبدأت تشهد المدينة نشاطًا مسرحيًا ملموسًا من خلال تأسيس "جمعية التمثيل الأدبي" ثم جمعية "الرابطة الأدبية".

وتوجّهت هاتان الجمعيتان وغيرهما إلى الأديب جميل البحري بطلب وضع مسرحياتٍ

يجري إخراجُها مسرحيًا وتُعرض أمام الجمهور العربي سواءً على خشبات المسارح المدرسية أو على مسارح المدينة، مثل مسرح/سينما كولزيوم في شارع اللنبي، وسينما عين دور، ومسرح وسينما الأمين وعدن وغيرها، أو في حدائق المتنزّهات كمتنزه الانشراح ومتنزّه كراكين.

ولم تقتصر الحياة الثقافية على إنتاج محليٍّ وهو مباركٌ بطبيعة الحال لمجتمع فتي، إنّما حضرت إلى حيفا فرقٌ مسرحيةٌ كثيرةٌ وعلى رأسها "فرقة رمسيس" المصرية برئاسة يوسف وهبي، وأيضًا فرقٌ للممثل العربي المعروف جورج أبيض الذي وضع أُسُس المسرح العربيّ الحديث.

ولعبت جمعية الرابطة الأدبية دورًا بارزًا في دفع الناس إلى الإقبال بأعدادٍ كبيرةٍ لحضور هذه المسرحيات.

وفي أعقاب تأسيس الجمعية الإسلامية في حيفا اتّسعت دائرة الخدمات الاجتماعية والثقافية، حيث أنّ من بين اهتمامات هذه الجمعية نشرَ ثقافة حضور الجمهور المسرحيات ذات التوجُّهات الاجتماعية والتربوية لبناء مجتمعٍ عربيٍّ سليم.

ولكن الجانب الأهمّ في كلّ ما نتحدّثُ عنه في ثقافة المسارح أنّ أوّل فرقة تمثيلية تأسّست في فلسطين العربية كانت "فرقة الكرمل التمثيلية" بإدارة وإشراف الفنان الحيفاوي اسكندر أيوب بدران.

ولهذا الرجل فضلٌ كبير على الحياة المسرحية في حيفا، فهو لم يحترف الفن التمثيلي بغاية الكسب المادي، إذ أنه عمل موظفًا في قسم إدارة حسابات شركة "سبيني"، وفي أوقات فراغه وبعد الدوام كان يديرُ مسرحًا.

وكانت زوجته ثريا (توفيت في بيروت ١٣ آب ١٩٩٨م) تشارك في التمثيل، لأن الفتيات مُنعن في ذلك الوقت من ممارسة التمثيل المسرحي. ومن أهمّ المسرحيات التي عرضتها هذه الفرقة كانت لشكسبير "هملت". وقد قدّم إبراهيم طوقان بحثًا عن وفاء السموأل في ٢٠ أيلول ١٩٣٦م وعرضها كمسرحيةٍ عبر الإذاعة الفلسطينية.

وقام أنور عرفات بكتابة مسرحية "ولكم في الحياة قصاص" عام ١٩٣٤م، وترجم الياس نصر الله مسرحية ناثان الحكيم في عام ١٩٣٢م، وكتب برهان الدين العبوشي أثناء الثورة مسرحية "وطن الشهيد"، وفي نفس الفترة كتب محمود الإيراني ابن يافا

مسرحية "اللهب"، وقام الأخوين ترزي بكتابة مسرحية "في سبيلك يا وطن" ومثّلها فريق مدرسة الفرندز عام١٩٣٤م.

ومن الجدير ذكرُه أثر الإذاعة على العمل المسرحي والفني، فقد ظهرت إذاعة القدس بعد الإذاعة المصرية التي امتلكت الأثير في ١٩٣٤م، بدأ إرسال إذاعة القدس في ١٩٣٦م،وكان عدد أجهزة الراديو في فلسطين ما يقرب من الواحد والعشرين ألفًا وكانت تحتلُ غرفتين فقط في فندق بالاس في القدس، ثم انتقلت إلى شارع مأمن الله في سنة ١٩٣٩م، أمّا أولُ صوتٍ صدح فيها فكان صوت إبراهيم طوقان.

ومن إذاعة القدس بدأ المطرب المصري محمد عبد المطلب رحلته مع الفن، واكتسب من خلالها شهرةً وخبرةً قبل أن يعود إلى مصر. وفي رحاب هذه الإذاعة برز عازف العود المصري عبد الفتاح منسي وهو شقيق العازف أنور منسي زوج المطربة صباح، وكذلك الملحّن اللبناني المعروف فيلمون وهبي.

كان من بين أشهر العاملين الفلسطينيين في هذه الإذاعة صبري الشريف ونجاتي صدقي ورشاد البيبي وغانم الدجاني وصبحي أبو لغد وأحمد جرار وعبد المجيد أبو لبن وكامل قسطندي.

المصادر:

١. اسماعيل، محمد السيد، الشعر والشعراء، قراءة في ثورة ١٩٣٦م، مجلة صامد

٢. أبو عليان، ياسر ، ثورة ١٩٣٦-١٩٣٩ في الشعر الفلسطيني، مجلة الجامعة الإسلامية، العدد الأول، ١٩٩٨

٣. طوقان، إبراهيم، الأعمال الشعرية الكاملة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط٢، ١٩٩٣

٤. الخزامي، آمال، الشعر الشعبي في ثورة ١٩٣٦م، مجلة صامد

٥. حسني، محمود، شعر المقاومة الفلسطينية / دوره وواقعه، الجزء الرابع، مكتبة الأدب والثقافة الفلسطينية، سلسلة الدراسات (٤)، الوكالة العربية للنشر والتوزيع، عمان

٦. سرحان، نمر، موسوعة الفولكلور الفلسطيني، نمر سرحان، الطبعة الكاملة من الألف إلى الياء، الطبعة الثانية، البيادر، عمان،١٩٨٩

٧. عباس، فؤاد إبراهيم ، الموروث الشعبي الفلسطيني في ثورة ١٩٣٦، المطبعة الفنية الحديثة، القاهرة، ١٩٨٩

٨. حجاب ،نمر، الشاعر الشعبي الشهيد نوح إبراهيم، ٢٠٠٥

٩. زياد، توفيق، عن الأدب والأدب الشعبي في فلسطين، دار العودة، بيروت، ١٩٧٠

١٠. شبيب، سميح، الشاعر الشعبي نوح إبراهيم: الشاهد والشهيد، دراسة في ندوة بعنوان "التاريخ الاجتماعي الفلسطيني بين غابة الأرشيف وأشجار الحكايات"، ٢١- ٢٢ تشرين ثاني ٢٠٠٣/ جامعة بير زيت.

١١. أبو هدبا، عبد العزيز، "الشاعر نوح إبراهيم، بالكلمة المنغمة أرخ للثورة الفلسطينية، ١٩٣٥- ١٩٣٨"، مجلة الزاوية، العدد٣- ٤، شتاء- ربيع ٢٠٠٣.

١٢. أبو راشد، عبد الله، أوراقٌ من ذاكرة الفن التشكيلي، مقالات

١٣. البطراوي، محمد، ملامح من المسرح الفلسطيني، مجلة الزاوية

١٤. غنيم، أحمد كمال، جذور الحركة المسرحية في فلسطين.

١٥. الملاح، ياسر، الحياة المسرحية في فلسطين

١٦. المناصرة، عز الدين، موسوعة الفن التشكيلي في القرن العشرين، دار مجدلاوي، ٢٠٠٣

عبد القادر يظلُّ يعود إلى القدس

بعد أنْ قيل عنه "شابٌ فلسطيني في مصر ينسف الجامعة بمصر في وجهها " (قاسمية، ١٩٧٣، ٧) عاد إلى القدس منفيًا من مصر، لربما استخدم الكاتب في حينها مصطلح "ينسف" بشكل مجازيّ حول ذلك الطالب الذي رافقته عمليات النسف طوال حياته اللاحقة، عبد القادر الحسيني ابن رئيس بلدية القدس السابق موسى كاظم الحسيني كان طالبًا في الجامعة الأمريكية في القاهرة أنشأ "أول رابطة طلاب فلسطينية " (قاسمية،١٩٧٣، ٧).

بعد أحداث هبّة البراق في ١٩٩٢م، بعد عودته منفيًا من مصر على "يد حكومة إسماعيل صدقي باشا" (الموسوعة الفلسطينية)، عمل كمحرر صحفيّ في مجلة الجامعة الإسلامية ومن ثم في جريدة اللواء التابعة للحزب العربي، ليبدأ بعد إصابة والده في هبّة ١٩٣٣م ووفاته عام ١٩٣٤م بالإعداد والتخطيط لتشكيل خلايا مسلحة، وما أن بدأت ثورة عام ١٩٣٦م حتى انتقل "المثقف المختلف" (دراج) إلى العمل الجماهيري والسري الذي اعتمد على تفجير المصالح الصهيونية وسكك القطارات وتصفية الضباط، وما أن أطلّ شهر أيار حتى حاول الإنجليز اعتقال عبد القادر الحسيني (محسن، ١٩٨٦) ليتحول إلى العمل العصابي المنظم ويترك القدس باتجاه الريف الذي بنى مع أهله علاقة قوية، لتتعدّد أعماله في تلك المرحلة ويتدرج من الكمائن إلى المعارك الكبيرة وحتى تحرير بعض المدن لعدة أيام، ليصاب في المرة الأولى ويهرب إلى ألمانيا ويمضي فيها ٦ أشهر ويعود مع العام ١٩٣٧ إلى القدس مرة أخرى.

ومن أشهر معاركه التي خاضها معركة الخضر ومعركة عرتوف ومعركة بني نعيم الكبرى، ليصاب في نفس المعركة التي استشهد فيها سعيد العاص، ويتم اعتقاله مصابًا ليهرب من المستشفى في القدس إلى دمشق "عاش ملاحقاً في بلده، ومنفيًا متنقلًا من بلد إلى بلد، لكنه لم يلبث أن تسلّل سرًا إلى بغداد التي كان الحاج أمين الحسيني وصلها من بيروت سنة ١٩٣٩م بعدما كان لجأ إليها سنة ١٩٣٧م بعد وقائع الثورة الكبرى في سنة ١٩٣٦م.

وفي بغداد اعتقل ووضع في سجن معسكر الرشيد. وتدخل عدد من الملوك والرؤساء

العرب لإطلاق سراحه، ونجحت وساطة الملك عبد العزيز فأُفرج عنه، وغادر إلى السعودية سنة ١٩٤٣م التي أقام فيها أقل من عامين، ثم سافر سنة ١٩٤٤م إلى ألمانيا وخضع لدورة في المتفجرات التي أتقنها اتقانًا تامًا" (أبو فخر، ٢٠١٠).

في صيف ١٩٤٦م وبعد عودة المفتي أمين الحسيني إلى القاهرة، فقد اجتمعت الهيئة العربية العليا مع بعض القادة السابقين في ثورة ١٩٣٦م وتم الاتفاق على تشكيل "الجهاد المقدس" لوصولهم إلى قناعة أن الحرب قادمة لا محالة وللتطورات السياسية والعسكرية بعد الحرب العالمية الثانية في فلسطين ولرؤيتهم التضخم الاقتصادي والعسكري والتنظيمي للعصابات الصهيونية في فلسطين.

في خطوةٍ أولى تمّ تشكيل بعضٍ الوحدات الصغيرة التي تتكون من خلايا عدد أفرادها لا يتجاوز الخمسة أشخاص أنيط بهم تنفيذ بعض المهام الخاصة.

ومن هذه الوحدات:

وحدات الحرية: عهد إلى هذه الوحدات العمل على تنفيذ مقاطعة البضائع الصهيونية، فأخذت تطارد المتعاملين مع اليهود وتلقي على بيوتهم ومخازنهم القنابل والمتفجرات كما حُرقت بعضُ المخازن بعد إنذار أصحابها عدّة مراتٍ وخروجهم عن أوامر المقاطعة، وكان يقودها صبحي أبو غربية.

فرق القوة: عهد إليها مقاومة عمليات بيع الأراضي ومطاردة السماسرة، وقد تمكنت هذه الفرق من القضاء على بعض السماسرة المعروفين بعد إنذارهم عدة مرات.

فرق الثأر: كانت مهمتها تنحصر في الرد على أعمال العدوان الصهيوني ضد العرب وكان لها أثرها الفعال خاصة في منطقة يافا عام ١٩٤٧م.

المنظمة العسكرية العربية لفلسطين (p.m.o): هذه المنظمة تشرف على جميع المنظمات والخلايا وتوجهها وتعد الأشخاص المسؤولين ورؤساء الفصائل، الذين ستعهد إليهم مهمّات تنظيم الدفاع والهجوم في مختلف أنحاء البلاد.

منظمة الشباب: بقيادة المجاهد كامل عريقات، وكان مقرّها القدس.

منظمة النجادة: وكان مقرّها يافا، وهي منظمةٌ عسكريةٌ قامت في فلسطين أثناء

الاحتلال البريطاني وكانت تضمّ نخبةً من الشباب العرب وكان من قادتها فيضي الحسيني، محمد نمر الهواري ومحمد الفرا.

منظمة الفتوة: وهي منظمةٌ شبه عسكرية قامت في فلسطين أثناء الانتداب البريطاني، وقد أنشئت في القدس بقيادة جمال محمد صالح الحسيني وأخوه توفيق الحسيني، وكان من قادتها (نمر الخطيب، عبد الله الصفا في وأبو فاضل وراسم الحسيني ومحمد كامل عريقات)، وكان أول استعراضٍ لها في بيت صفافا وكان الاستعراض الثاني في جبل الطور.

وما إن عاد الشهيد عبد القادر الحسيني إلى فلسطين حتى انضوت كلّ تلك الخلايا تحت جناح الجهاد المُقدّس. وقد تمّ العمل أيضًا على تأسيس ما يشبه جهاز استخبارات طُلب منه جمع المعلومات وتجنيد عددٍ من الشبان الذين يتقنون اللغة العبرية، لجمع معلوماتٍ كافية عن كافّة المستعمرات اليهوديّة المحيطة ومعلوماتٍ عن المنظّمات الصهيونية وعنٍ أماكن تدريبها ومخازن أسلحتها و معلوماتٍ عن كافّة القرى العربية ذات الأهمية الإستراتيجية.

وتمكّنوا من الدخول إلى قلب المنظمات الصهيونية واختراقها مثل عصابة الآرغون واشتيرن، وتكفّل عبد القادر الحسيني بقيادة هذا الجهاز وكان ينظّمُ تقريرًا أسبوعيًا يرسله إلى اللجنة العسكرية، يتضمن تحركات العدو وأسلحتهم وعدد قواتهم وخططهم وتحصيناتهم، كما أنّ الجهاز تمكن من القيام ببعض الأعمال خلف الخطوط الصهيونية، فمثلًا تمكنوا من معرفة أماكن بعض مخازن الأسلحة فاستولوا على بعضها (كما حدث في مستودعات سلمة) وفي حال عدم القدرة على الاستيلاء عليها كان يتم إبلاغ سلطات الانتداب عنها.

كذلك تمّ إنشاء إذاعة "صوت الجهاد المقدس" التي كانت تبثّ من أحد الكهوف في الجبال وتم تجهيزها بمساعدة مهندسين من الإذاعة الفلسطينية بالقدس، وكان يشرف على البث خبراء يوغوسلاف بالتعاون مع المهندس المصري (أنور الصدر) وكانت تذيع جميع البيانات والبلاغات الرسمية باللغة العربية والإنجليزية والعبرية، وكان يتولى إذاعة هذه البيانات عبد الله الريماوي وأكرم عبد السلام الحسيني الذي كان يعمل مذيعًا في إذاعة القدس الرسمية، وبقيت هذه المحطة تبثّ برامجها حتى انسحب الإنجليز من البلاد، حيث استولى العرب على محطة الإذاعة الرسمية في رام الله وأخذوا يذيعون أخبارهم وبلاغاتهم منها.

وكانت هذه المحطة أفضل وسيلة للدعاية وكانت تذيع الأخبار والبيانات مرتين في اليوم (الأولى في الصباح والأخرى في المساء) مما أثار دهشة الإنجليز واليهود الذين حاولوا جاهدين معرفة مكانها إلا أنهم فشلوا.

وجاء الإضراب الذي أعلنت عنه الهيئة العربية العليا لرفض قرار التقسيم، واعتداءات الصهاينة على العرب والمظاهرات التي عمّت فلسطين في ٢ و٣ و٤ كانون الأول من عام ١٩٤٧م كإعلانٍ لبداية الحرب، ليعود عبد القادر مرة أخرى إلى القدس قادمًا من مصر عبر بئر السبع بعد أن حضر اجتماعات الجامعة العربية في عالية في لبنان، ليتم عقد اجتماع في الخليل في ٢٥ كانون الأول والإعلان عن الجهاد المقدس وتنظيم هيئة أركانه ومجلس قيادة ثورته، ليتم انتخاب عبد القادر كقائدٍ عام.

"غادر القائد عبد القادر منطقة الخليل، بعد أن انتهى من تنظيمها وتسجيل أسماء رؤساء المسلحين وأسماء المسلحين ونوع البنادق التي يحملونها، إلى قضاء رام الله فزار جميع قرى القضاء، واستقبل فيها استقبالاً حماسيًا حارًا، وبعد ترتيبه لصفوف القوى الشعبية فيها، انتقل إلى منطقة جنين حيث قام بزيارة المدينة، كما زار قرى رمانة وأم الفحم وعرابة وسيلة الظهر والكفير، كان خلالها يعقد اجتماعًا يحضُره جميع المسلحين في تلك المنطقة، حيث يتمّ اختيار رؤساء المسلحين، وبعد مشاورة كافة الرؤساء والمسلحين ووجهاء القرى، قسّم منطقة جنين إلى خمسة أقسام، وعيّن على كلّ قسم مسؤولاً عامًا، حدّد له صلاحياته وحصرها في الأمور العسكرية البحتة، طبقًا لقرار التّعيين" (محسن، ١٩٨٦).

ثم انتقل إلى منطقة نابلس وابتدأ بطوباس وهي أكبر قرى القضاء، فبِديا فكفر قدوم، حيث نظّم الدفاع في تلك المنطقة وعين مسؤولين عن المسلحين وهم عبد الكريم الطوباسي، مصطفى العودة، وجميل القدومي.

ثم انتقل إلى قلقيلية مارًا بعزّون، حيث عيَّن سعيد السبع مسؤولاً عن المسلحين فيها، ومن هناك انتقل إلى طولكرم، حيث اجتمع برجال اللجنة القومية، ومن ثم زار الطيرة وقلنسوة، وتفقّد استحكامات الدفاع فيهما، وعيَّن حسن العبد الله مسؤولاً، كما عيَّن محمد أبو دية مساعدًا له، كما زار قرية الطيبة ودير الغصون وشويكة وزيتا، ثم انتقل إلى عنبتا وبلعا وبرقا فمدينة نابلس.

واستغرقت هذه الرحلة بكاملها تسعة أيام، تمكّن خلالها من تنظيم القوى الشعبية، ووضع أسس الدفاع في جميع منطقة المثلث (جنين- نابلس- طولكرم) وكان استقبال الشعب له في جولته هذه منقطع النظير، سواءً كان في المدن أو القرى، فكانت الطرقات والشوارع والأسطح مملوءةً بالرجال والنساء، وقد أظهر أهالي تلك المنطقة كرمًا زائدًا في مقابلته وإكرامه والحفاوة به، والحقيقة أنّه وزّع زيارته هذه بشكل نال استحسان الجميع، وهم يشيدون بذكره ويلهجون بالثناء عليه، خاصةً بعد ما لمسوه من لُطف معْشره وطيب عنصره، وكان يرافقه في هذه الرحلة عددٌ من الوجهاء والشبان الوطنيون (محسن، ١٩٨٦).

"كنّا نذهبُ كلّ يوم إلى قرية أو أكثر حسب تيسير العمل، وكان ذهابنا ليلًا، في الوقت الذي لا يكون لدينا أشغالٌ فيه، وفي الوقت المناسب للقرويين، حيث يكونون قد عادوا من أشغالهم وأعمالهم اليومية، وعندما نصل إلى تلك القرية، نجمع مخاتيرها ووجهاءها وشبابها المتحمسين الذين نتوسّم فيهم الخير، وبعد التداول، نقوم بتشكيل لجنتين:

١. لجنة للمخاتير والوجهاء للتوجيه والمساعدة وجمع المال.
٢. لجنة للشباب وكانت شعبتين:
  أ. شعبةٌ لحراسة القرية.
  ب. شعبةٌ يسجل فيها أسماء الشباب كاحتياط.

حيث يتمّ تسجيل أسماء الشعبة الأولى في سجل الحراسة، أما الشعبة الثانية فكان أفرادها يسجلون في سجلٍ خاصٍ يسجل فيه الأسماء والأعمار، والبنادق وأرقامها وأنواعها، وكنا ننتخب أفراد هذه الشعبة من الشباب الذين خدموا في البوليس الرسمي أو الإضافي، أو من المدرَّبين على حمل السلاح واستعماله، وإصابة الهدف، ثم نعيّن قائدًا لها" (الريماوي).

في المنطقة التي تكفّل عبد القادر الحسيني بقيادتها، أي منطقة القدس كان هناك خوفٌ من استيلاء عصابات الصهاينة على القدس، حيث كانت المستوطنات تحيط بالقدس من كلّ اتجاه، وقد عمل العدو طوال الفترة السابقة على حصار القدس بالمستوطنات، فكانت مستعمرات النبي يعقوب ونحلات شمعون وعطروت من الجهة الشمالية، ومن الجنوب مستعمرة عتصيون ورامات راحيل وميكور حاييم ومستعمرة المندوب السامي، ومن الشرق الجامعة العبرية وهداسا، ومن الغرب مستعمرة موتساه عليت ومعاليه حميشاه وكريات عنافيم ومعامل ومحاجر الجيشار بالقرب من القسطل ودير ياسين،

وقامت هذه المستعمرات بعمليات هجومية متكرّرة استطاعت الحاميات الفلسطينية ردّها، وكان هدف الهجوم المتكرر احتلال الأحياء العربية في القدس والبلدة القديمة والمسجد الأقصى وقطع كل الطرق المؤدية إلى القدس، ففي الجنوب مستعمرة ميقور حاييم، يريدون وصلها بالأحياء اليهودية عن طريق احتلال القطمون، أما مستعمرة تل بيوت فإنهم يريدون وصلها بالأحياء اليهودية عن طريق احتلال البقعة، لتكون على صلة مع مستعمرة بيكور حاييم.

أما القدس القديمة فإنهم يريدون وصلها بالأحياء اليهودية خارج البلدة القديمة، عن طريق احتلال حي النبي داود وسلوان عن طريق مستعمرتي المنتفيوري وتل بيوت.

أما الجامعة العبرية فإنهم يريدون وصلها عن طريق احتلال منطقة الشيخ جراح وحي باب الساهرة، وبذلك تصبح البلدة القديمة والحرم القدسي تحت رحمتهم من الجهة الشمالية أيضًا. أما مستعمرة الكيبوتس في البحر الميت فكانت تعتبر نقطة هجوم تدعم الجامعة العبرية، التي تسيطر على القدس من الشرق (أي من باب الأسباط بواسطة احتلال الطور وسلوان).

وتنفيذًا للخُطّة الصهيونية المبيتة لشلّ حركة العرب، ثمّ احتلال القدس بكاملها، فقد قاموا بعدة محاولات مثل محاولة احتلال الشيخ جراح بعدة هجمات متتالية، من ناحية بيت إسرائيل ونحلات شمعون والجامعة العبرية وهداسا ومحاولة احتلال القطمون عدّة مرات ومحاولة احتلال حي النبي داود وباب الخليل، بالتقدم من ناحية المنتفيوري، بعد أن فشلوا في احتلال أطراف المدينة ومحاولة احتلال حي المصرارة عن طريق مشيرم.

خطة الدفاع

وعلى الإثر قرّرت الهيئة العربية العليا بالقدس، إنشاء لجنة طوارئ تتولى مهام حكومة الانتداب، واختارت أميل الغوري وغالب الخالدي وصالح الريماوي وسامي موسى كاظم الحسيني (شقيق عبد القادر) للقيام بأعباء هذه اللجنة، كما استأجرت مكتبًا لها بالبلدة القديمة بالقرب من باب الخليل، ولما اجتمعت اللجنة لأول مرة، قررت تقسيم العمل وتخصيصه، فتولى أميل الغوري حفظ الأمن الداخلي، كما تولى غالب الخالدي التموين، وتولى صالح الريماوي مهمّة التسليح والمحافظة على المدينة والقرى المجاورة، كما عينت هذه اللجنة سعد الدين العارف قاضيًا لفضّ المنازعات، كما وظّفت بعض

الموظفين الآخرين، كما تولى سامي الحسيني مهمة الإشراف العام.

وتمّ تقسيم المدينة إلى ستة أحياء، حي الشيخ جراح وباب الساهرة وواد الجوز، وعُيّن الشهيد محمود جميل الحسيني قائدًا له، وبعد استشهاده عُيّن محمد عادل النجار قائدًا لهذا الحي وحيّ البلدة القديمة، وعُيّن صبحي أبو غريبة مسؤولاً عنه، وبعد إصابته بجراح عُيّن حافظ بركات، وحيّ الطور وكان على رأس مقاتليه حمدي بركات، و حيّ القطمون وكان على رأس مقاتليه شفيق عويس، وبعد فشله عُيّن إبراهيم أبو دية قائدًا لحاميته، وحيّ مأمن الله، وكان على رأس مقاتليه محمود أبو ناب، وحيّ باب الخليل وكان على رأسه صبحي بركات وقد استشهد، وحيّ النبي داود، وكان على رأس مقاتليه صبحي الداودي.

كما عُيّن سامي الحسيني مشرفًا عامًّا على هذه الأحياء. كما عُين صلاح الحاج مير آمرًا لمدينة القدس بعد ذلك.

وأقام المسؤولون عن هذه الفرق الاستحكامات المتينة، وحواجز الاسمنت المسلّح في منافذ الشوارع المؤدية إلى القدس، من الأحياء اليهودية، كما احتلوا جميع العمارات التي تواجه الأحياء اليهودية وزودوها بأكياس الرمل، وكان المقاتلون يرابطون في هذه الاستحكامات ليلًا ونهارًا، كما وضع في البنايات المشرفة على المناطق اليهودية، عددًا من أمهر الرماة (القناصين)، لاصطياد كلّ من يلوح من جنود الأعداء، وكثيرًا ما أوقعوا بهم إصاباتٍ عديدة، حتى شلّوا حركتهم، وبثوا الرعب في قلوبهم.

وكان لكلّ حاميةٍ من هذه الحاميات، مقرٌ مزودٌ بأجهزة التليفون، ويرتبط بجميع مراكز الدفاع الأماميةً، وبمراكز الحاميات الأخرى. وانتظمت كل قرى القدس والخليل ورام الله ونابلس في حاميات، كانت تلعب دور الدفاع عن قراها، وشكلت خزانًا من القوات الاحتياطية التي كانت ترفد المعارك بجانب القوات شبه النظامية والمتفرّغة للجهاد المقدس.

التحول إلى الهجوم

الظروف الموضوعية للمستعمرات الصهيونية من حيث التحصين التام والأبراج من الخرسانة المسلحة، والخنادق وساحات الألغام والأسلاك الشائكة كانت تفرض استخدام سلاح ثقيلٍ ومدفعيةٍ بكثافة هائلة وهو ما كان يفتقده الجهاد المقدس، لذا اضطرّ عبد القادر إلى وضع خطةٍ تتلاءم مع الظروف وتحقق النتائج، ونتيجةً لدراسة معمّقةٍ توصل إلى حقائق مهمة، حقائق تتماشى مع ظروف الحرب اللامتكافئة، لذلك

كانت مبادئ حرب العصابات هي التي تفرض ذاتها على الخطة العسكرية، فالضرب والهرب والهجوم خيرٌ من الدفاع والحرب الدفاعية المتحركة كانت تعطي قوات الجهاد المقدس أفضليةً على قوات العدو، فاشتملت الخطة على القيام بهجماتٍ قويةٍ على أحياء الصهاينة من مدينة القدس، وذلك كجزءٍ من خطة الدفاع المتحرك، عندما يقوم العدو بهجوم قويّ على المراكز العربية في المدينة، تبعها محاصرة المستعمرات اليهودية من الخارج ومنع الدخول أو الخروج منها، واستعمال حرب القناصة على نطاقٍ واسعٍ لاصطياد حماة هذه المستعمرات، وتطلّب هذا الإغارة على قوافل التموين والمواصلاتٍ المؤدية إلى القدس والمستعمرات، ومنع وصول المؤن والإمدادات إلى (١٠٠) ألف صهيونيٍّ يقطنون القدس والمستعمرات الواقعة حولها، وقطع أنابيب المياه الموصلة إلى القدس والمستعمرات بالإضافة إلى نسف أهداف يهوديةٍ معينةٍ تقع في قلب المناطق الصهيونية، وذلك ردًا على أعمال النسف الصهيونية، وتدمير مراكز التوجيه العسكري والسياسي والتجاري، وبالتالي تحطيم معنويات مجتمع العدو.

تلك الاستراتيجية الهجومية منحت الفلسطينيين معنوياتٍ عالية ورفدت الشارع بمزيدٍ من المتطوعين والتضحيات وأثبتت بُطلان مقولات عدم التنظيم وعدم الكفاءة وعملت على عزل المستعمرات التي كانت تستخدم كقلاعٍ هجوميةٍ متقدمة للعدو ونقلتها من حالة الهجوم الاستراتيجي إلى حالة الدفاع الاستراتيجي، وهذا كان واضحًا بشكلٍ جليٍّ بحيث أن العرب كان لهم حرية الحركة بشكلٍ تامٍّ في حين أن العدو تجمد في مكانه مدافعًا.

الهجوم على مستعمرة سانهدريا

تلك المستعمرة الموجودة في الجهة الشمالية من القدس والقريبة من حي الشيخ جراح وباب الساهرة ومركز قيادة الهاجاناه في القدس، كانت قد شنّت ٣ محاولاتٍ هجوميةً على المناطق المحيطة (محسن، ١٩٨٦)، وفي العاشر من كانون الثاني ١٩٤٨م هاجمت قوات الجهاد المقدس تحت قيادة عبد القادر وبالاستعانة بمقاتلي سنجل وبتونيا والمزرعة الشرقية وترسمعيا تلك المستوطنة، وأحدث خللٌ بسيطٌ في الخطة إلى دفع المقاتلين للانسحاب التكتيكي، ومما يُذكر هنا أنّه لولا أحد الشباب (عوض الترمسعاوي) الذي قام بتدمير كشّاف المستعمرة لوقعت إصاباتٌ كبيرةٌ في صفوف المهاجمين، هذه العملية نقلت تلك المستعمرة من وضعية الهجوم إلى وضعية دفاعٍ مستمرّة (العارف، ١٩٥٦، ٨٣).

معارك بيت صفافا وبيكور حوليم

تكرّرت هجمات العدو على بيت صفافا والقطمون انطلاقًا من مستعمرة بيكور حوليم، فكان الهجوم الأول على بيت صفافا والقطمون في ٢٥ كانون الأول ١٩٤٧م، بهدف تحطيم معنويات القوات العربية، إلا أنّ حامية بيت صفافا بقيادة عبد الله العمري استطاعت الصمود وردّ ذلك الهجوم على أعقابه، واستمرّت حالة الاشتباك هذه بموقف دفاعيٍّ عربيٍّ وهجوميّ صهيونيّ حتى أوائل شباط ١٩٤٨م، ونجاح العدو في السيطرة على الطريق التي توصل القدس بالجنوب بفعل تآمر ضابطٍ بريطاني (العارف، ١٩٥٦ ، ٧٥-٧٦).

وبعد تفجير العدو لفندق سميراميس في حيّ القطمون الذي استهدف عبد القادر شخصيًا (العارف، ١٩٥٦، ٨١) في ٥ كانون الثاني ١٩٤٨م والذي تبعته هجماتٌ من تلك المستعمرة على بيت صفافا والقطمون أن يتمّ اقتحام المستعمرة، ويروي محسن في كتابه عن مخطوطٍ لقاسم الريماوي تلك المعركة "تسلّلنا إلى حديقة مغروسة بالأشجار، وتشرف على الحي، وبعد إجراء الاستكشاف المطلوب، اتّضح لنا أنّه لا يمكن مهاجمة الحيّ من تلك الناحية، لأن الهجوم سيقع بين معسكرٍ للجيش البريطاني وبين الحي، ويكون عرضةً لأنوار الكشافات الكهربائية، عدا عن حصانة تلك الجهة من الحي، وانكشاف ظهر المهاجمين تمامًا. لهذا قررنا مهاجمة الحيّ من جهة بيت صفافا -أي من الجهة الجنوبية والجنوبية الغربية-، وقبل انتقالنا إلى قرية بيت صفافا، أرسلنا في طلب المجاهد عبد الله العمري وجيه القرية والمجاهد محمود العمري قائد المسلحين فيها، للتداول معهما في كيفية تنفيذ الهجوم. وبعد ذلك قرّرنا التوجه إلى القرية، حيث عقدنا اجتماعًا مع المسلحين فيها، وكان عددهم حوالي (٤٠) مسلحًا، حيث بيّن لهم القائد عبد القادر مهامهم وواجباتهم، وهي حماية مداخل القرية والمرابطة فيها، كما طلب منهم عدم الاشتراك إطلاقا في الهجوم، كما عهد إلى المجاهد محمود العمري أمر قيادتهم والإشراف عليهم، أما عبد القادر فقد علم الخطة التالية لمهاجمة الحيّ. (في تمام الساعة الثامنة) بدأت قوات الجهاد المقدس تطلق النار من الجهة الشمالية (من جهة حي القطمون)، حيث فتح اليهود نيران رشاشاتهم الغزيرة عليهم، حتى أنّهم أطلقوا عشرات الألوف من الطلقات، وبعد نصف ساعة سكت إطلاق النار من الجهة الشمالية، وبدأت فرقة الرشاشات تطلق نيران أسلحتها من الجهة الشرقية، وفي نفس الوقت أخذت قوات الاحتلال العربية تتسلّل إلى داخل الحيّ، أما اليهود فقد أخذوا في هذا الهجوم المباغت، وما لبثت مقاومتهم أن سكتت فتقدّم عبد القادر، وأمامه حاملي

المتفجرات، وكنت أنا والسيد كامل عريقات بجانبه حتى دخلنا المستعمرة، ثم تقدّم حاملو الألغام، وكانوا بقيادة الشاويش عبد الحميد من قرية زكريا حتى دخلوا قلب استحكام يهوديٍ كبير، يقع في طرف الحيّ فوضعوا لغمًا كبيرا فيه.

أما اليهود فقد اختفوا في بروجهم، ولم يجرؤ أحدٌ منهم إخراج رأسه ليرى ماذا حلّ بالحيّ، ثم أشعل الشاويش الفتيل المتصل باللغم، ولم تمض بضع دقائق حتى ثار اللغم فهزّ المنطقة بأكملها، وأيقظ جميع سكان مدينة القدس، وهكذا هوى حصن اليهود الحصين في ذلك الحيّ على رأس من فيه من رجال الهاغاناه، وعندها أطلق القائد الباسل شارة الانسحاب من مسدس إشارات كان يحمله، فعاد الجميع إلى مقر القيادة في بيت صفافا، على بعد مائة متر عن الحيّ اليهودي، وبقي مرابطًا طيلة ذلك اليوم، خشية قيام اليهود بهجوم معاكسٍ قوي، وفي الصباح أخذ سكان المدينة يتساءلون عن مصدر الانفجار، حتى صدر البلاغ الرسمي للحكومة البريطانية من محطة الإذاعة بالقدس، معلنًا خبر الهجوم على ميكور حاييم ونسف بعض حصونها.

أما الصحف اليهودية فقد أبرزت هذا الهجوم على صفحاتها ووصفته بأنه أكبر هجوم منظّم حدث منذ أن بدأت الاشتباكات في فلسطين، وأشادت بالخطة الناجحة التي اتبعها المجاهدون" (محسن، ١٩٨٦).

وهذه المعركة أدت إلى إعادة السيطرة العربية على الطريق إلى الجنوب من القدس إلا أنّ مستعمرة عتصيون الواقعة بين بيت لحم والخليل شكّلت عائقًا كبيرًا في تنظيف الطريق تمامًا.

معارك غوش عتصيون

حدثت عدّة معارك عند مستوطنة غوش عتصيون التي تقطع الطريق بين القدس والخليل، فبعد أن هاجمت قوات المستعمرة سيارة القنصل العراقي في ١٤ كانون الثاني ١٩٤٨م وهو يتّجه إلى الخليل، تحرّكت قواتٌ فلسطينيةٌ من الخليل إلى المستعمرة ونشبت معركةٌ كبيرةٌ سمّيت بمعركة عتصيون الأولى، استشهد على إثرها ١٤ مقاتلًا فلسطينيًا، لكن بعد ٣ أيام في ١٧ كانون الأول استطاع العرب ضرب العدو ضربةً موجعةً عندما هاجموا قافلةً صهيونيةً قادمةً من ناحية عرطوف لنجدة مستعمرة عتصيون، فكَمَن لهم الفلسطينيون بالقرب من قرية صوريف وأبادوا كامل القوة عن بكرة أبيها،

وتبعتها قافلة أخرى في اليوم التالي إلا ان القوات العربية أصلتها نيران حامية أجبرتها على التراجع بعد أن أسقطت فيهم ١٣ قتيلًا، وشكلت تلك المعارك إرباكًا هائلًا لمجتمع العدو حيث أصبح هناك أصواتٌ عاليةٌ تطالب بانسحاب كل المستعمرات التي تقع بين الخليل والقدس.

وما أن حلّ آذار حتى كان العرب يسيطرون على المداخل في الشرق والشمال والعدو يسيطر على المداخل في الغرب والجنوب، فكان من الضرورة إعادة حصر العدو في الجهة الجنوبية والغربية إلى داخل مستعمراته فما أن انقضت أولُ عشرة أيام من الشهر حتّى كان العرب قد أتمّوا الحصار الكامل للقدس (العارف، ١٩٥٦، ١١٧)ً.

وتبعًا للتكتيك الذي يقوم على قطع طريق قوافل الإمداد التي تصل المستعمرات فقد اشتعلت معركة عتصيون الثانية والتي تُسمى بمعركة الدهيشة في ٢٧ آذار ١٩٤٨م، حيث كمن العرب للقافلة بالقرب من الدهشية وفجّروا المصفحات الأربعة التي تتقدم القافلة المكونة من ٢٥٠ مقاتلٍ صهيونيّ، وأوقعوا فيهم خسائرَ كبيرةٍ أجبرتهم على ترك القافلة والاحتماء في بيتٍ بالقرب من الموقع، وأحكم العرب الحصارً على العدو وضيّقوا عليهم حتّى جاءت طائراتٍ العدو التي حاولت إنزال إمداداتٍ لقواته المحاصرة، والتي فشلت في إيصال الإمدادات والتي وقعت في يد العرب، حتى طلب المحاصرون النجدة من الوكالة اليهودية التي طلبت تدخّل الإنجليز بعد أن فشلت كلّ محاولات العدو في فكّ الحصار وفي استجلاب تعزيزاتٍ من الشمال أو الجنوب نظرًا لإغلاق العرب الطريق من جهة واد البيار في الخضر وجهة مار الياس في بيت لحم، واستمر الحصار لمدة ٣٦ ساعةً حتى دخل الإنجليز لفكّ الحصار عن العدو عبر التفاوض، فأملى العرب شروطهم ونُفّذت تمامًا، بحيث انسحب العدو بدون سلاحه أو إمداداته، وغنم العرب عشرات السيارات ومئات البنادق وأكثر من طنّ متفجرات وعددًا كبيرًا من العتاد والذخيرة.

وما أن جاء أيار حتّى سقطت عتصيون في ١٣ من ذلك الشهر وفي اليوم التالي سقطت المستعمرات الثلاث المحيطة بها، في ملحمة بطولية قادها عبد الله التل من الجيش الأردني بالإضافة لمئاتٍ من المقاتلين غير النظاميين الفلسطينيين والمتطوعين الذين كان يقودهم عبد الحليم الشلف من الخليل (العارف، ١٩٥٦، ٣١٣-٣١٨).

فرقة التدمير العربية

أثّرت عمليات التفجير المتعدّدة التي قامت بها قوات العدو؛ فقرّر عبد القادر أن ينفّذ عمليات انتقامية تهدف إلى رفع معنويات الشعب وكسر معنويات العدو بالإضافة إلى ضربٍ مراكز الإدارة والتحكم، وكان يقف على رأس تلك الفرقة فوزي القطب الذي "كان له الفضل الأكبر في أعمال النسف والتدمير التي قامت في القدس بعد قرار التقسيم ١٩٤٧م، وبين هذه الأعمال: نسف شارع هاسوليل والبالستاين بوست في ١ شباط ١٩٤٨م، وشارع بن يهودا بأكمله في ٢٢ آذار ١٩٤٨م، ومستعمرة ميكور حاييم في ١٣ آذار ١٩٤٨م، والمنتفيوري في ٢٣ آذار ١٩٤٨م، وقافلة كفار عصيون في ٢٧ آذار ١٩٤٨م، وطريق القسطل في ٤ أيار عام ١٩٤٨م، وقافلة هداسا في ١٣ نيسان ١٩٤٨م، ومستعمرة النبي يعقوب في ١٧ أيار ١٩٤٨م، وضرب الوكالة اليهودية، ونسف السكة الحديدية بين القدس ويافا.

وكان لأعمال فرقة التدمير وللألغام التي ثبّتها حول مبرر القدس فضلٌ كبيرٌ في صدّ الهجوم التي قام به اليهود على باب الخليل وباب النبي داود في السادس عشر والسابع عشر من أيار ١٩٤٨م، وفي معركة باب الساهرة وحماية القدس من السقوط، كما كان لها دورٌ مشهودٌ في سقوط الحي اليهودي في البلدة القديمة" (الموسوعة الفلسطينية).

معارك باب الواد

وبعد عدد من المعارك كان قد تمّ السيطرة على الجهة الشرقية تمامًا وسقطت عطاروت في ١٥ أيارٍ والنبي يعقوب، أما المدخل الغربي لمدينة القدس فقد شهد أعنف المعارك في الحرب، ففي ٢٥ كانون الثاني كَمَن المقاتلون لقافلة صهيونية قادمة باتجاه القدس وبثوا الألغام في الطريق وصمّموا على منع وصولها، ولقدً كانت المعلوماتً تقول أنّ حاييم وايزمان ضمن القافلة، إلا أنّ العدو عندما وصل مكان الكمين تنبّه له، ليتركوا السيارات وينحازوا إلى الجبال مشيًا على الأقدام، ليلاحقهم الثوار الذين كان على رأسهم عبد القادر الحسيني ومهندس المتفجرات فوزي القطب، وفي أثناء القتال تدخّلت قوات البالماخ مدعومةً بمصفحات بريطانية وهاجمت قرية بيت سوريك القريبة، وتداعى كلّ سكان القرى المجاورة لدعم وإسناد حامية القرية وما أن حلّ الظلام حتى كان النصر معقودًا للعرب، ليترك العدو وراءه ٢٣ قتيلًا ولم يسقط من العرب إلا شهيدٌ واحدٌ من قبيلة بني صخر الأردنية (العارف، ١٩٥٦، ٩٢).

وفي اليوم التالي أتمّ المقدسيون الحصار على حارة الشرف (حارة اليهود) في القدس القديمة، وطلب العدو وقف إطلاق النار وفكّ الحصار وتحويل القدس إلى مدينة مفتوحة، إلا أنّ المقاتلين رفضوا هذا، وتمّ تحرير ذلك الحي في ٢٧ أيار ١٩٤٨م بقيادة عبد الله التل وبقوة من ٢٠٠ مقاتل، مائة من الجيش العربي ومائة من الجهاد المقدس بالإضافة إلى فرقة التدمير التي كان يقودها فوزي القطب.

وباب الواد ذلك الممرّ التاريخي الذي يربط القدس بالساحل، ذلك الممرّ الذي كلّ من أراد الدخول إلى القدس لا بدّ له من المرور عبره، شهد أعنف المعارك منذ اليوم الأول للحرب، وقد أدرك العرب الأهمية الاستراتيجية لباب الواد لذلك قاموا بإعطابه وتخريبه وتفجير أنابيب نقل المياه ورابط فيه مجموعةً كبيرةً من مقاتلي القرى المحيطة، ولا يكاد يمرُّ يومٌ إلا وقد اشتعلت فيه المعارك في ذلك الوادي الضيق، وتمّ منع حركة العدو في ذلك المعبر فحاول العدو أن يخترق الواد من إحدى مداخله الغربية بالقرب من قرية القسطل.

العودة الأخيرة إلى القدس ومعركة القسطل

غادر عبد القادر القدس في ٣ نيسان إلى دمشق ليطلب الإمدادات والمعونة من الحكومات العربية، إلا أنه عاد في الخامس من نيسان دون أيّ نتائج تذكر، عاد وهو يدرك أنه يخوض معركة الوقفة الأخيرة في القسطل كما أجمع من عرفوه وسمعوا منه في حينها.

المعركة الأولى ٤ نيسان ١٩٤٨م

تقع قرية القسطل على هضبة عالية تبعد نحو ٨ كم عن القدس غربًا، وتشرف إشرافًا تامًا على طريق القدس- تل أبيب- يافا، وهي بذلك تؤلّف موقعًا استراتيجيًا مهمًّا، إذ أنّ من يحتلّها، يتحكم بالشريان الرئيسي للقدس الغربية، وقد جرت فيها المعركة المسماة باسمها.

ففي ٣ نيسان ١٩٤٨م قامت مجموعةٌ من اليهود (البالماخ) مؤلفةٌ من سرية مصفحات وفصيلة هندسة ميدان ونحو ٥٠٠ مقاتلٍ من حرس المستعمرات بهجوم مباغت على هذه القرية، بقصد فكّ الحصار المضروب وتأمين تموين مائة ألف يهوديٍّ في القدس الغربية، وفي المستعمرات المحيطة بها، ولم تكن القرية محصّنة، ومع ذلك فقد صمد أهلها العرب بما تيسر لهم من أسلحةٍ خفيفةٍ وبنادق عاديةٍ وذخيرة، لم تكن تكفيهم

للصمود طويلًا، وقاوموا بضراوة وعنف الهجمات المتكرّرة والمستمرة، لعناصر يهودية مستميتة، ومزوّدة بأحدث أنواع الأسلحة ومدافع الهاون. وفي النهاية نفذت ذخيرة المدافعين العرب (ولم يكن فيها من القوة ما يكفي للدفاع عنها حيث كان فيها ٥٠ مسلحًا فقط) (سويد). فانسحبوا من قريتهم التي احتلها اليهود وتمركزوا فيها، وراحوا يعملون على تحصينها وتشييد استحكامات قوية فيها، وفي نفس الليلة سقطت على مدينة القدس العربية (١٠٠٠) قذيفة بعد أن رفض (تيدي كوليك) الاستسلام ممّا سبب في رحيل بعض السكان إلى أريحا.

إثر سقوط القسطل قررت قيادة منطقة القدس مهاجمة القرية قبل أن تستقرّ فيها أقدام العدو، فتجمّع ما يقارب من (٣٠٠) مقاتل، اتجه قسمٌ منهم بقيادة (صبحي أبو جبارة) إلى مستعمرة موتسا عيليت بالقرب من القسطل فاحتلها، ثم احتل قالونيا والهضاب المجاورة لها، واتّجه القسم الآخر بقيادة كامل عريقات -الذي جاء من بيرزيت- وآخرون بقيادة إبراهيم أبو ديّة الذي جاء من القطمون، وآخرون بقيادة عبد الله العمري من بيت صفافا، ومن مدينة القدس جاء حافظ بركات وخليل منّون من عين كارم، واتجهوا جميعًا ومن جهات مختلفة وخاصةً الجهة الجنوبية للقسطل -عين كارم والمالحة- لمحاصرتها، وقطع الإمدادات عنها بقصد احتلالها.

وبدأت المعركة صباح ٤ نيسان ١٩٤٨م، فطوّق المجاهدون البلدة، واحتلوا التلال الواقعة بينها وبين عين كارم، وذلك بعد معركة عنيفة خسر فيها المجاهدون ثلاثة شهداء وخمسة جرحى بينما خسر اليهود خمسةً وعشرين قتيلًا وعشرات الجرحى.

وفي ٥ نيسان ١٩٤٨م نسف المقاتلون جسرًا يقع بالقرب من قالونيا، ويصل القسطل بالمستعمرات اليهودية المجاورة لها (جفعات شاؤول ومنتفيوري وبيت هاكيرم) إلا أنّ اليهود تمكنوا من إعادة بنائه في اليوم نفسه.

وفي ٦ نيسان هاجم المقاتلون بقيادة كامل عريقات وأبو ديّة وحافظ وبركات محاجر (الجيشار) اليهودية ونسفوها، بعد أن قضوا على الحرّاس فيها واحتلّوها وخسر اليهود في هذه الهجمة الكثير من جنودهم، وقد قُدّرت الخسائر المادية بآلاف الجنيهات، إلا أنّ المجاهدين لم يتمكنوا من الاحتفاظ بهذا الموقع، نظرًا لأن ذخيرتهم قد نفذت أو كادت، فشنّ اليهود عليهم هجومًا معاكسًا، بعد أن وصلتهم إمداداتٌ كثيرةٌ من الرجال

والسلاح والمؤن، بواسطة الطائرات، وتمكّنوا من استرداد الموقع في اليوم نفسه، واستشهد من العرب خمسة رجالٍ وجرح عددٌ منهم ومن بينهم كامل عريقات، ثم أخذ اليهود يضيّقون الخناق على القرى المجاورة، حتى لا يتحرّك أهلها لنجدة المقاتلين حول القسطل، وأخذ القتال يتحول ضدّ العرب بعد أن أصبحوا محاصرين من يهود مستعمرات عطاروت والنيفي يعقوب (العارف، ١٩٥٦).

معركة القسطل الثانية

التحق عبد القادر بالمقاتلين صباح ٦ نيسان ١٩٤٨م، بعد أن غادر القدس عن طريق المالحة-عين كارم، وفي غرفةٍ تقع على سفح الجبل الذي يواجه القسطل بالقرب من المحاجر المدمّرة، جلس عبد القادر وإلى جانبه عددٌ من آمري السرايا وقوات الفصائل منهم:

(إبراهيم أبو ديّة- آمر السرية الثالثة، وفاضل رشيد آمر حامية القدس، وعبد الله العمري آمر السرية السابعة، وهارون بن جازي (من البدو) آمر السرية الثامنة (سرية القوافل) وعددٌ كبيرٌ من المسلحين يقرب من ٣٠٠ مجاهد، حيث راح يوزّع قواته على جبهة القتال، وبعد أن وزّع عبد القادر الذخيرة المطلوبة، طلب إبراهيم أبو ديّة السماح لحارس عبد القادر الخاص (عوض محمود أحمد الترمسعاوي) والذي يحمل رشاشًا من نوع (برن) الممتاز، أن يشترك معه لنقص الرشاشات والأسلحة، فلما رأى القائد ضرورة ذلك سمح له بالاشتراك، (وكان هناك أربعةٌ من الجنود الإنجليز المتطوعين يديرون أربعةً من مدافع الهاون) (٣٦٥).

وبعد ظهر يوم ٧ نيسان ١٩٤٨م زحف القائد بقوات المجاهدين حسب الخطة المرسومة على معاقل العدو المحيطة بالقسطل، وكانت الخطة أن يبدأ إطلاق النار بصورة مكثّفة ومركزة من الجهة الغربية، لمناوشة العدو وإيهامه أنّ الزحف العربي قد بدأ من هذه الجهة، وبعدها يتقدم القلب والجناح الأيمن لاحتلال القرية من الجهة الجنوبية والشرقية والقيام بنسف الاستحكامات اليهودية فيها.

وفي تمام الساعة الحادية عشرة من مساء الأربعاء ٧ نيسان ١٩٤٨م، تمكّن رجال عبد القادر من تطويق القسطل، حيث بدأ إطلاقُ النار من الجهة الغربية حسب الخطة، فقابل اليهود النار بالمثل، وفي هذه الأثناء زحف إبراهيم أبو ديّة وستة عشر مقاتلًا من

رجاله، ودخلوا القرية، إلا أنّ العدو تصدّى لهم، فطوقوهم من الجهة الشرقية، بعد أن تأخرت الميمنة التي يقودها حافظ بركات عن الدخول من الجهة الشرقية، وبذلك وقع الستة عشر مجاهدًا تحت رحمة قوات العدو التي أصلتهم نارًا حامية، فقتلت منهم من قتلت، بينما أصيب أبو ديّة إصاباتٍ عديدة، وبذلك تمزّقت قوى القلب، واختلّ نظام المعركة.

وصل النّبأ إلى عبد القادر، فما كان منه إلا أن نهض ليتولّى توجيه المعركة، وكان لا بدّ له من ذلك لأن جموع المقاتلين أخذت تتقهقر، فتوجّه إلى القلب، وما أن رآه المجاهدون من رجال الميسرة والقلب، حتى التفّوا حوله، ودخل القرية والتحم بالعدو الذين هالهم ما رأوه من تصميم العرب واستماتتهم في الهجوم، بعد أن أخذت استحكاماتهم وبيوت القرية تسقط واحدةً بعد الأخرى، فجرح ثلاثةٌ من رفاقه وبقي واحدٌ ظل يقاتل معه، وليس لديهما من الأسلحة سوى رشاش ستن ومسدس عيار ٩ ملم.

بقي عبد القادر وحده دون ذخيرة أمام مراكز العدو المُحصّنة، والتي عُزّزت بإمداداتٍ كثيرةٍ من الرجال والعتاد، وكان الكثير من رجال عبد القادر قد نفذت ذخيرته فتراجع، وشعر اليهود بحراجة وضع عبد القادر فأطبقوا عليه وحاصروه بإحكام.

وما كاد فجر ٨ نيسان ١٩٤٨م يبزغ، حتى كان عبد القادر ورجاله يقاتلون يائسين، بعد أن أخذ العدو يضيّق الحصار حولهم ولا ذخيرة كافيةً لديهم.

وما أن عمّ خبر محاصرة العدو لعبد القادر ورجاله في القسطل، حتى زحف المتطوعون والمقاتلون من كلّ حدبٍ وصوبٍ لنجدته، فجاءه قاسم الريماوي على رأس فرقةٍ من جيش الجهاد المقدس، والحاج عبد المجيد المدني الحجازي على رأس فرقةٍ من حرس الحرم الشريف، وبهجت أبو غربية ومحمد عادل النجار على رأس فرقةٍ من شباب القدس، و جمال رشيد العراقي -مساعد آمر حامية القدس -على رأس فرقةٍ من المتطوعين وعبد الحليم الشلف على رأس فرقةٍ من شباب الخليل ورشيد عريقات على رأس فرقة من شباب الوادية وعدّة دباباتٍ تابعةٍ لحسن سلامة.

وبلغ عدد المقاتلين الذين هبّوا لنجدة عبد القادر ورجاله حوالي ٥٠٠ مقاتل، وأطبقت هذه النجدات على القسطل من جميع الجهات خاصةً من الجهة الشمالية.

انقضّ العرب على الحاميات اليهودية من الجهات الأربع، واشتبكوا معهم بالسلاح الأبيض فتهاوت مراكز تلك الحامية، وفرَّ العدو مهزومين من الجهة الشمالية، وفي تلك الأثناء وصلت قوات الجهاد المقدس القادمة من قالونيا وموتزا، فاصطدمت بالقوات الهاربة فطوّقتهم، وقتلت منهم عددًا كبيرًا، واحتمى الباقون في حُرش بجانب الطريق العام، إلا أنّهم لم يسلموا، بل قتل العرب منهم ٣٥ شخصًا، وجرحوا عددًا آخر. وتقدمت مصفّحةٌ تابعةٌ لقوات الشيخ حسن سلامة من الجهة الشرقية حيث أسرت مصفّحةً صهيونية، وفي هذه الأثناء وصلت الدبابات البريطانية كعادتها لنجدة القوات الصهيونية التي خلّفت وراءها حوالي ١٥٠ قتيلًا و٨٠ جريحًا حيث احتمى هؤلاء الجرحى بهذه الدبابات فنقلتهم.

دخل المقاتلون القرية منتصرين بين التهليل والتكبير، وراحوا يتعقّبون أفراد العدو من بيتٍ إلى آخر ومن ركنٍ إلى ركن، وراحوا يرفعون العلم الفلسطيني على أعلى بنايةٍ فيها وكان ذلك في تمام الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم ٨ نيسان ١٩٤٨م. (محسن، ١٩٨٦)

ولكن أحدًا من المجاهدين لم يكن يعلم في نشوة الانتصار هذه، أنّ القائد عبد القادر بطل القسطل، قد جاد بأنفاسه، والتحق بالرفيق الأعلى.

"دوّى نبأ الفاجعة في صفوف المجاهدين فأبت نفوسهم أن تتقبله، وراحت العيون المتألقة بنشوة الظفر تفيض بدموع الحزن والأسى، وفجأةً صحا المجاهدون من هول الفاجعة، فانتابتهم جميعًا ثورةٌ من الغضب الشديد، فهبّوا يطاردون العدو المنهزم حتى أوقعوا فيه نحو (٥٠) قتيلًا آخر، ولكنهم وقد أصيبوا بذهول المفاجأة وهو الفاجعة، لم يتبصّروا بالأمر ويقدّروا الخطر، فتفرّقوا بعد انتصارهم في القسطل، وبعد استشهاد قائدهم، فغادر فريقٌ منهم القرية لنفاذ ذخيرته، وغادر فريقٌ آخر تعبًا من القتال، وغادر فريقٌ ثالثٌ ليحضر مأتم الشهيد الذي نقل جثمانه الطاهر إلى المصفحة التي سارت باتّجاه قرية صوبا، ومنها إلى القدس، بينما نقل المقاتلون الجرحى وعددهم حوالي ٣٥ جريحًا في سيارات الشحن إلى مستشفيات القدس والرملة (الآغا، ١١٣).

كانت تلك عودة عبد القادر الأخيرة إلى القدس، وما يفتأ يعود إليها وهو فيها كلّما اشتعلت معركةٌ جديدةٌ في القدس. ورغم هذا فلم يسقط باب الواد.

رمزية البندقية

"هؤلاء الفلاحين لا يشتهون شيئًا مثلما يشتهون السلاح، وخصوصا الآن بعد أن تمّ نزعُ أسلحتهم" (روبينسون ١٨٦٠، ص٢١٨).

يرى علي عزّت في معجم المصطلحات اللغوية والأدبية أنّ "الرمز يعني كلّ ما يحلُّ محلّ شيءٍ آخر في الدلالة عليه لا بطريق المطابقة التامة وإنّما بالإيحاء أو بوجود علامة عرضية أو متعارف عليها، وعادةً يكون الرمز بهذا المعنى شيئًا ملموسًا يحلّ محلَّ المجرّد .. فالأصل في وضع الرموز أن تكون لكلٍّ منها علامةً دالةً على "معقول" أو "متصور" يندرج ضمن حدود لإدراك من المحسوسات وهو بذلك يعكس إدراكًا شُعوريًا يتّفق ورغبة الإنسان في اختيار نوع الرمز".

حملت البندقية رمزيةً كبيرةً جدًا في الهوية والوعي الفلسطيني، تمثّلت في الأغاني والأمثال والتناويح والفنّ التشكيليّ والمُلصقات. وتعود تلك الرمزية لعدةِ عوامل وظروفٍ تاريخيةٍ تباينت حسب الظرف التاريخي الذي أفرزها.

تبدأ رمزية البندقية في الظهور في الهوية الوطنية الفلسطينية مع بداية تشكُّل الهوية، أي مع الثورة الفلسطينية على الحملة المصرية، لربّما كان هذا أول معلم من معالم تشكيل الهوية الفلسطينية بشكلها الحديث، وليرسم شكل الخارطة والانتمّاء الذي تمّ فرضُه لاحقًا بالجبر عبر الانتداب البريطاني، وترتبط ولادة الهوية الفلسطينية مع الثورة المصرية التي رافقها قانون سحب السلاح من الفلسطينيين.

يفصّل خالد صافي في كتابه "الحكم المصري في فلسطين" سياسةَ نزع الأسلحة، فقد اقترح إبراهيم باشا على والدِه نزع سلاح السكّان قبل البدءِ بتنفيذ التجنيد العام، غير أنّ محمد علي أصرَّ أن يبدأ التجنيد الجبري أولًا أو أن يترافقا، ممّا دفع إلى انتفاضة مسلّحة من الفلسطينين ضدّ المصريين. فقد تمّ جمع ١٢ ألف بندقيةٍ من نابلس و٤ آلافٍ من القدس وقد تمّ الفرضُ على كلّ مواطنٍ أن يُسلّم بندقية، وفي بيتٍ لحم ٥٠٠ بندقية.

وكان هدفُ الدولة المصرية لنزع السلاح هو احتكار استخدام العنف كأحدِ خصائص الدولة الحديثة، إلا أنّهم قاموا بتجريد الناس من واحدةٍ من أهمّ وسائل الدفاع عن

أنفسهم (الحكم المصري في فلسطين ص ١٩٧-١٩٩). وعندما تمَّ سحبُ السلاح وأصبح ممنوعَ التداول به وحملِه أصبح اقتناؤهُ اشتهاءً عند الفلسطينيين كما لاحظ روبينسون، والأمرُ يتعدّى فكرة القوّة والأداة بل هو تعبيرٌ عن "القدرة على السيطرة على المصير"، كما يقول مصطفى حجازي.

في المرحلة الأخرى المهمّة في تشكيل الهوية الوطنية الفلسطينية ثورة ١٩٣٦م، جاء ما قبلها شغفٌ مرعبٌ بالبندقية نظرًا لقلّة وجودها ولإدراك المجتمع حاجته لسلاح ليدافع عن نفسه، وقد تطوّر هذا الشعورُ تحديدًا بعد هبّة البراق ١٩٢٩م، نلاحظ هذا كثيرًا في الأغاني الشعبية، وجاءت ثورة ١٩٣٦م لتحمل معها رصيدًا هائلًا من القصائد الشعرية الشعبية والفصحى التي تعكسُ رمزية البندقية، بدايةً كان الأمرُ كتعبير عن الحاجة لها كأداة ثمَّ تحوّلت إلى خطاب عن الطريق السياسي الذي يجبُ أن ينهجَه المجتمعُ لاستعادةِ حقوقه، وقد برز عددٌ كبيرٌ من الشعراء؛ إبراهيم طوقان، فدوى طوقان، عبد الرحيم محمود، محمود زقوت، عوض، نوح ابراهيم وعشراتٌ غيرهم.

من الجدير ذكره أنّه في بداية ١٩٣٠م وتحديدًا بعد فضيحة القبض على سلاح مُهرّب للحركة الصهيونية بدأت فكرة التسلّح تصبحُ مطلبًا شعبيًّا، عبّر عنه الشبابُ في عقد مؤتمر التسليح الأول في نابلس، ثمّ ما لبث أن انطلقت الثورة، لتُغادر البندقية رمزيّتها نحو التجريد، لم تعد البندقيةُ حلمًا بقدر ما هي أداةٌ وما بإمكانها أن تفعله، أصبحت البندقية كرمزيةٍ ليست للتعبير عن النّهج بل رمزيّتها جاءت من شُحّ وجودها.

في المرحلة التالية جاءت البندقية مجدّدًا لتأخذ حيّزًا كبيرًا جدًا في الوعي والهوية الفلسطينية، ولتُصبحَ من أهمّ رموز الهوية الفلسطينية بعد النكسة تحديدًا، وجاء الأمر ليخدمَ هدفين، الأول للتعبير عن رفض أيّة حلولٍ تقترحُ التنازل وتعتبر أنّ البندقيةَ هي الضمانةُ الوحيدة لمنع التنازل، والثاني استُخدمت رمزيةُ البندقية لجذبِ المقاتلين مستغلّين بذلك علم النفس حيث يصابُ المضطهدون بنوعٍ من الشغفِ بالسلاح في محاولةٍ تعويضية عن عقد النقص التي تبيّنها العلاقة مع المُستعمر. وفيما قبل النكسة تكثّفت صناعةُ رمزية البندقية في وجودها في العمل الأدبيّ والروائيّ الفلسطينيّ وكان من أهمّ روّادها غسان كنفاني (عن الرجال والبنادق، المدفع) والشعراء من مثل راشد حسين.

ودخلت في تلك الفترة أدواتٌ جديدةٌ في التعبير أو ترسيخ الرمزيات وصناعتها بشكلٍ أكثف، الفن التشكيلي والمُلصق السياسي، وقد تميّزت تلك الفترة بأنّ الفن التشكيلي والملصقات السياسية كانت تتبعُ للمدرسة الواقعية فلم يكن الفنان مضطرًا لاجتراح الإبداع بقدرِ ما كان مضطرًا فقط لأن يقوم برسم وتصوير ونحت ما هو مُختزنٌ في ذاكرته ووعيه.

وتكثّفت رمزيةُ البندقية بربطها بالبطولة تحديدًا بعد معركة الكرامة، حيث كان التركيز أكثر على المضمون من التركيز على الشكل، وبنائيةُ العمل تميلُ إلى الفكرة التوضيحية البسيطة والتركيز على الخطّ والكتلة لإبراز القوّة الفلسطينية القادمة، وقليلًا ما ركّز الفنّانون على تشريح الجسد باستثناء الساعد والوجه.

ويوضّحُ عبد الله أبو راشد في دراسته عن الرمزية في الفن التشكيليّ أن تلك الفترة سُمّيت بالمرحلة الرموزية والتي بدأ الفنّانُ الفلسطينيُّ يبحثُ فيها عن رموزٍ لوصف الثورة وارتباط الرمزِ بالأشكال الخطّية واللونية والفكرية عبر عناصر ومكوناتٍ فنيةٍ شكليةٍ مثل البندقية والمقولات والأهازيج والشعارات والأغاني.

وتحوّلت تلك الرموز إلى دلالاتٍ سياسيةٍ ومن بينها البندقية، وقد كان التركيز على البندقية هو لِما تحملُه من قدرةٍ فاعلةٍ في خدمة متطلّبات المرحلة النضالية التي يخوضها الشعب.

وارتبط بالمخيال التصويري للفلسطينيين لشكل "البارودة" حسب مرحلة النضال، فكان في ثورة ١٩٣٦م بندقية martin. وفي فترة حرب ١٩٤٨م دخلت أسلحةُ الحرب العالمية الثانية إلى المخيال والرمزيّة الشعبية الفلسطينية مثل بندقية sten وبندقية bren. وفي فترة الثورة الفلسطينية المعاصرة شاع شغفُ الكلاشينكوف. ومع انطلاق الانتفاضة الفلسطينية الثانية جاءت البندقية الأمريكية M١٦ لتحلّ محلّ الكلاشينكوف.

«الانتفاضة دمّرتنا»
عن هذه الادّعاءات أتحدث

٢٦/٠٩/٢٠١٣

في نهاية العشرينات وبداية الثلاثينات انطلقت ثورةُ الكفّ الأسود في فلسطين، وتمّ إخضاعُها تمامًا والقضاء على عناصرها خلال ٤ شهور، فقضوا ما بين شهيدٍ وأسيرٍ وطريد. في تلك الفترة أيضًا انطلقت في فيتنام محاولةٌ للحزب الشيوعي لإطلاق ثورة، تم قمعها هي كذلك وتمّ إنهاء الحزب الشيوعي تقريبًا.

المهمّ في الأمر أنّه على إثرِ تلك الثورتين انطلقت ثوراتٌ من أفضل ما قدّمته البشرية لنا: ثورة الكفّ الأسود التي كانت أحد أهمّ عوامل ثورة ١٩٣٦م وثورة الحزب الشيوعي كانت أحد أهمّ عوامل الثورة الفيتنامية على الفرنسيين؛ إذ تعلّمت القيادات من الأخطاء وقاسوا عليها وصوّبوا الخطأ.

لم يزهد الناس وقتها في خيار الكفاح المسلح ولم يجترّوا الخطاب الاستعماري بأنّ الكفاح المسلح لا طائلة أو فائدة منه، بل راجعوا التجربة وحلّلوها وانطلقوا لثوراتٍ أخرى ليتفادوا أخطاءهم. في المقابل، يجترّ الفلسطينيون مقولة أنّ الانتفاضة الثانية جلبت الدمار بحيثُ أصبحوا يزهدون في أيّ انتفاضةٍ قادمةٍ خوفًا من نفس النتائج.

ولا أدري متى جلس الفلسطينيون ليقيّموا نتائج الانتفاضة الثانية بشكلٍ علميٍّ بحت، وليقيّموا نتائج التجربة العسكرية لها. عادةً عندما تسمع أحدهمً يتكلّم عن الدمار والويلات والخسائر وعدمِ وجودِ فوائد، هو يقوم بإعادة إنتاج البروبوغاندا الصهيونية لكن بلغته. والبروبوغاندا هذه لها آليات عملٍ متعدّدة تبدأ في تغيير الفضاء الفلسطيني ولا تنتهي عند الدعاية الرسمية للسلطة (مقولات محمود عباس)، وحتّى الآن الحربُ علينا لم تتوقّف والعنف الرمزيّ والقمع الخفيّ هو سيّدُ الموقف، وعادةً الذي يحدُث عند فشل أيّ تجربةٍ يقوم النقد على مراجعة كيفية التطبيق وليس النظرية أو الأيديولوجيا التي تقف وراء التجربة. النتائج لم تكن كما يتمّ تصوُّرها لنا، ألم تتخلّص غزة تمامًا من أيّ مستوطن؟ ألم

تصل غزة إلى مرحلة التخندُق أو حتى مرحلة الحرب الهجينة كنتيجة للانتفاضة الثانية؟ ألم تُدكّ تل أبيب والقدس بصواريخ كانت تجاربها الأولية تشبه فعليًا علب الفليت؟ ألم يتمّ تفكيك مستوطنات في الضفة الغربية (جنين ونابلس) لأنّ الاحتلال لم يعُد قادرًا على حمايتها ولم يعُد يتحمّل تكلفة استمرار وجودها؟ ألم تكلّف الانتفاضة العدوّ مليارات الشواكل؟ ولا تدري ما قامت به الانتفاضة من وقف ويلات كانت تنتظر شعبنا؟ شخصيًا أؤمن أنّ الانتفاضة أخّرت لفترةٍ عمليةَ تهجيرٍ جديدة كان يُعدُّ لها.

وإذا قرّرنا مثلًا أن نعيد دراسة التجربة العسكرية في الانتفاضة فإنّ تسليح الانتفاضة لم يكن هو السبب فعليًا بالآثار السّلبية لها، بل هناك عواملُ أخرى هي التي أدّت إلى هذا؛ فالقيادةُ لم تكن على قدر المسؤولية، ولم تستطِع أن تنظّم المجتمع وتُعدّه لحربٍ شعبيةٍ طويلة الأمد، كما حمل البعض فهمًا ساذجًا للكفاح المسلّح، وقاموا بتسطيحٍ شديدٍ لماهيته لدرجة أنّه لا يؤثر على توتّر السطح وفق عبارة (احمل بارودة وطخ مين مانعك).

إضافةً إلى عدم وجود الوعي الكافي والتحضير النفسي والاجتماعي، وغياب التنظيم للقوات المقاتلة والتي أفرزت قيادات بدون كفاءات بعد تصفية الصفّ الأول. كما أنّ الحاضنة الاجتماعية غائبةٌ تمامًا، وهناك مسافةٌ شاسعةٌ ما بين الجماهير وما بين العمل العسكريّ.

أضف إلى ذلك الثورة المضادّة التي قامت بحصار ياسر عرفات، والاتصالات السرّية والاتفاقيات الخيانية التي تمّت تحت الطاولة مع العدوّ. وكذلك غياب التحضير والتجهيز والاستراتيجيات والتكتيكات القتالية، فالهدفُ كان سقفه أوسلو (الوطن المختزل في غزة والضفة)، ولا ننسى هنا تبعية السّلطة الفلسطينية ومنظومتها المالية والوظيفية والإدارية للاحتلال أو المعسكر الاستعماري، وأخيرًا عدم اقتناع البعض بأنّ الكفاح المسلح بإمكانه تغيير وقائع على الأرض، وإنما استخدامه لتحسين شروط التفاوض لا أكثر.

ختامًا، فإن أوّل ما يقوم به الاستعمار هو تعريف المُمكن والمستحيل للشعوب المضطهدة، ويعاونه في ذلك عادةً بعض أفراد الشعب ويتمّ ذلك عبر تقنيات تدخّلٍ مباشرة وغير مباشرة، فلا تصدّقوا ما يتمّ قوله ونقله ومحاولة زرعه في عقولنا، وحاكموا المقولات وفق المنطق وقوّة التحرر لدى الشعوب.

شهيد الشرف العسكري

٢٠١٦/٠١/٣١

تفيد الأوضاع التي تمرّ بها السلطة الآن عن وجود صراع عالي الوتيرة بين أجنحة فتح المتصارعة، فقد وصل أبو مازن إلى آخر مراحله في رئاسة السلطة، ولقبل أشهرٍ قريبة كان الحديث عن نائبٍ لأبو مازن إلا أنّ الصراع الآن انتقل إلى مستوًى آخر، الصراعَ الآن هو على خليفة أبي مازن.

وأيّ متابعٍ للشأن السياسي يستطيع أن يدرك أنّ أبا مازن فقد الغطاء الأمريكي والعربي بأكلمه، ووصل مشروعه إلى انسداد حقيقيٍّ ولا أمل أبدًا في ضخّ أيّ فرصة أخرى فيه، لذلك أيضًا فقد القبول الإسرائيلي له ليتحوّل إلى أيقونة شرٍّ عند الاحتلال، في محاولة من الاحتلال الدخول من جديدٍ في مارثون تنازليّ جديدٍ يقوده شخصٌ آخر يبدأ من حيثُ انتهى أبو مازن في تنازله.

الصراع بين أجنحة فتح ليس جديدًا على الحركة، لكنّ وتيرة الصراع ولغته تنبئُ بمرحلةٍ جديدةٍ وصلت فيه التوتّرات حدّ الإعداد بين تلك الأجنحة لما يُشبه الصدام المسلّح.

في مثل هذا الظرف ولمحاولة تجنّب الصدام الداخلي للحركة والسلطة كان من الضروريّ حلُّ التناقضات الداخلية عبر إيجاد تناقضٍ جامعٍ يُشعر كلّ تلك الاجنحة بالتهديد، لذلك ارتفع منسوب العداء للأحزاب الأخرى ولشخصياتٍ فلسطينيةٍ مستقلّة، وأخذ التحريض مستوياتٍ مرتفعةً جدًّا.

كلّ ذلك الصراع فعليًا لا يهمّ الاحتلال أبدًا ما دام أنّ قواعد اللعبة لذلك الصراع مفهومةٌ ومقبولةٌ له، وما دام أنّ التنافس يقوم على من يستطيع أن يقنع الاحتلال وأمريكا وأوروبا بأنّه الأقدر على القيام بالدور الوظيفيّ للسلطة، وإن كان هناك قلقٌ من تحوّل الصراع هذا إلى صراعٍ مسلّح بين أجنحة السلطة لأنه سيخفّف من القبضة الأمنية للسلطة على المجتمع الفلسطينيّ، لتأتي عملية أمجد السكّري لتقول أن هناك تناقضًا رئيسيًا لا بدّ من مواجهته ويتفّه كلّ تلك الصراعات.

في ظلّ هذا الظرف المعقّد نفّذ الشهيد البطل أمجد السكري عمليّته، ولا نريد أن نغرق في رمزية مكان العملية وما تُشكّله في الوعي الفلسطيني بقدر ما أننا نريد فهم أبعاد العملية البطولية للشهيد أمجد السكري.

لم يكن أمجد هو أوّلُ عناصر الأجهزة الأمنية في هذه الانتفاضة الذي يقومُ بعملية عسكرية ضدّ الاحتلال، فقد سبقه أبطالٌ في هذه الانتفاضة ممّن لم يُعطوا الدنيّة في شرفهم العسكري وصانوا الأمانة.

كان سؤال الاحتلال مع نهاية انتفاضة الأقصى هو كيف بالإمكان الاعتمادُ على عناصر الأجهزة الأمنية الفلسطينية في حماية أمن الاحتلال، ولم يكُن السؤال حول الأجهزة بل حول العناصر؛ فموقفُ الأجهزة الرسمي (باستثناء جهاز قوات ١٧) كان يرفُض العمل العسكري ولم ينخرط في الانتفاضة، إلا أنّ عناصر الأجهزة وبأعداد كبيرة انخرطوا مع شعبهم في الانتفاضة ليقدّموا الشهداء والأسرى ويُذيقوا الاحتلال ويلاتٍ وويلات.

كان جوابُ هذا السؤال عبر الخطّة التي وضعها دايتون في إعادة تشكيل الأجهزة، حيث تمّ إبعاد عدد كبيرٍ من الضُبّاط عنها ممّن لهم تاريخٌ عسكريٌّ ونضاليٌّ سابقٌ عبر سياسة رعاها فياض، كانت السياسة لإبعاد هؤلاء ممّن لا يأمن العدو جانبهم هي فتح مجال التقاعد براتب تقاعديٍّ كامل، ليتقاعد عددٌ كبيرٌ جدًا من ذوي الخبرة العسكرية وممّن يحملون حمولةً أيديولوجيةً لها زخمُها، ومن يحملون ذاكرةً مُشبعةً بمواقف البطولة والتضحية من المعارك المتتالية في ساحات المواجهة المختلفة.

وكان الرهان على خلق "فلسطينيٍّ جديد" ينتمي للمؤسّسة العسكرية صُقل وعيُه بما يناسب سياسات "بناء الأمّة" في الخطّة الأمريكية، وليتمّ عبر هذا إعادة تأويل عددٍ كبيرٍ من المصطلحات والمفاهيم، وترافق أيضًا مع مفهوم "الاحترافية" التي سعوا إلى زرعها في وعي هؤلاء العناصر ليُفقدوا العسكرية الفلسطينية الثورية أهمّ عناصرها، إلا وهي الجانب السياسيّ في الشخصية العسكرية، لأنّه من المفروض أن يكون العسكري في أيّ ثورة يحمل حمولةً أيديولوجيةً وانخراطًا بالشأن السياسيّ قادرًا على تعويض الفرق في القوّة بينه وبين عدُوّه، لتبدأ بعد هذه الخطوة تسمعُ خطاب الأجهزة التي تقول "نحن لا نتدخّل بالسياسة"، ليصبح الثائرُ مثل أيّ عسكريٍّ نظاميٍّ آخر في هذا العالم، كذلك تمّ العمل على إعادةِ صياغةِ العقيدة العسكرية الفلسطينية وما لم يستطيعوا إلغاءَه

قاموا بتأويله، وكان من شروط هذه العملية لأيّ مُنتمٍ جديدٍ للأجهزة أن لا يكون يحمل تاريخًا نضاليًا سابقًا.

في ظلّ كلّ هذه العملية من القصف الذهني المُتتالي خرج بعضُ منتسبي الأجهزة ممّن رفضوا هذا، ليكون دليلًا على مناعة أيّ منظومة، ولتحمل دلالةً مهمّةً أخرى، ألا وهي أنّ أيّ أداة قمعٍ تحملُ في داخلها بذورًا ثوريّةً ستدفع بالناس إلى التمرد.

لم تكن رصاصات أمجد لتخترق فقط أجساد جنود العدو، بل جاءت لتستقرّ أيضًا في رأس عملية التنسيق الأمنيّ ومشروع دايتون، لتلحق برصاصاتٍ سبقتها إلى هناك وبرصاصاتٍ ستلحقُها أيضًا.

اليوم أمجد يخرقُ قواعد وأصول الصراع بين أطراف السلطة الفلسطينية، وسيتمّ إنكاره واتّهامه باتّهامات ما أنزل الله بها من سلطان، لكنّ كلّ هذا لقتل النموذج أمام عناصر آخرين في الأجهزةً، ولمحاولة إثبات قيادة الأجهزة للاحتلال أنّهم ما زالوا قادرين على القيام بدورهم الوظيفي وأنّ هذا نموذجٌ شاذٌ يمكن احتواؤه.

فوزي القطب: أن تعشق البارود

"حرّروا الأسرى السّياسيين أو الموت المؤكّد لكم جميعًا"، وُجدت هذه العبارة مكتوبةً على مطويةٍ ممهورةٍ بتوقيع "المقاتلين الأناركيين الأمريكيين"، على بعدِ عدة شوارعَ من مكان الانفجار. كان الأناركي "ماريو بودا" في العام ١٩٢٠م ساق عربة الحصان التي أثقلها بحمولةٍ كبيرةٍ من الديناميت ليركنها مقابل شركة "جي بي مورغان" في وول ستريت في نيويورك.

"عربة بودا" كان الاسم الذي منحه "مايك ديفيس" مؤلف كتاب "تاريخ السّيارة المفخّخة" لتلك الحادثة، معتبراً أنّ "عربة بودا" هي النّموذج الأول للسيارة المفخخة والتي تحوّلت لاحقًا وبشكلٍ فعّالٍ إلى سلاحٍ شبه استراتيجي. بدا كأنّ الأمر يسير وفق المعادلة: "امتلك سلاح طيران بسيارةٍ مسروقةٍ و٤٠٠ دولار"؛ ففي ظلّ ظروف معينة تستطيع السّيارةُ المفخخةُ أن توازي في فعلِها ووظيفتها فعلَ ووظيفة سلاح الطّيرانً لقدرتها على استهداف المواقع الحضريّة الحيويّة والحساسة، واستهداف المقرات الرئيسية للتّحكم والسّيطرة، بالإضافة لقدرتها على إرهاب الجمهور، كما أنّها تتماشى مع نظرية القصف الاستراتيجي.

يتتبع "مايك ديفيس" في كتابه تاريخ المفخّخات التي غابت بعد "عربة بودا" لحوالي عقدين لتظهر مرةً أخرى في الجانب الآخر من الكرة الأرضية، وذلك حين قامت عصابة "شتيرن" الصّهيونيّة بتفجير مقر الشّرطة البريطانية في حيفا في العام ١٩٤٧م، مروراً بمفخخات "سايغون" التي استهدفت الاستعمار الفرنسيّ في فيتنام في العام ١٩٥٢م، ومفخخات "الفلاقة" الجزائريين عام ١٩٦٢م التي من الواضح أنّها استلهمت من التّجربة الفيتنامية عبر المقاتلين الجزائريين في الجيش الفرنسيّ العائدين من فيتنام، بالإضافة إلى مفخخات الجيش الجمهوريّ الايرلنديّ، ومرورًا بالحزب السّوري القوميّ الاجتماعيّ وحزب الله، ولم يتوقف هذا التّاريخ عند مفخخات الفصائل الفلسطينية في التّسعينات وانتفاضة الأقصى، بل وصل إلى مفخّخات المنطقة الخضراء في بغداد مقر الحكم العسكريّ الأمريكي بعد احتلال العراق عام ٢٠٠٣م.

والنّاظر إلى تاريخ السّيارات المفخخة عبر الكتب والأوراق العديدة التي بحثت فيه سيجد

اسمًا سيظلّ يتداول في كلّ تلك الأدبيات، هو اسم خبير المتفجرات الفلسطيني فوزي نامق القطب.

عن فوزي القطب

ولد فوزي القطب لعائلة مقدسية في دمشق في العام ١٩١٧م. وصفه المؤرّخ الأمريكي J. Bowyer Bell بأنه لم يكن يشبه العرب أبدًا، فارع الطول أشقر وعيونه خضراء، "يبدو أن الصّليبيين قد نسوه خلفهم بعد الحروب الصّليبية". فلا تكاد تميّزه عن أيّ أوروبيّ، وأجاد الإنجليزية منذ مراهقته لعمله في المطبعة الحكوميّة البريطانيّة، كما أجاد اللغة التركيّة عن أمّه، كما كان مولعًا بتفكيك الأشياء وإعادة تركيبها.

سرعان ما بدأ الفتى يخطّ مسيرته النّضاليّة في مواجهة الحركة الصّهيونيّة والانتداب البريطانيّ، فقد أُجبرَ مع عدد من زملائه على ترك مدرسته الرشيدية في القدس إثر مظاهرات عام ١٩٣٣م وانتقلَ حينها للعمل في مطبعة. وما إن انطلقت ثورة ١٩٣٦م المباركة حتّى كان من المسارعين لخوضِ غمارها، وشارك خلالها في معارك كبيرة.

وكان القطب شكّل برفقة بعض شباب القدس الطليعيّ خليةً سرّيةً تعمل داخل القدس، وكانت مكوّنةَ من شخصه ومن زملائه صبحي أبوغربية (استشهد في ١٩٦٧م وهو شقيق المناضل بهجت أبو غربية)، وصبحي بركات (استشهد في ١٩٤٨م)، وقاموا في إحدى المرات بالاشتراك في تكلفة شراء مسدسٍ وسبع طلقات.

وفيما بعد انضم لهم شبابٌ آخرون، وتتبعوا الخلية الأكبر سناً منهم والتي شكّلها سامي الأنصاري وبهجت أبو غربية والشّيخ الشّهيد عبد الحفيظ بركات وآخرون. كان فوزي عرف الطريق إلى ألغام تركيّةٍ من مُخلّفات الحرب العالميّة الأولى، ليعيدَ تشكيلَها إلى قنابلَ بدائية يتمُ إشعالُها بفتيل. وافتخر الفتى بإلقاء القنابل على بيوت الصّهاينة لتصبح عادةً روتينيةً عنده، فقد صرّح بأنّه ألقى بيده في الثّورة الكبرى ٥٦ قنبلةً على حافلات وبيوت العدوّ، ليصبح "سيد القنابل اليدوية" كما أطلق عليه المؤرخون الصّهاينة والأوروبيّون.

سرعان ما أصبح الصّهاينة أكثر حذرًا، فتطلّب الأمر من فوزي أن يقوم بالابتكار في تكتيك الهجوم بالقنابل واللجوء إلى الحيلة، فمثلاً لجأ إلى ربط فتيل القنبلة يدويّة الصّنع ببالون، ومن ثم قام بإلقائها أمام بيوت الصّهاينة فينفجر البالون قبل القنبلة،

ليهبّ العدوّ للخروج لمعرفة مصدر الصّوت فتنفجر في وجوههم القنابل. وبعد عدة هجماتٍ على هذه الشّاكلة تنبّه العدوّ لهذا التّكتيك فاستتروا من قنابله.

وذُكر في أحد المصادر عن القطب أنّه في اليوم الذي حصل فيه على أول قنبلة يدويّة من نوع mills قرّر الاحتفال بوجبةِ غداء دسمة، إلا أن فرحته العارمة بالقنبلة لم تُمهله حتى يتناول غداءه، فقد حملته ساقاه سريعًا ليرميها على مقهًى يهودي.

فتى وقذائف قوسية

كان سؤال "ويلفرد ستوكس" الجنديّ البريطانيّ في الحرب العالميّة الأولى هو كيفية إصابة الأهداف المستترة، وسرعان ما اهتدى إلى فكرة القذائف القوسيّة، أو ما يعرف بالمورتر أو الهاون. وإن كان هناك تاريخٌ سابقٌ طويلٌ في استخدام القذائف القوسيّة بدءًا من استخدام المنجنيق وقذف الحجارة، مرورًا بحصار العثمانيين لبلغراد، واستخدام قذائف قوسيّة متفجرة ومرورًا بالحرب الأهليّة الأميركية، إلا أنّ نموذج "ستوكس" و"براندت" (جندي فرنسيّ) هو ما يشكّل اليوم أشهر وأكثف استخدام للقذائف القوسيّة في هذا العصر. وكان حلّ "ستوكس" و"براندت" لضرب الأهداف المُستترة عبر نيرانٍ قوسيّة تقع على شكلِ قوسٍ في الجهة الموجبة من المستوى الديكارتي، إلا أنّ فوزي القطب قام بقلب القوس لتكون إحداثياته في الجهة السّالبة من المستوى الديكارتيّ. كان الأمرُ ببساطة يحتاجُ من القطب أن يُحددَ بيوت الصّهاينة في البلدة القديمة في القدس من خلالٍ أسطحها، ويقيس إحداثيات المسافة بين الشّباك المستهدف وبين سطح البيت، ومن ثمّ يُحضّر حبلًا طوله مناسب للحسابات الهندسيّة، وبعدها يقف على سطح البيت ويربط الحبل في عصا طويلةٍ من جهة، وفي الجهة الأخرى يربط القنبلة ويشعلها ويرميها، فتصنع حركة القنبلةِ قوسًا يشبه حركة بندول السّاعة، لتكسر القنبلةُ المزوّدةُ بفتيلٍ وبفعل العزم الذاتيّ لها شباكَ البيت المستهدف، وتنتهي القنبلة وقد انفجرت في الهدف المستتر.

القطب فعّال في الثّورة الكبرى

في ١٢-٦-١٩٣٦م جرتْ محاولةٌ لاغتيال ضابط الشّرطة البريطانيّ "آلان سيرجست" Alan Sigrist، حيث قام سامي الأنصاري وبهجت أبو غربية بمحاولة قتله في القدس (لغاية عام ٢٠١٠م ساد اعتقادٌ بأن آلان سيرجست قدٍ هلك في العملية، إلا أنّ الباحث Matthew Hughes اكتشف أنّ الضابط لم يمت بل أُصيبَ إصابةً تعافى منها لاحقًا

فهرب إلى بريطانيا، وتكتّم على حياته، ومن ثمّ مات في بريطانيا في العام ١٩٨٣م). وفي تلك العملية أصيب سامي الأنصاري واستشهد بعد ٣ ساعاتٍ وذلك أثناء التحقيق معه.

على إثر استشهاد الأنصاري، خرج الشّيخ عبد الحفيظ بركات إلى الجبال برفقة بعض أعضاء الخلية فقد تمّ دمج الخليتين معًا، وقامت بتنفيذ عدة عمليات من قتل جنود وشرطة وعملاء واستهداف الصّهاينة ومصالحهم. وفي بداية شهرٍ أيلول من عام ١٩٣٨م تكثّفت عمليات المجموعة تطبيقًا لخطة القائد عارف عبد الرازق الذي خطّط لتحرير القدس من الإنجليز، حتى أنّه لم تكن هناك دوريةٌ بريطانيةٌ في البلدة القديمة إلا وتعرضت لإطلاق النّار. وقد كان فوزي القطب جزءًا من تلك المجموعة. وفي ١٣ أيلول ١٩٣٨م دخلت قوات الثّورة إلى القدس لتحرّرها حتى ٢٠ أيلول ١٩٣٨م.

فتى على الجسر

بعد معركة القدس في العام ١٩٣٨م اضطرّ فوزي القطب إلى اللجوء إلى سوريا، ومن هناك انضم إلى عبد القادر الحسيني ورفيقه في النّضال صبحي أبو غربية في بغداد، وما أن انفجرت ثورةُ رشيد عالي الكيلاني في العراق ضدّ الإنجليز (عام ١٩٤١م) حتى انضمّ لها الفلسطينيون وقاتلوا جنبًا إلى جنبٍ مع الثّوار.

وقاتل حسن سلامة على جبهة الحبانية برفقة ١٦٥ مقاتلًا فلسطينيًا، وقاتل عبد القادر الحسيني برفقة ١٦ مقاتلاً فلسطينياً من بينهم فوزي القطب في منطقة صدر أبوغريب على جسر الفالوجة، فحرّروا ضفة الجسر لينسحب الإنجليز إلى الجهة الأخرى وليحتلّ مقاتلو عبد القادر استحكامات الإنجليز. وقد بدأ القصف المدفعيّ والجويّ على الفرسان الستة عشر كما أسمتهم الصّحافة العراقية، وتقدمت دبابةٌ انجليزيةٌ ليهبّ فوزي القطب بقنابله ليقتل كامل طاقم الدبابة، ولتصبح الدبابة عائقًا أمام تقدّم الدبابات الإنجليزيّة الأخرى. وقد حافظ المقاتلون لمدة ١٠ أيام طِوالٍ على ثغرهم في مقابل كتيبة مشاة انجليزية مُدّعمة بمدفعية وسرية دبابات وبغطاءٍ جويّ، وكانت مجموعة عبد القادر الحسيني آخر من انسحب من تلك الجبهة.

على إثر قمع الثّورة العراقية وملاحقة الثوار الفلسطينيون اضطر بعضهم إلى الهروب إلى إيران، بينما توّجه آخرون إلى سوريا وتركيا. وقد توّجه القطب مع الحسيني و٥

آخرون إلى بلدة زاخو شمال العراق، ليتسلل لاحقاً إلى سوريا. وفي سوريا قُبض عليه في دير الزور وأودع في سجن حلب، ومن ثمّ فرّ من السّجن إلى لبنان. ثم أعاد الكرة إلى سوريا، ومنها إلى تركيا التي اعتقلته وأعادته إلى سوريا، فعاد الكرة عبر تركيا ومن ثمّ اليونان إلى أن التحق بالمفتي الحاج أمين الحسيني في إيطاليا.

ليست حربي

وما لبث أن التحق بدورة كوماندوز للوحدة الوقائية النّازية (Schutzstaffel أو المعروفة بالاختصار S)، وأتمّها ليكمل دورةً في المتفجرات في هولندا حيث أجاد هناك الألمانية وتعلّم بعض الإيطالية (وبذلك أصبح يتحدث ب ٥ لغات). واستمر بالتّعلم لعدة سنوات ليحصل على أفضل تدريب في صناعة وتركيب المتفجرات على مستوى العالم في حينه. وفي العام ١٩٤٤م طُلبَ منه لتفوقه التّوجه إلى الجبهة الشّرقية ليحارب مع الألمان، وفي رواية أخرى كان الطلب هو أن يصحب أربعة أعضاءَ من الكوماندوز الألمان إلى فلسطين، إلا أنّه رفض مجيبًا: "هذه ليست حربي". وبسبب هذا الرفض، تقول الرواية، أنّه اعتقل وحُكم بالإعدام، ونقل بعد الحكم إلى معسكر Wrocław الاعتقالي في بولندا والذي كان مخصصًا لليهود. وحمل على ساعده الوشم التّعريفي للمعتقلين اليهود في المعسكرات النّازية.

قضى الشّاب المقدسي ٣ شهور طويلة في هذا المعسكر جائعًا وعاملًا بالسّخرة بين ركام من الأجساد المتهاوية لليهود المحتجزين. إلا أنّ رسالةً حملها حارسٌ ألماني مرتشٍ من فوزي القطب إلى المفتي أمين الحسيني يخبره عمّا حدث له أنقذته. فبعد هذه الرسالة طلب المفتي من أحد رجال أدولف هتلر وهو "هاينرش هيملر" العفو عن فوزي وهذا ما حصل. وما إن أطلق سراح فوزي حتى بدأ العمل في الإذاعة الألمانية النّاطقة بالعربيّة في برلين، لكن سرعان ما كانت جيوش الحلفاء تطبق على برلين، وما إن وصل الروس إلى برلين حتى انتزع فوزي القطب عن ضابطٍ ألمانيّ قتيلٍ زيّه العسكريّ وتوجّه جنوبًا في رحلة طويلة إلى النمسا، حيث قبض عليه الجيش الأمريكي وأودع في الاعتقال مدة ٤ أشهرٍ ومن ثمّ أطلق سراحه، ليبدأ بعدها في رحلةٍ جديدةٍ لكن هذه المرة إلى فلسطين.

تشير المصادر العربية إلى أنه عاد إلى سوريا ومن ثمّ دخل إلى فلسطين مع حسن سلامة بعد إعلان قرار التّقسيم، إلا أن كلّ المصادر الأجنبية والصّهيونيّة تتفق على أنه عاد إلى فلسطين عبر سفينة من مارسيليا تحمل على متنها ١٥٠٠ من اليهود ضحايا

النّازية ، وأنّه استطاع التّسلل إلى تلك السّفينة عبر الوشم الذي يحمله من المعسكرات النّازية والذي أوحى بأنّه أحد النّاجين من المحرقة، وقد ساعدته هيئته واللغات التي يتقنها على التّخفي.

وما إن وصل عبد القادر الحسيني إلى فلسطين قادمًا من مصر عبر التيه وصولًا إلى الخليل بعد شهرٍ من صدور قرار التّقسيم حتى اجتمع من جديد كلٌّ رجاله حوله، وتمّ تكليف فوزي القطب برئاسة فرقة التّدمير العربيّة.

الصّحيفة التي احتجبت ذلك الصّباح

بعد تفجير عصابة "ليحي" (شتيرن) لمبنى السرايا في يافا ٤-١-١٩٤٨م في اليوم التّالي تمّ تفجير فندق سميراميس ولحقها فندق الملك داوود وإلقاء القنابل على باب العامود وفي يافا وفي حيفا لإرهاب المجتمع الفلسطيني وتدمير روحه المعنويّة ومحاولة استهداف القيادات الفلسطينية. بعد سلسلة الضربات هذه قرّر عبد القادر الحسيني أن يقوم بضربة لتأديب العدوّ. وكان الحسيني قد أعدّ قبل دخوله إلى فلسطين بنك أهداف يحتوي على ١٦٥ هدفًا صهيونيًا ذا طابع استراتيجيّ ومعنويّ للعدوّ، إلا أنّ منعَ الحكومة المصرية له من إدخال المتفجرات، والمظاهرات العربيّة التي انطلقت في كلّ شوارع فلسطين بناءً على دعوة بعض القيادات حالت دون تنفيذ خطته. إلا أنّ الحسيني قد خصص ١٥ ألف جنيه كميزانيةٍ لفرقة التّدمير العربيّة التي يقودها فوزي القطب، فقام الأخير بجمع أطنانٍ من متفجرات TNT وموادَّ أخرى.

وكان الهدف الانتقامي الأول من العدوّ هو نسف بناية جريدة "الباليستاين بوست" النّاطقة باسم الوكالة اليهودية الواقعة في شارع "هاسوليل"، والتي تحوي كذلك على مكاتب عدة صحف ووكالات أنباءَ ومكاتبَ مُرابين ورجال أعمال صهاينة، ولم يكن الهدف من العمليةً إيقاع أكبر عدد من الضّحايا بل نشرُ الرعب والخوف في صفوف العدوّ، لذلك تمّ تنفيذ العملية ليلًا.

نصف طنٍّ من TNT موصول بفتيل وجنديان بريطانيان (ايدي براون وبيتر ماديسون) وسيارةٌ عسكريّة بريطانيّة مسروقةٌ برفقة مقاتلٍ عربيٍّ ثالث، في وسط الأحياء اليهودية في القدس والمحاطة بحواجز بريطانيّة وصهيونيّة وبسيجارة تمّ تثبيتها في طرف الفتيل السّاعة الحادية عشر ليلًا من الأول من شهر شباط لعام ١٩٤٨م تمّت العملية. كانت

الرسالة واضحة "نستطيع الوصول إلى أيّ مكان"، وكانت تلك أولى سيارات فوزي القطب المفخّخة، وأكبر مفخخة حتى تلك اللحظة. في تلك الليلة تم تدمير أكثر من بناية واحتجبت الصّحيفة الصّهيونيّة عن الصّدور صباحاً، ببساطةٍ لأنّه لم يعد هناك صحيفة.

عملية معقدة في «بن يهودا»

كانت الخطة العسكريّة التي وضعها عبد القادر الحسيني في الفرقة التي كان يقودها تؤتي أُكلها، وتحديدًا في القدس حيث أكبر تواجد صهيونيّ. وانطلاقًا من موقع دفاعيٍّ وصل العربُ إلى مرحلة توازن مع العدوّ، وكان لاً بدّ أن يتمّ الانتقالُ إلى مرحلةٍ هجوم استراتيجي. ولإتمام الحصار العربيّ على الأحياء اليهودية في القدس وعلى المستعمراتً المجاورة كان لا بدّ من ضرب سلسلة الهرم القيادية في عصابتي "أرغون" و"شتيرن"، وبالتّالي رفع معنويات المقاتلين وتحطيم معنويات العدوّ. ونظرًا للتفوق الصّهيونيّ في نوعية السّلاح وعدد المقاتلين تصبح النّاحيةُ المعنوّية مهمةً جدًا في خطةٍ من مثل خطط "اختراق الخطوط المحصنة"، ولا تحسب نسبة القوّة في مثل هذه الحالة بالعدد والعدة فقط بل أيضًا بالتّدريب والخبرة والمعنويات.

بناءً على ما سبق تمّ اختيار شارع "بن يهودا" (عشرات العمليات الفدائيّة تمّ تنفيذها في ذلك الشّارع منذ ١٩٤٨م إلى اليوم) وهو أحد أكبر الشّوارع وأجملها في الأحياء اليهودية في القدس، ويشكّل قلب المدينة التّجاريّ، وفيه تسكن الطبقة الغنيّة من يهود القدس، ويقع في منطقة منيعة يعتبرها العدوّ إحدى قلاعهم الحصينة، كما يقع فيه (فندق الأطلنطي) الذيً ينزل فيه كبار الضّيوف والشّخصيات الصّهيونيّة البارزة، كما تقع بناية رئاسة قيادة الأرغون فيه، لذلك كان يعتبر استهدافه انجازًا مُلحًّا.

اشترى الحسيني قافلةً من ٣ شاحنات عسكريّة تتقدّمها مصفّحةً بريطانيةً من ضابط بريطانيّ مرتشٍ دفع ثمنها أهاليً قريتي عين سينيا وبيرزيت. وكانت القافلة تحملً ٥ جنودٍ بريطانيين من ضمنهم "ايدي براون" و"بيتر ماديسون"، بالإضافة إلى مجموعة من المقاتلين الفلسطينيين الذين تزوّدوا بأزياء الجيش البريطانيّ وبهويات مزوّرة، وكانت الشّاحنات الثّلاث تحمل شيئاً آخر غير الرجال، ففي كلّ شاحنةٍ طنٌّ من متفجرات TNT.

اعتكف فوزي القطب برفقة عبد القادر الحسيني الذي كان أيضًا يجيد التّعامل مع المتفجرات في مرآب قيادة الجهاد المقدس في بيرزيت للعمل على تفخيخ الشّاحنات بواسطة ٣ أطنان من الـTNT أحضرها قاسم الريماوي من دمشق خصيصًا لهذه العملية. وقد أضاف لها القطب ١٠٠ كيلوغرام من مركبٍ لزج يُسمى بـFLASH POWDER، يساعد على خلق وهج يساوي وهج ٢٠٠٠ قنبلة مضيئة، كمًا أنّها تضاعف قوة الانفجار بنسبة ٥٠٪، وتُرسل شذرات لمسافة طويلة جدًّا مما يشبه المولوتوف المحترق. وقد وضع القطب هذه المادة في ١٢ وعاءً معدنيًّا، ووصل العبوات بساعتي توقيت، ساعة اليد الخاصّة به وساعة اليد الخاصّة بأخته، ونذكر هنا أنه كان مغرمًا بالساعات.

انطلقت القافلة من بيرزيت باتجاه اللّطرون، وفي طريق يافا القدس عند باب الواد حَرَفت طريقها إلى القدس بهدف التّمويه أنّ القافلة قادمةٌ من تل أبيب. وفي ٢٢ شباط ١٩٤٨م انفجرت الشاحنات الثلاث بفارقٍ زمنيٍّ من دقيقتين بين كلّ انفجار، وبمسافة ٥٠ مترًا بين كلّ شاحنةٍ والأخرى. وأسفر التّفجير عن هدم ٩ بنايات ضخمة في شارع "بن يهودا" من بينها فندق الأطلنطي ومقرّ قيادة الأرغون، وقتل فيها العشرات. وكانت هذه العملية إشعارًا بتحوّل التّوازن إلى هجومٍ استراتيجيٍّ لخرق حصون مستعمرات القدس.

رأس الأفعى تستحق ساعة ذهبية

اشترى فوزي القطب من برلين سّاعة ذهبيةً سويسرية الصّنع ليهديها لفتاة أحبَّها من يافا. لكن السّاعة لم تعرف طريقها إلى يد تلك الفتاة، فقد نزع القطب عقربَ السّاعات منها ليثبتها على عبوة متفجرة مكوّنة من ٢٥٠ كيلوجرامًا من TNT. وضع القطب عبوته المتفجرة في سيارة خضراء باهتة اللون من نوع "فورد" تحملُ علم الولايات المتحدة الأمريكية. وأضاف القطب إلى متفجراته مركّبًا من خليط الزئبق وحمض النايتريك والكحول أو ما يسمّى بفلومينات الزئبق ليستخدمها كمفجرٍ ابتدائيٍّ لعبوته الضخمة.

شقّت السّيارة طريقها من باب الخليل باتّجاه الغرب، وكان يقودها الفلسطيني الكولومبي أنطوان داوود. ركن داوود السّيارة بكلّ أريحية داخل ساحة أكثر مبنًى محصّن عند العدوّ، مبنى الوكالة اليهودية. بعد ٥ دقائق انهار جزءٌ كبيرٌ من المبنى، وقُتل وأُصيب العشرات من الصّهاينة كان من بينهم Arie Leib Jaffe أحد مؤسسي الحركة الصّهيونية، الذي كان رأسه يستحق التّضحية بساعةٍ ذهبيّة.

قلاعٌ على الطريق

اتّسم نمط الحرب على فلسطين على طوال تاريخها في الصّدامات المتتالية مع الاستعمار الأوروبيّ بنمط قتالٍ أوروبيّ يلجأ إلى التّحصين وبناء القلاع. في المقابل اتسم نمطُ العرب في الدّفاع عن فلسطين بنمطِ الإغارة والاعتماد على السّرعة وخفة الحركة والمواجهة. فكان لا بدّ لصلاح الدّين والظاهر بيبرس أن يقوموا بهدم القلاع الأوروبيّة التي تمّ بناؤها على السّاحل الشّامي لمنع إعادة احتلال تلك المدن والرّكون إلى حصونها المنيعةِ من قبل الأوروبيّين.

وبنفس العقلية الأوروبيّة أراد الصّهاينة بناء قلاع لهم في فلسطين عبر المستعمرات، وكذلك حافظ أهل البلاد على نفس نمط قتالهم، ونرى هذا بوضوح في حرب ١٩٤٨م. وقد استطاعت خطط الفلسطينيين العسكريّة في حرب ١٩٤٨م إفشالَ مهمة المستعمرات المتقدمة كنموذج لقلاع عسكريّة، وهذا ما وصل له "بن غوريون" في استنتاجه بأنّه لا أهمية عسكريّة لتلك المستعمرات بل أهميةً سياسية، وأنّ سكان تلك المستعمرات تحوّلوا إلى عبءٍ على الجيش ورهائن في أيدي الفلسطينيين أثناء الحرب.

ومع بداية الحرب بعد قرار التّقسيم اندفع العرب إلى فصل مستعمرات القدس عن الثقل الديموغرافي للعدوّ والموجود في السّاحل الفلسطيني. لذلك شهد بابُ الواد منذ اليوم الأول وحتى الهدنةِ وترسيم الحدود أعنف المعارك وأشدّها، ومن ثمّ فُرض الحصار على كلّ مستعمرة، وجرى فصلها عن باقي المستعمرات في القدس ومُنع التّواصل فيما بينها. وقد جدّ العدوّ كلّ الجدّ في محاولة خلق هذا التّواصل الجغرافي إلا أنهم فشلوا بفضل الاستراتيجية العسكريّة التي وضعها الحسيني واستكملها القائد عبد الله التّل بعد استشهاد الحسيني.

وضمن هذه الاستراتيجية العسكريّة كان يعملُ فوزي القطب وفرقة التّدمير العربية التي كان يقودها، فبعد تفجير الوكالة اليهودية بيومين شارك القطب وفرقته في الهجوم على مستعمرة "ميكور حوليم" وتفجير تحصيناتها وبعض من مبانيها الاستراتيجية. وفي ٢٣ آذار ١٩٤٨م قاموا بتفجير حيّ المنتفيوري غربي بابِ النبي داوود، تلك القلعة المحصّنة الواقعة على الطريق بين بيت لحم والقدس، بشاحنةٍ تحمل ٣ أطنان من المتفجرات.

وبعد أيامٍ شارك القطب في معركة "كفار عتصيون" تلك القلعة الصّهيونيّة التي تقطع

الطريق بين القدس والخليل، ولاحقًا شارك في معركة "بيت هداسا" وتفجير طريق القسطل، وذلك في معركة مستعمرة "النفيه يعقوب" التي حرّرها العرب، وشارك في الدفاع عن باب الخليل وباب النبي داود، وأصيب في تلك المعارك بأكثر من ٢٠ إصابةً ظلّت ترافقه شظاياها حتى وفاته.

وكانت معركة تحرير حارة الشّرف في البلدة القديمة في القدس قمةَ عمل القطب النّضالي، فقد قاد ٢٠٠ مقاتلٍ فلسطينيٍّ وأردنيٍّ استطاعوا دخول البلدة القديمة بعد منع قوات الانتداب البريطاني القائد عبد الله التّل من دخولها. وفي معمله الذي افتتحه في إحدى حمامات القدس التّركية، حوّل القطب ١٥٠٠ علبةٍ من عُلب الأغذية المعدنيّة إلى قنابل يدوية ساهمت النّساءُ والأطفال في صناعتها وإلقائها، حتى اعتقد العدوّان الصّهيونيّ والبريطانيّ أن آلاف المقاتلين يتواجدون في البلدة القديمة من شدّة الكثافة النّارية التي صنعتها تلك القنابل.

وبواسطة ٤٠ كيلوجرامًا من المتفجرات وسيجارة مشتعلة (لطالما أشعل القطب قنابله بسيجارته) في برميل ثُبِّتَ على مقدمة سُلّم، فتحَ القطب ثغرةً كبيرةً في جدار الكنيس في حارة الشّرف آخر معقلٍ تحصّن فيه مقاتلو "الهاجاناه"، ليدخل بعدها رجال فوزي القطب وعبد الله التّل إلى الكنيس. وقد كانت تلك المرة الأولى التي يكون فيها عدد البنادق عند العرب أكثر من عدد الرجال بفضل الغنائم التي غنموها.

خاتمة

فوزي القطب نموذجٌ من آلاف نماذج البطولة في تاريخ المقاومة في فلسطين، وتتبعُ سيرته والتّنقيب فيها في المصادر العربيّة والإنجليزيّة والفرنسيّة والإسبانيّة والعبريّة والألمانية يحيلنا إلى الكثير من الروايات المتناقضة، إلا أنّها تتفقُ جميعها على فرادة تجربة هذا المناضل وعبقريّته وعزمه. ولا نستغرب أبدًا من حجم الإطراء والمديح له وإطلاق الألقاب المتعددة عليه من قبل العدوّ، فقد أطلقوا عليه لقب المهندس، إذ فعلت قنابله فعلها في وعيهم.

وتنتهي كلُّ المصادر الصّهيونيّة في الحديث عن سيرة القطب بجملة "شوهد لآخر مرّة في دمشق" لتمنح دلالةً مهمةً على استمرار ملاحقته حتى وفاته. ظلّ القطب في القدس حتى النكبة ومن ثمّ انتقل إلى دمشق وافتتح مركزًا للترجمة بلغاته الخمس التي يتقنها، وتوفي في عام ١٩٨٨م في دمشق.

الخروج عن القانون والدخول إلى الثورة

"ركض النّاسُ على صوت الرصاص. تدخلوا في المعركة، لم يسألوا لماذا وكيف. أبناء البلد في معركة مع الفرنسيين، كلُّ شيءٍ إذن واضح، وكلُ شيءٍ يصير حتى لو كان الخلاف على شيءٍ تافه أو كانت المعركة بين سكارى. الفرنسيّ المحتل هو عدوٌّ إذن، ومقاومة العدوّ واجبةٌ. في تلك الأيام وأنا أنتقل من بيتٍ إلى بيت عرفتُ معنى كلام إبراهيم الشّنكل عن مقاومة المحتل، الروح الوطنيّة، الحماسة، الاندفاع، التّضامن، الحقد في العيون والأفواه والأيدي، الحقد على كلّ ما هو فرنسيّ وكلّ متعاونٍ مع الفرنسيين من الملاكين والآغوات، ومن الزلم وضعاف النّفوس والوجدان، أما الذين خاضوا المعركة وأفلتوا من الاعتقال فقد كرّمتهم المدينة وكرّمتني معهم، أنا الذي كنتُ في واردٍ ووجدتُ نفسي في واردٍ آخر، أنا الذي صار وطنيًا دون أن يفهم معنى الوطنيّة كما يفهمها غيره من الذين أنعم الله عليهم بالوعي والشّجاعة". رواية نهاية رجل شجاع، حنا مينة.

لطالما تكررت في الأدبيات التّي تتناول التّاريخ الثّوريّ للشعوب بعضُ الشّخصيات الاستثنائية الجدليّة والتّي جمعت ما بين الثّورة والبطولة، وما بين "الجريمة" و"مخالفة القانون" والعادات. وتتشابه حكاياتُ هذه الشّخصيات في كثيرٍ من الأحيان من حيث النشأة والظّروف والمسيرة والنّهاية، والأهمّ أنها تتشابه في كيفيةٍ تناولها والتّعاطي معها من قبل النّاس، ففي جميع هذه الحالات انقسم النّاس في طريقة تناولها، فبعضهم كان يعتبر هؤلاء مجرمين مارقين خارجين عن القانون، فيما كان يعتبرهم آخرون أبطالًا استثنائيين.

وعرف العربُ هذه الظّاهرة قبل الإسلام، وتمثل ذلك بجماعة الصّعاليك، ومن أشهرهم عروةُ بن الورد الذي لُقّب بأمير الصّعاليك. تلك الثّلة من الرّجال الذين خرجوا عن العرف والعادة وواجهوا النّظام الإقتصاديّ والاجتماعيّ والسّياسيّ في قبائلهم، فإمّا نبذتهم تلك القبائل أو قاموا هم باعتزالها. وكانت إذا اشتدّت الدّنيا على النّاس اجتمعوا حول صعاليكهم فأعطوهم حاجاتهم، وإذا بسطت الدّنيا عادوا فأنكروهم وانفضّوا عنهم.

أما وجهُ الشّبه ما بين الثّوريّ وبين المجرم هو أن كليهما قرّرا الخروج عن "الأنظمة والقوانين" المتعارف عليها، لهذا فإن انتقالَ المجرم إلى الفعلِ الوطنيّ أو السّياسيّ المنظّم أو غير المنظّم هو انتقالٌ سلسٌ، لا تَشوبُه - علَى سبيل المثال - تعقيداتُ انتقال أبناء الطّبقةِ البرجوازيةِ لما يتطلبُهُ ذلك من رفضٍ للطبقة الاجتماعيّة، ومن نبذٍ لطقوس وعادات الطبقة والراحة المادّية التّي توفرها. فاللصّ، ومن خلال خبرته في مجال السّرقة والاحتيال، قد أتقن آليات العمل خارج منظومة القانون، واكتسب مهاراتٍ للتعامل في حالات الاعتقال والتّحقيق، وقد جرّب تنفيذ عمليات تتطلبُ درجاتٍ عاليةٍ من التّخطيط المُسبق، وهي خبرات تتشابه في منطقِها العَمليِّ مع الفعلِ المُقاومِ وإنْ اختلفتْ الأهدافُ.

وتنبّه فرانز فانون إلى هذه الظّاهرة وقال عن أهلها في كتابه "معذبو الأرض": "الشّعب يستعملُ أيضًا بعض الأحداث من حياة الجماعة في سبيل أن يحافظ على شكله، وأن يصون طاقته الثّوريّة. من ذلك أن قاطعَ الطّريق الذي يصمدُ لمطاردات رجال الدّرك أيامًا بكاملها، أو الذي يُقتلُ في معركة فذّة بعد أن يقتلَ أربعةً من رجال الشّرطة أو خمسة، أو الذي ينتحر حتى لا يسلّمَ رفاقَه، هؤلاء جميعًا هم بالنسبة إلى الشّعب منارات وقدوات وأبطال، وليس يُجدي طبعًا أن نقول عن فلان من هؤلاء الأبطال أنه لصٌ أو رجلٌ فاسدٌ أو منحطٌ، فإنه يكفي أن يكون هذا الرّجل الذي تطارده السّلطات الإستعمارية قد أساء إلى أحد المستعمرين أو إلى أملاك أحد المستعمرين حتى يُفرّقَ بينه وبين المذنب العادي تفريقًا واضحًا".

وقال عنهم الشيخ الشّهيد عز الدين القسام Shaheed Ezz el Dein Qassam، في دلالة مهمّة لالتصاقه في مجتمعه وحبّه للمجتمع، وشعوره بالعدالة واكتسابه أدوات تحليلٍ قادرةً على منح رؤيا واضحة وجادة، قال عنهم: "دعهم يعملون لأنّ في عملهم رجولةً سنحوّلها في يوم من الأيام إلى جهاد، وما دام المستعمر يرغب في إماتة نفوسنا، فإن هؤلاء أقرب إلىَ الله، وإلى حبِّ الجهاد من المستكينين".

وأدرك المؤرخُ التّاريخيُّ الماركسيّ "ايريك هوسبوام" (Eric J. Hobsbawm) أهميةَ ظاهرة "الخارجين عن القانون"، وخصوصياتها التي تنافي منطق القانون في الدّول الحداثية الليبرالية، تلك التّي تستندُ بالأساس على مفاهيم "العقد الاجتماعيّ" وعلى "الحقوق الطّبيعية" للإنسان في التّملك والحريّة والحياة كما أطّر لها "جون لوك"

(John Locke). فاللصوصية حسب هذا المفهوم اعتداءً على الممتلكات الخاصّة، وهي فعلٌ "إجراميٌّ" بمصطلحات الدّولة والطّبقات المتضررة من الفعل "الإجرامي".

ويستند "هوبوسبام" أحد كتبه لتاريخ طويلٍ من أسطرة ما أطلقَ عليه اسم "اللصوصية الاجتماعيّة" أو Social Banditry في المخيال الشّعبيّ لدى مجتمعات مختلفة، تناولت بطولات اللصوص وقطّاع الطرق أمثال روبن هود "Robin Hood"، روب راي (Rob Ray) وجيسي جايمز (Jesse James). هنا يتناول "هوسباوم" هذه الظّاهرة من زاوية السّياق الاجتماعي الذي يلعب فيه اللصُّ أو المجرم دورًا اجتماعيًا انتقاميًا خاصّةً إن قام بالاحتيال أو بسرقة أحد أفراد الطّبقات المهيمنة والطّاغية في المجتمع، مطلقًا عليه اسم "اللصّ النّبيل"، أو عندما يوفر المجرمون بديلًا عن النّظام الاجتماعيّ والعلاقات الاجتماعيّة المهيمنة والتي تفرضها الطّبقة الحاكمة من خلال الشّرطة وأدوات القمع والاحتواء، ويعطي أمثلةً متنوعةً منها المافيا في جنوب إيطاليا. ويرى "هويسباوم" تشابهًا بين هؤلاء وبين أبطال رجال الثّورات الكبار كجيفارا وجياب وهو تش منه في فيتنام، أو أبطال كعبد الكريم الخطابيّ وعمر المختار، وعزّ الدّين القسّام ووديع حداد وغيرهم في السّياق العربيّ والإسلاميّ.

وفي أحيانٍ كثيرة يصبح هؤلاء الرّجال نموذجًا تحريضيًا للمجتمعات التّي تعيشُ حالةً من الخضوع، فهم الأقدر على الحياة خارج المنظومة التي تفرض شروطًا مذلّةً للعيش. كما أنهم يمتلكون المعرفةَ الكافيةَ للعيش والاستمرار خارج مظلة القانون الظّالم، وفي المقابل يضعون لأنفسهم قوانينَ صارمةً تنظّم عالمهم بتقاليدَ عادلة، تمنح الإنسان كرامته وحقّه في العيش بحياة كريمة وتُوقفه عند مسؤولياته. على سبيلِ المثال، في حالِ قام أحدهم بالاعتراف أمام السّلطاتِ أو قام بالوشاية عن أحد رفاقه، فإن ذلك كفيلٌ بإنهاء مسيرته مع المجموعة.

ولأنّهم في أسفل الهرم الاجتماعيّ فعالمُهم واضحٌ لا تنطلي عليهم خدع السّلطة وتزويرها للحقائق، ولا يخضعون لخطابها وأدواتها الإعلامية وصناعة الرأي العامّ، عالمهم الذي وجدوا أنفسهم فيه هو عالمٌ بكر على حقيقته بكلّ صعوباته ومآسيه وفقره وظلمه، لذلك تجدهم الأكثر تقديرًا للعدل وإحساسًا بالظّلم ورفضًا له.

ومن المهم أن نذكر هنا حجمَ الارتباطِ الهائلِ بين أيّة ثورةٍ أو حركةٍ سريّةٍ وبين العالم

الخفيّ الخارج عن القانون، فالقانون هو أداة تطبيع وهيمنة في يد السّلطة، كما أنها في هذه الحالة هي الوحيدة التّي تملكُ الحقَّ في تفسيره وتأويله. لذلك تصبحُ الحركاتُ السّرية الثّوريّةُ على كفِّ المساواة مع العالم الخفيّ أو "السُّفلي" الذي يعمل خارج إطار القانون، ولطالما اعتمدت الحركات الثّوريّة على ذلك العالم الخفيّ في تحصيل المعرفة واللوجستيات والسّلاح، بل وحتى التّكتيكات المستخدمة وطرق الحصول على التمويل في مواجهة العدوّ.

نماذج عربية وفلسطينية وعالمية

تشترك النّماذج التي سنتحدث عنها بخروجها من الطّبقات الأكثر مظلوميةً وفقرًا في المجتمع ممن يقع عليهم أكبر قدرٍ من الاضطهاد. كما أن غالبيتهم تتشابه في قصصهم مجموعةُ الظروفِ التي أدّت إلى خلق هذا الإنسان الجديد ولحظات الميلاد والتّحول.

نتحدّث عن رجالٍ صنعت تجربتُهم الماديّةُ وعيَهم، وبدأت سيرتُهم بنبذ المجتمع لهم لينتهوا أبطالًا تغنّت بهم النّساءُ في الأعراس، وصدح الرجالُ بأسمائهم ومناقبهم، وأصبحوا نماذجَ للبطولة والتّمرد. نتحدثُ هنا عن رجالٍ لم يكونوا إلا ثوارًا منذ اللحظة الأولى في كلّ صفاتهم ومناقبهم وبُناهم النّفسيّة، امتازوا بالشّجاعة والتّمرد والجرأة والذكاء، ولم ينخدعوا بالتزيين ولا خضعوا للتّدجين.

هل تعرفون ذلك الفتى إبراهيم (قتل عام ١٩١٣م) الذي أحبّ فاطمة ابنة الإقطاعي، فتمّت مطاردته وملاحقته، ليدرك بعدها حجمَ الظّلم والتجبّر الواقعِ من قبل الإقطاعيين والدّولة على الفلاحين والفقراء، وشكّل إثرَ ذلك عصابةً تسرقُ الأغنياء وتعطي الفقراء حقّهم. ذلك الفتى كان إبراهيم حكيم أوغلو أحد أشهر الخارجين عن الدّولة العثمانية، والذي تحوّل إلى أحد أهمّ رموز الملاحم الشّعبيّة التي يتغنّى بها النّاسُ، وتقصّ الجداتُ قصتَه على الأطفال لزرع القيم العليا في نفوسهم، وتعميق مفاهيم النّضال والحرية والعدل والمساواة والحبّ عندهم.

وإن كان حكيم أوغلو يُشبه الأسطورة الإنجليزية "روبين هود"، أو أمير الصّعاليك عروة بن الورد، فإنه أقرب إلى الثّائر الاسكتلندي وليام والاس (الذي خُلّدت سيرته في فيلم القلب الشجاع)، والذي كان الحبُّ في حالته كذلك محركاً لثورته. وكما ألهمت حياةُ حكيم أوغلو النّاس، فكذلك كان في مماته، فصورتُهُ وهو قتيلٌ يحتضنُ بندقيتَه من طراز "Martini-

"Henry" جعلت من تلك البندقية مطلبَ كلِّ الشّباب في الدّولة العثمانية. وحتى الآن ما زالت أغانينا وأهازيجنا الشّعبية في فلسطين تستذكر حكيم أوغلو "بمارتينته" تلك.

هؤلاء رجالٌ لا يفرّقهم عن الثّوار إلا الوعيُ والمشروعُ السّياسيّ، وهؤلاء الأبطال صنعت تجربتُهم الماديّة حواضنهم الشعبيّة ومشاريعهم السياسيّة ليصبحوا أمل الأمّة ونموذجها. وقد تنبّه جيفارا في كتابه "حرب الغوار" إلى هذا التّشابه الكبير إذ قال: "تتمتّع الغوارة حينئذ بالتأييد الشّامل من السّكان المحليين وهذا شرطٌ لا تقوم الثّورة بدونه، يبدو ذلك واضحًا إذا أخذنا مثال عصابات قطّاع الطرق التي تعمل في منطقة ما، فلهذه العصابات كافّة مميزات جيش الغوار: التّماسك، واحترام الرئيس، والشّجاعة، ومعرفة الأرض..". وبحسب جيفارا، إذا التفَ الشعبُ حول تلك العصابات فإنهم يحيلونهم ثوارًا.

ويمكن الدلالة على ذلك بقصة المناضل العراقي الشّهيد صويحب الفلاح الذي قتلته عصابات الإقطاع في الأهوار في العراق بالقرب من نهر الكحلاء في العام ١٩٥٩م، وهو أوّل شهيد بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨م، وقام مظفّر النواب بتخليده بقصيدة "صويحب" التي غنّاها سامي كمال.

وعلى الرغم من أن الشّعوب اعتبرت هؤلاء رموزًا لها وأبطالًا ينيرون الطّريق إلا أنّ الدّولة وقانونها عاجزون عن فهم هذا المنطق. حتى وإن كانت السلطات قد استخدمت هؤلاء الرموز كأساطيرَ في مشاريعها إلا أنها استمرت في اعتبارهم خارجين عن القانون. ويمكن هنا الاستدلال بالملحمة الشعبيّة للأسطورة المصرية الشهيد أدهم الشّرقاوي الذي ما زال المصريون يحيون ذكراه في أغانيهم الشّعبيّة حتّى اليوم، وقد أُنتج عن حياته مسلسلان، إلا أنه تمّ اللجوء إلى قصّته في الفترة الناصريّة وفي فترة المدّ العروبيّ الإشتراكي، إذ أُنتِج عن حياته فيلمٌ من بطولة عبد الله غيث وإخراج حسام الدين مصطفى وغنّى عبد الحليم حافظ مواويل وأهازيج الفيلم. ورغم هذا ما زالت ملابس أدهم الشّرقاوي الذي قُتِل في ١٩٢١م وهو ابن ٢٣ عامًا معروضةً في متحف الشّرطة المصرية تحت قسم "كبار المجرمين".

ويعتبر الثائر الشهيد والمنظّر الثّوري مالكوم اكس من أهمّ تلك النّماذج. ولد مالكوم اكس لأسرةٍ سوداء فقيرة، وترعرع في كنف نظامٍ عنصريّ لا يقبله صاحبُ فطرةٍ

سليمة. قُتِل والدُه على يدِ جماعةٍ عُنصرية بيضاء في العام ١٩٣١م، بينما كان يبلغ من العمر ٦ سنوات. ومن ثم قُتل له ٤ أعمام آخرين على أيدي البيض بدون محاكمة، ووضعت أمّه في مشفى الأمراض العقلية.

كان وجود مالكوم اكس في مدرسة للبيض كافيًا لإدراك حجم الظلم الواقع على السّود، حتى وإن كان في حينها ابن ٦ أعوام فقط. تولدت في نفسه بذرة التّمرد والثّورة منذ صغره، وتعلّم الصّراخ كأداةٍ للاحتجّاج، كما فعلَ مفيد الوحش في رواية "نهاية رجل شجاع" ليُعبّر عن الاحتجاجِ والرفض. وقال مالكوم اكس عن هذه المرحلة من حياته: "لقد تعلمتُ باكرًا أن الحقّ لا يُعطى لمن يسكت عنه، وأن على المرء أن يحدث بعض الضجيج حتى يحصل على ما يريد".

ومع بلوغه تَحوّلَ ذلك السّلوكُ الاحتجاجي إلى صيغةٍ أكثر عنفًا وتمرُّدًا، فبدأ مالكوم اكس بالسّطو والسّرقة، وسُجن على إثر ذلك، لكنه استكمل دراسته الثّانوية في السجن. وقد غادر السّجن بعد ذلك إلى بوسطن ونيويورك حيث انخرط أكثر في عالم العنف والجريمة والمخدرات، ليعود للسجن مرةً ثانية.

وفي السّجن كانت لحظة الميلاد ليخرج بعدها إنسانًا جديدًا، إذ توسعت مدارك مالكوم اكس حول الظّلم الذي يتعرض لهُ السّود في كافة الولايات الأمريكية. لقد منحته التّجربة القاسية في السجن، كما باقي أبطالنا، المعرفةَ وفنَّ فهم وتفسير سلوكيات المجتمع كما شرحها فانون وعلي شريعتي، وليس كما فهمها ونظّر لها أنصافُ المثقفين ممن اعتبروا تلك السّلوكيات حالاتٍ مرضية أو طفراتٍ جينية.

وشقّ مالكوم اكس طريقَه ليصبح أحد أهم قادة السّود، وليرتبطَ أيضًا بنضالات الأمم الأخرى كما علاقته بالثّورة الجزائرية. وقد ترسّخ لديه عقلٌ نقديٌّ لا يقبل الكذب والخداع والدجل، وحافظ دومًا على إخضاع الفكر والنّظرية إلى المجتمع. ومن ثمّ بدأت ملاحقته ومحاولة اغتياله أكثر من مرة، إلى أن نجحت في ٢١ شباط ١٩٦٥م.

أما الشّهيد الجزائري علي لابوانت فولد في العام ١٩٣٠م وعرفَ الظلمَ والفقرَ والاستغلال في مزارع المستعمرين في بلدته "مليانة" في الجزائر، ومن ثم انتقل إلى العاصمة الجزائر ليمارس الملاكمة هناك، ومن ثمّ أصبح خارجًا عن القانون الاستعماري ليُزَجَّ به في السّجن. وفي السّجن كان ميلادُه الجديد، كم من بطلٍ وطنيٍّ

كان ميلاده السّجن؟ أبو جلدة والعرميط وفريد العسعس وأبو كباري كانوا أيضًا من مواليد السّجن، وأصبحوا لاحقًا من الرموز الوطنيّة.

ولابوانت ذلك الاسم الذي التصق ببطلنا وبطل معركة القصبة، الساحة التي بسط سيطرته عليها قبل ميلاده الجديد، علي لابوانت الذي قاد عدّة عملياتٍ ضدّ الاحتلال الفرنسي داخل الجزائر العاصمة، وساهم في نقل الثّورة من الجبال إلى المدن. وبتاريخ ٩ تشرين الأول من العام ١٩٥٧م قام الفرنسيون بتفجير مخبئِه فاستشهد برفقة ثلاثة أبطالٍ آخرين هم الشّابة حسيبة بن بوعلي وطالب عبد الرحمن والطفل عمر الذي أصبحَ أيقونةً من أيقونات الثّورة.

ونذكر هنا البطل الشّهيد حسين العلي من عرب الصّقر في غور بيسان، وهو من أهم النّماذج الفلسطينية. قتل العلي ابن عمٍّ له ظلمه (أغلب النماذج الفلسطينية المشابهة لحسين العلي تبدأ قصصهم بالصّدامٌ مع السّلطة من أسفل هرمها إلى أعلاه، مثل المختار ومن ثمّ الإقطاعي ومن ثمّ البرجوازية المتشبهة بالاستعمار وكومبرادوراتها، ومن ثمّ جهاز القضاء والشّرطة المحلي، حتى الصّدام في النهاية مع رأس الهرم)، ومن ثمّ طاردته السّلطات البريطانية فهرب وتخفّى حتى انطلقت الثّورة الكبرى في العام ١٩٣٦م ليصبح أحد قادة الثّورة، وأهمَّ رموزها. استشهد حسين لاحقًا في معركةٍ طاحنةٍ مع قوات العدوّ البريطاني،وقد خلده الشّاعر توفيق زياد في ملحمته "سرحان والماسورة" التي غنتها فرقة العاشقين.

مبتدأُ كل ثورةٍ هو الخروج، الخروج عن وعلى المنظومة الاجتماعيّة التي رسختها السّلطة باسم القانونِ والاستقرار ومقولات الخير العام والمصلحة العامة، وكل سلطةٍ اجتماعيةٍ واقتصادية هي بالضّرورة امتدادٌ للسلطة السّياسيّة وتتقاطع معها، ومن هنا يمكن فهم وتقدير هذه النماذج البطولية من قبل عامة النّاس المغلوبة على أمرها بشكلٍ فطري. ومن هنا أيضًا يمكن فهم عدائية السلطات الاجتماعيّة الاقتصادية والسّياسيّة لهذه النماذج، واستخدامها للقانون كأداةٍ لتشويهها وصولًا إلى تجريمها، ومن هنا أيضًا يمكن فهم هذا الانتقال السّلس ما بينَ الخارج عن القانون والثّائر المقاوم.

باب الواد

وكأنّ لا واد الّا واد عليّ، ليُلصِق به أهل الشام "ال التعريف"، فإن نَطقت وقلت "الواد" فالمقصود وادي عليّ دون غيره. وعليّ هذا رجلٌ متصوفٌ مات ودُفن في ذلك الواد، ولا نحسبه إلا رجلاً زاهدًا مقاتلاً مات في رباط في ذلك الثغر. وإنْ كان لكلٍّ واد باب، فلا بابَ كبابِ واد علي، عميقٌ وضيّق، ومنه تنبثقُ سلسلةُ جبال القدس إلى يافا والبحر المتوسط.

وباب الواد مفتاحُ القدس، ما أراد قومٌ جاؤوا القدس من غربها غزاةً إلّا وصدمهم أهلُ البلاد فيه. وباب الواد عقدةُ خطوط مواصلات فلسطين، والنّاظرُ إليه كأنّه يرى قلبًا خرجت منه الشّرايين إلى كلّ أنحاء البلاد. كأن الله قد خلق فلسطين مبتدئًا من تلك البقعة، ففيه تتفرّع الطرقُ إلى القدس ورام الله التي توصل إلى جبل نابلس وجليلنا، وفيه طريقٌ إلى اللد والرملة اللتين توصلان إلى كلّ السّاحل، وطريق بيت جبرين التي توصل إلى الخليل وبئر السّبع، وطريق غزة، وطريق عرطوف.

فيه اصطدم أهلُ البلاد بقبائل بني إسرائيل، ومنه مرّ الفراعنةُ إلى الشّام وصدمهم أهل البلاد هناك، ومنه مرّ اليونان والرومان، وفيه اقتتل القائدُ الرّومانيّ "كستسوس غالوس" (عام ٦٦ ميلادي) مع أهل البلاد، وفيه ترك لنا الحاج سايلوف (١١٠٢م) وصفًا لمقاومة أهل البلاد للغزو الصّليبي لبلادنا، فجُثثُ الصليبيين كانت تملأُ الطريق وما تجرّأ أحدٌ على دفنهم خوفًا من أن تذيقهم المقاومة ويلات ضرباتها في باب الواد.

وفي تلاله رابط المسلمون في الفتح الأول، وهناك صلّى عمر بن الخطاب، وعلى مدخله الغربيّ بنى المسلمون مدينة الرملة لتصدّ عن مفتاح القدس، وعمّر طريقه الأمويون، وفيه صدّ صلاح الدين حملة ريتشارد قلب الأسد عشرةَ أشهر (١١٩١ -١١٩٢م)، وكسر الحملة الصليبية فيه حتى ارتدّ ريتشارد على عَقبيْه، فطاردناه إلى السّاحل. وفيه أشدّ معارك العثمانيين مع الإنجليز في فلسطين في الحرب العالمية الأولى.

وفيه وُضعت أحكمُ كمائننا في ثورتنا المجيدة في العام ١٩٣٦م، وفي باب الواد عرف المشروعُ الصّهيونيُّ أصعب لحظاته في فلسطين في حرب ١٩٤٨م، وذلك عندما حوصرت

الأحياءُ اليهودية في القدس، وفُصِلَت عن مركز الثقل والإمداد الصّهيوني في تل أبيب، فكتب "بن غوريون" في مذكراته "المشروع الصهيوني يترنّح عند باب الواد".

تعمّد الوادي بدمائنا، وفي بابه اختلطت دماءُ أمتنا؛ بلادُ الشّام مع عراقنا ويمننا وجزيرتنا وواد النيل ومغربنا، وهناك وقف بجانب العرب ثوارُ أمّتنا الإسلامية من تُرك وفُرس وسنْد وهند فقاتلوا واستشهدوا دفاعًا عن قدسنا، ووقف بجانبهم أحرار العالم ليقاتلوا ويستشهدوا أفارقةً ولاتينيين وسلافيين.

عميرة هس ووهم «اليسار المتضامن»

٢٠١٣/٠٤/١٠

منذ أن ادّعيت أنّي أصبحتُ واعيًا (على افتراض غياب فكرة الوعي الزائف) لم أعُد أبدًا إلى تبسيط الصراع، لم أعد أرى كما تمّ تلقيني منذ الصغر أنّ هذا صراع بين عربٍ ويهود، بين فلسطينيٍّ وإسرائيلي، وهجرتُ تلك الثنائية إلى غيرِ رجعة، تركتُ تلك النظرة التبسيطية الساذجة، واقتنعتُ بتقسيمات علي شريعتي وفرانز فانون [1] لهذا العالم.

ستجد في كلّ معسكر من المعسكرين أُناسًا من كافّة الأديان واللغات والعرقيات والإثنيّات والألوان والطبقات، فستجدُ مثلًا في هذا الصراع أُناسًا من أبناء جلدتنا يقفون وبكلّ فظاظة في المعسكر الآخر، وفي نفس الوقت ستجد يهودًا يقفون في معسكرنا، لكنّ أشخاصًا مثل عميرة هس لا أستطيع أن أصنّفهم أبدًا في المعسكر التحرّري.

عميرة هس شخصيةٌ جدليةٌ جدًا، ينظر بعض الفلسطينيين لها على أنّها جزءٌ من نضالنا ويصفونها بالشجاعة والبطولة، بينما يراها بعض الصهاينة خطرًا ويجب كبحُ جماحها وتقديمها للمحاكمة. لكن أنا لا أراها إلا موريس توريز (رئيس الحزب الشيوعي الفرنسي أثناء الثورة الجزائرية) جديدٌ باستثناء أنّها تملكُ منظرًا أكثر عصريةً وتصفيفة شعرٍ جميلة وتضاريس أنثوية، لا أراها إلا كابتن برات (مدارس الهنود الحمر ١٨٤٠-١٩٢٤م) لا يمضغ تبغًا، صديقةٌ عصريةٌ للهنود الحمر، وليست إلا عاموس عوز جديد [2].

هي لا تختلف أبدًا عن أيّ مثقف من مثقّفي المستعمِر ولا عن أيّ أستاذٍ من أساتذة الأخلاق الذين يتقاطرون إلينا ليعطونا الحلول والبدائل ودروسًا في الأخلاق والإنسانية وأساليب النضال.

وهي ليست إلا جنديًا في المعركة الخلفية التي يطلقُها المستعمرُ في ميدان الثقافة والقيم. تعترفُ "بحقوقك" لكن بشروط، وأهمُّ شرط هو أن تظلّ تدور في فلكها وأن لا تحاول التمرد على ما تُلقّنه لك، وصار لزامًا على المستعمَر من

أجل هضم ثقافة مضطهديه أن يقدّم ضمانات ومن بينها تبنّي أشكال التفكير الخاصّة بالبرجوازية الاستعمارية التي تمثّلها هس ولا تضيّع الفرصة أبدًا في سبيل تطبيق مقولة "المستعمِر هو الذي صنع المستعمَر وما يزال يصنعه". فليقل أحدٌ للفلسطينيين إنّه الاحتلال يا "بلهاء" هذا عنوان أحد مقالاتها والذي قامت بترجمته ونشره شبكة راية الإعلامية في تاريخ ١١-٩-٢٠١٢م. تتحدّثُ في هذا المقال عن موجة الاحتجاجات على سياسات فيّاض الاقتصادية، وتقول أنّ الإسرائيليين عباقرة وتكرّرُها أربع مرات في المقال في حين وصفت الفلسطينيين "بالبُلَهاء". فإذا ما تجاوزنا الفوقية والعنصرية والتبخيس في مقالها واقتناعها بأنّ الفلسطينيين ما زالوا يحتاجون إلى أوصياءَ عليهم، وإذا ما تجاوزنا أن مقالها لا يختلفُ أبدًا عن مقولة أبا ايبان [٣]، أو مقولة عاموس عوز [٤].

فإذا تجاوزنا هذا كلّه فإنها لا تختلفُ أبدًا عن أيّ مستعمرٍ آخر. الاستعماريون لا يرون أهل البلاد إلا ككتلة غير متمايزة تطلبُ أن يتوجه الاحتجاج باتجاه "اسرائيل" بما أنّها هي المسبّب للوضع الاقتصادي البائس، وليس بإمكانها أبدًا أن ترى أنّ هناك فلسطينيين شاركوا بالاحتجاجات ضدّ السلطة وفياض على قاعدة أنّهما ذراعٌ من أذرعة الاحتلال وأداة سيطرة وتحكّم وتدجين وامتدادٌ للمشروع الاستعماري وضرورةٌ من ضروراته ومقاولًا بخسًا، ولا تستطيع أنْ تستوعب أنّ بعض الفلسطينيين يرون أنّ أيّ صدام مع السلطة ليس صداما مع فلسطينيٍّ آخر بل صدامًا مع أداةٍ من أدوات الاحتلال.

الشماليون من بلعين

كثيرًا ما تقوم هس بالتضليل والحشو والتأويل للنصوص بما يوافقُ أفكارها وأيديولوجيّتها؛ ففي هذا المقال المُترجم في موقع فلسطين اليوم تتناولُ الصحفية تأثير فيلم خمس كاميراتٍ مكسورة على الأسرى، و تقتبسُ نصوصًا من رسالة الأسير وليد دقة إلى عنات مطر.

تحاولُ وبكلّ وضوح نشر أفكارها بين الفلسطينيين مستخدمةً رمزًا كبيرًا مثل الأسير دقة صاحب دراسةَ صَهْر الوعي والتي تبيّن تمامًا توجّهاته وأفكاره، وتقوم بتأويلات غريبةٍ ونزع مقاطع من الرسالة وتأويلها حسب رغباتها. كذلك تقومُ ولنفس السببِ بالتأكيد على براءة وليد من دمّ الجندي الذي قتلته الخلية التي كان يعمل معها. وتقول: "ومع السنين توصّل دقة إلى الاستنتاج بأنّ أفكاره وآماله الاجتماعية والوطنية يمكنه

أن يعبّر عنها بشكلٍ أفضل في حزب في إسرائيل - التجمّع الوطني الديمقراطي. وقد نجح في الصراع القانوني الذي أداره من السجن، وتصنيفه في مصلحة السجون كرجل الجبهة الشعبية - شُطِب. ومؤخّرًا تحدّدت محكوميّته بـ ٣٧ سنة".

ولربّما تعتَبرُ هس ذلك إعلانًا من الأسير وليد دقة عن تبرُّئه عمّا سبق وإصابته بعدوى المراجعات المنتشرة هذه الأيام، في حين يعلم أيّ شخص قريب من قضايا الأسرى أنّ الصراع القانوني الذي أداره دقة في السجن ليس تراجعًا عن أفكاره وإنّما هي مناورةٌ على القانون الإسرائيلي. إذ يحملُ وليد الجنسية الإسرائيلية، لكنّه حوكِم وفق القانون العسكري وليس القانون المدني، وفي القانون العسكريّ الحكم المؤبد هو نظيرٌ لمدى الحياة، لكن إذا ما تمّت محاكمته وفق القانون المدني فإن رئيس دولة العدو يستطيعُ تحديد مدّة المؤبد بـ٢٥ سنة أو ٩٩ سنة. ولا تتركُ هس الفرصة أبدًا في أيّ مكانٍ في مقالها هذا للإيحاء بأن وليد ينبُذُ العنف لتحاول الترويج لمفهوم واستراتيجية وفلسفة النضال وأدواته وفق هواها ومصالحها وما يناسبها.

رشق الحجارة

أدّى هذا المقالُ إلى موجةٍ حادّة من الهجوم عليها من قبل مجتمع العدو، وطالب البعض منهم بتقديمها للمحاكمة، ووصلتها تهديداتٌ بالقتل والترهيب بسبب ما طرحته في مقالها.

وتمّت ترجمته ونشره في صحيفة الغد الأردنية ٤/٤/٢٠١٣، عندما قرأتُ المقال وللوهلة الأولى التبس عليّ الأمر؛ فهي تدعو لرشق الحجارة وتعتبرُها "حقًا وواجبًا فطريين لمن يقعون تحت سلطة أجنبية"، وتدعو إلى "تعلّم وتطوير أشكال الصمود والمقاومة وقواعدهما وقيودهما"، وتؤيّد حملة المقاطعة.

ومن المعروف أنّ هس تؤيد حلّ الدولتين وتناصر مساعي السلطة لتطبيق مشروعها (الانهزامي التنازلي)، ولا تعترفُ أنّ فلسطين هي كلّ الأراضي التي كانت حدّدتها سلطات الانتداب البريطاني في صك الانتداب، بل ترى أنّ فلسطين هي الضفة وغزة وشرق القدس. وترى التوجّه للأمم المتحدة كـ "عصيانٍ مدنيٍّ بالدبلوماسية".

في قراءة ثانية متأنيّة للمقال صار بإمكاني اكتشاف السمّ الذي دسّته في العسل؛ فهي تدعو إلى مقاومةٍ لاعنفية وإن كان في رشق الحجارة بعضٌ من العنف فإنّ المهم أن

الفلسفة والاستراتيجية التي تقفُ خلفه هي اللاعنف الذي يرتكز على إثارة الضمير والأخلاق لدى الخصم. وترفضُ الاعتراف بحقّ "من يقعون تحت سلطةٍ أجنبية" بممارسة العنف، فقد حدّدت مُسبقًا القيود الواجب أن تحكم أشكال الصمود والمقاومة. من القيود مثلًا: "التفريق بين المدنيين وحاملي السلاح، وبين الأولاد ولابسي البزات العسكرية، وقيدٌ آخر هو محدودية السلاح وإخفاقاته في الماضي"، على حدّ تعبيرها.

وتقترحُ منطقًا لتدريس "الطلاب في المدارس الفلسطينية دروسًا أساسيةً في المقاومة"، بدلًا من تكرار تجربة أطفال الار بي جي في مخيّمات لبنان أو تطبيق برنامج مثل "فتوة" الذي تقوم وزارة التربية في غزة بتطبيقه في المدارس على الذكور في المرحلة الثانوية وسيبدأ العمل به أيضًا في مدارس الإناث.

ولن تجدها أبدًا تقصد بقولها "كيف يتمّ السلوك في حال مداهمةٍ عسكريةٍ لمنزل"، بمعنى أن "احذر أن تتدجّن سكينك للمطبخ"، ولا كيفية تعليم المراهقين إمساكَ السكين وكيفية توجيهها إلى أضعف نقطة في جسم الخصم و زاويةُ اختراقها للجسم بين أنسب ضلعين في الصدر لتكون الطعنةٌ أكثر فتكًا، بل ستجدها تتحدّث عن "كيف يتمّ تذكّر تفصيلات الجندي الذي طرحك مقيّدًا على أرض الجيب - لتُقدّم شكوى بعد ذلك" و "كيف يُستعمل الفيديو لتصوير عنف ممثّلي النظام".

ولا يفوتها أبدًا أن تؤكّد على الأشكال الجمالية لاحترام النظام القائم والذي سيدفع باتّجاه مزيدٍ من الخضوع ويصبُّ في خانة تحسين شروط العبودية من مثل "محاولة تحقيقٍ جماعيٍّ للحق في حرية الانتقال"، وتطلب المقارنة والموازنة "ين نضال المستعمَرين في بلدانٍ مختلف"، طبعًا لم تقصد فيتنام والجزائر بل الهند وجنوب افريقيا، مع تأكيدي على احترام نضالات الشعبين وتضحياتهما واحترام تجربتهما.

في نهاية المقال تقوم بإعطاء تحليلٍ صبيانيٍّ جدًا عن سبب عدم وجود هذا البرنامج في الخطّة المدرسية، ولا يفوتها أبدًا أن تؤكّد على أنّ المستعمِر ينظر إلى المستعمَر على أنّه "خامل، جاهل، كسول". ويفوتها قول روسو: "بيّنوا الطريق للناس ولا تحدّدوا ما عليهم فعله،امنحوهم الرؤية فحسب وهم سوف يجدون الطريق بأنفسهم ويعرفون ما عليهم".

أخيرًا ومع أنّي أشكُّ أنّ هس ستقرأ هذا لأنّ كاتبه شخص "غيرُ متمايزٍ أبلهُ غبيٌّ وكسول"، وتجاوزًا لعادتي بعدم التوجه بالخطاب إلى العدو (هناك لغةٌ خاصةٌ

لمخاطبتهم)، ومع إيماني بأنّ "تغيير العالم الاستعماري ليس معركةً عقليةً بين وجهتي نظر وليس خطابًا في المساواة بين البشر وإنّما هو تأكيدٌ عنيفٌ لأصالة تفرض مطلقًا"، إلا أنّي سأقول لك: غادرينا فلستِ يوآف بار أو زوجته هاريس أو جونثان بولاك. أنت عدوا وأراك خطرًا على شعبي أكثر من خطر ليبرمان، فالكلُّ الفلسطينيّ لا يختلف على أنّ ليبرمان عدوٌّ أما أنتِ فإنكِ تجيدين خلط أمر الناس عليهم.

الهوامش:

(١) يُقسم شريعتي العالم إلى عالم أول وعالم ثانٍ، وفانون يقسمه إلى معسكرٍ تحرّريٍّ ومعسكرٍ استعماري.

(٢) عاموس عوز: روائي صهيوني يصفه إدوراد سعيد في "القلم والسيف" بأنه شخصية إسرائيلية مركّبة مُقولبة، لديه تلك النظرة المتوجّعة لشخص يبحث عن حل. ويقول أن الاحتلال سيءٌ لروحنا وانظروا ما الذي يفعله بنا، ويقول جملًا مثل: على الاحتلال أن ينتهي ونحن ضدّ الهيمنة على شعبٍ آخر وفي نفس الوقت يطرح أراءً حول الفلسطينيين ويصفُهم بأقذع الأوصاف.

(٣) مقولة ابا ايبان: "إنّ الفلسطينيين لم يضيّعوا فرصةً لتضييع فرصة".

(٤) مقولة عاموس عوز: "إن الفلسطينيين كانوا دائمًا على الجانب الخطأ: هتلر، عبد الناصر، الاتحاد السوفيتي ثم صدام".

غربة، حيث ولدت وحيث لن أموت

(١)

القرية

وقفتُ، تصنّعتُ الجدية، وبالغتُ في خشونةِ صوتي وقُلت: "أستاذ بكرة بدّي أعطّل".

اقترب منّي بهدوءٍ ذلك الأستاذ الثلاثينيٍّ الأعزب، شدَّني من أُذُني وقال: "وليش يا فصيح بدّك تعطّل؟".

أجبْتُ بفخر: "غدًا سيكون عرسي"، وأشَحْتُ بيدي لكلٍّ الصف قائلًا: "وكُلكُم معزومين".

في تلك الليلة ذُبحت الذبائح، القهوةُ تغلي في الدِّلال، كان الناسُ مجتمعين في ساحة الجِرن، تلك الساحةُ الجديدةُ التي بنيْناها بعد الخلاف مجدّدًا مع حمولة الأعرج، لم نلجأ هذه المرّة لحَمولة عبد ربُّه، بل انقسمت دارُ الأعرجِ وبعضُ العائلات من الحمايل الأخرى وشكّلوا تلك الساحة.

كانت الساحاتُ في القرية هي مكانُ تجمُّع الناسِ وتشكُّل ولاءاتِهم بغضِّ النظر عن قرابة الدم، القرية فيها خمس ساحات، ساحةٌ لكلٍّ حمولة؛ الأعرج، الحجاجلة، الوهادنة، عبد ربُّه، وأخيرًا تلك الساحةُ الطارئة، كانوا يجتمعون فيها لِلَّعب والسهرِ واستقبال الضيوف وأكلِهم ونومِهم، في رمضان كان فطورُ الرجال في تلك الساحات، والأعراس وبيوت الأجر.

لم تدخل امرأةٌ الساحة قطُّ إلا تلك الحاجّةُ التي كانت تشربُ على الغليون فضية العرب، كان لها رأيٌ ومَشورة، وهناك روايةٌ عن أنّ أحدهم في الثورة الكبرى أحضر شخصًا مُلثّمًا وقال لهم هذا فريد وهو مطلوبٌ من الإنجليز فإيّاكم أن يحادثَه أحد، في تلك الليلة كان أحدُ الضيوف من البدو نائمًا في الساحة فاستيقظَ على ذلك الرجل وهو يضاجعُ المدعوّ "فريد"، خرجَ صارخًا (كل الدز بحلقة فريد) كان ذلك الملثّم هو الشابّة الوحيدة التي دخلت الساحة.

جلستُ مُتصنِّعًا الرجولة أنا وأخي إبراهيم الاصغر منّي بعامين وشريكي بالعرس،

كانت المرّةَ الأولى التي ألبسُ فيها الكبر (اللّباس التقليدي الفلسطيني)، كنّا نشتري سنويًا حذاءً واحدًا وبدلتين مكوّنةً من سروالٍ قصيرٍ وقميص، كانت تلك الملابس للنوم والمدرسة والحصاد واللعب والأفراح للصيفِ والشتاء.

لم نكُن نعرفُ الملابس الداخلية، كانت المدرسة فيها أربعةُ أطفالٍ يلبسون الملابس الداخلية، أولادُ السّت خوليا لأنّ أمّهم أجنبية، وابن أحد الأغنياء، أحد الأطفال كانت أمُّهُ خياطةً فكانت تجمعُ ما يتبقّى عندها من بواقي القماش وتصنع له سروالًا داخليًّا يحتوي على كلِّ الألوان التي نميّزها. لم يكن بالمدرسة إلا فتاةً واحدة.

اقترب منّي أحدُ الأطفال واسمه عطا وكان بعمري، كان الغلُّ والحسدُ يظهرُ من عينيه وسألني: ليش بِدّهُم يزوّجوك وأنا لا؟ أجبتُه بكِبرٍ وفخر: لأنّك حمار ولكْ يا تيس أنت ما خلّصتش درس غزال (الدرس الثالث في الصف الأوّل الابتدائي)، ولك أنا صِرت بالصفّ السادس.

دخل الأستاذ عاهد، هرب كلُّ الأطفالِ للاختباء وهربتُ أنا وأخي واختبأنا خلف الحُصُر أيضًا، في اليوم التالي عوقِبَ كلُّ أطفالِ المدرسة إلا أنا وأخي، وكانت هي المرّة الوحيدة التي لم أعاقَب فيها لأنّي دخلتُ الساحة؛ فقد كان ممنوعًا علينا من المدرسة الجلوسُ في الساحات خوفًا على أخلاقنا.

من مصروفي البائس اعتدتُ أن أوفّر بعضَ القروش وأدّخرها لرحلة كلّ أسبوعين إلى يافا، على متْنِ القطار الذي يمُرُّ عبر أراضي القرية لمدّة ربع ساعةً والذي يتوقّفُ في محطّةِ بتير القريبة منّا، على تلك المحطّة في الثورة الكُبرى كانَ كلُّ سكّانِ القدس يأتونَ هناك ليشتروا حاجيّاتهم في ظلِّ الإضراب الكبير من منتجات القرية من خضارٍ وفواكه، كانت جنّةُ الله في الأرض، ثمانيَ عشرةَ نبعَ ماءٍ، ومساحاتُ أراضٍ واسعةً وخصبة.

أنطلقُ مُبكّرًا وقد ملأتُ جيوبي من القُطّين عالي الجودة المخصّص للهدايا فقط والمحرّم علينا، عبر فتحة من الخلف في الخابيةِ المخصّصة للتّخزين، بعد أن أقومَ بعصرِ بعض قُطوف العنَب في جرّة اقتنيْتُها وأصفّيها بالحطّة وأضعُها في مواجهة الشمس مباشرةً، أركبُ القطار وأختبئُ تحت الكراسي الخشبية، فإذا حالفني الحظُّ ولم يَلْحظني جامعُ التذاكر، حصلتُ على بعض حلويات يافا الغريبة، أقضي وقتي مُتسكّعًا في الأسواق وأعود مع آخر رحلةٍ للقطار بعد العصر. عند عودتي أتوجّه إلى خِربةِ الشرقيّ التي نملكُ فيها عشراتِ الدونمات من الأراضي مزروعةً بكلِّ أنواع

الفواكه الجبلية، أشربُ العصير المخمّرَ وأنامُ تحت أيّةِ شجرة وتبدأُ رحلة البحث اليومية عنّي التي اعتادت العائلةُ عليها.

التوتّر العشائري والعائلي سيّدُ الموقف، مشاحناتٌ حتّى في الأعراس، سباقٌ في كلّ شيءٍ ومناكفاتٌ لا تنتهي، كان أهلُ الولجة يوصَفون بأنّهم أشرُّ من مشى على الأرض، حدث قبل فترةٍ طويلةٍ لم أكُن مولودًا بعد وأن قرّر كلُّ أهل القرية وكأنّه اتّفاقٌ أن يُصفّوا حساباتهم مع بعضهم في نفس اليوم ودبّت الفتنةُ والهرجُ والمرج، لم يَسْلَم أحدٌ من الأذى، كانت النتيجة قتيلًا وعشراتِ الجرحى، العيون قُلعت والأيدي والأرجُلُ كُسِرت، والرؤوس ضُمّدت، أكثرُ من أربعين شابًا تمّ اعتقالهم وتقديمُهم للمحاكمة، عائلتي كان نصيبُها سَجْنُ أجدادي الاثنين واتّهامُهُما بالقتل، فاضطرّت العائلة أن ترهن أرضَها لأحد البنوك مقابل ١٠٠ جنيه فلسطينيٍّ استُخدمت في مصاريف الدفاع والرشوة، لم نَنْه القرض إلا في عام ١٩٤٧م ورُدَّت لنا أرضنا.

بعد هذه الحادثة اتّفق الأهالي على أنّ القرية منطقةٌ حرام لا يجوزُ الاقتتال فيها، وتمّ تخصيصُ تلّة صغيرة بعيدة نسبيًا عن مركز القرية قمّتُها منبسطةٌ وفيها من الحجارة الصغيرة المُدوّرة ما لم يقذفْهُ الشبابُ في الانتفاضة الأولى، هذه التلّة كان اسمُها التشارشة (مشتقّةٌ من كلمة كنيسة بالإنجليزية حيثُ كانت مقرَّ إرسالية تبشيرية)، فإذا ما اقتتل اثنان هُرعت عائلةُ كلٍّ منهما إلى رأس تلك التلّة، فإذا وصل أحدُ الفريقين انسحب الفريقُ الآخرُ دون قتالٍ مهزومًا لأنّ المعركة تكون قد حُسمت باحتلال العائلة الأخرى لقمّة التلة، لم يحدث أن وصل الفريقان في نفس الوقت إلى رأس التلّة إلا مرةً واحدةً، وكانت معركةً قويةً ساهمت في تدعيم موقعِ عائلتي في القرية.

العداءُ شديدٌ بين والدي والشيخ عبد الفتاح -صاحبِ النفوذ الواسعِ والأراضي المُمتدّة- الذي وقفَ ضدّ الثورةِ ولاحقَ أتباع الثورة وسجَنهم، كانت لهُ ميليشيا خاصّة يفوقُ عددُها ٣٠٠ مسلح.

وأنثى وكلُّهم يلبسون السراويل القصيرة، وقعتْ إحداهُنَّ بالقرب من ساحة دار الأعرج، دبّت الحَميّةُ في الرجال فحملوها وصنعوا لها جبيرة، اختلطت جبيرتُها باللُّعاب أكثرَ من الماء.

سألتُ والدي: ماذا يفعلون ولماذا يحمِلون عِصيَّهم الطويلة؟ أجاب ضاحكًا: يتنزّهون

وبعدها بِخَتلي كل ذكر بأنثى (وبنُطُوا على بعض). بعد سنين طويلة عرفتُ أنّهم كانوا يرسُمون خرائطَ تحدّدت فيها أماكنُ المياه والكهوف والطُّرُق.

(٢)

الحرب

لأوّلِ مرة أراهُ يلبسُ الحذاء بالطريقة السليمة فقد كان مُعتادًا أن يلبسَهُ (فقراوي). سألته أمّي: إلى أين؟ أجابها متبرِّمًا: إلى القدس هناك اجتماعٌ في الحزب العربيّ. انطلقتُ من بعدِه إلى بيت عمّتي حمدة لأتسكّعَ مع رفيق طفولتي عيسى. عاد أبي مُتأخِّرًا، فقد اعتدنا أنّهُ إذا حلَّ الليلُ ولم يعُد، سيعني ذلك حتمًا أنّه سيقضي ليلَهُ في إحدى الساحات، كانت أمّي قد اعتادت غيابَه عن البيت فقد غاب ٣ سنواتٍ في خضمّ الثورة الكبرى لم يزُر البيت إلا نادرًا.

أخذ المصباحَ الزيتيّ وخرج، لم أهتمَّ أبدًا عندما عاد، لكنّ صوت قعْقَعة المعدن أيقَظَني، سرقتُ بعض النظرات من تحت اللّحاف، رأيتُها لأوّلِ مرّة، نعم رأيتُها، كانت طويلة، لها لمعانٌ يسرقُ اللُّب، كعبُها خشبيّ، كان يتفقّدُها بحرص، اااه لو كان يعاملُني كما يُعاملُ بُندقيّته، لطالما كانت أسطورةً بالنسبة لنا، نسمعُ عنها ولا نراها "بارودة بيادي ألماني رصاصتها بتخْزق دامر الحديد تبَعْ سكّة القطار اشتراها بـ٨٥ جنيهًا فلسطينيًا في بداية الثورة الكِبرى" هكذا كانوا يصفونها في الساحة، ويجلسُ أبي مزهُوًّا يرفعُ حطّتَهُ لفوقٍ أو كما نقولُ بالدارجة "عنكر الحطّة أو الطربوش" للدلالة على الفخر والكِبر.

قالت له أمّي متسائلةً: علي، شو بدّك بالبارودة؟ مع مين متقاتِل؟ أجاب مُتبسمًا وهو يهزُّ رأسَه يمينًا ويسارًا وكأنّهُ يطرَب: والله يا عائشة ورِجعت أيام العز، الثورة على الأبواب.

في اليوم التالي، ولم أكُن قد ذُقت النوم وأنا أتخيّلُ أيام العزّ القادمة التي كان يتحدّث عنها أبي، كانت الحركةُ غير طبيعية، كلُ رجالِ القرية لم يذهبوا إلى الحقول، اجتمعوا في ساحة دار عبد ربّه، طردوا كلَّ الأطفال ولم يسمحوا حتّى لحديثي السنِّ من الشباب بالحضور، تسلّلْتُ إلى سطح بيت الشيخ العبسية فقد كان مُلاصقًا للساحة واسترقتُ السمع لأعرفَ ما يدور، كانَ صُراخًا عبَثيًّا تكرّرت كلماتٌ لم أفهمْها فقد كان أحدُهم

يصرُخ "فتوة" فيردُّ عليه آخر "نجادة"، لم يجذبني هذا الحديث فتركتُ موقعي وذهبتُ لأسرقَ مع بعض الصِّبية بعضَ الليمون من على تلك الشجرةِ الموصوفة بحُسْنِ ثمارها وكان صاحبُها يقضي أغلبَ وقته في حراستها، قُمنا باستغلالِ غيابه في حُضورِ الاجتماع لأخذِ بعضٍ من ثمرها.

عند حُلولِ الظّلام كان الجوُّ باردًا مُمطرًا، جلستُ بالقربِ من جدّي الحاج عبد الله لأحصُلَ على بعضِ الدِّفءِ منه، كان مُسترسلًا في الحديث مع أبي وعمّي وأخبره أبي أنّ كامل عريقات كلّفهُ بتشكيل قوّة تابعةٍ لمنظّمة الفتوة في القرية، وأن القرية انقسمت ما بين هذه المنظّمةِ ومنظّمةِ النجادة.

رافقتُ أبي في صباحِ اليوم التالي إلى مقرّ الحزب العربيّ حيثُ قيادة منظّمة الفتوة، أعطانا أمين المستودع عددًا من الأكياس الكبيرة التي تحوي بدلات عسكريةً خاصةً بالفتوة، تلك البدلات كانت مخصّصةً للقتال بعد الهجرة أصبحت الزيّ الرسميّ لكلّ حرّاثي الأراضي في المنطقة.

عاد أبي إلى القرية وبدأ بتنظيم صفوف الفتوة وتعبئة الاستمارات للانضمام إلى المنظّمة جمال الحسيني أعفى أهلَ قريتنا من دفع قيمة الاشتراك لكلِّ عضوٍ في الفَتوة، وكان يقوم على التدريب ذلك الشخص الرهيبُ من القرية والذي حارب في صفوفِ قوّاتِ الكوماندوز البريطانية في الحرب العالمية الثانية، وأُسر في إيطاليا.

أنهيتُ يومي الدراسي، فهرْوَلتُ مُسرعًا إلى الساحة لأنّي رأيتُ أنّ أحدَهم حلَّ ضيفًا في ساحتنا، فعرفتُ أنّي سأحصلُ على علبة سجائر مجانية، وصلتُ للساحة ودخلت، كان اسمُه عثمان من قرية بيت جبرين، أشقرُ سمينٌ له رأسٌ كبيرةٌ أكلت رقبته، الغباء كان يبدو على مُحيّاه، استخلصتُ من الكلام بأنّهُ تاجر السلاح فقد اتّفقوا على أن يكون ثمنُ الرصاصة (الفشكة) عشرةَ قروش، جاء أحد الشباب مُسرعًا ومُحذّرًا من قدوم إحدى دوريات الخيّالة، ويرافقهم العسكريّ موسى.

هرب عثمان من النافذة، ودخل موسى إلى الساحةِ على ظهرِ فرسه، وأدار رأسَهُ باحثًا عن أيِّ شخصٍ غريبٍ فقد وصلتهم معلومةٌ عن وجود تاجر سلاحٍ في الولجة، أخرج فرسه ودخل بصحبةِ سبعةِ جنودٍ إنجليز وضابطِهم، طلبوا أن يشربوا القهوة، أرسلني والدي إلى الدكّان وقال لي أحضر تسعة علبِ سجائر من نوع فيكتوري، فقد كان أجودَ

أصناف السجائر، وصلتُ للبقالة وقلتُ له: بيسلِّم عليك أبوي وبقلّك هات عشر علب سجائر فيكتوري وسجِّلهن على ساحة الجِرن.

أخذتُ حصّتي من السجائر وعُدتُ مسرعًا إلى الساحة، عند عودتي وجدتُ أبي وموسى وبعض الشباب يتجمهرون على بُعدِ مسافةِ عشرين مترًا من الساحة، كان موسى لَمّحَ أنّ أحد الغرباء يجلسُ خارج الساحة، فخرج مُتحجِّجًا أنّه يريدُ الوضوء وقبض عليه، فتّشه فلم يجد معه شيئًا، دقّق فيه فعرف أنّهُ عثمان تاجر السلاح، طلب منه أن يحفرَ في مكان قدميه، ووجد الرصاصَ مخبّأً هناك، ألم أقل أنّ الغباء كان يظهرُ على مُحيّاه، فقد ابتعد قليلًا ودفن الرصاص وجلس فوقهنّ، أصرّ موسى أن يسلّمهُ إلى الضابط الإنجليزي، بدأ الرجاء، لكنّه لم ينفع أبدًا، فاقترب أبي منه وقال: موسى أنت تعرفُ أنك إن سلّمتَه فسوف يُحكَم بالإعدام، لكن لك ما تريد خُذه، لكن بمجرّدِ أن تُغادر سأتّجهُ إلى القدس وأبلّغُ الحزب العربيّ بما فعلت، وأخرجَ من جيبه ورقةً قائلًا: هذه أوامرُ بجمع السلاح والرجال فالثورةُ على الأبواب، كلُّ فلسطين تتأهّب، البعض يبيعُ ممتلكاته ليَشتري السلاح، البعضُ الآخرُ باع ذهب زوجته ليشتري السلاح، والبعضُ الآخر اشترك مع آخرين في شراءِ بندقية، خُذْهُ واذهب لَكنّي أعدُك أنّك ستكون مُتّ قبل أن تصل القشلة. صُدِم موسى من تغيُّر اللهجة فطلب رشوةً بعشرة جنيهات، فلم يعطوه إلا جنيهًا واحدًا وشرب قهوته وغادر مع الدورية.

طلب الأستاذُ من بعض الطلاب أن يُمسكوني ويرفعوا رِجْليَّ في الهواء ليجلدني الفلقة عِقابًا لي على ضربي لأحد الأطفال في الصف، ما إن همَّ بضربي حتّى بدأت صليات الرصاص تُدوّي في كلّ أنحاءِ المنطقة، كانت المدرسةُ بالقرب من قمّة الجبل وكان الصوتُ يأتي بالقرب من الواد عند سكّة الحديد، طلب الأستاذُ منّا أن نلتزمَ أماكننا وأن ننامَ على الأرض، لكن هيهات أن يطيعَ أحدٌ في مثلِ هذه الظروف، كنتُ الأسرع في الوصول إلى سورِ المدرسة ونظرتُ إلى أسفل، القطارُ يمرُّ مُسرعًا ويُطلِقُ الرصاص ويتلقّى آلافَ الرصاصات من المقاتلين الفلسطينيين الذين كَمَنوا للقطار للاستيلاءِ على السلاح الذاهب إلى اليهودِ في يافا، فقد كانت تتواردُ أخبارٌ عن بدءِ القتال هناك، لم يستطِع المقاتلون تفجير الخطّ وفلت القطار من ذلك الكمين بسببِ خلافٍ دبّ بين مُقاتلي الولجة والقرى المحيطة مع الفصيل القادم من الخليل والقدس بقيادةِ عبد الحليم الشّلف.

كان ذلك آخرَ يومٍ لنا في المدرسة فقد أوقفت الدراسة في كلّ فلسطين، لم أحزن كثيرًا

بالعكس كنتُ أشعُرُ بالفرح فلطالما تمنّيتُ أن أصحوا يومًا لأجد المدرسة هُدمت (في عام ١٩٥٠م تمَّ هدمُ كلِّ بيوتِ القرية الواقعة غرب سكّة الحديد والتي أصبحت تُمثّلُ خطّ الهُدنة، بكيتُ كثيرًا في ذلك اليوم، كلُّ القرية كانت مجتمعةً في الجبل المقابلِ للقرية القديمة وتُراقب الشبّان مع كلِّ انفجارٍ أخبارًا عن أيِّ بيتٍ تمّ هدمُهُ للختيارية وبكيْتُ المدرسةَ أيضًا).

بدأت المعارك بالنُّشوب، كلُّ الرجال على أُهبة الاستعداد، في معركة الدهيشة في ٢٧ مارس، استسلمت القوّةُ الصهيونية وخرجت تاركةً كلّ سلاحِها ومُعدّاتها وغَنِمَ مُقاتلو قريتنا شاحنةً مصفّحة، عاد أبي ليصفَ لنا ضراوةَ المعركة واصفًا إيّاها بحِطّين ومُردّدًا كلّ فترة (ارفع دقنك سال الدم)، نعم وعادوا بجثّة محمود عبد المحسن، كان هذا أوّلُ شهيدٍ أراه، اقتربتُ منه لأتفحّصَ ما يُقالُ عن الشهداء بأنّهم أحياء، الخوف ازداد مع تقلُّص المسافة بيني وبينه؛ كنتُ أتوقّعُ أن يقومَ فجأةً بما أنّه حيّ، إصابتُه مباشرةً في القلب، لفترة غير قصيرة كنّا نلعبُ ونقلّدُ جنازة الشهيد، منظرُ بكاءِ أمّه لا يفارقُني إلى الآن حتّى في لعبتنا تخيّلنا أنّهُ يُناجي أمّه فكنّا نغنّي تلك الأغنية:

ماما ماما

قلبي سيك

ماما ماما

كُويك كُويك

ماما ماما

آي شَل داي

ماما ماما

دونت كراي

الكلُّ مشغول، البيك عاد من سوريا وقد خذلوه، جملتُه الشهيرةُ يردّدُها كلّ أهلِ القرية "القسطل هي القدس". النساء تُعدُّ الطعام والزوّادات، الرجالُ مجتمعين يحصون عدّدهم وعديدهم، الكلُّ يتأهّب، سمعتُهم وهم يتحدّثون ويقولون أنّ عبد القادر الحسيني يُعِدّ لخوضِ معركةٍ كبيرة، وقام بالتنسيق مع كلِّ الفصائل ومقاتلي القرى، حتى أن هناك مقاتلين سيأتون من ناباس وحسن سلامة سيأتي برشاشاته الألية وسياراته المصفحة.

في الرابع من نيسان انطلق الرّجالُ صباحًا، كان مشهدًا مَهيبًا، صفّان من الرجال باللباس العسكريّ للفتوة والنجادة، يمشون في صفّين قطعوا القرية، بعضُهم يحملُ البنادق الإنجليزية والألمانية والبعضُ الآخرُ يحملُ العصيَّ والسيوف، أكثر من ٨٠ مقاتلًا خرجوا من القرية للانضمام للمعركة، حالُ القَرية تبدّل كُلّيًا فمنذُ النصر في معركة الدهيشة أصبح الجميعُ متسامحين، كلُّ المنازعات انتهت، العداءاتُ التاريخية كأنّها لم تكن، هذا أيضًا ما رأيتُه أثناء تحرُّك المقاتلين.

الأخبارُ تصلُ تِباعًا، المعركةُ شرسةٌ والقتال يجري بضراوة، المتطوعون من الإخوان المسلمين القادمين من مصر أبلَوْا بلاءً حسنًا لخبراتهم العسكرية ومعرفتهم في صُنع المتفجّرات والألغام، كذلك مقاتلو العشائر الأردنية، مقاتلو قبيلة بني حسن الأردنية استضافتهم قرى بني حسن المقيمة جنوب القدس، الولجة، بتير، الجورة، المالحة وشرفات، راس أبو عمّار، بيت صفافا، خربة اللوز، صطاف وصوبا.

في ليلة اليوم الرابع أعاد المقاتلون تحرير القسطل، فجأةً انتشر الخبر كالنار في الهشيم، أبو كاظم استُشهد، لم أكن أعرفُ أنّ عبد القادر الحسيني يُكنّى من قبلُ باسم أبو كاظم، هُزمت الصفوف ولم يستمرَّ تحريرُ القسطل أكثر من عدّة ساعات، الأنباء تصلُ عن إصاباتٍ كثيرةٍ وشهداءَ عدّة، في اليوم التالي عاد المقاتلون إلى القرية.

كانت جدّتي تجلسُ إلى حجرِ الرّحى لطحنِ القمح وتُغنّي لأختيَّ الصغيرتين حليمة ذات الأربعة أعوام، ومريم التي لم تُكمل العامين ويرقُصْنَ على جمالِ اللّحن وإيقاع الحجر، جاء أحدُهم من بعيد، وقفت جدّتي لترى من القادم، كان يحملُ بندقيّتين، كلّما اقترب ووضحت الرُّؤيا كلّما فقدت جدّتي بعضًا من تماسكها، إنّه أحدُ أبناءِ عمومتنا، سقطت جدّتي وبدأت بالنُّواح وبدأت ترثي أبي:

طلّت البارودة والسبع ما طلّ
يا بوز البارودة من دمّو مبْتَلّ
طلّت البارودة والسبع ما جاش
يا بوز البارودة من دمّو مرتاش
ما بيني وبينك سلسلة ووادي
وين رُحْت يا علي يا أعزّ حْبابي

حليمة ومريم لم يتعرّفن على الموت بعد، لكن أعجبَهُما اللحنُ فأخذْنَ يتمايلنَ راقصاتٍ على ألحان رثاء جدّتهن لوالدهنّ، كانت قد اجتمعت كلّ الأسرة عندما وصلَنا ذلك الرجل، استطعتُ أن أميّز البندقية أنها بندقيةُ أبي، تماسكتُ وقلتُ له داعيًا "تفضّل يا أبو حسن" اقترب وألقى بندقية أبي لي، شدَدْتُها بهمّة، كنتُ أودُّ البكاء لكن منعني دورُ الذكر الأكبر في العائلةِ من أن أبكي أبي، كان يجبُ أن أكون رجل البيت وأنا في الحادية عشر من عمري.

أبو حسن كان رجلًا فظًّا قاسي القلب، إلا أنّهُ ممّن كانوا يوصَفُون بالجبابرة لقوّته وشجاعته، قال مُخاطِبًا جدّتي "اصمُتي لم يمُت بعد إنّه الآن في مستشفى بيت صفافا، إصابتُه في صدره، أبصر يطلع عليه نهار جديد وإلا لا؟ "، سكَت الجميع وعمَّ الصمتُ سوى نواحٍ مكتوم من أختي الكبيرة رُقيّة، وأردفَ يقول "نقله حسن سلامة في دبّابته إلى المستشفى والدكتور محمود الديجاني يقومُ على العناية به" على بضعِ نخزاتٍ سريعة في جانبي استيقظتُ قبل طلوع الفجر بقليل، أخي إبراهيم قال لي: "يريدون أن يذهبوا لزيارة أبي في المشفى" قمتُ من فراشي، نظرتُ ووجدتُ جدّتي تلبسُ طرحتها وأمّي تضعُ بعض الطعام والمتاع لتأخذه معها، عمّي وجدّي لأمي يحملان بندقيّتيهما، شدَدْتُ بندقية أبي التي نامت في حضني طوال الليل إلى ظهري ولبستُ حذائي، قالوا لي ممنوعٌ أن تذهب فالطريق خطرة، سنمُرُّ عن قبانية ظهر كتن وقبانية القطمون، لم يأخذوني أنا ولا إبراهيم، لكننا لم نستسلم، جرَيْنا خلف الشاحنة المصفّحة التي غنمها أهلُ القرية في معركة الدهيشة والتي أصبحت تنقلُ البضائع والمزروعات من القرية إلى القدس، جريْنا خلفها من بيتنا المعزول نسبيًّا عن تجمُّع القرية حتى وصلنا عينِ الحنية، عندها توقّفت الشاحنة وأمرني جدّي أن اصعد، كان منظري مستفِزًّا والكلُّ يحدّق بي؛ فطولُ البندقية التي أشدُّها على ظهري تكادُ تكون أطول منّي.

بعد ٢٥ يومًا عاد أبي إلى البيت من المشفى، القتالُ على كافّة الجبهات ما زال مُستمِرًّا، بعد أسبوعين جاءت القواتُ المصرية لترابطَ في القرية، الأغلبيةُ هم من العساكر النظاميين وبعض المتطوّعين، المتطوّعون قاتلوا بشراسة والنظاميون أكلوا كلّ دجاجات القرية، واستقرّت فرقةٌ تابعةٌ للجيش الأردنيّ في مقرِّ الإرسالية التبشيرية المطلة على القرية والتي تُدعى مسكري (تحريف لمس كيري).

في أحد الأيام رأى أهلُ القرية الفرقة الأردنية تنسحبُ ليلًا من موقعٍ مسكري، فهبَّ عددٌ من المقاتلين واحتلّوا الموقع، تقدّمت العصاباتُ الصهيونية قليلًا، بدأ المقاتلون

بإطلاق النار بكثافة، تفاجأت القوّةُ الصهيونية من وجود مقاومة فانسحبت على الفور، في اليوم التالي عادت الفرقةُ الأردنية وطردت المقاتلين من الموقع، تكرّر الأمرُ مرّةً أخرى لكن في المرة الثالثة عندما انسحبت القوّة الأردنية ووصل المقاتلون إلى الموقع اكتشفوا أنّ العصابات كانت قد سبقتهم وتحصّنت وحسّنت الاستحاكامات ممّا يدلّ على أنّهم دخلوا الموقع قبل انسحاب الفرقة الأردنية بوقتٍ طويل. فحدثت معركةٌ قويّةٌ كنتُ أستطيع أن أشاهدها من البيت، أبي قام من نومه وهو يسعُل وكان ما زال في فترة نقاهة، حمل البندقية وانضمّ للمقاتلين، استُشهد ثلاثةٌ من خيرة شباب القرية وبضع إصاباتٍ أيضًا.

(٣)

الرحيل

"ودعتكي لله يا عين

ودعتكي للّي ما تضيع عندُه الودايع"

قالها باكيًا ذلك الشابُّ من عين كارم بعد أن استحمَّ في عين البلد، وقف ونظر غربًا واستأنفَ مُخاطبًا والدي: آه يا أبا خليل، ليش الزلام قاعدين بزحفوا عالأرض هناك؟ مشيرًا بيدِه إلى منطقة تُطلُّ على البلد تُسمّى بخربة بهران.

نظر والدي، امتقع لونُه بالسواد، شدّني من شعري وألقاني خلفَ السنسلة (حائط حجري).

شُجَّ رأسي، سال الدم، صاح والدي بكلِّ ما أوتيَ من عزم مُناديًا على المقاتلين الذين يجلسون على سطح القهوة: "أخذوكوا اليهود غدر من خربة بهران".

إطلاق نارٍ كثيف يصُمّ الآذان، كنتُ أستطيعُ أن أُميّز التفوق النوعيّ في تسليح اليهود عنهُ لدى العربِ من خلال التفوق الصوتيِّ للرصاص المُتبادل، كان الدمُ يُغطّي وجهي ويحظُر الرؤية بوضوحٍ، أزيزُ الرصاص أعاد ليَ الوعي الذي فقدتُ بعضَه، بعضُ الفلاحين كانوا يعملونَ في أرضِهم على بُعد عشرات المترات من موقع اليهود، استرقْتُ النظر من بين فُتحات السنسلة باتّجاه خربة بهران حيثُ يتمركزُ اليهود، رأيتُ المزارعين هناك يركضون باتّجاه اليهود مستغلّين كثافة النيران التي يُطلقها المقاتلون حيثُ أنا،

كان أغلبُ المزارعين لا يحملون السلاح، الفؤوسُ غادرت وظيفتها من تعمير الأرض إلى سلاحٍ لقتل من يريد سَلْبها.

هجمَ المزارعون بالقرب من خربة بهران على القوّة المهاجمة، مسحتُ الدم عن وجهي باستخدام الحطّة، رأيتُهم حوالي العشرين، ثلاثةٌ مسلّحين ببنادق والباقين بالفؤوس والعِصيّ، يركضون بأسرع ما استطاعوا باتّجاه العدو، ويطلقون صيحات الفخر والتشجيع والنخوة.

"هدى الرخم في العلالي، واللي يقع لازم يلالي، عليهم يا رجال"

"هدى الرخم فوق البيوت، واللي يقع لازم يموت، عليهم يا رجال"

"ريح الجنة يا شباب"

"وين راحت الرجال"

"عليهم عليهم عليهم"

وصل الأوّلُ مسلّحًا بعصًا فوقع، وصل الثاني وقد اجتازه عدّةَ متراتٍ فوقع، الباقون استمرّوا بنفس الاتجاه، فانسحبت القوة الصهيونية.

سقطت القرى المحيطةُ بنا من ناحية الغرب والشمال، المالحة والجورة وعين كارم رحلت في ذلك اليوم، توجّهوا شرقًا، صديقي صالح جاء برفقة عائلته من قرية عين رافة لينزلوا عِنّا في الخربة، لم أكن أفهم معنى الفقد بعد، لحظتَها فقط بدأتُ أعرفُ ما معنى الفقد وما معنى الانكسار، حتّى صديقي الصغير كان مكلومًا، لم يهاجم اليهود قريتهم بعدُ لكنهم عزلوها عن محيطها وأصبحت خلف خُطوط العدوّ.

حاول أبو صالح أن يكسرَ حدّة الصمت والوجوم التي خيّمت على الجميع قائلًا: يبدو أنّ محصولَ هذا العام من التفاح الصيفي (السكريّ) وافرٌ جدًّا.

أجابته جدّتي: هذا العام هو الأكثرُ خصابًا في حياتي، لم أرَ أبدًا مثل هذه الكمّية من الثمار في أرضنا، إن شاء الله سنشتري باقي جبل ذيب لنوسّعَ أرضنا.

وقفت أمّ صالح منزعجةً كادت تقتربُ من الانهيار–عروقُ رقبتها بدت بارزةً، كنتُ أستطيعُ تمييز نبض عروقها– لم يعجبها أبداً هذا السلوكُ الهُروبي. قالت: "بدّي أرجع عالبلد"، صاحت جدّتي تؤنّبها: "شو ترجعي؟ بدّك إياهم يوخذوكي على عين جوزك؟ ويروح شرفك؟

انتصب كلُّ الرجال واقفين عندما سمعوها تقول "يروح شرفك"، هدوء .... صمت ... هدوء ....صمت....هدوء، وكأنّ على رؤوسِهم الطير، صدى الصمت مزعجٌ أكثر من مدافع اليهود.

صحيحٌ أنّي كنتُ متزوّجًا لكنّه زواجٌ على الورق وبالعُرف، لم أكن أعرفُ ما معنى "يوخذوكي على عين جوزك، ويروح شرفك"، زوجتي ما تزالُ في بيت أبوها، وظلّت كذلك حتّى أتمّت السادسة عشر، كانت تكبُرُني بثلاثِ سنوات.

عاد الاتّزان لأمّ صالح، ثغرُها تفترّ عنه ابتسامةٌ هادئة. قالت وهي ترفع وتُخفِض حواجبها بشكلٍ مُتواتر:

"مش هاظ الشرف يا أم علي، الشرف إنّي ما أقعد تحت جمايل ومعروف الناس". هزّ أبو صالح رأسَه، كان يمسكُ عودًا يحفرُ خطوطًا في الأرض، ساد الصمت، الكلُّ ينتظرُ ما سيقول، الحيرةُ تبدو على مُحيّاه، اليوم فقط فهمتُ المثل "صار ينقّب الأرض بعود"، تنحْنَح قليلًا ثمّ قال: "اللّي بدّو يصير يصير، بكرة بنرجع من النجمة على البلد".

عادوا، ولم أرَ صديقي صالح إلا بعد خمسين عامًا، كان ما يزالُ طفلًا، ذكّرني بعصير العنب المخمّر، ضحكنا وبكينا.

اجتمع رجالُ القرية مع قائد القوّة المصرية التي أصبحت تُرابطُ في مدرسة القرية، أصبحت القريةُ مباشرةً على خطوط التّماس، وحضر الاجتماعَ أحدُ ضبّاط الجيش العربيّ الأردنيّ.

محمد رشاد القائد المصري، قدّم ملاحظاته عن المعركة، وطلب إخراج العائلات من نساء وأطفالَ من القرية وإرسالهم إلى العمق، لم يكن العمقُ أبدًا هو الشرق، بل كان باتّجاه الجنوب الغربي، لتظلّ العائلاتُ في أمان. عائلتي لم تنتقل فقد كُنّا في عُمق الجنوب الغربي في خربة الشرقي نرعى مزروعاتنا فهذا هو آخرُ أيّام موسم الفواكه الصيفية ومحصول القرية من الزيتون كان فوق سطوح المنازل، تمَّ تقسيمُ دورياتٍ من رجال القرية وتقسيم ساعات الرباط ومواقعها، حُفِرت الاستحكامات على مداخل القرية والأماكن الاستراتيجية.

معاركُ شرسةً جدًا كانت تشتعلُ كلَّ فترةٍ على أطراف القرية، ثلاث مراتٍ حاول الصهاينةُ اقتحام القرية، ردّتهم القوّة المدافعة من الجيش العربي والجيش المصري

وجُلّه من المتطوعين وبعض المتطوعين العرب من المغرب العربيّ ورجال القرية، ما زلت أذكرُ جيّدًا الحاج مبروك ذلك الرجل الليبيّ الذي ترك الدنيا وجاء إلى فلسطين ليقاتل، يقودُ معركة الدفاع الضابط محمّد رشاد، في المرات الثلاث ألحقَ المقاتلون بالصهاينة هزائمَ وخسائرَ كبيرة.

أيقظني بلُطف بعد الضحى بقليل، أن أظلّ نائمًا لمثل هذه الساعة وهذا اللُّطف الزائدُ أربكني كثيرًا، لم يكن أبي أبدًا رقيقَ القلب، طلب منّي أن أصعد إلى قمّة التلة في خربة الشرقيّ التي تُطلُّ على قرية راس أبو عمّار لأستطلعَ ما يحدثُ هناك، ما إن خرجتُ حتّى سمعتُ أصواتَ المدافع. وصلتُ إلى قمّة التلّة، شاحناتٌ شتّى تحملُ الناس وأمتعتهم، القصف ينزلُ على القرية وإطلاقُ نارٍ لا ينقطع، نزلتُ مُسرعًا، ما بين صعود تلك التلّة ونزولها عالمان مُختلفان.

شدّ أبي بندقيّته وتوجّه إلى القرية، رافقتُه عسى جدّي وجدّتي يحتاجون المساعدةَ هناك، عندما وصلنا كان القصفُ لا ينقطعُ أبدًا في القرية، قالوا لنا بدأ القصفُ مع الفجر، القتال مستمرٌّ، والمقاتلون يبلون بلاءً حسنًا.

في ليلة اليوم الرابع من المعركة، أيقنتُ أنّ غدًا هو اليوم الأخير للمعركة، كان المقاتلون يعدّون خطّة هجوم باتّجاه المواقع التي يتحصّنُ فيها الصهاينة، أعدّوا الألغام والقنابل، تجهيزُ العدّة كان يُجري في الساحة، كان طعامُهم القليل من الدبس والخبز، كان هناك اجتماعٌ مغلقٌ لمحمد رشاد وبعضُ قادة مقاتلي القرية وبينهم أبي وأحدُ ضبّاط الجيش الأردني من قبيلة الحويطات. مقاتلو هذه القبيلة أبلَوْا بلاءً حسنًا في الحرب، المتطوّعون والنظاميّون من القبائلِ الأردنية خضّبوا أرض فلسطين بدماءِ أكثرَ من ٧٠٠ شهيدٍ عُرِفت هويّاتهم ومئاتٌ لم تُعرف هويّاتهم ومئاتٌ من المفقودين.

كانوا متحمّسين جدًا، كنتُ أراقبُ الحركة النشطة من بيت جدي الذي يقعُ بالقرب من وسط القرية، سيبدأُ الهجوم المُضاد مع إشراقة شمس الرابع والعشرين من أكتوبر، فجأةً بدأ القصف أبكر من المعتاد، لكن ليست هذه المفاجأة، المفاجأة أنّ القصف أصبح من ثلاثِ جهات، هناك قذائفُ تأتي من الشمال الشرقي على القرية، هنا المفاجأة صاح محمّد رشاد: "لقد أصبحنا خلفَ خُطوط العدو، يبدو أنّهم احتلّوا موقع الكتيبة الأردنية المُرابطة في النبي صموئيل فالقصفُ يأتي من هناك، فشل الهجومُ المضادّ، قصفٌ

شديدٌ جدًا، البيوت تتطاير، شهداءُ عدّة، استُشهد الحاج مبروك الليبي واستُشهد عدّةُ جنود أردنيين وكذلك مُتطوّعٌ مصريّ قادمٌ من مدينة تُدعى الفيّوم وأربعةُ شهداء من مُقاتلي القرية، صدرت الأوامرُ بالانسحاب فالقريةُ عسكريًا قد أصبحت ساقطةً بعد احتلال مُشاة الصهاينة للمواقع الاستراتيجية في التّلال المُحيطة، محمّد رشاد رفض الانسحاب وظلّ يُقاتل حتّى استُشهد.

بعد عدّةِ سنين كان يزورنا ضابطُ مدفعية أردنيٌ حيثُ كنّا نسكن في مغارة في واد حلس بين بتير وبيت جالا، وعندما سألنا من أين نحن وأجبناه، قال: " يا خسارة تعبنا في الولجة، لقد جاءنا أمرٌ بقصفِ الولجة لأنّ اليهود قد دخلوها". أجبتُه: والله لم تقصفوا إلا نحن!

فكيف تتوقّعُ من جيشٍ يحتلّ عشرون ضابطًا إنجليزيًا أعلى أربعًا وعشرين رتبةً في الجيش.

بدأ الأهالي بالتجمُّع مع العصر عند محطّة بتير، أمرني والدي أن أذهبَ هناك لعلّي أجدُ أحدًا من العائلة، عندما وصلتُ وجدتُ عمّي هناك، ومعه ابنتُه فاطمة وأختي مريم، باقي العائلة قد توجّهوا شرقًا، قال لي: ابقَ عند البنات والمتاع سأعود للقرية لأستطلعَ ما يحدُثُ على المقاتلين يحتاجون المساعدة، القتالُ ما زال مستمرًا، ذهب عمي.

كانت المحطّةُ تضجُّ بعددٍ كبيرٍ من الناس والعائلات، قبل المغرب بقليلٍ لم يبقَ أحدٌ على المحطّة إلا أنَا ومريمَ وفاطمة، فاطمة لم تكن تجيدُ المشي، وضعتُهنّ بالقرب من البوكس (المكتب) وقُمتُ بصناعة استحكام من البطّانيات والمتاع الذي بحوزتنا، أخذنَ يضحكْنَ فقد ظنّتا أنّي ألاعبُهنّ، أخذتُ بالبُكاء.

من أين جاؤوا؟ كنّا آمنين في سربنا، سهراتُ الساحة غادرتنا، ألعابُها الليلية والضحكُ المُتواصل أصبحتُ أفتقدُه، الخويتمة والسيجة لم يعد أحدٌ يلعبها، الشعراء ما عادوا يقصُّون علينا قصص الزير سالم وتغريبة بني هلال وهند الأميرة، رموا ربباتهم وشدّوا البنادق، ألعابُنا الصّبيانية اختفت إلى غيرِ رجعة، مطاردةُ دجاجات القرية كانت مُتعةً لن أنساها.

صرتُ أسعى راكضًا ما بين البوكس والصنفور (آخر المحطّة)؛ لأستطلعَ إن كان أحدُهم قادمًا، عندما أصِلُ الصنفور أعودُ مُسرعًا إلى البوكس خشيةً على البنات.

أحدهم قادم، خشيتُ أن يكون من اليهود، اختبأتُ تحت شجرة بلّوط وسحبتُ خنجري الذي أصبحَ يرافقُني مع بداية الحرب، عندما وصل وكانت الشمسُ قد غادرتنا لآخرِ مرّة في القرية، إذ به أحدُ شيوخ القرية، ركضتُ عليه وحضنتُه وبكيتُ في حضنه، سحبني بسُرعة وارتمينا أرضًا، انفجرت قنبلة مدفعية بجانبنا، بعد أن غابت كتلةُ الدخان والغبارُ من حولنا، رَجَوْتُه أن يأخذ البنات معهُ باتّجاه الشرق، عليّ أن أبقى هنا أنتظرُ عمّي فلم أعد أعرفُ مصير أبي ولا عائلتي، حمل البنتين ومشى، مريمُ تلوح لي باسمةً.

طوال الليل لم ينقطع إطلاقُ النار، الاشتباكاتُ مستمرّة، صوتُ المدفعية أصبح مألوفًا ولم يعُد يُخيفُني كثيرًا، التجأتُ إلى لتون قديم (مبنى كان يستخدمُ في صناعة الجير الحجري)، لم أنم طوال الليل، أصواتُ صراصيرِ الليل وقصصُ الجنّ وضبعُ بتير يخيفُني أكثرَ من أيّ شيءٍ آخر.

ما إن بدأ الفجرُ يُرسلُ أشعة شمسه رأيتُ عمّي قادمًا يجرّ بندقيّته، أيقنتُ أنّ هذه أوّلُ شمسٍ أراها وقد أصبحتُ لاجئًا، قال مُنكسرًا يشيح بنظراته عنّي وأنا أحاولُ أن أرى عينيه: هيّا بنا أصبحنا لاجئين وراحت البلاد. نكّستُ رأسي وماشيتُه إلى حياتنا الجديدة وعالمنا الجديد.

عِش نيصًا وقاتل كالبرغوث

٢٠١٣/١١/٠١

استخدم عالمُ النفس بالدوين مصطلح "التكيُّف الاجتماعي" Social Accommodation في عام ١٨٩٥م ويعني عنده التوازن الاجتماعيّ للتكيُّف البيولوجي كصورة من صور التوافق مع البيئة. يُعرف التكيّف الاجتماعي بشكلٍ عامّ بوصفه عمليةً اجتماعيةً وظيفتُها تقليل أو تجنُّب الصراع، أو هي عملية تلاؤم اجتماعيٍّ تؤدّي إلى وقف الصراع بين الجماعات، من طريق التدعيم المؤقّت أو الدائم للتفاعل السلميّ.

أما المضمون النفسيّ للتكيف الاجتماعي فيشيرُ إلى السلوك الفردي أو السلوك الجماعي الذي يسعى للتوافق مع مواقف الصراع، من خلالِ تجنُّب كافّة مظاهر العداء، من طريق منح تعويضاتٍ اقتصاديةٍ واجتماعيةٍ ونفسيةٍ لجماعة من جماعات الأقلية. أمّا التأقلم Adaptation فقد فرّق علماءُ الاجتماع ما بينه وما بين التكيف بحيث يتمّ تعريفه على أنه تلاؤم السلوك الإنسانيّ مع ظروف البيئة الطبيعية.

والتكيّفُ يكون على عدّةِ أشكال، من خلال القسر أو الإجبار ومن خلال التحكيم ومن خلال التسوية وأيضًا من خلال القدرة على الاحتمال. في فترةٍ لاحقة استخدم ارنست هايكل مفهوم الايكولوجيا ليشير إلى علاقة الكائن الحيّ ببيئته العضويةِ وغير العضوية، والايكولوجيا تهتمّ بدراسة العلاقات ما بين الجماعات الإنسانية والبيئة المحيطة بها.

منذ متى لا أدري ولماذا أيضًا لا أدري نمَت علاقةٌ غريبةٌ بين الفلسطينيّ (بالمعنى الواسع ليشمل بلاد الشام وليس بالمعنى الانتدابي) وبين النيص. هل كان فعلًا العداء وقتلُ النيص بسبب الرغبة بأكل لحمها اللذيذ وارتباطه ببعض الأساطير حول قدرته الشفائية والذكورة والفحولة التي يمنحُها أم أنّ الأمر له علاقةٌ بتخريب النياص لمزروعات الفلاح.

والنيص هو حيوانٌ من الثديات ويصنّفُ من ضمن القوارض وهو قريبٌ من القنفذ إلا أنّه أكبرُ حجمًا وله عدّةُ أسماء، واسمُه بالفصحى الشيهم واسمه العلمي Hystrix indica. يحمل على جسده أشواكًا طولها ما بين ١٠ إلى ٣٥ سم ويستخدمها في الدفاع عن نفسه، ووزنُه بين ٤ إلى ١٦ كيلوغرام (طعم لحمه لذيذٌ جدًّا وأنصحُ بعدم تفويت

الفرصة بتذوّقه).

والنيص حيوانٌ ليليٌّ يعيش تحت الأرض داخل جحر (طبيعيّ المنشأ) كبير نسبيًا وله عدّةُ مداخلَ ومخارج وأنفاق طويلة جدًا وعلى طوال الأنفاق هناك ما يُشبه استراحات. ويستخدم النيصُ في تنقّله ودخوله وخروجه عدّة طرق محدّدة ومعينة ويبدو كأنّها مدروسةً ويملك نوعًا غريبًا من البارانويا أو ما نسمّيه فلسطينيًا بالحسّ الأمنيّ (أحد أهمّ من درس النيص هو العالم Prater). والأنواع الموجودة في بلادنا هي نباتية تمامًا وأكثر نبات يقتات عليه هو الحنظل، لذلك يُنصح بعدم استخدام الرصاص في صيده خوفًا من انفجار طحاله وكبده لكي لا يصبح طعم لحمه مرٌّ جدًا.

وللنيص حضورٌ واضحٌ جدًا في الذاكرة الشعبية الفلسطينية، كذلك في الرواية الفلسطينية، ويصفُ الفلسطينيُّ النيص بأنّه كائنٌ عجيبٌ حاك حوله الفلاحون قصصًا لا تنتهي، فهو يبكي وينوح وهو مثل البشر يرجو ويأمل وهو مثلنا إذا غضب يرمي إبرَهُ التي يحملُها على ظهره وعُنقه على عدوه فيصيبُه وفي الليل يجوبُ فقط وحيدًا بطيئًا متأمّلًا، تجذبه الروائح والثمار والجذور وهو منعزلٌ صموتٌ لكنّه بكّاء (مع تشديد الكاف) وهو كائنٌ وحيدٌ متفرّدٌ ألَمُه عميقٌ وحقده أعمق وصياده كذلك.

ويفيدُ أوّل درس في الصيد أنّ عليك أن تتعلّم جيدًا سلوكيات الطريدة، فراقب الفلسطيني نيصَه جيّدًا وتعلّم كلّ شيءٍ عنه (كنتُ قد خرجتُ في حياتي رحلتين لصيد النياص وقد وفّقنا الله بصيدٍ وافرٍ لم نشاركْهُ مع أحد) ولا بدّ للصياد أن يتأقلم (وليس يتكيّف) مع نمط حياة وسلوكياتِ طريدته ليستطيع اصطياده، لكنّ ما حدث أن الفلسطيني تطبّع تمامًا بأطباع النيص خصوصًا وقت الخطر فكان أن أصبحَ نيصًا في عيشه.

في عيد الأضحى كان أن ضحّت العائلة بخمسة خراف وسُمِح لي بأن أذبح بعضها وأساعد في سلخها وتقطيعها، كانت الخرافُ مُصَابةً بالبراغيث وقد غزتني، حاولتُ مرارًا وتكرارًا أن أقتل أيّ برغوث على جسدي لكن لم أنجح ولم يكن إلا أن أرهقتُ نفسي وأصابني هوس، لم يفدني إلّا حمّامٌ كاملٌ وشاملٌ حسمتُ فيه المعركة مع البرغوث بأن أبدْتُه بضربةٍ حاسمةٍ عبر تمشيط جسدي كاملًا بالمياه الحارّة والصابون.

والبرغوث حشرةٌ صغيرةٌ من اللاجناحيات تنتمي لرتبة Siphonaptera متطفّلة على عائلٍ أو مضيفٍ والذي غالبًا ما يكون من الثديّات، ويبلغ طوله من ١ إلى ٤ ملم، يتحرّكُ

بشكل قفزات من خلال زوجين من الأرجل الخلفية الطويلة، ويلدغُ البرغوث مُعيلَه لدغاتٍ تتحوّلُ إلى بقعٍ حمراء مرتفعةٍ قليلًا ومثيرةٍ للحكّة.

يملكُ البرغوث استراتيجيةً قتالية وتكتيكًا وتقنياتٍ مذهلة فهو يخزّ ويقفز ثم يعاود الوخز ويتجنّبُ بذكاءٍ شديد اليد أو القدم الساعيةً إلى سحقه، إنّه لا يستهدف قتل خصمه (بمعنى قتلِ كاملِ منظومة العدوّ الكلب مثلًا) بل إنهاكُه والحصول على غذائه منه، وإزعاجه وإثارته ومنعُه من الراحة وإتلافُ أعصابه ومعنوياته ولتحقيق ذلك لا بدّ من الزمن اللازم للتكاثر، إنّ ما يبدأ وكأنّه عدوًى موضعية سيصبحُ وباءً شاملًا عن طريق التكاثر وتقارب المناطق المهاجمة واندماجها. يقول ماوتسي تونغ "عندما يتقدّمُ العدوّ فإنّنا نتراجع، وعندما يخيم نُناوِش، وعندما يتعب نُهاجم، وعندما يتراجعُ نُطارده"، ويقوم تنظير ماوتسي تونغ لحرب العصابات على ما يشبه "حرب البرغوث".

حلّ ماوتسي تونغ معضلة سؤال "كيف تستطيع أمّةٌ غير صناعية أن تنتصر على أمّة صناعية" حيث يرى إنجلز أنّ الأمم القادرة على توفير رأس مالٍ أكثر هي قادرةٌ على هزيمة أعدائها، بمعنى أنّ القوة الاقتصادية هي التي تستطيع أنْ تحسم المعارك لأنّها قادرةٌ على توفير رأس المال اللازم لصنع السلاح.

وكان حلّ ماوتسي تونغ بأن قام بالتشديد على العناصر غير المحسوسة؛ فالدول القوية صاحبةَ الجيوش النظامية تركّز عادةً على الأمور المحسوسة والأسلحة والشؤون الإدارية وعدد الجنود، أمّا ماو فقد شدّد على: الزمن والمجال والإرادة كما يقول كاتزنباخ، وبالعودة لقول ماوتسي تونغ سابقًا فإنّه يتجنبُ المعركة متخلّيًا عن الأرض ويكون بهذا قد قايض المجال بالزمن واستعمل الزمن لخلق الإرادة وذلك هو جوهرُ حرب العصابات.

وعلى سبيل التشابه فإنّ العصابات تقومُ بحربها تمامًا مثل البرغوث ويعاني العدوّ القويّ النظاميُّ نفس السلبيات ونقاط الضعف التي يعاني منها المُضيف أو المُعيل في حالة البرغوث، مساحة كبيرة للدفاع عنها، عدوٌّ شديد الصغر ومنتشرٌ في كلّ مكانٍ وسريع الحركة بحيثُ يصعب القبض عليه فإن دامت المعركة ما يكفي من الزمن فإنّ المضيف لا بدّ أن يسقط في ساحة المعركة بسبب الإجهاد وفقر الدم، دون أن يجدَ ما يهاجمه.

يشرحُ روبرت تابر الأمر على هذا النحو: "ومن الناحية العملية فإن الكلب (المضيف أو

المعيل) لا يموت بسبب فقر الدم بل لأنه يضعُف باستمرارٍ بسبب انتشاره إذا استعملنا المصطلحات العسكرية، وبسبب عدم شعبيّته إذا استعملنا المصطلحات السياسية، وبسبب زيادة الكُلفة اذا استعملنا المصطلحات الاقتصادية، وفي النهاية فإنّه لا يعود قادرًا على الدفاع عن نفسه، وفي هذه الفترة يكون البرغوث قدِ تكاثر وتحوّل إلى وباءٍ بفضل مجموعةٍ طويلةٍ من انتصاراتٍ صغيرة استطاع فيها كلٌّ واحدٍ أن يمتصّ قطرةً من الدم".

فعِش نيصًا وقاتل كالبرغوث.

لا حبّ للمقهورين

٢٠١٢/٠٢/١٤

ثلاث أغطيةٍ صوفية وثلاث وسائد، اثنتان تشكّلان أرضي والأخيرة هي سمائي، جواربي قذرةٌ، لا ملابسَ داخلية أرتديها لأفقد حسّي بجسدي، كلّ هذا لم يُسعفني لاختراق جدار الصوت في سماء النوم، تطاردُني ابتساماتُها وصوت ضحكاتها، أتخيّل أيضًا ابتساماتها الفيسبوكية المُستفزّة، لطالما شعرتُ أنّ ذلك (الإيموشين يخدعُني ويضحكُ عليّ لا لي)، محمود درويش كان معها أيضًا وهو يشدو بترنيمته (انتظرها) على إيقاع الشياطين الثلاثة، تطاردُني لا نمطيّتها (سريران مُنفصلان للزوجين، شخصيةٌ منفصلةٌ لكلّ زوج، سعيُها في إيجاد لحظاتها الخاصة) مصطلحاتها التي أصبحت تشكّل جزءًا من معجمي اللغوي (وأشياء أخرى، كون بخير، تعبان، تصبح على أمل)، فنجان قهوةٍ وسباقٌ استعر على التدخين بيني .....وبيني، أبحثُ في قائمة كتبي عن كلّ ما هو صعبٌ لإيماني بأنّ الشيء التافه هو ما لا تفهمه (بناءً على نصيحة الأصدقاء أن أفعل شيئًا تافهًا لأتخلّص من الحالة التي أنا فيها)، سيكولوجيا المقهورين، الاستشراق، الأسطورة عند أفلاطون، الفلسفة السياسية عند هيجل، اللامُنتمي، المعذّبون في الأرض، بيداغوجيا المضطهدين، أتنقّلُ بين صفحاتها، كدتُ أنسى أنّ رائحة الورق تُغريني أكثر من امرأة، عذّبني حسين البرغوثي بلونه الأزرق، إميل سيوران كان له حصّة الأسد في تلوين ذلك البحر الذي أحلم أن أستيقظ يومًا لأراه من شُرفتي الغربية.

نكوصٌ إلى الطفولة الأولى إلى حياة القطيع، بحثٌ عن لحظاتي الخاصّة مع أمّي وأبي، لا أذكر لحظات خاصّة مع أمّي، لكنّ لسنوات طويلة حلمتُ بذلك اليوم قبل عشرين عامًا عندما امتطينا حمارًا أبيضَ أنا وأبي لوحدنا متوجّهين غربًا إلى قريتنا المهجّرة، سعادةٌ عارمةٌ لا أعرف سببها، كنتُ أطلق صيحات الهنود الحُمر هكذا تخيّلتُ نفسي، لربّما سعادتي كانت بكسر التابو للتوجّه غربًا والعودة للتراب، لربّما عقد النقص اشتعلت في عقلي مبكّرًا ففرحتُ للاقتراب من ذلك الإله الأبيض، ربّما لأنها لحظتي الخاصّة التي رسمتُ أنا تفاصيلها مع أبي.

حاولتُ أن أتّخذ هذه الليلة الوضع الجنيني لأحمي عقلي وجسدي لكن لم يُجدِ معي نفعًا.

العداء نحو المحيط كلّ المحيط هي سمتي الآن، لربّما هي آليةٌ من آليات الدفاع عن النفس التي يستخدمها المقهورون، شتائمي تتوجّه بشكلٍ عموديٍّ أكثر من اتّجاهها الأفقي، إذا غفر لي ربّي تطاولي فلن يغفرَ لي غبائي. التزامي الأخلاقي نحو الأقلّ حظًا بدأ يتلاشى، مصيرُ الغابات المَطَرية لم يعُد يؤرّقني، الشركات الأمريكية التي تغزو إفريقيا لهم دينُهم ولي ديني.

انتهكت عقلي، واغتصبت شُعوري، استباحت ذاتي، مبرّرةً ذلك بأنّها حاولت ولم تستطِع إلى حُبّي سبيلًا، أرادت كتفًا للبكاء عليه واعتذرت منّي فولّيتُ هاربًا منها.

انتهكَ جسدي بلا نوم، ألفظُ بعضًا منها مع كلّ كميةِ قيءٍ أُخرجها من جوفي، أشتمّ رائحة عطرها في قيئي، ذكرى ملمس يدها يثيرُني فاشمئزٌّ من نفسي، ويصيبُني غثيانٌ كدُوار البحر.

لا حبَّ للمقهورين ... لا زوجات ... ولا أطفال ... لا حضنَ للبكاء ... لا وقتَ للابتسام، لماذا لا حبَّ لنا؟ لأنّ علاقة القمع تحتاجُ باستمرارٍ إلى تغذيةِ نرجسيةِ السيد (الذكر)، إلى مزيدٍ من تضخُّم أناهُ حتى لا يتهدّدُها بروز الحسِّ الإنساني، بروز التعاطف النابع من التكافؤ بين الذاتية والغيّرية.

تقوم في مجتمعات المقهورين علاقةُ ازدراء ضمنيٌّ لأنهم يعكسون له عارَه ومأساته ضمن منهجية اجتياف عملية التبخيس، وأكثرُ من يصيبه الازدراءُ هي المرأة، تصبُّ عليها كلّ مشاعر العار والضعف والعجز والرضوخ.

تُسفّل المرأة من خلال أدوار الرّضوخ التي تُفرض عليها (رضوخٌ للأب، وللأخ ثمّ للزوج) تُحوّل إلى أداةٍ للمُصاهرة والإنجابِ إلى خادمةٍ إلى المُعبّرة عن المأساة إلى الإنسان العاجز القاصرِ الجاهل الغبيِّ الذي يحتاجُ إلى وصيٍّ تمامًا كحالِ الذكر المقهور أمام القُوى التي تسلّطت عليه.

فيُصبح الكذب جزءًا أساسيًا من نسيج المُجتمع المقهور على مختلف الصعد وفي كلّ الظروف، الكذب بين المتسلّط والإنسان المقهور يعمّم كل العلاقات: كذبٌ في الصداقة، كذبٌ في الإيمان، كذبٌ في ادّعاء القيم السامية، كذبٌ في الحب والزواج.

نرى الآخر على أنّه ليس مُكافئًا لنا فتتحوّلُ المرأة إلى أداة نستغلّها بمختلف الوسائل المُمكنة، أداةٌ لخداعنا، فلا طريقَ للحبّ لمن لم يرَها مُكافئةً له.

لا حبيبات ولا زوجات في عالم القهر، فقط عاهرات ومشاريع تكاثر لإنجاب عبيد صغار، لكن هنالك فرقٌ بسيط، الزوجة في عالمنا أكثرُ قناعةً من العاهرة، يكفيها السترة والنفقة لتُصبح في طوع يدك، هذا ما جذبني لها لم تُرد أن تكون عاهرةً مثل الأخريات ... فكان ردُّها أن عهَرتْني أنا.

نصيحةٌ لمن يقرأ من الذكور لا تبحث عن حبيبةٍ إن لم تتخلّص من قهرك لتُخلّصها وتُخلّص نفسك، بل ابحث عن عاهرةٍ لتمنحك بعضًا من توازنك.

نصيحة لمن تقرأ من الإناث: لا تبحثي عن حبيبٍ إن لم تتخلّصي من قهرك وتُخلّصيه بل ابحثي عن زبونٍ أجدى لكِ.

ملاحظة: شكرًا جفرا أنتِ من علّمني هذا.

«أهلًا بالزبائن الكرام» في معسكر «عوفر»!

٢٠١٣/٠٧/٠١

كانت المرّةُ الأولى بالنسبة لي أن أدخل إلى المحكمة العسكرية الإسرائيلية من بوابّة الأهل. ذهبتُ أنا وصديقٌ آخر لحضور محكمة صديقنا أشرف أبو عرام المتّهم بالانتماء لتنظيمٍ محظورٍ والتخطيط لتنفيذ عمليات.

لستُ غريبًا أبدًا عن مجتمع الأسرى فلطالما كنتُ مُضيفًا لهم، وأسمع قصصَ نضالهم ونضال ذويهم وعذاباتهم وآلامهم وآمالهم، لكن هذه المرّة رافقتُهم في إحدى رحلاتِ الآلام.

ما إن وصلنا البوابة الخارجية لمُعسكر عوفر في محافظة رام الله، وبعد اجتياز البوابة الأولى حتّى عرضنا بطاقات الهوية للمُجندّة القابعةِ خلف الزّجاج السميك، لنخرُجَ وننتظر السيارة المكلّفة بنقلنا إلى المحكمة داخل المعسكر.

في ساحة الانتظار وعلى بُعد كيلومترٍ واحدٍ تقريبًا من البوابة الأولى قابلنا أُسرة أشرف. أَبوه وزوجته حاضران أيضًا برفقة أهلٍ محمّد زيتون شريك أشرف في التُّهم، زوجةُ أشرف وخطيبةُ محمّد أختان بالمناسبة.

خلال هذه العملية لا بدَّ لك من المرور عبر ثلاثِ بواباتٍ إلكترونيةٍ وأربعِ بواباتٍ عاديةٍ وأربعِ بواباتٍ دوّارة (يُطلق عليها اسم "معّاطة" للتشابهِ بينها وبينَ الآلةَ المستخدَمة في إزالةَ الريشَ عن الدواجن بعد الذبح)، وتُجبر على عرض بطاقة الهوية مرّتين، وفي المرة الثانية تتركها مع الجنديّ وتستلمُها عند المغادرة.

بعد أقلّ من ساعةٍ من وصولنا المحكمة وبقائنا في ساحة الانتظار، تمّت مُناداتنا عبر الميكرفون لحضورٍ جلسة المحكمة، بعد التفتيش اليدويّ والإشعاعي وأيضًا آلة كشف المعادن اليدوية ولجّنا في دهاليز تارةً تذهب يمينًا وتارةً إلى اليسار، تلك الدهاليز ترسُم مسلكك بشكلٍ إجباريٍّ ومع هذا تمّ وضعُ إشارات توجيهٍ على تلك المسالك الاجبارية عبر الدهاليزٍ المصنوعة من القضبان والأسلاك والمسقوفة على ارتفاع مترين.

عندما وصلنا إلى قاعة الانتظار في المحكمة لمْ أستغرب أنّ المباني بلونِها الأبيض والمصنوعةَ من موادّ غير قابلةٍ للاستدامة تشبهُ إلى حدٍّ كبيرٍ المباني التي تظهر في فيلم الهروب الكبير الذي يتحدث عن قصة هروب أسرى حربٍ من الحلفاء من سجن المباني، اللونُ والتصميمُ والمساحات الخاصّة بهم والمساحات الخاصّة بنا.

أمام قاعةِ الانتظار توجدُ ساحةٌ تفصلُها عن قاعات المحكمة أسلاكٌ شائكةٌ أخرى وحارسٌ وحيدٌ احتمى من الحرّ بالالتصاق بالحائط المجاورِ للبوابة. التصميم يفصلُ تمامًا باقي المعسكر عن قاعة الانتظار ليصبحَ هناك عالمان مختلفان فلا تعرفُ ماذا يدورُ في الجهة الأخرى، ويتمُّ جلْبُ الأسرى من الناحيةِ المقابلة فلا تراهم إلا داخلَ قاعة المحكمة.

مساحة قاعة الانتظار ٥٤ مترًا مربّعًا ويوجد فيها ٥٢ كرسيًا وخدمةُ التكييف حاضرة (أهلًا وسهلًا بزبائننا الكرام)، وليست مبالغةً أو تهكّمًا عندما أقول زبائن؛ فالقصصُ التي سمعتُها من أهالي الأسرى هناك هي تقريبًا نفس القصص التي أسمعُها أثناء استقبالي لهم لزيارة عمّي المحامي في البيت، ففي اللهجةِ الفلسطينية الدارجة الزبون ليس المستهلك بقدرِ ما هو المُتردّدُ على المكان مرارًا وتكرارًا، عددٌ كبيرٌ من الأسرى قضَوْا أكثر من محكوميةٍ ودخلوا السجن عدةَ مرّات، وعددٌ كبيرٌ أيضًا من الأسرى من له أقارب درجة أولى دخلوا السجن سواءً كان أبًا أو أخًا أو أمًّا أو أختًا.

في تلك القاعة كافيتيريا صغيرة يديرُها جنديٌّ خمسينيّ مصابٌ في رجله ويعلّقُ صورته باللباس العسكريّ قبل تقاعُده نتيجة الإصابة في الزاوية البعيدة من الكافيتيريا (المصابون من الجنود قليلو الشأن يتمُّ منحُهم أكشاك أو كافيتيريات صغيرة ليعتاشوا منها وتقديرًا لتضحياتهم والتزامًا من الجيش ثمنًا لتضحياتهم والضبّاطُ يُمنَحون محطّات وقودٍ ومشاريع أهمّ بكثير).

جلستُ بقرب سيّدة ثمانينيّة وبدأت حديثها معي هُروبًا من ملل الانتظار، قالت لي إنّها أمٌّ لشهيدين وأخذتْ تقصُّ قصّتها، كانت قد جاءت لحضور محكمة حفيدها الذي تمّ اعتقاله بعد إصابته بالرّصاص الحيّ في قدمه، من ثوبها وألوانه ونوع التطريز قدّرْتُ أنّها من قرى رام الله، أخبرتْني أنّها من قرية سنجل (قريةٌ قربَ رام الله سُمّيت بهذا الاسم نسبةً لريمون السنجيلاوين أحدُ قادةِ الصليبيين الذي قام بتهجير سُكّان تلك

المنطقة في عام ١١٠٠م وبنى قلعةً سُمّيت باسمه وأغلب المهجّرين رحلوا إلى قرية بيت فوريك بالقرب من نابلس).

ينقسمُ المجتمع الفلسطينيّ إلى قسمين حسب تعرُّضهم لتأثير الاحتلال، قسمٌ يتعرّضُ لتأثير مُباشر وقسمٌ لتأثير غير مُباشر، ولا أبالغُ أبدًا إذا قلتُ أنّ بعض الناس الذين يتعرّضون للتأثير غير المباشر يكادون لا يعرفون (أو الأصحّ لا يشعرون) أنّ هناك احتلالٌ إلا عبرَ شاشات التلفاز.

أمّا أهالي الأسرى وبما أنّهم منابع "الإرهاب" وعششُ دبابير مُصغّرةٌ في نظر العدوّ يتعرّضون لأقسى أنواع القمع بنوعيْه الخفيّ والمُباشر، منذُ ولوجك من البوابة الأولى حتّى قاعة المحكمة يتمُّ تعريضك لقصف ذهنيٍّ مُستمرّ، بعد عبورك البوابة الأولى تُتقنُ لوحدك عبور البوابات التالية تطبيقًا لنظرية الارتباط الشّرطيّ الكلاسيكية لبفالوف.

هناك ٦٨ لوحةَ قوانين وتعليمات (ناهيك عن إشارات التوجيه التي لن تحتاجها أصلًا) في مساحة ١٧٠ مترًا مربّعًا. ما لفت نظري أنّ هناك ثلاثين لوحة تمّ ترويسُها بشعار جيش الإحتلال كُتب عليها: "يجب الحفاظ على النظافة واتّباعُ تعليمات قوّات الأمن"، ليتحوّل الخضوع للعدوّ إلى قيمة اجتماعية مُشابهة لقيمة الحفاظ على النظافة، علمًا أنّه من المستحيل أن يتمّ توسيخُ المكان لأنّك لا تدخلُ إلا وبحوزتك نقودُك و مفتاحُ صندوق الأمانات والذي تترك فيه كلّ حاجياتك.

ليس مُستغربًا أن تتمَّ مثلُ هذه الإجراءات بحقّهم والتي لا تخلو من الإهانات والتحقير والتي تُجبرُك على التأدّب في سبيل زيارةِ لأسيرك ناهيك عن الإجراءات القمعية الأخرى التي تُمارَس ضدّهُم خارج أسوار المحكمة من منع سفرٍ ومنع تصاريح واستدعاءاتٍ مستمرّة وتعطيل مصالح وإذلالٍ مُوازٍ في دوائر القرار والتنفيذ الفلسطينية فهؤلاء مصدرُ صداع العدوّ والأكثرُ وعيًا لواقعهم والأكثرِ عداءً للعدو.

لا تستهينوا بتلك الإجراءات من القمع الخفيّ والعمليات التأديبية الذهنية وصَهْر الوعي فتأثيرُها كبيرٌ جدًا فأوّلُ كلمة سمعتُها من أحد أهالي الأسرى داخل قاعة الانتظار (هذول الأولاد شحّطَطُونا وذلّونا عسى أن يتّعِظوا).

حزب الكنبة الفلسطيني

(بالشراكة مع زيد الشعيبي، نشرت في مجلة الدراسات الفلسطينية، مجلد رقم ٢٣، عام ٢٠١٢)

أفرزت الثورةُ المصرية بمكنوناتها العظيمة كنزًا من المصطلحات تحاكي فيها وصفًا دقيقًا للواقع ومُطابقًا للحالة الموصوفة، وتصلُح كي تُضاف إلى معاجم لغة الثورات العالمية السابقة واللاحقة.

وجسّدت هذه الثورة التي لقّبها البعضُ بـ"الثورة الضّاحكة" لاستخدام الشعب المصريّ المعروف بخفّةِ دمِه النّكات والمصطلحات الطريفة السّاخرة في شعاراته ومَطالبه الثورية، وفي تعبيره عن حال البلد والثورة، حالةً نادرةً من نوعها تجعلُ الجمهور يرتبطُ ارتباطًا عاطفيًا بمطالب الثورة وصِدق نيّاتها.

وكان بين أكثر المصطلحات إثارةً للانتباه "حزب الكنبة" الذي يُطلقه ثُوّار مصر على أفراد الشعب الذين يلتزِمون منازِلهم في أثناء الأحداث والاعتصامات في الميادين، جالسين على كنباتهم يُشاهدون صناعة الحرّية عبر التلفاز، ويكْتَفون بإطلاق الشعارات الرنّانة، وغالبًا ما يتميّزون بكثرة الانتقادات والمُزايدة على مَن هم في الشارع يعملون على الأرض لتغيير الواقع.

ويبدو أنّ هذا "الحزب" يتمتّع بشعبيةٍ كبيرةٍ في فلسطين، بل يُعدّ حاليًا، من أكبر الأحزاب وجودًا وتأثيرًا، مع التشديد على خُصوصيّة الحالة الفلسطينية ومراحل النضال والصّمود المُشرّفة لأبناء الشعب الفلسطيني على مرّ الزمن. غير أنّ مسألة التشبيه بين الحالتين المصرية والفلسطينية ليست بالضرورة علاقةً تطابُقيةً مجرّدةً بقدر ما هي علاقةٌ توافقيةٌ مرحليةٌ مرّت بها مصر، وتمرّ بها فلسطين اليوم.

بين انتفاضتين

لعلّ المُتتبّع للحالة الفلسطينية منذُ انطلاق أولى التظاهرات ضدّ الوجود اليهودي الاستعماري في فلسطين في سنة ١٨٨١م، مرورًا بخمس عشرة انتفاضة وهبّة شعبية ضدّ هذا الوجود الصهيوني، يستطيع أن يُلاحظ مفاصل النهوضِ والإحباطاتِ والانبعاث لدى هذا الشعب، إذ تتميّزُ الفترة الأولى من هذا النضال حتّى ما بعد النكبة

بسيطرة العشائرية والقبلية والنُّخب العائلية على زِمام النشاط السياسيِّ الفلسطيني، وعلى رسم معالمِه وصَوْغ مطالبه وطموحاته.

وتراجع هذا الدورُ بشكل كبير وواضح مع إطلاق الرصاصة الأولى في الثورة الفلسطينية في سنة ١٩٦٥م، كي يُؤسِّس ذلك انعطافةً تاريخيةً حادّةً تجلّت في انضمام الحركات الثورية والأحزاب الأيديولوجية إلى صفوف منظّمة التحرير الفلسطينية، وترسُّخ مكانة ياسر عرفات رئيسًا لمنظّمة التحرير وقائدًا للشعب الفلسطيني وحركته التحرُّرية.

لكن "كاريزما القائد" لم تكُن ذات بعد إيجابيٍّ دائمًا؛ إذ إنّ مرحلتي النضال الأولى والثانية من تاريخ الصراع ضدّ المشروع الصهيوني وتجلّياته على الأرض الفلسطينية تتشابهان في سيطرة الفرد على القرار واستئثار قلّة به، وغياب مبدأ الشفافية في اتّخاذ القرار، وفي بناء عمل مؤسّساتيٍّ قادرٍ على مواجهة الأوضاع والتقلّبات والتغييرات الطارئة، الأمر الذي أدّى إلى غياب المرونة في الشكل النضالي لدى الطبقة السياسية، وأضعفَ القدرة على توظيف الطاقات الجمْعية في الكفاح الوطنيّ.

وعلى مدى تاريخ هذا الشعب، فإنّ الشباب كانوا هم وقود وجنودُ جميع المراحل النّضالية، وُصولًا للمرحلة الحالية التي تتّسمُ إمّا بالإقصاء، وإمّا بالعُزوف عن المشاركة في الحياة السياسية. وإجراءُ مقارنة لتطوّر المشاركة الشعبية، ولا سيّما الشبابية، بين الانتفاضتين الأولى والثانية، من شأنه أن يُساهم في تسليط الضُّوء على عددٍ من العوامل وراء نشوء ظاهرة "حزب الكنبة" لدى الشباب الفلسطيني، وخُصوصًا في مرحلة يمتدُّ فيها الربيع العربي إلى أكثر من بلد.

كان من الصعب ظهور "حزب الكنبة" خلال الانتفاضة الأولى (١٩٨٧م)؛ إذ تميّزت هذه الانتفاضة التي أدخلت اسمها إلى المصطلحات المُتداولة عالميًا، بمشاركة شعبية واسعة النطاق، من حيث الجغرافيا والفئات المُشاركة، وإن كان الشباب أدُّوا دورًا رئيسيًا في فعاليّات المواجهة اليومية للاحتلال، نظرًا لوجود شعارٍ ناظم مُتّفق عليه من جميع فئات الشعب الفلسطيني وشرائحه، تمثّل في شعار "الحرّية والاستقلال"، وانتشار المُبادرات الشبابية الفردية والجماعية في المجتمع من تشكيل اللّجان الشعبية ولجان الحراسة والتعليم الشعبي والجمعيات الزراعية والمشاريع الصناعية والزراعية والتّنموية الصّغيرة والتكافُل الاجتماعيّ بين أفراد المجتمع، ونقاء المجتمع من رواسبِ

الفكر القديم الفاسد وابتعاده عن الفكر المُستوّرد وتشكيل القيادة الوطنية المُوحّدة بما تعنيه أوّلا من وحدةٍ لمختلف القُوى تحت شعارٍ موحّدٍ وبرنامج عمل.

والأهمّ من ذلك تمتّع هذه القيادة الموحّدة بشرعية مُستمدّة من الإرادة الشعبية حتّى دون انتخاب، وتعبيرها عن جوهر حركة التحرُّر الوطني، ووجود استعداد عالٍ للتضحية من فئاتٍ متعدّدةٍ في ظلّ التوحّد خلف شعارٍ جامع، والنزوع إلى فكرة الخلاص الجماعي.

إلا أنّ القيادة لم تكُن على مستوى التحدّي ولم تقُم باستثمار تضحيات الشباب والشعب عامّةً في تلك الانتفاضة بالشكل الملائم، وخصوصًا مع بدء مسيرة مدريد-أوسلو استنادًا إلى الانعطافة الكُبرى في البرنامج السياسي لمنظّمة التحرير كما تشكّل في دورة المجلس الوطنيّ في الجزائر في سنة ١٩٨٨م.

وفي المقابل، إذا كانت الانتفاضة الأولى اندلعت تعبيرًا عن الأمل بحلٍّ وطنيٍّ قريب، فإنّ الانتفاضة الثانية جاءت تعبيرًا عن اليأس من إمكان تحقيق هذا الحلّ والتشكيك في إمكان تحويل سُلطة الحُكم الذاتي إلى دولة بعد فشل مُفاوضات كامب ديفيد في سنة ٢٠٠٠م. وفي أقلّ تقديرٍ هناك في القيادة من اعتقد أنّ هذه الانتفاضة ربّما تعكسُ الحاجة إلى جرعةٍ إضافيةٍ من المواجهة الميدانية للضغط من جديد في سبيل فتح مسار العملية السياسية نحو التحوُّل إلى دولة. وعلى الرغم ممّا سُمّي ظاهرة عسكرة هذه الانتفاضة، فإنّها تميّزت أيضًا بمشاركةٍ شبابيةٍ وشعبيةٍ واسعة سرعان ما تراجعت ربمّا لتحمل بذور ظهور "حزب الكنبة".

ويعود ذلك إلى عدم تأطير الحركة الشعبية في ظلّ وجود السلطة وفق محدّدات اتّفاق أوسلو وقيوده ومُلحقاته الاقتصادية والأمنية، والاعتقاد أنّ السلطة يجبُ أن تدير شؤون المجتمع، وإلى ضعف الشرعية الشعبية في هذه الانتفاضة مُقارنةً بالانتفاضة الأولى، ولا سيّما من حيث غيابِ الأُطر واللجان الشعبية ذات الوظائف المتعدّدة، وتراجُع روح التكافل والعمل التطوّعي، وغياب القيادة الوطنية الموحّدة التي تملكُ شرعيةً شعبية لمصلحة صيغة اجتماعات القُوى الوطنية، وانتشار مظاهر التسلّح وطغيان الاشتباك العسكري على حساب المُواجهة الشعبية، الأمرُ الذي أضعف من أهمّية وجود مقاومة شعبية حاضنة للكفاح المُسلّح، وانتشار ظاهرة الشللية والفلتان الأمني، أو ظاهرةً "صوملة فلسطين" لاحقًا، مع غياب الوعي الكامل بالهدف الذي تسعى الانتفاضة

لتحقيقه بالأشكال الكفاحية التي ميّزت الانتفاضة، وماهية أشكال الكفاح المُسلّح التي يُمكن أن تحظى بالحاضنة الشعبية.

وعلى الأقلّ، يُمكنُ القول إنّ كلّ ما سبق ساهم في عدم القناعة بقدرة الانتفاضة على تحقيق شعار الخلاص من الاحتلال وإقامة الدولة.

إن دراسة تجربة الانتفاضتين الأولى والثانية من شأنها أن تُقدّم مؤشرات إلى تأثير مرحلة أوسلو في الحالة الفلسطينية، وخُصوصًا من حيث تراجع الحركة الشعبية في ضوء تهشيم الجغرافيا والديموغرافيا الفلسطينية على مقاس تقسيمات أوسلو للأرض ومَن عليها بين مناطق (أ) و(ب) و(ج)، وانكشاف مناطق ج (٦٢٪ من مساحة الضفّة الغربية) أمام شتّى الإجراءات الإسرائيلية من استيطانٍ وتهويدٍ ومصادرةٍ وهدم منازل وتطهيرٍ عرقيٍّ في غياب دور السلطة وتراجع الحركة الوطنية في هذه المناطق من دون تأطيرٍ للحركة الشعبية ومقاومتها للاحتلال. كما ساهم تزايُدُ القناعة بمأزق تحويل السلطة إلى دولة، واتّساع ظاهرة الزبائنية وارتباط مصالح فئات واسعة نسبيًا ببقاء السلطة ذاتها، في تراجُع الإيمان بوجود ما يستحقُّ تقديم التضحياتِ إذا كان الوضع سيبقى على حاله، ولا سيّما بعد انتفاضتين استمرّت كلٌّ منهما أعوامًا من دون تحقيق هدفها. وهنا يمكن تلمُّس بدايات ظهور "حزب الكنبة" على إيقاع الشعور بالحاجة إلى تغيير المسار السابق.

إنّ المُتتبّع لحالة الشارع الفلسطيني يستطيعُ أن يرى، وبكلّ وضوح، تدنّي المشاركة الإيجابية للمواطن الفلسطيني في كافّة الفعاليات السياسية والمَطلبية والاجتماعية إزاء القضايا الداخلية، مثل الانقسام والفساد وتدنّي مستويات المعيشة، وأيضًا الفعاليات المُرتبطة بالمشروع الوطني ضدّ الاحتلال والعنصرية والاستيطان، وكذلك لتغيير المسار السياسي المحصور في مُربّع المفاوضات منذ عقدين.

وتُعدّ هذه الحالة خيرَ دليلٍ على حالة الإحباط وعدم الثقة التي يمرُّ بها الشارع الفلسطيني الآن باستثناء أعداد لا يُستهان بها من الناشطين الشباب الذين يُثبتون يومًا بعد يوم أنّهم يستطيعون بأعدادهم القليلة فعل الكثير عبر عملية كفاحية تراكمية ومُثابرةٍ لتوسيع المُشاركة الشبابية، والشعبية عامةً، في صُنع القرار على مختلف المستويات.

في أسباب تفشّي ظاهرة «حزب الكنبة»

استنتج المُشاركون في ورشة عملٍ إلكترونيةٍ نُظّمت لإثراء المشاركة الشبابية الجماعية

في بلوَرة الأفكار الواردة في هذه المقالة، أنّ حالة "حزب الكنبة" هي ظاهرةٌ عابرةٌ في المجتمع الفلسطيني ولا تعكس ثقافةً ثابتةً ومستقرّة، وأنّها ظاهرةٌ تفشّت في المجتمع وستتلاشى بانتهاء العوامل المُسبّبة لها. ويُمكن اعتبارها نوعًا من أنواع التماهي مع المُتسلّط كحالة نفسية دفاعية يتنكّر فيها الفردُ المقهور لذاته، ويسعى من خلالها لحل مأزقه الوجوديّ والشعورُ بالخواء وانعدام الأمن عبر التشبّه بالمُتسلّط والذوبان في قيَمه وتعظيمها على حساب ذاته وهويّته الفردية، وأيضًا على حساب جماعته وشعبه، وهذه تُعدّ من المعوّقات الحقيقية في طريق انتصار أيّ مشروعٍ وطنيٍّ تحرُّريّ.

وفي الحالة الفلسطينية التي يوجد فيها سلطة حكم ذاتيٌّ محدود الصلاحيات، وانقسام داخليّ، تحت مظلّة تحكّم سلطة الاحتلال العنصُري الكولونيالي في الأرض والمواردَ والسلطات والصلاحيات واحتكار القوّة والعنف، فإن التماهي بالمُتسلّط يأخذ شقين: الأول، التماهي مع "الإسرائيلي"، والثاني، التماهي مع الفلسطيني المُتسلّط (عند انتشار ثقافة الخوف وتكميم الأفواه والاعتقال السياسي والفصل التعسّفي من الوظيفة).

ويمكن تلخيص أبرز أسباب تفشّي الظاهرة بما يلي:

فشل القيادة في تحقيق إنجازات حقيقية للشعب الفلسطيني تسجمُ ووعودُها بالتحرير وتخليص الشعب من الاحتلال، الأمرُ الذي أدّى إلى غياب الثقة بالقيادة الحالية غير المُنتخبة والفاقدة للشرعية، وبالنهج التفاوُضيّ الذي اتّبعتهُ لمدّة عشرين عامًا من دون تحقيق أيّ نتائج في نظر الشارع الفلسطيني الذي يرى يوميًا تقدُّم المشروع الاستيطاني على أرضه.

انتشار ثقافة الخلاص الفردي على حساب المصلحة العامة، والتي سادت وتعاظمت خلال مرحلة أوسلو، وتركّزت بشكلٍ أساسيٍّ لدى من تبوأوا مناصبَ قيادية عُليا في بعض أوساط "المحاربين القدامى" ممن يرون أن إحدى ثمار نضالاتهم هي أن يحظوا هم وعائلاتهم بعيشة كريمة حتّى لو كانت على حساب الشعب. ويُمكن أيضًا ملاحظة ما سمّاه إدوارد سعيد في كتاب "المثقف والسلطة" "البطالة العقلية" عند كثيرٍ من المثقفين الفلسطينيين الذين جرى استقطابُهم كي يتحوّلوا إلى أبواق للسلطة، كما تمّ استقطابُ كثيرين منهم من خلال المنظّمات غير الحكومية أو المنظمات الدولية، وهؤلاء -للأسف- أدُّوا دورًا سلبيًا في نشر ثقافة الخلاص الفردي.

تأثير الإجراءات الاحتلالية في أثناء انتفاضة الأقصى وبعدها، من قمع وبناء الجدار

ونشر الحواجز بشكل لم يسبق له مثيلٌ وهدم البيوت ومصادرة الأراضي وتوسيع الاستيطان، في صوغ بُنيةٍ نفسيةٍ مُشوّهةٍ للناس، وهذا يُلاحَظ مثلًا في "سيكولوجيا الحواجز" التي تعتمد على النظرية السلوكية في علم النفس من حيث تحكّم الحاجز العسكري في ردّة فعل الإنسان من دون إدراكٍ وعليه، فأنت إن لم تتصرّف جيدًا فقد تُمنَع من العبور، كما سيُمنع الآخرون منه. وهنا يصبح تفكير الفرد ذاتيًا وفيه أنانية، وتُصبح غريزة البقاء والأنانية هي السائدة في ظلّ غياب المشروع الوطنيّ القادر على بلورة وعيٍ جمعيٍّ يكسر ثقافة الركون إلى سطوة الحاجز وتأثيراته السلوكية؛ فالحاجز ليس ماديًا فحسب، بل هو سيكولوجيّ في الأساس أيضًا، وهدفه كسرُ الإرادة والقضاء على قيم الصمود والمقاومة، علمًا بأنّ بعض الحواجز لا يتمركز عندها جنود. أمّا من الناحية الاجتماعية، فقد أدّت هذه الحواجز إلى تفسيخ المجتمع الفلسطيني إلى كياناتٍ ومجتمعاتٍ صغيرةٍ لكلٍّ منها أجندتُه الخاصة.

مساهمة التبعية الاقتصادية للاحتلال والسياسات المالية المُتّبعة من طرف الحكومات الفلسطينية المُتعاقبة، في تشكل فئاتٍ غنيةٍ مُنتفعة اقتصاديًا، وتتلاقى مصالحُها مع استمرارية الوضع السياسي الراهن، وترتبط بعلاقاتٍ زبائنيةٍ مع السلطتين القائمتين في كلٍّ من الضفة الغربية وقطاع غزة، في مقابل تزايد الفئاتِ الفقيرة والمُهمّشة التي يكاد ينحصرُ همّها اليومي في توفير لقمة العيش.

غياب استراتيجيا وطنيةٍ موحّدة ذات رؤيةٍ وأهدافَ واضحةٍ مُتوافَقٍ عليها فلسطينيًا، ويمكن للشعب الالتفاف حولها بغضّ النظر عمّن يتسلّمُ الحكمَ والقيادة. كما أنّ الشعور بإقصاء معظم قطاعات الشعب الفلسطيني في أراضي ١٩٦٧ و١٩٤٨ والشتات عن المشاركة في بلورة مثل هذه الاستراتيجيا التي تمسّ واقع الفلسطينيين ومستقبلهم أينما وُجدوا، قد أضعف الصفة التمثيلية لمنظّمة التحرير والسلطة والأحزاب عامّةً.

ما ترتّب على النزاعات الداخلية والانقسام الفلسطيني وتناحُر الأحزاب على السُّلطة من معاناة، وتراجع الثقة بالأحزاب السياسية والقادة، واستمرار فرض الحصار على قطاع غزة. وهذه كلُّها شكّلت دافعًا إلى عُزوف قطاعاتٍ متزايدةٍ من الشعب عن المشاركة في الحياة السياسية.

تزايُد الشعور باللّاعدالة، ولا سيّما في ظلّ واقع عدم المساواة بين الجنسين، إذ تُمثّل

النساء ما نسبته ٥٠٪ من الشعب الفلسطيني في الأراضي المحتلّة منذ سنة ١٩٦٧م، بينما تشغل النساء ١٧ مقعدًا من مقاعد المجلس التشريعي الـ ١٣٢. ويرجعُ عزوف الإناث عن المشاركة السياسية لشعورهم بأنّ هذه المشاركة لن تُغيّر من واقع النساء شيئًا كون الرجل يسيطر على مواقع صُنع القرار الفلسطيني، مع أنّ نسبة مشاركة النساء في الانتفاضة الأولى كانت كبيرة.

وجود ثغراتٍ في تجربة الحراك الشبابي في الضفّة والقطاع، مثل تعدُّد المجموعات الشبابية وتباين الشعارات، إذ كثيرًا ما رُفعت شعاراتٌ لا تلبّي طموح الشعب عامّةً، والشباب خاصّةً، كما أنّ الشباب لم يتمكّنوا من مخاطبة كامل الشعب بطبقاته وفئاته ومصالحه وتطلّعاته وأيديولوجياته، عدا محاولات الاحتواء والترهيب والقمع التي تعرّضت لها المجموعات الشبابية في الضفّة والقطاع. وقد ظهرت مخاطر الانزلاق نحو سلطةٍ بوليسية تُعزّز مناخات تراجع حرّية الرأي والتعبير وتُعزّز ثقافة الخوف التي تُعتبرُ العدوّ الأوّل لتوسيع المشاركة في الحياة السياسية والفعاليات الجماهيرية، وغاب الطرح الواضح لدى الشباب للإجابة عن أسئلة رافقت انطلاق فعاليات الحراك الشبابيّ. وهذه العوامل تُشكّل مجتمعةً معضلات حقيقيةً تتعلّقُ بالقضية الفلسطينية، وأسئلةً صعبةً بالنسبة إلى الشباب حديثي الخبرةِ في العمل السياسي.

الخروج من المأزق وتقليص عدد أنصار «حزب الكنبة»

تُعدّ مسألة الأعداد المُشاركة في الفعاليات التي يدعو إليها الناشطون الشبابيون أحد التحدّيات التي يُواجهُها الناشطون الفاعلون على الأرض؛ فمع إدراك مدى أهمّية الحشد للفعاليات التي تجري الدعوةُ إليها، إلا أنّ ذلك يجبُ ألّا يكون سببًا للتراجع أو الاستسلام للجوّ العامّ السائد. كما أنّ الناشطين، ومع كلّ حركة وفعالية يُقدمون عليها -أكانت تقليديةً أم نوعية- يتلقّون كمًّا هائلًا من الآراء المُتناقضة والمُتنوّعة، بعضها مُشجّع إيجابيّ، وبعضُها الآخر محبطٌ سلبيّ.

وهنا تجدُر الإشارة إلى أهمّية دور أعضاء "حزب الكنبة" الفلسطينيّ، وخصوصًا الشباب منهم، الذين يملكون من الوعي والعلم والثقافة ما يجعلهم يُدركون أنّ المرحلة الحالية هي مرحلة التغيير، وأنّهم بحاجةٍ إلى النزول إلى الشارع لا للمزايدة وتوجيه اللّوم والانتقادات اللّاذعة إلى مَن يخوضون التجارب الناجحة والفاشلة على حدٍّ سواء، وإنّما كي يتعلّموا منها معنى التضحية والمُثابرة، ومعنى الربح والخسارة، وقبل ذلك

معنى الحرّية والعدالة والكرامة.

ويكمُن الحلّ في تقليص أعداد أعضاء "حزب الكنبة" وتحويل دورِهم السلبيّ إلى إيجابيٌّ فاعلٍ على الأرض في شقين:

الأول: الإقناع والانتشار، ويقعُ على عاتق الناشطين الشباب، وغير الشباب، الذين يرَوْن في المرحلة الحالية فرصةً لمُراكمة الإنجازات، حتى لو كانت بسيطة، التأسيسُ لمرحلة تالية ربّما تبدأ في أيّ لحظةٍ يقرّر فيها الشعب التحرُّر من قيوده الحالية والتخلّص من سجّانيه.

ويجدُر بالناشطين الشباب أوّلًا أن يولّوا اهتمامًا لوضع إستراتيجية مرحلية، وأهداف توافُقية، تُساهم في البدء بالمرحلة الثانية، وهي إقناع الناس بهذه الإستراتيجية وبرؤية الشباب إلى كيفية تحقيقها، ومدى جدوى الوجود الفاعل على الأرض رفضًا للتسليم بالأمر الواقع. وتليها المرحلة الثالثة، وهي الانتشار والتنسيق والتغلغُل على مستوى قطاعات المجتمع كلّها في المدن والقرى والمخيمات، والتجمعات الفلسطينية في الداخل المحتل (أراضي ٤٨) وخارج حدود فلسطين التاريخية وصولًا إلى مخيّمات المنفى والجاليات الفلسطينية المُتعدّدة.

الثاني: يكمُن هذا الشقُّ في الشعب نفسه، وفي المثقفين بصورة خاصّة، من أجل العمل على نبذ كلّ مَن يحاول معاملة الناس كأنّهم رعيةٌ بحاجةٍ إلى راعٍ يتحكّم فيها، وما يُرافق ذلك من سياسات وإجراءاتٍ تُقوّض حرية الشعب خدمةً لمصالح فئوية باسم المصلحة الوطنية. فأبناءُ الشعب ومثقّفوه عليهم ألّا يصمِتوا أمام كلّ مَن ينتهكُ حقوقهم الإنسانية، أكان مصدرُ الانتهاك قيادتَنا أم مُحتلّينا.

إن توفُّر العوامل التالية في الحالة الفلسطينية سيُساعد على تقليص أعداد المُنضوين ضمن "حزب الكنبة":

المُطالبة بانتخاب قيادةٍ جديدة مُمثِّلة لشرائح الشعب الفلسطيني كلّها في جميع أماكن وجوده في الداخل والمنفى، وضمان التمثيل الشرعي للجميع.

بلورة استراتيجيا وطنية متوافقٍ عليها بين جميع قوى الشعب ومكوّناته، كي تشكّل مظلةً ناظمةً للأهداف المرحلية قصيرة المدى.

خطابٌ إعلاميٌّ واضحٌ وقويّ، ورفع شعاراتٍ تلبّي طموحات الشباب.

ربط قضية تحرُّر المرأة وحُصولها على كامل حقوقها مع قضية التحرّر الوطني من الاحتلال، الأمرُ الذي سيزيد من المشاركة النسائية في الفعاليات الشبابية والشعبية على غرارِ الانتفاضة الأولى.

نشر الوعي في مختلف التجمّعات الفلسطينية بشأن ضرورة التصدّي لسياسات الاحتلال بالعمل على الأرض، والتمسُّك بحقّ الفلسطينيين جميعًا في تقرير المصير.

تشجيع مبادرات الشباب الفردية، والمُرونة في الشكل النضاليّ حين تكون الأمور صعبة، شرط ضمان المُراكمة في سبيل تحقيق النتائج الكبيرة.

الضغط لبناء اقتصاد الصمود والحدُّ من ظاهرة الاستهلاك المُتفشّية في المجتمع.

محاولاتٌ على طريق إعادة إحياء الحِراك الشبابي

تميّزت سنة ٢٠١١م بكونها سنةً حافلةً بالفعاليات الشبابية التي يُمكن الإشارة أدْناه إلى بعضها على سبيل المثال لا الحصر، كمؤشّرٍ إلى الجهود المُثابرة من طرف الناشطين الشبابيين لإعادة بناء الحراك الشبابي:

المشاركة الشبابية في المُظاهرات الأسبوعية ضدّ الجدار وتوسيع المستعمرات فيما أصبح يُعرف بقرى المواجهة، مثل بلعين ونعلين والمعصرة والولجة وبيت أمر وكفر قدوم والنبي صالح وبيت لاهيا وبيت حانون. وما يستحقّ الملاحظة هو انهيارُ حاجز الخوف لدى هؤلاء الناشطين في مواجهة الجنديِّ الإسرائيليّ وتحطيم صورته التي روّجها بصفته شخصًا لا يُقهر. كما تُلاحَظ المشاركة الفاعلة للمرأة الفلسطينيّة في تلك المواقع، حتى أنّ المرأة في بعض تلك المواقع هي مَن تقود حركة المقاومة الشعبية والعصيان، مثل الولجة.

فعاليات ١٥ آذار/مارس المُطالِبة بإنهاء الانقسام، وقد شارك فيها آلاف الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة.

مسيرات العودة في ذكرى النكبة، بالتزامُن مع مسيرات العودة إلى الوطن من لبنان وسورية والأردن.

المشاركة في فعاليّتي "رُكّاب الحرية" و"مسيرة السيارات" لكسر الاحتكار العنصريّ

لنظام الحركة والتنقّل، وكان هدف هاتين الفعاليتين فضحُ الطبيعة العنصرية والاستعمارية للكيان الصهيوني في آنٍ واحد، وتدعيمُ جهود حملة المُقاطعة الدولية لإسرائيل، والتركيز على انتهاكِ حقّ الحرّية بالتنقّل.

التظاهرات والوقفات والمؤتمرات المُناهضة للتطبيع، والحثُّ على المقاطعة الكاملة بجميع أشكالها لإسرائيل، ورفض التطبيع الفنّي والثقافي.

المُساهمة في تدعيم صمود المناطق المُهمّشة والمُستهدفة من طرف الاحتلال، مثل منطقة الأغوار وعرب الجهّالين بالقُرب من القدس، وذلك عبر بناء الغرف الصفّية وإعادة بناء البيوت المُهدّمة وتسليط الضوء على معاناة هؤلاء الصامدين في مواجهة مخطّطات اقتلاعِهم من أراضيهم.

المُشاركة في التظاهرات والمسيرات المُطالبة بالإفراج عن الأسرى في سجون الاحتلال، ودعم معركة الأمعاء الخاوية التي خاضها الأسرى، ولا سيّما المعزولين، عبر الإضراب عن الطعام.

الاحتجاج الأسبوعي أمام "المقاطعة" (مقرّ الرئاسة في رام الله) مع بداية سنة ٢٠١٢م، واتّساع هذه الاحتجاجات إلى مدن أخرى، رفضًا للعودة إلى المفاوضات العبثية، ولتشجيع الناس على المشاركة بطريقةٍ مُبدعةٍ في مثل هذه الفعاليات.

(الاستنتاجات هي من نتائج ورشة عمل إلكترونية شارك فيها كل من الناشطين الشبابيين:

حسن فرج: ناشط شبابي، أخصائي نفسي، القدس.

د. أفنان عوايصة: ناشطة شبابية، طبيبة أسنان، نابلس.

خلود أبو طير: ناشطة شبابية، أخصائية اجتماعية، القدس.

باسل الأعرج: ناشط شبابي، صيدلاني، بيت لحم.

زيد الشعيبي: ناشط شبابي، الحملة الفلسطينية لمقاطعة إسرائيل، رام الله.)

عيلبون قصّة ذاكرةٍ لن تُنسى

نص لمنى العمري وباسل الأعرج

عيلبون

أربعُ مرات رفع "حاييم بطاطة" أصابعه الثلاثة، كلّ إصبعٍ كان يُشير إلى حكم إعدامٍ بحقّ أحد شباب القرية، لن أنسى هذا ما حييت.

جلوسٌ في ساحة القرية أمام الكنيسة التي لجأنا إليها، احتمينا بأسوارها علّ بيت الله يحمينا، كلّ القرية اجتمعت هناك بالإضافة لعائلة المواسي البدوية الذين كانوا (يعزبون) في أراضي القرية.

خاطب ذلك الضابطُ المسؤول عن كتيبة الهاجاناه الخوري بصوت ساخط قائلًا: أليس أنت من لوّح بمُسدّسه وقال بهذا المُسدّس سأحتلّ تل أبيب؟ اذهبْ إلى بيتك وكنيستك لم يحمِكَ إلا ملابسك.

وأردف يقول: أريد الآن أن تسلّموني البرن (رشاش إلي) الذي في القرية وإلا سنقومُ بإعدام مخاتير القرية.

كان أهل القرية قد جمعوا المال واشتروا مدفعًا رشّاشًا يُدعى برين ليشكّل نوعًا من الردع مقابل أسلحة اليهود، وكان قد اشترى بعضُ رجال القرية البنادق، كلّ ثلاثةٍ اشتركوا في ثمن بندقية.

وقف حاييم وبدأ يُشير بإصبعه ويختار، أنت أنت وأنت وأنت، اختار ١٧ شابًا من القرية، يقتادونهم ثلاثةً ثلاثةً بحسب إشارات حاييم، يعود الجنود مُبتسمين يتضاحكون بعد أن نسمع صوت الرصاص، وزّعوا الشباب في كلّ أطراف القرية وأعدموهم، قتلوا ١٢ شابًا من القرية وقتلوا ١٥ من البدو من عشيرة المواسي. بعد سنين طوال عرفنا سبب حقدهم هذا، كان اثنان من الصهاينة المُقاتلين قد قُتلوا في معركة بالقرب من عيلبون وكانت أختُ أحدهم في القوّة المُهاجمة للقرية وقد حرّضتهم على الثأر لأخيها فكان المقابلُ ٢٧ شابًا عربيًا.

الشباب الخمسة الآخرين وضعوهم أمام القافلة العسكرية كدروع بشرية وأمروا أهل عيلبون بالمسير إلى قرية المغار، في قرية المغار أمرهم جنودٌ آخرون بالاستمرار مشيًا إلى الشمال حيثُ لبنان.

استقرّ أهالي عيلبون ومن يساكنهم من البدو في مخيّم المية مية. اقترب منّي ذلك الجندي وسألني: ما اسمك؟ كنتُ ما أزالُ في الحادية والعشرين من عُمري، أجبته: بطرس شكري إلياس متّه. قال لي: تحرّك.

أجبته: لستُ قادرًا على المشي، أنا مُصاب. فقال لي: اذهب إلى البيت إذن.

...

وصلنا إلى المغار، كان حشدٌ كبيرٌ من الناس هناك، أمرنا الجنود أن نُكمل طريقنا شمالًا، المغار لم تُرحّل فقد حمى أهلها بعضَ رجال الدين الدروز ومنعوا ترحيل أهلها ورَضَخ الصهاينة، وصلنا صيدا ونزلنا في مخيم يُدعى المية مية.

الجو باردٌ جدًا جدًا هنا، نحنُ في آخر الخريف ونُقبل على الشتاء، لا أغطيةَ ولا متاعَ معنا، اقترح بعضُ الأهالي أن يعود أحدُهم إلى القرية لكيّ يجلب بعضًا من المتاع. وقفت أنا فارس ذيب المواسي، أسرجْتُ حصاني وتوجّهتُ جنوبًا، مرَرْتُ من القرى المهجّرة، كانت ملامح الحياة ما تزالُ تنبضُ فيها، تجنّبتُ الطرق الاعتيادية لكي لا أصادف أحدًا من اليهود، وصلتُ عيلبون أخيرًا.

وصلتُ إلى القرية كان قد بقيَ فيها بعضُ كبار السنّ والخوري وشابّان جريحان، ذهبتُ مباشرةً إلى بيت الخوري المُطلّ على ساحة القرية التي أصبحت تُعرف فيما بعد بساحة الشهداء، استقبلني واطمأنّ على الأخبار والناس، وقام بإعطائي رسالة وقال لي:" أعطيها لابني ولابن أخي في بيروت وكُن حريصًا عليها" سألتُه: وإذا أُسرتُ في طريق عودتي ووقعتُ في يد اليهود يا أبونا؟ أجاب: لا تقلق فقد كتبتُها بلغة لا يعرفُها إلا أنا وابني. وضعتُ الرسالة بين أكوام المتاع على ظهر الحصان وعدْتُ إلى صيدا.

...

ما زال الألمُ يقتلني، الرصاصةُ التي في فخذي ما زالت مُستقرّةً في مكانها، كيفيّة

اختيار الضحايا تُزعجني، عاملونا وكأنّنا لسنا بشرًا، منظرُ ذلك الطفل الذي لم يتجاوز السنتين وهو مُجبَرٌ على رفع يديه مثل باقي أهل القرية يؤرّقني.

وجوه الشهداء وأسماؤهم تطاردُني، نعيم، بديع، فؤاد، جريس، فضل، محمد، عازر، حنا، ميلاد، سمعان، عبد الله، رجا، زكي، وميخائيل، لم يكونوا أرقامًا كانوا عائلات وقصصَ عشق وبيوت وتاريخ ومستقبل، ابتسامات وأحزان، أمل وخيبات، كان لهم زوجاتٌ وأطفالٌ، كتبٌ مدرسية، أرضٌ تنتظر من يداعبُها لتُفشي له أسرارها، كان لهم حيواناتٌ تألفُهم وتنتظرُ قدومهم ليطعموها، كان لهم حبيباتٌ وقبلاتٌ مسروقةٌ خفية عن الله والناس، كان لهم موائدُ يعمرها الضيوف، كان لهم أغانيهم وتراتيلُهم وتلاواتهم، لكن لم يبقَ إلا المراثي.

وفدٌ من الأمم المتّحدة والصليب الأحمر كانوا قد مرُّوا صدفةً وقاموا بمعاينة الجُثث وأرسلوا بدورهم أيضًا رسالةً للأمم المتّحدة يصفون الوضع في عيلبون، طلب منّي الخوري بعدها أن ندفن الشهداء، دفنتُهم أنا وبعض الشباب من القرى المجاورة.

...

تنهّد قليلًا ثمّ وقف وقال بعد أن سلّمتُه الرسالة، وقرأها:

أبي الخوري مرقص يطلب منّي أن أرسل رسائلَ عدّة إلى كافّة الجهات ومنها الأمم المتّحدة، أحدّثُهم عن مجزرة القرية وطرْدهم لنا، ويطلب منّي أن أطلب منهم الضغط على الصهاينة لنعود إلى عيلبون، ويحذّرُني بأن لا أقع في فخّ طائفيّتهم التي يريدون إسقاطها علينا، يأمرني بأن لا نعود إلا وعائلة المواسي معنا، فلسنا طوائفَ إنّما نحن مجتمعٌ واحدٌ كالبنيان المرصوص فإياكم وخِدَعُهم، فإن لم يعُد كلّ أهل القرية ومَن ساكنهم فلا تعُد.

بدأ ابنُ الخوري وابن عمّه في إرسال الرسائل إلى كلّ الجهات طالبين بأن يضغطوا على الصهاينة لكي يعودوا إلى أراضيهم.

كان الوقتُ قد تجاوز العصرَ عندما أرسل لي الخوري أن أزوره في بيته.

عندما وصلتُ كان كلّ الباقين في القرية قد اجتمعوا، قال الخوري: لقد استطعنا أن

نُجبر الصهاينة على القبول بعودة أهالي عيلبون إلى القرية، حمل أحدُهم من دير حنا رسالةً إلى لبنان ليوصلها إلى الأهل هناك بأن يعودوا إلا أنّه عاد بعد يومين وبعد أن أخذ ٤٠ جنيهًا ليقول لي أنّه لم يجد أحدًا من عيلبون، ما العمل؟

علمتُ بأنه لا بدّ لأحدنا أن يفعل هذا، تشجّعتُ وقلت: أنا سأذهب يا أبونا. قال لي: يا بطرس أنت ما زلتَ مُصابًا، وهل تعرف الطريق إلى لبنان؟ أجبتُه: سأوكلها إلى الرب، علمًا أنّي لم أتجاوز قرية المغار إلى ذلك الوقت أبدًا. أعددْتُ عُدّتي وتجهّزتُ قبل طلوع الفجر بساعة وانطلقتُ شمالًا، قابلتُ بعضًا من الناس فسألتُهم إلى لأين هم متوجّهون، أخبروني أن وجهتهم هي نفس وجهتي، فرافقتُهم إلى أن وصلتُ إلى مخيّم المية مية.

كان لقاءً حميميًا، الأسئلةُ تتوالى وتتكاثر، كلٌّ يريد أن يطمئنّ على الأخبار وعلى أقاربهم وعلى أراضيهم.

ران الصمتُ بعد أن قال لهم ابن الخوري بأن يصمتوا لكي نسمع ما يحمل من أخبار، وقفْتُ وما أن قلتُ: "سُمِح لنا بالعودة".حتّى دبّ الفرحُ والبكاء وصرخات الشكر والمناجاة لكلّ ما يؤمنون به.

قطع ذلك المشهد قول أحد كبار السن: "بس يا جماعة في مشكلة"، سكت الجميع لكي يُكمل حديثه فقال: "عائلة المواسي لها نصيبٌ من دم الصهاينة وهم من المغضوب عليهم وأعمامك الاثنين يا فارس من المطلوبين للصهاينة، ولن نعود إلا جميعًا، لن نترُك أحدًا خلفنا من القرية، وهناك منهم اثنان مطلوبان للصهاينة، فماذا سنفعل؟" الحيرةُ بدت على مُحيّا الجميع إلى أن قال أحدهم مازحًا: "وشو يعني؟ هو اليهود اللي ولدوهم وحافظين أشكالهم؟ القصة بسيطة بنغيّر بس اسم عيلة المواسي لاسم آخر".

وقف فارس ذيب المواسي وقال: " نعم صحيح، سنُغيّر اسم العائلة إلى شواهدة"، وهذا ما حدث.

بدأت العودة، في الصباح التالي انطلق بطرس مع ١٧ فردًا من القرية عائدًا إلى عيلبون، وصلوا إلى مدخل القرية الشرقي، انسلّ بطرس متوجّهًا إلى الخوري وأخبره بما حدث.

بعد عدّة أيام انطلق باقي أهل القرية في رحلة العودة من صيدا إلى عيلبون، كلّ أهالي القرية في قافلة العودة ويرافقهم البدو من المواسي، وصلوا إلى مداخل القرية، بدأ

حاجزٌ عسكريٌّ بالتأكّد من هوياتهم، فقد عرفوا أحد أعمام فارس وقال الجندي: ومنذُ متى كان هناك مسلمون في عيلبون؟

أحد شباب القرية لم يُمهله كثيرًا حتّى أجابه: ومنذُ متى الأغراب يقسمون بيننا الورثة؟ ومن كلّفك لتسأل عن دين فلان وعلنتان؟ هذا أسلوب كلّ الغزاة "فرّق تَسُد"، تريدون تقسيمنا لمسلمين ومسيحيين ودروز وبدو وأرمن وشكرس ووو. أجاب الضابط: أنتم تعودون هم لا.

ردّ عليه الشابُّ بحدّةٍ وقد اجتمعت كلُّ القافلة واجتمع أهلُ القرية ممّن عادوا وجاء الخوري مرقص: لا يوجد نحن وهم، نحن نحن وكفى، فإمّا أن نعود نحن أو لا نعود. ضجّ الجمع، الصيحاتُ تتعالى، الكلّ يؤكّدُ على كلام الشاب، خاف الجُند، خمدت فتنتُهم الطائفية وعاد الكلّ.

عاد الكلّ ليجدوا أن بيوتهم قد نُهبت وحيواناتهم قد سُرقت، ومزروعاتهم قد سُلبت، لم يَطُل الأمر أبدًا حتّى جاء سكّان القرى المحيطة بالعونة بالطعام والغذاء والملابس جاؤوا من دير حنا وعرّابة، كخلية النّحل الكل يعملُ لإعادة بناء ما تهدّم من قصف البيوت وتفجيرها، الكلّ يعملُ لإعادة زرع المزروعات واستنهاض الأرض وخيراتها.

خرج في ٣٠ تشرين أول ١٩٤٨م (٦٧٠) شخصًا من سكّان عيلبون متّجهين شمالًا، بعد سبعين يومًا وعلى أثر موقف الخوري وابنه وأهالي القرية عاد إلى عيلبون والقُرى المحيطة أكثر من ٤٠٠٠ فلسطينيّ.

لا تكن مع الاحتلال ضدّهن

أيار ٢٠١٢

أحاديثُ تلاحقك حيثُما ذهبت؛ في المقاهي، السيارات، في انتظارك عند طبيب الأسنان، صباحًا وأنتَ تُلقي التحية على عامل النظافة، تسمعُها ساخرةً ممّن يُناولك علبة السجائر في البقالة، في استراحة شرب القهوة في مكان العمل، على طاولة العشاء، من زميلك أيام الدراسة الذي فاقت ثروتُه المليون خلال سنتين، يُلقيها على مسمعِك المريض وأنت تقدّم له مستعجلًا دواء ضعفِه الجنسيّ.

تقرأ في الفيسبوك، التويتر، في الصُّحف، ومواقع الإنترنت والمدوّنات، بالفصحى أو العاميّة المُمتلئة بالأخطاء الإملائية، وبالحروف الإنجليزية أحيانًا.

في الإعلان التجاري عند حاجز قلنديا، في ثورة البناء العقاري في قلب مدنٍ ممسوخة، في لوحةِ إعلانٍ (بالعبرية) لمرآب تصليح السيارات، في قائمة الطعام في مطعمك المفضّل وفي عينَي مسؤولٍ مُصابٍ بعقدة ستوكهولم.

أحاديث وأقوال، تلميحاتٌ وكتابات، كلّها تسخر وتحقّر وتبخّس عمل وشخوص النشطاء ضدّ الاحتلال والفساد السياسيّ، لكن هذا كلّه عالم، والتحقير الساخر من نشاط الإناث، عالمٌ آخر يوازيه.

في الأيام الأولى لإضراب الأسرى عن الطعام، تسلّقت فتاةٌ مركبةً عسكريةً إسرائيليةً لتفريق المظاهرات (بوئيش)، قاذفةً للمياه ذات الرائحة الكريهة. وغير الاعتداء الجسديّ الذي تعرّضت إليه، الفتاة ورفيقاتها، والأسلحة الكيماوية لتفريق المظاهرات وغيرها من أشكال التنكيل، تعرّضوا أيضًا لسيلٍ هائلٍ من التعليقات المستفزّة من قبل أبناء شعبهنّ.

في ذات السياق، انتشرت صورٌ لصبايا يرشُقْن الجيش بالحجارة عند سجن عوفر، فاشتعلت على أثر هذه التعليقات موجة نقاشات (وكعادتنا، يتحوّل النقاش إلى السباب والشتم) واستفزّتني تصريحاتُ بعض النشطاء أكثر ممّا استفزتني التعليقات المسيئة.

...

تنشأُ عند أبناء المجتمعات المقهورة، والواقعة تحت الاستعمار خاصّةً، علاقة ازدراءٍ ضمنيّةٌ للذات والآخر (داخل المجتمع) فتُصَبُّ على غيرهم من أفراد المجتمع، حيث يعكسون العار والمأساة ضمن منهجية.

عندما يجاهر المقهور بمقولاتٍ مُسيئة لغيره من الواقعين تحت القهر ذاته، إنّما هو يعبّر عن مدى شعوره بالضعف والدونية والذنب، وذلك من أجل الحصول على توازنٍ نفسيٍّ والتخلّص ممّا يحيط به من توترٍ وانفعال.

ويمرّ المقهور في ثلاث مراحل حسبما يعرضها مصطفى حجازي:

أولًا، مرحلة الرضوخ والقهر؛ حيث تدومُ هذه المرحلة لفترةٍ طويلةٍ نسبيًا، ويشكّل زمن الرضوخ والاستكانة -الفترة المظلمة- في تاريخ المجتمع عصر انحطاطٍ تكون فيه قوى التسلُّط الخارجي -الاستعمار- والتسلُّط الداخلي -سلطة أوسلو مثلًا- في أوج سطوتها، فيكرهُ الإنسان ذاته ويوجّه عدوانيّته تجاه نفسه ومن يقبع تحت ذات مستوى القهر، ثمّ يُزيح هذه العدوانية ليمارسها تجاه الأضعف منه، وفي حالتنا الاجتماعية تمثّلُ المرأة رمزًا للضعف، وتصبحُ أكثر من تُصبُّ عليه عدوانية القول والفعل.

ثانيًا، الاضطهاد؛ يُحوّل الإنسان حالة الغليان العدوانية التي كانت موجّهةً ضدّه إلى الآخرين بعد عدم تمكّنه من كبتها أو التخلّص منها، ويبحث عن مخطئٍ ليُحمّله وزر ذلك الشعور؛ ليتخلّص من عقدة الذنب والدونية والعار، واضطراب الديمومة -أي عدم قدرة الإنسان على التمكّن من قوى المكان والزمان، وبالتالي فقدان سيطرته على مصيره- لتخفيف التوتّرات الداخلية في نفسه.

ثالثًا، الانتفاضُ والتمرّد؛ حيثُ يسعى المقهور للتخلّص من كلّ هذه العُقَد عبر الانتفاض والرفض ومواجهة المُتسلّط والقهر، عبر الكفاح المُسلّح أو المقاومة غير العنيفة.

...

الوعي، كما يعرّفه علماء النفس -حالةٌ عقليةٌ يتميّز بها الإنسان بملكات المحاكمة المنطقية، الذاتية، الإدراك الذاتي، الحالة الشعورية، الحكمة/العقلانية، القدرة على الإدراك الحسّي للعلاقة بين كيانه الشخصي والمُحيط الطبيعي به. بالمُحصّلة، إنّ الوعي هو ما يكون لدى الإنسان من أفكارٍ ووُجهات نظر ومفاهيم عن الحياة والطبيعة حوله.

أمّا الوعي الزائف، فهو أن تكون أفكارُ الإنسان ووجهات نظره ومفاهيمه غيرَ متطابقةٍ مع الواقع، أو غيرَ واقعيّةٍ وتقتصر على جانبٍ معيّن.

إلا أنّني أميل جدًا إلى تعريف الصديق خالد بركان للوعي: ليس بمقدار القراءة والكتابة وحفظ المعلومات بقدر ما هو الالتزام بالمسؤولية الفردية في الانحياز المُطلق للحقّ والأفكار النبيلة والالتزام بقضايا وحقوق البشر والدفاع عنها.

عانى مجتمعُنا من سياسات تجهيلٍ وصهرٍ وكيٍّ للوعي الفردي والجمعيّ مدّة سنواتٍ طويلة، وتمّ استبدالُه بوعي زائف ساهمت إجراءاتُ الاحتلال مساهمةً كبرى في سبيل ترسيخ هذه الأفكار، ولا ننكر مسؤولية السُّلطة والإعلام المُتواطئ وأشباه المثقفين والكتاب ومؤسّسات المجتمع المدني التابعة لمنظومة التمويل الخارجي، ولم يحظَ المواطن الفلسطيني على حقّه الكامل في صياغة وعيه السليم، فيولد ويعيش ويموت في ظروفٍ غير طبيعية، فكيف نطلب منه مواقف طبيعية؟

...

يقسم مصطفى حجازي الخصائص الذهنية المتخلّفة للمقهورين على النحو التالي:
أولًا، الخصائص الذهنية المنهجية: وتتميّز باضطراب منهجية التفكير من جهة وقصورٍ للفكر الجدليّ من جهةٍ أخرى، ويتجلّى اضطراب منهجية التفكير بما يُعانيه الذهن المقهور من قصور الفكر النقدي، فهناك عجزٌ في الجمع في سياقٍ واحدٍ بين الأوجه الموجبة والسالبة (المتضادّات)، ويعجز عن الذهاب بعيدًا في تحليل الأمور لأنه لا يدرك أنّ لكلّ ظاهرةٍ مستوياتٌ من العمق ويكتفي بالمستويات السطحية التي تشكّلُ عادةً قناعًا يُخفي الحقيقة، ويطلق أحكامًا قطعيةً نهائيةً بشكلٍ مُضلّل. أمّا ضعفُ الفكر الجدليّ فهو لبُّ الذهنية المقهورة فهي جامدةٌ قطعيةٌ أحادية الجانب تخفق في إدراك الترابط والتفاعل بين الظواهر وما ينتج عنها من حركية وتغيير.

الخصائص الذهنية الانفعالية: طغيان الانفعالات وما يُرافقها من نكوص على مستوى العقلانية ظاهرةٌ مألوفةٌ في الأزمات، ولكنّها عند المقهور تكاد تكون هي الأسلوب الأساسي ويعيشُ في حالة من التوتر الانفعالي ممّا يمنعُ من التصدّي العقلاني الموضوعيّ للمشكلات والأزمات الحياتية.

توضّحُ الخصائص الذهنية للمقهورين طريقة التفكير والنقد والجدل، وتُعطينا لمحةً

قويةً عن كيفية النقاش الذي يحدُث وعدم تمركُزه حول الموضوع والتشتّت وطبيعة الاستنتاجات الغريبة أحيانًا.

...

تُسَفَّل المرأة في أدوار الرضوخ تبعًا لواقعها، فمن الرضوخ للأب والأخ، ثم للزوج، ويُنظَر لها على أنها ذلك الكائن الضعيف الجاهل القاصر العاجز الذي يحتاج إلى وصيٍّ وحماية.

يتمُّ استلابها أشدّ استلاب، بدايةً بالاستلاب العقائدي لدورها بالمجتمع، وإقناعها بواقعها المُعاش ودفعها نحو تذويت القهر والحطّ من دورها وقدراتها ووظيفتها، ثم يأتي الاستلاب الاقتصادي بحيثُ تُحاصر اقتصاديًا وتُمنَع من الإنتاج الذاتيّ الفرديّ المستقلّ عن الذكر لضمان عدم قدرتها على التحرُّر من اضطهادها، ثمّ استلابًا جنسيًا، لتتحوّل إلى وعاءٍ لإشباع الرغبات الجنسية والنفسية للذكر ووعاءٍ حاضنٍ للإنجاب، وتغيب في هذه التركيبة المساواة بين الذاتية والغيرية من الذكر خوفًا من بروز الحسّ الإنساني الذي يتهدّدُ نرجسية و"إيجو" الذكر، فيُمارس عليها ما يمارسه عليه المُتسلّط.

أولًا، عقدة النقص والدونية؛ وهي الشعور بالتسفيل وتحقير الذات وعدم إنسانية الشخص ومدى الضعف والجهل مقارنةً بالمُتسلّط القويّ الجميل المنتج المتحضّر.

ثانيًا، عقدة العار؛ عندما يبدأ المقهور بالشعور بواقعه الفعليّ يعيشُ شعورًا مليئًا بالعار، ولا يستطيع أن يتحمّل ذلك الواقع فيقوم بإسقاط وإزاحة ذلك العار على الآخر المُشابه له.

ثالثًا، عقدة اضطراب الديمومة؛ يستحضر المقهور هنا كلّ تجارب الماضي ويعيش في خوف مستمرٍّ من أن يطاله تسلُّط وإجراءات المتسلّط، فيميل إلى الانعزال (امشِ الحيط الحيط) أو إلى التماهي مع المُحتلّ.

كلّ هذه العقد تُعكس فعليًا وتُصبّ على المرأة بحيث يقوم الذكر بتصوير المرأة على أنّها هي العار ويختصر معنى الشرف والكرامة في عضو جنسيٍّ بين الفخذين، فتتغيّر المفاهيم والقيم والأحكام، ويظلّ شاعرًا بالتهديد المستمرّ لشرفه المزعوم الذي تمثّله تلك المرأة، فيحاصرُها ويغلق عليها ويمنع حرّيتها، خوفه الأبديّ من الفضيحة وسعيًا وراء النمط الاجتماعي المُناسب واللائق، فأكثر ما يستفزّ المقهورين ويهدّدُهم هو تصرُّفٌ يجرح ذلك الشكل الاجتماعي الزائف الذي يستعمله كغطاءٍ لعاره وضعفه بغياب كرامته.

لذلك عندما تقوم فتاةٌ ما بصفع ذلك الجنديّ أو تتجرّأ على فعلٍ لا يتجرّأ الذكر عليه، يقوم الذكر بقياس ذلك على نفسه وعدم قدرته على الفعل ذاته، ويقارن خُضوعه أمام ذلك الجندي بانتفاض تلك الفتاة فيشعُر بالخِزي ممّا يدفعه لاستحضار كلّ الإسقاطات السلبية عليها.

...

ومع هذا، يجبُ مراعاة الرأي العام وكسبه وعدم مُعاداته نهائيًا، فإن كنت تؤمن بالعنف الثوري والكفاح المُسلّح كطريقٍ للوصول إلى الانعتاق، أودُّ أن أذكّرك بأنّ فرانز فانون أشهر مُنظّري العنف الثوري قام بترتيب مراحل العمل الثوري واضعًا مرحلة كسب العقول والقلوب بعد تحديد الهدف والاستعداد.

"هي من المراحل الأكثر أهميةً لإنجاح أو فشل أيّة حركات إذ إنّ التحرُّر لا يتمّ إلا من خلال النُّخب قليلةِ العدد (أنتم) ومن هنا تأتي الحاجةُ إلى جماهير تُوفّر للحركة الدّعم والأفراد والموارد والاستمرارية ولذا فإنّ عملية إقناع الجمهور بالثورة وكسب تأييد ودعم ومشاركة المجتمع لا يتمُّ بسهولة، وعليه فأن يستخدم القادة عوامل وتقنياتٍ في توظيف الجماهير مثل الطاعة والإقناع والعدوى والتكرار والتاكيد والنرجسيات الجماعية وتأليفها واختلاقِها وتوظيف الدين في التحرُّك واللّجوء إلى التبرير والعوامل النفسية الأخرى في إقناع الجمهور."[1]

وإن كنتَ من المؤمنين باللاعنف الذي يُعتَبرُ جين شارب وغاندي من أشهر منظّريه، فقد اعتمد المذكوران في وضع مراحل التحرُّر عبر اللاعنف على نظرية العالم النفسي جان ماري موللر الذي يقول: "وفي نفس الوقت يكونُ هناك بناءٌ للقدرات والتطوير الذاتيّ مثل مدارس بديلة ومؤسّسات بديلة وإعداد للكوادر، وطرق التدخّل وتوزيع الأدوار أثناء التدخُّل وهنا يحصُل القمع من قبل الطرف الآخر فتتوسّعُ قاعدتهم الجماهيرية ويكسبون الرأي العام"، ويُضيف: "قد يكون الرأي العامّ المحليّ أو الرأي العامّ الوطني أو الرأي العامّ الدولي حسب طبيعة الصراع."[2]

حاولتُ أن أجمع وأصنّف وأحلّل أسباب مثل هذه التعليقات والتصرّفات، وأيقنتُ أنّ الاحتلال له الدورُ الأكبر عن طريق ممارساته وإجراءاته إضافةً لوكلائه من المُتسلّطين الداخليين وأشباه المُثقفين.

وأعتقدُ أنّ كثيرًا من الناس ممّن لم يصرّحوا بمثل هذه الأقوال إنّما يحملونها في عقولهم لكن لم تكن عندهم الجرأةُ الكافيةُ ولا التوتّرُ الانفعاليّ اللازم ليصرّح بها. لن أبرّر ولكن سأتفهّمُ وأحاولُ معرفة كيفية مواجهة هذه الظاهرة في المجتمع واضعًا بين عينيَّ استنتاجًا مُهمًا (هم ضحايا فلا تكن مع الاحتلال عليهنّ).

فلا يجوزُ وليس من اللائق ممّن وضعوا على أنفسهم الالتزام الأخلاقيّ بالدفاع عن الوطن والمُجتمع لتحرير الأرض والعقل إشعارُ الناس بدونيّتِهم والتبخيس فيهم مهما خرج منهم ما يُسيءُ بك، فإن لم تتفهّم عقليات الناس وسلوكيّاتهم وأنت لا تملكُ الآن سلطةً عليهم فأنا على يقينٍ بأنّنا سنستبدلُ متسلّطًا بمتسلّطٍ آخر.

وأقترحُ بعض الأفكار التي قد تصحُّ كمادةٍ للتفكير نحو إيجاد الحلول:

١. حرِّر عقلك من كلّ هذه العقد التي سبق ذكرها.

٢. راعِ ثقافة المُجتمع و لا تُعاديها.

٣. تعامل مع المحيط بواقعية وحاول المحافظة على الاتزان الانفعالي.

٤. عرّفهم حقوقهم وواجباتهم.

٥. عرفهم قدراتهم الذاتية، وتقدير الفروقات الفردية.

٦. لا تناقشهم؛ فقصورُ الفكر الجدليّ سيّد الموقف، بل استخدم أسلوب سقراط في الطرح والسؤال.

٧. حوّل كل ذلك الغضب باتّجاه الاحتلال.

٨. لا تُبالغ بالشكوى والتذمّر.

٩. لا تصبح مغناطيسًا للأفكار السيئة لأنك ستُفسّر كلّ ما يحدث بطريقةٍ سلبية.

١٠. ساهم في تغيير هذه القناعات والقضاء على الوعي الزائف.

الهوامش:

[1] فرانز فانون، المعذبون في الأرض.

[2] جان ماري موللر، استراتيجية العمل اللاعنفي.

حلّوها وأسقطوهم

كانون الأول ٢٠١٢

كنتُ أحاول أن أبدأ كتابة مقالٍ حول (لماذا يجبُ حلّ السِلطة) في تلك اللحظات أرسل إليّ أحدُ الأصدقاء برنامج مؤتمر هرتسيليا لهذا العام لأُفاجَأ أنّ السيد صائب عريقات سيُحاضر بالمؤتمر وكذلك الأمير الحسن، فقرّرتُ تغيير المقال إلى (حلّوها وأسقطوهم) نعم لماذا نحلُّها ونسقِطُهم؟

١. الحركيون: عُقب اندلاع الثورة الجزائرية انضمّ العديد من (أبناء) الجزائر (أقلّ تقدير ١٥٠ ألف شخص) إلى الجيش الفرنسيّ والبوليس السرّيّ وحاربوا ضدّ الثورةً ولهم حصّةً كبيرةً من دماء المليون شهيد، أغلبُ هؤلاء هم من الطبقة التي ارتبطت مصالحُها بوجود الاحتلال الفرنسي.

المتتبّعُ لما يحدث في فلسطين يستطيع أن يرى وبشكلٍ واضح نفس السمات والأوضاع لما كانت عليه الجزائر قبل الثورة بوقتٍ قصير، فليس سرًّا على أحد أنّ هناك طبقةً من الكومبرادورات التي ترتبطُ مصالحُها بشكلٍ مباشرٍ مع وجود الاحتلال، وليس سرًّا أنّ الوضع الحالي يمنحُ شريحةً صغيرةً من المجتمع امتيازاتٍ هائلة، فلنتجنّب حمل السلاح في وجوه بعضنا حلّوها وأسقِطوهم.

٢. الدولة مقتل الثورة: اختلف جيفارا وفيدل كاسترو عُقب نجاح الثورة الكوبية على هذه الجدلية، فكانت وُجهة نظر جيفارا أنّه من الضرورة تحرُّر الثوار من عبء الدولة ليستطيعوا تصدير الثورة في حين خالفه كاسترو، لكنّ ما حدث أنّ جيفارا أصاب وكاسترو أخطأ.

هذا الكلام عن دولةٍ كاملة الشروط فكيف بنصف دولة، تستطيع أن تُلاحظ أنّ رأي جيفارا انطبق علَى الحالة الفلسطينية أيضًا، بعد أوسلو أصبح عبء مهمّات وواجبات الدولة على ظهر الثورة وعلى حساب التحرير، وبعد الهروب الصهيوني من غزة وانخراط حماس في السلطة أصبحت مُقيّدةً بهدنة تتجدّد دائمًا لما يقع على عاتقها من مسؤولياتٍ وواجبات، لنتخلّص من هذا العبء حلّوها وأسقِطوهم.

٣. الفساد: حدّث ولا حرج، لكن ما سأتحدّث عنه فقط الفساد السياسي، حيث أن هذا الفساد الأكثر انتشارًا وتفشّيًا ستجده أينما ولّيت وجهك، من قمّة الهرم إلى أدناه، من رأس السُّلطة إلى التشريعي إلى الوطنيّ مرورًا بالأحزاب والفصائل ومؤسّسات المنظّمة والمنظمات الشعبية والتشكيلات النقابية كلّهم انتهت شرعيّتهم وعلينا الانتظار حسب القانون الأساسيّ لانتخاب بديلٍ فأصبحنا رهائن لغضب حماس من صخر حبش لسبّه الدين وغضب صخر حبش لتأخيره نصف ساعة. وعندما أجمعوا على أمرٍ جرّدوا ٤١,٨٪ من تعداد اللاجئين (حسب إحصائيات وكالة الغوث ٢٠٠٨م) حقّهم في انتخاب ممثّلين لهم في المجلس الوطني للحفاظ على استقرار العرش الهاشميّ وأسقطوا ١,٤ مليون فلسطينيّ من فلسطينيي الداخل من على جداول أعمالهم، فكيف يُداويها من كان هو الداء، لإنهاء الفساد حلّوها وأسقِطوهم.

٤. مقاول من الباطن: أفرزت اتفاقية أوسلو نقلَ كاملِ الأعباء التي يتحمّلها الاحتلال وكافّة الالتزامات إلى المنظّمة بدون أخذ أيّ نوعٍ من أنواع الحقوق وجعلوه أرخص احتلالٍ في التاريخ، لنتخلّص من هذه الأعباء حلّوها وأسقِطوهم.

٥. ثقافة أوسلو: عندما أسمعُ القصص التي يتناقلُها من هم أكبر منّي عُمرًا عن ثقافة المجتمع الفلسطيني وأخلاقه أثناء الانتفاضة الأولى أُصاب بصدمة حقيقية وكأنّهم يتحدّثون عن عالمٍ آخر، عندما أرى هذا المجتمع الذي تُسيطر عليه حُمّى الاستهلاك وثقافة الخلاص الفرديّ وانحطاط القيم والأخلاق وتفشّي الشعور بالدونية وترسُّخ العقل الكولونيالي والانضمام للفصائل أصبح لجنْي الثمار وليس لتقديم التضحية والنضال، أدرك أنّ الحلّ للتخلّص من هذا العار هو حلّوها وأسقِطوهم.

٦. التنسيق الأمني: لا أستطيعُ أن أقول أنّي أعرف ما هو التنسيق الأمني لأني لم أقرأ أيّ وثيقة رسمية تصفُ ما الذي يحدُث في اجتماعاتهم (يخالفُ مبدأً من أهمّ مبادئ الحُكم الرشيد ألا وهو الشفافية) لكن يكفيني الاستشهاد بمقال الأخ عيسى قراقع المشهور بمقال الأرانب، لإسقاط التنسيق الأمني حلّوها وأسقِطوهم.

٧. الاستجداء: أصبحنا نستجدي "اللي بيِسْوى واللّي ما بيسوى" بعدما كانت كلّ الدول

العربية تدفع مخصّصات وتبرّعات هائلة للمنظّمة والدول الكبرى تدفع "خاوة" لتتّقي شرّ الثوريين، ممّا أثّر على القرار الفلسطيني المُستقلّ الذي ناضل عرفات طوال حياته لحماية هذا القرار ولم يخضع، لإسقاط الاستجداء حلّوها وأسقِطوهم.

٨. شرعنة العصابات: بعد أوسلو أعطوهم شرعية الوجود على أرضنا وانتظِروا الأفظع قريبًا فربّما سيُصبح الحلم بعكّا مخالفًا للقانون، اقتناءُ (عائد إلى حيفا) يناهضُ سياسة الدولة، حصان محمود درويش الذي تُرك وحيدًا سيُصبح مهاجرًا غيرَ شرعيّ، وما زلتُ أستغرب إصرار أبو مازن على أنّه لا يريد سحب الشرعية عن (إسرائيل)، وما أستغربُه أكثر فلسفته الاعتذارية عن نضالات شعبنا، لإسقاط شرعية اللّقطاء حلّوها وأسقِطوهم.

ولكي أستطيع حصرَ كلّ ما يدعو لحلّها وإسقاطِهم أحتاجُ السنين العشرين من عمر المُفاوضات وعدد كلمات صائب عريقات من على منبر مؤتمر هيرتسل، لكن تكفي هذه النقاطُ الثمانية لإعداد لائحة اتّهام لمن يجب إسقاطُهم. سنُصبح نحن يهود التاريخ ونعوي في الصحراء بلا مأوى إن بقيَت حالتُنا هذي الحال بين حكومات الكسبة.

الشعب يريد مجلسًا وطنيًا جديدًا

٢٠١٣/٠٣/٣٠

منذ عدّة شهورٍ طلب مني أحدُ الأصدقاء أن أكتب مقالًا قصيرًا أدعو الناس فيه للتسجيل في حملة انتخابات المجلس الوطني. في ذلك الوقت صُدمت، ماذا سأكتب؟ ماذا أعرف؟ وماذا أجهل؟ عكفتُ بعض الوقت للبحث والتقصّي عن الموضوع أكثر، وكنتُ في البدء أعاني من نقص معرفيٍّ كبير حول المجلس الوطني وانتخاباته، إلا أنّ حيرتي ازدادت وأسئلتي تراكمت بعد أن عرفتُ أكثر، فقرّرتُ التهرّبُ من صديقي واتّبعتُ المثل القائل: "إن قدرت تغيب غيب وإن حضرت ابقى زلمة طيب".

وكان قبل هذا أن بُحّ صوتي كما بُحّت أصوات الكثير من الشباب والشابات ونحن نهتف: "الشعب يريد مجلسًا وطنيًا جديدًا". في هذه الأيام تتمُّ العودة من جديدٍ للعمل على نشر دعوة التسجيل لانتخابات المجلس الوطني، وأقرّ بأنّ بدء الحملة من مخيّمات سوريا لهوَ صفعةٌ قويةٌ لمن اتفقوا على أن يستبعدوا اللاجئين في الأردن وسوريا ولبنان وكذلك فلسطينيي الداخل. لكن وفق ماذا سنتوجه لهذه الانتخابات؟ وعلى أيّ أرضيةٍ نقف؟ وإلى ماذا نستند؟ هل نتوجّهُ لها وفق التزامات منظمة التحرير؟ أم وفق الميثاق المشوّه؟ أم وفق القرارات الدولية؟ أم وفق المحاصصة بين الفصائل؟ أم وفق القوائم الهزيلة والتي وإن أحصيتُ عدد أتباع ١٢ قائمة، فهو لن يتجاوز عدد سكان قريتي؟ أو بما يخدمُ مصالح الكومبرادورات وهوامير المال والأعمال؟

الميثاق الوطني الفلسطيني

صدر أولُ ميثاقٍ فلسطينيٍّ في ٢٨ أيار ١٩٦٤م وسُمّي بالميثاق القومي الفلسطيني، وتبعه في ١٠ تموز ١٩٦٨م الميثاق الوطني الفلسطيني، ثم جاء ١٤ كانون الأول ١٩٩٨م ليتمّ تعديلُ الميثاق الوطني لإنهاء التناقض ما بين الميثاق والتزامات المنظمة، وتمّ التصويت عليه في حضور الرئيس كلينتون، ولعيون كلينتون بتهون مرج عيون.

يتكوّن الميثاق الوطني الفلسطيني لعام ١٩٦٨م من ٣٢ مادة وفي التعديل لعام ١٩٩٨م تمّ "تعديل الميثاق الوطني وإلغاء المواد التي تتعارض مع الرسائل المتبادلة بين منظمة

التحرير الفلسطينية وحكومة إسرائيل يومي ٩ و١٠ سبتمبر (أيلول) ١٩٩٣م".

وجاء الأمر بأن تمّ شطب ١٢ بندًا، وهي البنود التي تتحدّث عن الكفاح المسلح ورفض وعد بلفور ورفض التقسيم ورفض أيّة حلول بديلة عن تحرير كامل فلسطين، وإدانة الصهيونية واعتبارها عنصريةً ومرتبطةً بالمشروع الإمبريالي ارتباطًا عُضويًا، والمطالبة باعتبارها حركةً غير مشروعة وتحريم وجودها وتجريم نشاطها، واعتبار إسرائيل خطرًا على السلام العالمي. كلّ ذلك تمّ إلغاؤه.

وتمّ حذف مقاطع وتعديل ١٦ بندًا، وهي البنود التي جاء فيها تعريف فلسطين وحدودها وتعريف الفلسطيني، وصاحب الحقّ الشرعي في فلسطين والشعارات الثلاثة، والعلاقة بين تحرير فلسطين والوحدة العربية، وواجب العرب تجاه فلسطين، والتأكيد على الحقوق الدينية لجميع الأديان وحرية العبادة، وماهية عملية التحرير كعملٍ دفاعيٍّ ودور المنظمة، وأخيرًا البنود التي ترفضُ الوصاية والتبعية والتي تؤكّد على استقلالية الثورة.

أما البنود التي لم يتمّ حذفها أو شطبٌ أو تعديلُ مقاطع منها فهي: البند ٢٤ ولم يتمّ تعديله أو حذفه لأنّه يتناسب مع المبرّر الاستعماري الجديد، والبند ٢٨ والذي تمّ الحفاظُ عليه للجّم كلّ من تسوّل له نفسه أن يكون فلسطينيًا أكثر من الفلسطينيين -المُعاد تعريفهم- وأن يرفض الاتفاقيات، والبند ٣١ لأنه غير ذي أهميةٍ لطابعه الشكلي وحديثه عن النظام الأساسي، والبند ٣٢ وهو البند الذي شرّع التشويه للميثاق والذي ينصُّ على أنّ أكثرية ثلثي المجلس الوطني لهم الحق في تعديل الميثاق.

القرارات الدولية

اعترفت منظمة التحرير عبر المجلس الوطني في ١٥ تشرين الثاني ١٩٨٨م بالقرار ٢٤٢ وأكدوا في تاريخ لاحق على القرار ٣٨٣ الذي يدعو لتطبيق القرار السابق واعتبار القرار ٢٤٢ هو المرجعيةَ لحلّ القضية الفلسطينية ويدعو القرار إلى "انسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضي التي احتُلّت في النزاع الأخير" -ننوّه لوجود اختلاف في الترجمة بين النسخة الإنجليزية والفرنسية لكلمة الأراضي وأراض- واحترام سيادة دول المنطقة على أراضيها، وحلّ مشكلة اللاجئين- وهذا يختلف مع القرار ١٩٤ الذي ينصّ على حق اللاجئين بالعودة وليس مطالبةً بحلّ "مشكلتهم"- وإقرار مبادئ سلامٍ عادلٍ وشاملٍ في المنطقة.

التزامات المنظمة

التزمت منظمة التحرير بعدة التزامات أوّلها القرار ٢٤٢ السابق ذكره، ثم مراسلات عرفات رابين والتي تمّ الاعتراف فيها بـ"إسرائيل" ثم اتبعوه باتفاقية أوسلو، ثم اتفاقية القاهرة عام ٩٤ والتي حدّدت الخرائط المتعلقة بالاتفاقية السابقة، ثم اتفاقية تقسيم الخليل، وأتبعت باتفاقية شرم الشيخ عام ٩٦ والتي تتعلّق بالتصدي المشترك للعمل المسلح تحت مسمّى محاربة الإرهاب، فإقرارُ المبادرة العربية، فخارطة الطريق و اتفاقية معبر رفح التي ربطت المعبر بالهيمنة الصهيونية، فتفاهُمات أنابوليس التي صنعت الفلسطينيين الجُدد على يد دايتون، وأخيرًا شروط الرباعية بالاعتراف بإسرائيل ونبذ العنف والتقيّد بالالتزامات السابقة.

قانون انتخابات المجلس الوطني

تتوزّع مقاعد المجلس الحالي على ١٩ قائمةً حزبيةً ومستقلين وعسكريين وعلى ١٣ قائمةً للاتحادات والنقابات. وتشير مسودّة لقاءات المصالحة في القاهرة إلى أنّ "أيّ اتفاقٍ في هذا الشأن لا بدّ أن يتم بالتراضي، وضرورة تمثيل جميع القوى والفصائل الفلسطينية في المنظمة، وفقًا لاتفاق القاهرة المنعقد في مارس ٢٠٠٥م، والفقرة الثانية من وثيقة الوفاق الوطني التي تمّ التوصّل إليها في يونيو ٢٠٠٦".

وتوجد خلافاتٌ كما نُشر في ٩ شباط ٢٠١٣م تتعلّقُ بآليات النظام الانتخابي، وعلاقة التشريعي بالوطنيّ، والإشراف على الانتخابات وعدد دوائر الانتخاب ونسبة الحسم. وقد نشر أنّه تم التوصل إلى آلية انتخابٍ وفقًا لمبدأ التمثيل النسبيّ وبالتوافق إذا تعذّر إجراء الانتخابات.

مقالي هذا موجّهٌ إلى من لم يتنازل أو تفتر عزيمتُه أو يجبن أو يتدجّن أو يقبل التشريط أو ينخدع بالتزيين وأتوقّع أن تُطرح ثلاثة أسئلة:

الأول: ما تقوله هو حجّةٌ عليك، فكلّ هذا التنازل تمّ بتواطؤ من أغلبية المجلس الوطني وغياب التمثيل الحقيقي للشعب، فحريٌّ بنا أن نشارك لنمنَع مزيدًا من التنازل ونغير المسار نحو استراتيجية مقاومة ونطرحُ برامجنا وتصوّراتنا لهذا يجب أن نشارك.

في ظلّ هذا الوضع من سيطرة شريحةٍ متنفّذةٍ وقويةٍ ومسيطرةٍ على القرار السياسي

والبنية الاقتصادية، وفي ظلّ سياسات القمع العلني والخفي وسياسات الاحتواء وفساد المنظومة وتغليب المصالح الفردية والفئوية وضعف الفصائل وترهّلها وسيطرة العصبية الحزبية وهجرها للتجديد ناهيك عن وجود الاحتلال والارتباط العضوي للسّلطة بالمشروع الامبريالي وأمواله، كيف لك أن تسيطر وتكتسح المجلس في ظلّ هذا؟!

سنكون كما التيس المستعار نُحلّل الزنا بفلسطين ونصبغُ التنازل بطابع شرعيّ، بربّك كيف لصندوق انتخاب أن يكون له الحق بالتنازل عن شبرٍ في فلسطين، وكما يقول المثل "حارتنا ضيقة وبنعرف بعض" فمن المؤكّد أنّك مطّلعٌ على كيفية حدوث الانتخابات والكولسات التي ترافقها، ماذا لو نجح أحد العملاء؟ ألم يحدث أن نجح خمسة عملاء في انتخابات أحد الأقاليم في فصيلٍ فلسطينيّ؟ ألم يصل راغب النشاشيبي بالانتخابات، ألم يكن في البرلمان الأردني عن الضفة الغربية سماسرة أراض وعملاء، ألم ينجح في التشريعي الأول لصوصٌ وفاسدون وأفاقون، وفي الانتخابات البلدية الأخيرة ألم ينجح بعض وكلاء كبرى الشركات الصهيونية، ألم يهرع بعض رؤساء البلديات للتطبيع؟ وإن خاب ظنّي وتوقعاتي واكتسحتم المجلس أليس لكم من عبرةٍ في اكتساح حماس للتشريعي، أما زلت تؤمن بإمكانية الإصلاح؟ انا لا أؤمن إلا بالتغيير الجذري للنظام الاجتماعي والسياسي.

الثاني: ما تقوله سيؤدّي إلى الإقصاء لبعض الفئات والشرائح؟ نعم أنا مع الإقصاء، من يتنازل عن ٧٨٪ من فلسطين يجب إقصاؤه، من يرتبط بعلاقات مع العدو (المعسكر الاستعماري ككلّ) يجب إقصاؤه، من يحترف فلسفةً اعتذاريةً عن نضالات شعبنا ويحقّرها يجب إقصاؤه، وهل يستقيم الوضع بدون إقصاء هذه الفئة المارقة؟

الثالث: ما الحل؟ الحلّ هنا: أغنية "الويل لكم" لجورج قرمز.

نظرات على الهبّة الشّعبية

٢٠١٤/٠٧/١٥

تسود الضبابية الموقف الآن في الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨م والضّفة فيما يتعلق بأفق تطوّر الأحداث، لكن من المؤكد أنّ أيّ هدوء يصيب الحالة الشّعبية ستتبعُه حالةُ قمعٍ شديدة جدًا من قبل السّلطة الفلسطينية والعدوّ الصّهيوني. إذا وقع الهدوء سيكون هناك جردُ حساب طويلٍ وصعبٌ لكلّ محاولات التمرد في الفترة السّابقة، والأسوأ أنّ المجتمع سيكون قد انكفأ على ذاته مُنتظرًا مدًا ثوريًا جديدًا فلن تنفع كلّ مناشداتكم وقتها ولا دعواتكم. ستتلقون وحيدين كلّ العقاب الذي سيرافقه نوعٌ من الرشوة الجماعية للشعب عبر تسهيل الإجراءات وتخفيف القمع وتقديم الحوافز، هكذا كان يتعامل الاستعمار دائمًا.

لكن كلّ مهتم في الشّأن العامّ لا يملك إلا أن يتفاءل، ففي أسوأ الأحوال نقلتْ الهبّةُ الجماهيرية الحالية الوعيّ الفلسطينيّ نقلةً نوعيّةً. هي تشبه تمامًا هبّة البراق التي أسّست لثورة ١٩٣٦م، وتُشبهُ هبّة النّفق التي أسّست للانتفاضة الثانية. القصد هنا أنّه حتى لو لم تستمر الهبّة الحالية، وتأخذ تطورّها نحو انتفاضة، ثمّ ثورة، فإنها ستكون على الأكيد قد أوصلت النّاس لضرورة الاستعداد لثورة ضخمة قادمة، ليكون التحضير لها تحت الأرض وبهدوء، وهذا النهجُ ستُعزّزُه إجراءاتُ العدوّ التي ستدفع نحو تفريغ الضّفة والداخل من كلّ القيادات في الصّف الأول والثّاني والثّالث.

اليوم الأمور تتغيّر، اليوم يُخلق بشرٌ جديدون، اليوم يُبعث أناسٌ لا يقبلون الدنيّة في دينهم ووطنهم، اليوم تُقلب الصّفوف ليصبح الآخرون هم الأولون والأولون هم الآخرون، والقيادات التقليديّة المحليّة التي طالما ساومت ولم تكن بقدر المسؤولية في طريقها لفقدان مواقعها لصالح شريحة أوسع كثيرًا تنظّم نفسها أفقيًا وبدون تمثيل. توجد اليوم في أغلب مناطق الاشتباك إجابةٌ جديدةٌ قديمةٌ على سؤال "تنظيم المجتمع"، شبابٌ في مقتبل العمر بمجموعات عددية صغيرة تخترق الهدوء في مناطق الاشتباك لتفرض منطقها على القيادة التقليديّة، وفي تحالفٍ قويٍّ وإن كان جزئيًا بين البرجوازية والطبقات الشعبيّة. الأمر يقوم على مبادراتٍ صغيرةٍ من عدّة أفراد لتتبعها استجابةٌ فوريةٌ ودون تردّدٍ لأبناء المناطق للانخراط في الاشتباك إمّا للدفاع أو للهجوم،

هذا النوع من العمل الفوريّ أعاد تعزيز قيم فلسطينية عميقة ومتجذّرة مثل "الرجولية والواجب"، وأعاد هذه الروح النّضالية الجماعية المسمّاة "الفزعة" وهي التي تدفع عشرات نقاط الاشتباك التقليدية أو المُستحدثة للاشتعال يوميًا.

هذا جوابٌ عبقريٌّ على سؤال التنظيم، العفوية لا تعني أبدًا غياب التنظيم، بالعكس تمامًا، ففيها من التنظيم والدقّة أكبر بكثيرٍ من أيّ نوع آخر خصوصًا أنها تركّز على تنظيم الاشتباك، وليس تنظيم الصورة النهائية لتدفع لجعل تلك السّلوكيات تُنتج أكبر قدرٍ ممكنٍ من الفائدة والإنجاز ليصبّ مع كلّ أعمال المقاومة الأخرى في كلّ الساحات في نهرٍ واحدٍ لتراكم الفعل والإنجاز للدفع نحو زيادة التفاقم السياسي والاجتماعيّ، ولاحقًا الاقتصاديّ للمجتمع.

هنا يظهر خللٌ عميقٌ جدًا في أنماط التفكير البرجوازي، فلطالما كانت البرجوازية الفلسطينية ترى أنّ دورها هو تعبئةُ الشعب من أجل المقاومة، دون أن يساهم أفرادها أنفسهم مساهمةً جديةً في النّضال. البرجوازية تختلفُ تمامًا في طريقة تفكيرها عن الطبقات الشعبية (هذا توصيفٌ وليس دعوةً للإهانة). لتوضيح ذلك بطريقةٍ مبسطة، أذكر أنه عندما تزوّجت أختي من ابن عمي كانا طالبين في الجامعة ولا يملكان أي وظيفة أو منزلٍ والمستقبل غامضٌ تمامًا أمامهما، لكن بعد أسبوع من الخطبة أعددنا لهما غرفةً في بيت العائلة وتزوّجا.

روح المغامرة هذه التي تتقن تمامًا استغلال الإمكانيات المتاحة والمتوفّرة للوصول إلى الهدف هي ما ستدفع إلى تفاقُم الأمور وإلى استمرار الهبّة وتطوّرها، لكن البرجوازيّ مثلًا مستحيلٌ أن يتزوج دون أن تكون قد توافرت له كلّ الظروف الذاتيّة والموضوعيّة والتخطيط لعشر سنواتٍ مقبلة لحياته وتوافر بيتٍ ووظيفةٍ وسيارة، وهذا النمط من التفكير وأسلوب الحياة لا يجعل البرجوازية قادرةً على قيادةِ الأمور، لذلك لطالما سمعنا مقولات أن "الشّعب دائمًا يسبق القيادة"، وطبعًا القيادة هم بمُجملِهم من البرجوازية أو ممّن يتشبهون بها. لذلك بدأت تظهر أحاديثٌ عن ضرورة صياغة مطالبَ قابلةٍ للتحقيق لاستثمار الهبّة الحالية من قبل هؤلاء.

هنا نُذكّر أنه من المفترض الذهاب إلى نقاشٍ مجتمعيٍّ كاملٍ انطلاقًا من ساحة الاشتباك، بحيث يكون هدفُ النقاش تحديد أهدافٍ للمواجهة لا مطالب. والهدف

الرئيس هو ضرورة استمرار الاشتباك ولو بوتيرة منخفضة، أحيانًا تعلو كثيرًا وأحيانًا تعود لنفس وتيرتها المستمرّة. أما الحديث عن "مطالب" فعادةً ما يتبعه مباشرة الحديث عن التمثيل، أي سؤال "من يُمثّل الشعب ويتحدّث باسمه؟"، والحديث عن التمثيل تتبعه مباشرةً ممارسةُ سلطة على الجموع الحقيقية التي تمارس الاشتباك، وممارسة سلطة أو امتلاكها سيدفع مباشرةً للمساومة، والمساومة ستعيد إنتاج ما سبق بوجوهٍ جديدةٍ وأعمار صغيرة.

البرجوازية هنا ستصبح هي المحافظة وليكون هذا دليلًا على أنّ الفلاحين والطبقات الشّعبيّة هم الطبقات الثورية الحقيقية؛ فكما قلنا تلك الطبقات اليوم تبتدعُ أساليبها في التنظيم بطريقة أفقية بحتة قادرة على توسيع الاشتباك وقادرة على احتواء كلّ من يريد الانضمام. لكنّ هذا النوعَ من التنظيم لن يروق للبرجوازية التي ستُحاول إعادة تنظيم المجتمع كما كان يتمّ سابقًا عن طريق وضع مطالب وتحديد أفقٍ مرئيٍّ وقابلٍ للتحقيق في فترةٍ قياسيةٍ وبشكلٍ مركزي. لذلك سرعان ما سيبدأ الحديث عن أيام غضبٍ وأيامٍ مركزيةٍ ستعيد للقيادات المحلية التقليدية مواقعها التي تخلخلت في الفترة الحالية.

سيُنتج هذا لاحقًا قيادةً مركزيّةً ستُجهض حتمًا الفعل الشّعبيّ الحاليّ؛ ببساطة لأنّ هذا التوجه من البرجوازية لتحديد مطالب مركزية، يشتمل على مصادرة للمسؤولية الفردية عن كلّ فردٍ ليصبح بدلًا من فاعلٍ في المواجهة مجرّد متلقٍّ ينتظرُ ماذا قرروا. بالملخّص الحديث اليوم عن أيّ مطالب مرفوضٌ قطعًا والحديث عن أيّ فعلٍ مركزيّ وأيام غضبٍ أيضًا مرفوض، والحديث عن قيادةٍ مركزيةٍ ستعيدنا لنفس المربع وسنخسر ما قدّمنا من تضحيات.

ملاحظة: استخدام مصطلح برجوازية في التدوينة هنا غير دقيق، لا توجد في فلسطين برجوازية بمعناها الكامل، بل هي طبقةٌ متشبّهةٌ بالبرجوازية الاستعمارية، لكنّي استخدمتُ المصطلح كتوصيف لطبقاتٍ أو شرائح مجتمعيةٍ من المثقفين والأغنياء والتّجار وأصحاب المصالح والموظفين.

حرّر عقلك واهدِم صنمًا

٢٠١٢/٠٣/٠٧

تنتهي الحربُ عندما يُهزم العقل، فإذا دخلت الهزيمة العقل فأعلِن انتهاء الحرب، ويبدأ الظلم بالتفشّي عندما يقدّم المظلومُ التنازل بإعطاء السلطة للظالم، السلطة على عقله، تلك السلطةُ يمنحُها العقل البشري ويبدأ بإعطاء مبرّرات للجسد لتقديم التنازلات الواحدة تلو الأخرى، إلى أن يصل به الحالُ لقبول الوضع القائم ويبدأ ببناء فلسفة جديدة تُسمّى بالعقل الكولينيالي أو عقل المظلوم أو عقل المضطهَد، وتتجلّى أهمّ معالم هذه الفلسفة بالشعور بالدونية وإعطاء مبرّرات مقنعة لقبول الظلم وإهانة الكرامة.

ويعتبر هذا النوع من التفكير أقوى سلاح للظالم، ويتطوّر هذا النوع من التفكير مع الوقت وقبول الواقع والانخراط في المنظومة إلى استلهام وعي المضطهِد أو كما وصفها مالكولم اكس بـ(زنجي البيت) بحيثُ يبدأ هذا المظلوم باستخدام لغة ومصطلحات الظالم ويبدأ بالتشبّه بشخصية وشكل الظالم لاعتقاده بأنّ أقصى درجات الحضارة هو شخصية هذا الرجل (ظاهرةُ سماع الأغاني العبرية هي ظاهرةٌ حقيقيةٌ معبّرةٌ عن استلهام وعي المضطهِد)، ولاحقًا يتطوّر هذا النوع من الاستلهام إلى درجة يصبح فيها المضطَهَد يستخدم مصطلحات مثل (نحن، عندنا، النا) في حديثه عن سيده (حدّث أني قابلتُ شابًا متأثّرًا جدًا بالثقافة الصهيونية فكان كلّ موضوع نتكلّم فيه يستخدم جملة احنا عنّا في الدولة).

حاول الاحتلال الصهيوني كثيرًا زراعة هذا العقل وتغذيته في المجتمع الفلسطيني، ألا أنّه فشل إلى حدٍّ ما في تعميم هذا العقل على كامل المجتمع، فكان ممّا منع استفحال هذا العقل في المجتمع مقصودًا حينًا وغير مقصود أحيانًا كثيرة؛ فوقوف الشابّ أو الطفل أو الشابة أمام الجنديّ المدجّج بالسلاح ورفض أوامره وحتّى السخرية منه وعدم الانصياع له يُعتبر خطوةً من خطوات تحرير العقل من تلك السلطة التي منحناها لهم عبر بناء أصنام لهم في عقولنا، أصنامٌ لجنديٍّ لا يُقهر.

وتتجلّى أعلى لحظات التحرّر من هذا العقل في السيطرة الكاملة على السلطة الذاتية، تلك السلطة التي لا يستطيع أحدٌ أن يجبرك على شيءٍ لا تستسيغُه مثل المأكل والمشرب والملابس والقول والعمل والموقف.

قابلتُ في حياتي شخصين استطاعا أن يقدّما نموذجًا رائعًا في الرقابة الذاتية على تلك السلطة الشخصية واستطاعا التمرّد على السلطة وقوانينها بطريقة مُبدعة.

عوني إبراهيم الشيخ: يُعتبر عوني الشيخ أحد السبّاقين للعمل الوطني والمنضمّين للقوميين العرب (عندما عاد الشهيد أبو علي مصطفى إلى الضفّة الغربية وزار مدينة بيت لحم طلب أن يقابل هذا الرجل بصفته معلّمه).

قضى فترات ممتدّة من عمره في السجون السورية والأردنية ورفض التنازل عن مبادئه، بعد احتلالٍ القوّاتٍ الصهيونية للضفّة في عام ١٩٦٧م رفض حمْل الهوية الإسرائيلية ورفض التعامل بعملة الشيكل نهائيًا لهذه اللحظة واستطاع إيجاد بدائل عن استخدام الشيكل باستخدام العُملة الأردنية مع بقالة اتّفق مع صاحبها أن يُحاسبه آخر الشهر بالدينار، واستقال من وظيفته كمعلّم مدرسةٍ لرفضه تدخّل الحاكم العسكري بالعملية التعليمية واشترى بعضًا من الأغنام وبدأ يزرعُ طعامه وأحيانًا يقوم بأعمال البستنة من حفر للأرض وغيرها لبعض الجيران.

في عام ١٩٦٨م استدعاه الحاكم العسكري لمنطقة بيت لحم وسأله لماذا لا يحملُ الهوية، أجابه بأنّ في حمل الهوية اعترافًا "بعصابات شيكاجو التي حالفها الحظّ" لأن تصبح دولة، فسُجِن لمدة ١٥٠ يومًا قضاها مُضربًا عن الطعام ورفض التنازل عن مواقفه.

يعيش الآن في بيتٍ معزولٍ في قرية الخضر في محافظة بيت لحم.

الدكتور إبراهيم القادري: يعتبر الدكتور إبراهيم من روّاد العملية التربوية في فلسطين، حيثُ أنّه كان يحملُ في عام ١٩٤٨م لقب الماجستير من إحدى الجامعات الأمريكية، تبوّأ عدّة مناصب أكاديمية آخرها كان عميد كليّة الآداب في جامعة القدس وتركها بعد خلافٍ مع سري نسيبة وحتّى أنّه رفض التكريم.

عند احتلال العصابات الصهيونية للضفة الغربية كان يديرُ معهد العروب الزراعي، بعد عدّةِ أيامٍ من الهزيمة طلب من المعلمين والطلاب في المدرسة العودة للانتظام

بمقاعد الدراسة، وقام بتقسيم ما تُنتجه مزارع المعهد على المعلّمين والطلاب ليعتاشوا منه كبدلٍ للمخصّصات التي كانت الدولة الأردنية تدفعها.

قامت قواتُ الاحتلال بأمره بإغلاق المعهد إلا أنّه رفض الانصياع للأوامر، فتمّ اعتقالُه عدّة مرات ومن ثمّ حاولوا اغتياله إلا أنّه صمّم على المُضيّ قُدمًا في القضية التي تبنّاها، وقام بمراسلة مدراء المدارس في الضفّة وحثّهم على الانتظام في العملية التعليمية، بعد فترة قصيرة أصبحت كلّ الضفة الغربية منتظمةً مجدّدًا في العملية التعليمية ممّا فرض علًى الإدارة المدنية التعامل مع عودة التعليم في الضفة كأمرٍ واقع، فبدأت سلسلةً من الاجتماعات بين وفد من المدراء والإدارة المدنية.

يصف الدكتور إبراهيم مدى التشنّج وكمّية الصراخ المتبادل في تلك الاجتماعات، ويقول "في إحدى الاجتماعات الذي عُقد في بيت إيل، قام الحاكمُ العسكريّ للضفة الغربية بشدّي بقوةٍ من طوق قميصي صارخًا: (أنت لازم تموت، ولك أنت اللي رجّعت التعليم للضفة الغربية، انتوا حرام تتعلّموا، انتوا لازم تظلّوا رعيان غنم)"

ممّا يذكّر أيضًا أنّه قام بتزويج بناته الثلاثة مانعًا الغناء في بيته قائلًا: "كيف أغنّي وأطربُ وفلسطين محتلّة؟". توفّي الدكتور إبراهيم قبل سنواتٍ قليلةٍ في مدينة دورا.

هذان نموذجان من آلاف النماذج في مجتمعنا التي استطاعت أخذ مبادرات فرديةً ووضعت على نفسها التزامًا أخلاقيًا ووطنيًا والتزمت به، فخذ لنفسك مبادرةً والتزم بها ومن يدري لعلّ مبادرتك تصنعُ ثورة؛ فالثورة مبادرةٌ فرديةٌ تبنّتها جماعة، حرّر عقلك من تلك الأصنام بالبحث عن الحقيقة والتدريب العمليّ الميدانيّ، ولا تنزع ألا السلبية المُطلقة والإيمان التامّ بنظرية المؤامرة، وكما يقولُ سيّدنا عمر بن الخطاب: "كلّ مسلم ثغرٌ من ثغور الإسلام، فإيّاك أن يُؤتى الإسلام من قبلك" ويقول الشاعر ناهض الرّيس: "كُن درعًا للثورة ولا تكن كعب أخيل لها".

يا لثارات أبا السبع

ظلومًا جبّارًا "إنّه كان عشارًا[1] باليمن"[2]، "إذا وقعت عَينُ الجمل عليه مات لساعته"[3]، مسخهُ اللّه والضبَّ في يوم واحد[4]، إن حضرهُ فصيلٌ[5] "فلَهُ الويل"[6] فأصبح لطَيمًا، ما انتظرتهُ إلا خرقاء[7]، فمن تنتظر من كان له زوجةٌ بنى بها فكسر ظهرها وقيل أنّها داعبتهُ فركلته برجلها فقطع وسطها بالسيف[8]، وكان واسع الحيلة فخضعت له بعض طيء[9]، إلا أنّ سُهيلاً كان فتى فتيان اليمن.

فتى فتيان اليمن ظلم وتجبّر فعدى على أب لسبع بنات فقتلهُ، ولم يدرِ المقتول فيمَ قُتل، ففزع سهيلٌ فزعًا شديدًا إثر حمرة أصابته من لوثةً دمّ الضحية، فهرب إلى أقصى الجنوب واختبأ برفقة عبدين له "حَضَارُ والوزَن"[10]، فكان إذا أراد أن يخرُج بعث بشبيهه منهما ليرود له الطريق، فإن طلبه أحدُهم حلف بأنّه سهيل ليلحقه العبد الثاني فيحلف بأنّ الأول ليس بسهيل، وقد عرف الناس بتلك الحيلة فأسموهما المحلّفين[11]، وأقسم الأزهري وابن كناسة أنّه لم يُرَ من يومها إلا في أرض العرب فلا تراه خراسان و أرمينية[12]، وأقسمت العرب بأنّهم شهدوا امرأتين تلحقان به "فحارتا"[13] عن الطريق، وظنّ البعضُ أنّهما زوجتاه وقال آخرون أنهما أختاه، عبرت[14] الأولى وأمّا الأخرى فلصِغرها لم تقوَ على العبور له، ولم يدرِ العربُ هل بكاؤها شوقًا لأخيها وأختها أم غيرةً من ضرّتها، فبكت حتى فقدتْ وهج عينيها فأصبحت عُميصَاء[15].

سبع بنات، أربعُ أبكارٍ وحامل وأمّ أطفالٍ وثيّبٌ عرجاءُ حوراء[16]، يا ويل من يقتل أبًا لسبعِ بناتٍ، أبكارهنّ حملن النعش ولحقتهنّ أخواتهن وإن تأخّرت عرجائهنّ، يطلبْنَ الثأرَ والاعتراف بدمّ أبيهنّ وهنّ لسن مثل غيرهنّ من البنات فلا تنوء[17] أبدًا عن طلب الدم، ولا ندري من شِيع ظنونهنّ إلا أنّ القاتل هو "الجدي"[18].

وما منع البنات من ثأر أبيهن من المتهوم ظلمًا فرقدانِ[19] من أبناء البقر حويجيزين[20] يحميانه ويدفعان عنه "فهما ذو قوةٍ ومنعةٍ وسلطان"[21] ولا تأتي البنات من مدخل للجدي إلا وقد وقفتا بالمرصاد، ولم تدرِ العربُ من بعثهما، هل هي النخوة ورفعُ الظلم عن المظلوم فأصبح دخيلًا[22] عليهما، أم كان الجدي من أشرافهم فهبّ القومُ للذّود عنه، أم سخّرهما سهيل فأضاع أعمارهنّ وعمره بالاتّهام والإنكار.

ليظلّ أبد الدهر "الذابح سهيل والمتهوم الجدي".[23].

المراجع:

(١) يأخذ عشر الضريبة من التجار.

(٢) حديث نبوي موضوع، الثعالبي، عرائس المجالس، ص٧٢.

(٣) الجاحظ، كتاب الحيوان ، ج٦، ص١٥٥.

(٤) محمد عجينة، موسوعة أساطير العرب، ج١، ص٢٢٣.

(٥) صغير الإبل.

(٦) لسان العرب، باب لطم، "إذا طلع سهيل أَخذ الراعي صغير الإبل وقال له: أَتَرى سهيلًا؟ والله لا تذوق عندي قطرة ثم لَطَمه ونَحّاه".

(٧) ابن قتيبة الدينوري، الأنواء في مواسم العرب، ص١٥٣– ص١٥٤.

"إذا كوكب الخرقاء لاح بسحرة ... سهيل أشاعت غزلها في القرائب وقالت سماء البيت فوقك منهج ... ولمّا نيسّر أحبلا للركائب يريد أن الخرقاء لعبت صيفتها، وضيعت وقتها ولم تغزل فلما طلع سهيل وجاء الشتاء، فضاق الوقت، استغزلت قرائبها".

(٨) محمد عجينة، مصدر سابق، ص٢٢٤، تتحدث الأسطورة عن قصّة زواج سهيل بالجوزاء.

(٩) بعض طيء ممن عبدوا الجمال عبدوا سهيل.

(١٠) نجومٌ تظهر قبل سهيل بفترةٍ قليلةٍ ويختلف الناس فيهما إن كان أحدهما سهيلًا فأسموهما المحلّفين والحنيثين.

(١١) لسان العرب، باب حضر.

(١٢) لسان العرب، باب سهل.

(١٣) يطلق بدو النقب على سنة من سنيّهم "سنة الحورة" للدلالة على أنهم ذلك العام حاروا عن الطريق المُتعارف عليها ليأخذوا طريقًا أخرى لم تسلكه غيرهم من

العرب، والشعريين ليس كمثلهما نجومٌ فهن يعبرن السماء عرضًا ولا نجوم غيرهنّ يفعلن هذا، محمد عجينة، ص٢٢٣

(١٤) يطلق العرب على نجم الشعرى اليمانية بالعبور لانها استطاعت عبور السماء الى سهيل.

(١٥) يسمي العرب نجم الشعرى الشامية بالغُميصاء لضعف وهجها.

(١٦) لسان العرب، باب حور، النجمة الأخيرة في بنات نعش تسمّى حور.

(١٧) الدينوري، ص١٤٧، أولئك معشرٌ كبنات نعش ... خوالف لا تنوء مع النجوم.

(١٨) نجم الجدي.

(١٩) نجمان لا يغربان يقعان بين بنات نعش والجدي، ويدوران حول الجدي وتدور بنات نعش بنفس دورتهما، والفرقد في اللغة هو صغير البقر.

(٢٠) أي يحجزان بنات نعش عن الجدي، والحجيزيين من أسماء النجمين.

(٢١) ابن سيرين ص٢١٩.

(٢٢) الدخيليين أيضًا من أسماء النجمين.

(٢٣) مثل بدوي.

الحراك الشبابيّ والفضاء المتوتر

(شارك باسل الأعرج بهذه المداخلة في مؤتمر لمؤسسة "مواطن" في العام ٢٠١٣).

يُعتبر الشباب غير المنتمي إلى الأحزاب والحركات السياسية التقليدية أو المنشق عنها من بين الفاعلين الرئيسيين في إنجاز ما يسمى بثورات الربيع العربي. وضعٌ جديدٌ ومستحدثٌ في تاريخ الثورات والتحركات الاجتماعية وفي أساليب وطرق تنظيم الحركات الاحتجاجية. وهذا التحول البنيوي في إرادة "الانعتاق" لدى الشعوب العربية، لتصبح مطالبهم "مطلباً اجتماعيًا" يقوده الشارع بنفسه، بعيدًا عن كل "وصاية" أو "تأطير".

أولاً: من هم الشباب؟

المفهوم، التعريف والدلالة المنهجية:

رغم أن دلالات كلمة شباب تبدو بديهية وبسيطة، إلاّ أن ضبطها وتحديد مفهومها هو أمر صعب، وكل محاولات التحديد هي إجرائية ولغايات منهجية. واستنادًا إلى التعريفات، يمكن دراسة الشباب باعتباره:

- مجموعة ذات خاصيات بيولوجية وبسيكولوجية، تعبر عن فترة عمرية معينة، بين الطفولة والكهولة.
- مجموعة أفرادٍ تكوّن هذه الطبقة العمرية وتتمثل بهذه الخاصيات.
- مجموعة من الإجراءات والتشريعات القانونية التي تطبق بالخصوص على هذه الفئة من الأفراد.
- مجموعة من القيم والمبادئ، ومن السلوكيات ومن أشكال وأنماط العيش التي تتطور في إطار، أو ضمن هذه الطبقة، خاصة في المجموعات التلقائية والمهمشة.
- مجموعة من التمثلات العقلية، ومن الصور والخطابات التي تهمّ هذه الفئة من المجتمع، وهي تمثلات تتناقلها وتروّج لها وسائل الإعلام، وتعد قاسمًا مشتركًا بين أفراد هذه الفئة.

"الشباب حقيقة جماعية"، "حقيقة قانونية"، "حقيقة اجتماعية"، والشباب هو أيضًا "حقيقة سياسية"، تبرز من خلال اهتمام كل المشتغلين في الحقل السياسي، وخاصة صناع القرار، بإيجاد أجوبة عن تساؤلات ومشاغل هذه الفئة، وكذلك توفير حاجياتها، وهذا هو جوهر ما يعرف بـ "السياسة الشبابية"، التي تحاول أن تضع خارطة طريق تجيب عن "مشاكل الشباب"، وتسعى إلى الحد من تداعيات السلوكيات الشبابية الخطرة أو التي يمكن أن تشكّل خطرًا في المستقبل، هذا إلى جانب توجيه وتأطير هذه الفئة وتجنيبها خطر الانزلاقات والميوعة.

إن الشباب ظاهرة اجتماعية وتاريخية، تستمد جذورها الاجتماعية من الوضعية الانتقالية التي يعيشها الشباب فهي بالأساس ثقافية وليست طبيعية، وهي تتفاوت وتختلف من مجتمع إلى آخر ومن طبقة إلى أخرى، وحتى داخل المجتمع الواحد مثلما ذهب إلى ذلك بياربورديو؛ فالعلاقة بين الشباب والمجتمع تمر أساسًا عبر المدرسة (المؤسسة التربوية) والعائلة، بواسطتهما يؤطِّر المجتمع الشباب، ويحدد لهم حقوقهم وواجباتهم، فعبرهما تتحقق "اجتماعية الفرد" على حد تعبير دوركايم؛ فعندما عجزت مؤسسة المدرسة مثلاً عن حل مشاكل الشباب، خلال فترات محددة من القرن السابق، برزت للوجود مؤسسات تربوية جديدة، من أبرزها الحركات الشبابية، لتسدّ الفراغ، هذا بالإضافة إلى الأشكال التلقائية والهامشية على غرار المجموعات والعصابات وغيرها.

الشباب .."مجرد كلمة"

يقوم التحليل السوسيولوجي لبيار بورديو على رفض التعريف الذي يستند إلى التحديد العمري، ويرى أن "الشباب مجرد كلمة" La " jeunesse " n'est qu'un mot، كما يذهب إلى القول بأن الحدود بين الأعمار أو الشرائح العمرية حدود اعتباطية، "فنحن لا نعرف أين ينتهي الشباب، وأين تبدأ الشيخوخة، مثلما لا يمكننا أن نقدّر أين ينتهي الفقر ليبدأ الثراء". وهذا يعني من منظور بورديو أن الفئات العمرية هي بالضرورة نتاجات اجتماعية، تتطور عبر التاريخ وتتخذ أشكالاً ومفاهيم في ارتباط وثيق بالأوضاع والحالات الاجتماعية.

كما أن الحدود بين الشباب والكهولة، هي محور اختلاف في كل المجتمعات وفي كل الأزمنة أيضًا، ويرجع بورديو في نظريته حول الشباب إلى الأمثال الشعبية، وكذلك فلسفة أفلاطون، التي تعطي لكل فترة أو حقبة عمرية وصفًا خاصًا ومميزًا لها؛ فالمراهقة تكون عادة مقترنةً بالعاطفة، في حين تتميز الكهولة بالواقعية.

يتعاطى بورديو مع ثنائية "شباب/كهولة" انطلاقًا من كونها علاقة عادية، "فنحن دومًا شباب وكهول بالمقارنة مع طرف ثان". ويرى بورديو أن الهدف من التقسيمات أو التصنيفات على أساس العمر والجنس والطبقة هو إعادة إنتاج النظام، بطريقة يحافظ فيها الجميع على موقعه؛ "فالشباب والكهولة ليست معطيات، بقدر ما هي نتاج بناء مجتمعي construites socialement". ليخلص إلى القول بأن "العلاقة بين العمر الاجتماعي l'âge sociale والعمر البيولوجي l'âge biologique هي عملية بالغة التعقيد". ولمزيد فهم العلاقة بين الأجيال، يشترط بورديو ضرورة فهم خاصيات اشتغال ورهانات الحقل le champ الذي تنتمي إليه هذه الفئات.

ولإعطاء الشرعية العلمية إلى استنتاجاته النظرية، التي تقول بأن "الشباب مجرد كلمة" وهو أيضًا "نتاج اجتماعي، يتحدد بشروط اجتماعية معينة"، يستنجد بورديو بالبحوث الإثنولوجية وكذلك الأنثروبولوجية؛ فمثلما "لكل مجتمع قيمه، وعقله الجمعي الذي ينضبط ويحتكم إليه، فإن له أيضًا مفهومًا خاصًا للشباب، وتحديدًا اجتماعيًا لخصائصه وتحولاته، بل إننا نجد داخل المجتمع الواحد أكثر من مفهوم للشباب، وذلك كله في اتصال وثيق مع ما يعتمل داخل هذا المجتمع ويتفاعل فيه، والنتيجة في النهاية شباب لكل مجتمع مختلف نوعًا ودرجة عن شباب أي مجتمع، ومنه نصل إلى التأكيد على أن لكل شباب قضاياه وأسئلته التي تتنوع بتنوع المجتمعات".

ومن الضروري هنا أن نقوم بتعريف الهابيتوس عند بورديو:

يساعد التّطبّع في فهم الطريقة التي تؤثر بها ضغوط المؤسسات على الفرد. فالفرد يحاول إدماج هذه الضغوط ليتمكن من التفاعل في اللعبة الاجتماعية. وإدماج هذه الضغوط يساهم في بناء الحقل الاجتماعي وفي تشكل الفرد في ذات الوقت. فالتّطبّع إذاً هو الطريقة التي ترسخ بها البنى الاجتماعية في وعينا وأجسادنا. ولأصولنا الاجتماعية وتجاربنا الحياتية المبكرة ولمسارنا الاجتماعي تأثير في تشكّل اتجاهات بعينها للتفكير ولتحسس الأشياء وللتصرف في مواقف محددة. كل هذه، تتحول في اللاوعي الفردي إلى نوع من أنواع السلوك يحتفظ بها الفرد على المدى الطويل. والتّطبّع هنا عنوان لكل ما يمتلكه الفرد ولما يجعل منه كائناً.

بالنهاية، التّطبّع هو مجموعة السلوكيات المشتركة لمجموعة من الأفراد المنحدرين

من نفس الأصول الاجتماعية والمتضمنة لطرق التفكير والتصرف والتفاعل والناتجة للإدماج اللاواعي للنظم والأعراف التي تحددها مجموعة الانتماء.

كذلك من الضروري أيضاً تعريف العنف والسلطة الرمزيين عنده:

العنف الرمزي بدوره وسيلة لممارسة السلطة فهو " شكل من أشكال السلطة تمارس على فاعل إجتماعي بتواطؤ منه، وكيفما كان الحال فهذه الصياغة خطيرة، لا تفتح الباب أمام مناقشات مدرسية حول مسألة معرفة ما إذا كانت السلطة تأتي من أسفل وإذا ما كان المسود يرغب في الحالة المفروضة عليه"، فإن أشد أشكال العنف" هو ذلك الذي يمارس في نظام الأشياء"- بيير بورديو- أسئلة علم الاجتماع ص٢٥.

إن العنف الرمزي حسب بيير بورديو هو عنف غير مرئي، لطيف وليّن وعذب، يقوم على إلحاق الضرر بالآخرين عبر اللغة والتربية، إلى جانب ذلك يذهب بيير بورديو في كتابه "إجابات" إلى أنه "يمكن أن يحقّق العنف الرمزي نتائج أحسن مما يحققه العنف السياسي البوليسي" وهذا هو جوهر اختلاف بيير بورديو مع التيار الماركسي.

تتمتع إذن السلطة الرمزية بمجموعة من المميزات والخصائص:

- لها القدرة على تكوين المعطى عن طريق العبارات اللفظية.
- لها قدرة على الإقناع، وإعطاء تصور حول العالم أو تحويله، ومن ثم قدرة على تحويل التأثير في العالم وبالتالي - العالم نفسه.
- تعتبر بمثابة عصا سحرية تمكن من بلوغ ما يعادل قوة طبيعية أو اقتصادية، وذلك بفضل قدرتها على التعبئة.

الحراك الشبابي في فلسطين

لقد تحدثنا كثيرا عن صمت المثقفين، وما يصدمني هو صمت السياسيين؛ إنهم مفتقرون بشكل كبير للمثل المعبئة، وذلك بدون شك لأن تحويل السياسة إلى حرفة والشروط المطلوبة من أولئك الذين يرومون تحقيق وضعية بداخل الأحزاب يقصيان أكثر فأكثر الأفراد الملهمين، وبدون شك أيضاً لأن تعريف النشاط السياسي تغير مع مجيء الموظفين الذين تعلموا في المدارس (مدارس العلوم السياسية) أنه من أجل أن

تعمل بجد أو بكل بساطة حتى تتجنب الظهور بمظهر أداة التهييج أو كتحفة قديمة، يستحسن التحدث عن التدبير بدل التدبير الذات ، وأنه يتوجب في كل الأحوال أن تضفيَ على ذاتك مظاهر (أي لغة) العقلانية الاقتصادي، بورديو.

يحضرني هنا مقطع من قصة همنغواي " المقامر والراهبة والراديو".

"الدين أفيون الشعوب، أما الآن فان الاقتصاد هو أفيون الشعوب بالإضافة إلى الوطنية، فماذا عن الاتصال الجنسي، أليس ذلك أيضاً أفيون الشعوب على أن الشراب هو الأفيون الحاكم، الأفيون الرائع مع أن بعض الناس يفضلون الراديو الذي يعتبر أفيوناً آخر للشعوب".

ماذا لو عرف همنغواي الفيسبوك وتويتر ألم يكن سيضيفهما إلى الراديو؟ إلا أنه ما يغيب أن تلك الأفيونات هي نفسها منبهات للشعوب.

في دراسة لطارق خميس غير منشورة، يؤرخ قصة الحراك الشبابي في الضفة الغربية انطلاقاً من تاريخ ٢٠١٠/٩/٢٥ عندما قامت مجموعة من مئة شاب وشابة بفك الحصار عن قرية النبي صالح، ما لبثوا أن اجتمعوا للتحضير لـ١٥ آذار لتحمل المجموعة نفس الاسم ثم ما لبث أن كان هناك مجموعة أخرى انطلقت باسم الخامس من حزيران، بعد فترة انضوت تلك المجموعات تحت إطار "فلسطينيون من أجل الكرامة" لتنتهي تلك التجربة في وقت لاحق.

لا تنفصل تجربة الحراك الشبابي الفلسطيني عن سياقها التاريخي ولا تنفصل عن التجارب الشبابية، والتي ربما انطلقت مع تحديد حدود فلسطين الانتدابية عبر الجمعيات، ومن ثم عبر مؤتمر الشباب الفلسطيني الأول في أوائل الثلاثينات.

سأحاول أن أقرأ الحراك الشبابي الفلسطيني من منطلق أنه اكتئاب وجوديّ، وسؤال طرح في فترة معينة وسار في كل الاتجاهات، أنا شخصياً أعاني مشكلة في حصر مفهوم الحراك الشبابي داخل حدود رام الله، لأنه فعلياً ينتشر في كافة أماكن التواجد الفلسطيني.

يعرف العالم الهولندي بروسكي الاكتئاب الوجودي بأنه الحالة النفسية التي يصل لها الأفراد نتيجة لاصطدامهم بأسئلة وجودية، مثل معنى الحياة والحرية والموت، لكنه يختلف عن باقي منظري الاكتئاب بحيث يرى أن هذه الحالة هي إيجابية، ونتكلم عن الأزمة

الوجودية وليس الاكتئاب المرضي، ويرى في سؤال ما معنى الحياة، وهو سؤال جماعي بقدر ما هو فردي، ويرى أن اكتئاباً مثل هذا النوع مهم جداً لنمو شخصية الفرد، لأنه وفي هذه المرحلة يتم تفكيك الذات المهزومة التي ولدت داخل نمط اجتماعي معين.

يصف خالد عودة الله في إحدى محاضراته (عنف اللاعنف)، ويبدو كفلسطينيين مثل من يمشي في طريق ووجد تحويلة بأن هذا الطريق فيها أعمال صيانة وتوجهه إلى طريق بديل، وبعد الولوج به وجد تحويلة أخرى لطريق آخر، وهلمّا جرا، فيمكن رؤية هذا الحدث الجلل الذي يسمى أوسلو، واستخدم اوسلو كمرحلة تحقيبية لا يمكن فصلها عما سبقها بأننا دخلنا في تحويلات لا نهائية، ويمكننا أن نرى إن وصلنا إلى مرحلة ترى فيها الناس حتى من يملكون وعياً وحسماً في قراءتهم للمرحلة، قد وصلنا إلى أن كل أحد والمجتمع يبحث عن معنى لحياته، هناك أزمة للبحث عن معنى، وجزء من كل هذه الاشكاليات التي نعبر عنها من ناحية إجرائية بطغيان الصورة أو أيديولوجيا اللاعنف أو المجتمعات الافتراضية، وكلها يمكن ضمها إلى سؤال البحث عن معنى الحياة.

لربما سابقاً كان المعنى أكثر وضوحاً ومع وجود إشكالية فيه كنا نفرض أن معنى وجودنا مرتبطٌ بالآخر الذي نقاومه، لكن كان أكثر وضوحاً ومحدداً ويمكن إنشاء نمط اجتماعي وثقافي محدد يرتبط بهذا المعنى، وما حدث بناء على ما دخلناه من هذه التحويلات هو إصابتنا بدوار لنجد أنفسنا نطرح سؤال إلى أين نتجه؟ وهذا سؤال مهم وأساسي وأهميته تتضاعف إذا وضعنا شروطاً صارمة للإجابة على هذا السؤال، بمعنى أن أي محاولة للخروج من حالة المتاهة، يجب أن تكون على موقع مغاير لما أنتجته هذه المتاهة، سواء ما أنتجه الفلسطينيون داخل المتاهة أو الفعل الاستعماري بحد ذاته، فطوال الوقت نحن نحدد آليات مقاومتنا بالمستعمِر. فطوال الوقت هناك نوع من الحوار وهذه الثنائية ما بين المستعمِر والمستعمَر، لكن في الحالة الفلسطينية تطورت بشكل سلبي، ونحن نتكلم عن مشاريع جماعية بحيث نتساءل عن كيفية الخروج من هذه المتاهة الكبيرة وهذه حاجة ضرورية للناس.

هكذا أرى الحراك الشبابي:

حاول الشباب أن يجدوا أجوبة على الأسئلة المطروحة عبر عدة وسائل منها حتى عن طريق الفعل، كثير من الفعل لم يكن جواباً بقدر ما كان تساؤلاً عن ما هو الحل؟

عمل الحراك خلال المرحلة السابقة في أغلب نضالياته على إعادة بناء القيم الوطنية الجماعية لإعادة بناء الشعب، والتي بدأت في السقوط والانهيار فيما بعد عملية السور الواقي، حسب ما كتبه وليد دقة في صهر الوعي، حق العودة، الأسرى، فلسطين التاريخية، الشعب الفلسطيني، التطبيع، التمويل الخارجي. وعمل على استرجاع البديهيات المفقودة بعد أوسلو والتي يتم الترسيخ لنسيانها تماماً.

«بوستات»

١

«وقيّة كنافة لو سمحت»

تناولتها بعد أن وصلت إلى نابلس من أريحا، في اليوم التالي توجّهتُ إلى رام الله لأقابل عبد القادر الحسيني وأعطيه مبلغ ١٠٠ جنيه التي غنمتها من سرقة السيارة التي كان يسوقها يهوديّ، كان المال للوكالة اليهودية وسيدفع لشركة "شل" ثمنًا للوقود. لنعود للبداية، ما إن صاح الحارس "عربي .. عربي" حتى قفزتُ من السيارة وأقفلتُها بالمفتاح وألقيتُه بعيدًا، تناولت القنبلة الأولى وألقيتُها فلم تنفجر فألقيت الثانية فلم تنفجر، أدرتُ ظهري للسّيارة واستلّلتُ المسدسين لأحميها بجسدي حتى لحظة الانفجار، خمس دقائق فقط أملك.

وجّه لي أحد الحراس صلية من رشّاشه فعالجتُه برصاصتين، ضابط آخر من الهاجاناه قفز إلى سيارة تقف بجانب المصفّحة ليطلق النار عليه فألقيتُه صريعًا برصاصة واحدة.

يزداد حجم الجنود الذين يحاولون الوصول إليّ، ضابطٌ آخرُ خرج من البوابة على يساري وهو يستلّ مسدسه، أطلقتُ النار عليه فوقع وانطلقت منهُ رصاصاتٍ لتصيب جنديًا آخر متقدّمًا باتجاهي.

في تلك اللحظة ألقيتُ بنفسي على الأرض وتدحرجتُ لأحتمي تحت المصفّحة ومن ثمّ تدحرجتُ وفجأةً وجدتُ نفسي في الشارع العام.

طرتُ في الهواء وترنّحتُ يمينًا ويسارًا، كانت السيارة قد انفجرت وانفجرت معها براميل المتفجرات التي وضعت أمام المبنى مربوطة ببكرة لمنع أيّ محاولة لاختراق بوابة المبنى بالعنوة عبر اصطدام البراميل بأي سيارةٍ ستهاجمه ليموت ١٢ يهوديًا ويتدمّر الجناح الشمالي للمبنى الذي يضمّ مكتب بيت المال اليهودي ومبنى المجلس المالي اليهودي، ومقتل وإصابة عدد مهم من الشخصيات اليهودية.

استعدتُ توازني ووقفتُ على قدميّ وتوجهتُ إلى سيارة يقودها يهودي أصيب بالرعب، أنزلتُه وسرقت السيارة، وابتعدتُ عن المكان، ووصلتُ إلى أريحا.

ليست هذه البداية ...

كان الميجر انجرونوفيتش مُلحقًا عسكريًا في القنصلية، يسكن مع زوجته في حيّ

القطمون، في أحد الليالي كان يقيم حفلًا ساهرًا، لأتسلل إلى بيته وأختبئ خلف الصخور، وصلت سيارة فيها يهوديان، أطلقا صافرةً فخرج الميجر، وسلّم كلٌّ منهما للآخر شيئًا لم أعرف ما هو، بعد نصف ساعة انفجر لغم كبير في القدس.

في تلك اللحظة قرّرتُ أن أنسف مبنى الوكالة اليهودية في القدس، وفي خطّة محكمة استطعْتُ عبر التجسس على الاتصالات من مركز الهاتف في القنصلية الأمريكية أن أعلم عن اجتماع في الوكالة اليهودية لحلّ الخلافات بين الهاجاناه والشتيرن والأرغون.

وقد علمتُ أن أحد ضابطين من الجيش الأمريكي سيصلان إلى الوكالة اليهودية لإعادة تشكيل المليشيا اليهودية.

في ذلك اليوم توجّهتُ إلى عبد القادر الحسيني وأبلغته بالقرار، فطلب من فوزي القطب مسؤول فرقة التدمير أن يصنع المفخخة، ٢٥٠ كيلو غرامًا من الجلنلجيت والـ(تي إن تي) وقد صنعت بشكل رُزم تمّ وصلُها بساعة توقيت.

بأربع علب سجائر أمريكية ولغتي الإسبانية الأم وإتقاني للغة الإنجليزية، وبسيارةٍ من نوع فورد ١٩٤٧ تحمل رقم ٦٦١١ وعلم أميركا عليها، وبمعلومة وصول ضابطين أمريكيين إلى الوكالة اليهودية وبصحبة جريدة بالستاين بوست -تم تفجير مبنى الجريدة قبل شهر- استطعتُ اجتياز الحواجز البريطانية واليهودية لأصل إلى المبنى وأدخل البوابة الرئيسية، حتّى انتبه الحارس أني وحيد ولا ضبّاط برفقتي.

أيضًا ليست هنا البداية.

كنتُ قد حاولت الانضمام إلى الثورة في ١٩٣٦م إلا أن عدم إتقاني للغة العربية لم يسمح بذلك، فانضممتُ إلى البوليس الفلسطيني وأصبحتُ أحد رجال الثورة داخل القوة الاستعمارية.

قمتُ بتسريب معلومات للثوار وللسكان وبالتبليغ للأهالي عن حملات التفتيش والضبط، تلاعبتُ بالأدلة والمضبوطات وشهدتُ بشهادات معاكسة لما كان يشهده اليهود ضدّ العرب في المحاكم، وكان هذا بغطاء أني مسيحي كولومبي وهؤلاء مسلمون عرب. حتى شكّ الضباط بأمري فأوقفوني عن العمل، حتى وجدتُ عملًا في القنصلية الأمريكية.

وليست هنا البداية أيضًا. عندما وصلتُ باريس قضيتُ سنةً عند أقاربنا من عائلة

جاسر (أصحاب قصر جاسر في بيت لحم أو ما يسمّى فندق الإنتركونتيننتال) ومن ثمّ قررْتُ الذهاب إلى فلسطين، ولم أكن أملك أوراقًا ثبوتية، توجهتُ إلى مارسيليا وهناك تعرفتُ على بعض اليهود، ووصلتُ معهم إلى فلسطين على أساس أني يهودي مهاجر، في ميناء حيفا سألني الموظف الإنجليزي عن جواز سفري لأقول له أنني يهودي، فقال لي انضمّ إلى جماعتك، لأقيم فترة في تل أبيب، ومن ثمّ ذهبتُ إلى يافا فالقدس فبيت لحم مسقط رأس عائلتي.

وما لبث الأمرُ حتّى اشتعلت ثورة ١٩٣٦م، وليست هنا البداية. كنت قد أسّستُ شركة طيران مدنية في هندوراس في بداية ١٩٣٢م ، وما أن سمعتُ عن غزو البيرو المدعومة أمريكيًا لمسقط رأسي كولومبيا حتّى شدَدتُ الرحال لأدافع عنها، وقاتلتُ في ما يسمّى Leticia Incident، وبعد فترة قصيرة وضعت الحرب أوزارها باتفاقية ريدو جانيرو، فقرّرتُ التوجه بحرًا إلى باريس.

لنعد إلى ما قبل أيضًا.

أنهيتُ تعليمي في كليّة سانت جونز في بوغوتا في كولومبيا ١٩٣٠م حيث ولدتُ لعائلة تلحمية مهاجرة إلى كولومبيا، وما أن أنهيتُ تعليمي حتى انضمَمتُ لجيش أمريكا الوسطى لأحارب ضدّ الجيش الاستعماري الأمريكي في معركة جبال "لاسيجوفيا" كقائد لمفرزة الرشاشات وأنال ترقية، ومع بداية بواكير الانقلاب العسكري الديكتاتوري استقلتُ وتوجّهتُ إلى هندوراس.

وإن بدأت قصتي مع مولدي ١٩٠٩م في كولومبيا إلا أنها لم تنتهِ مع تفجيري لمبنى الوكالة اليهودية.

هذه قصة أنطوان جميل داود، في سنة ١٩٥٠م عاد إلى كولومبيا ومن ثمّ التقى بكاسترو وجيفارا في غواتيملا ليحضّر معهما الدفعة الأولى من الثوار التي توجّهت إلى كوبا ومن ثمّ دخل معهما إلى كوبا على نفس السفينة وشارك في الثورة الكوبية كمدرب متخصّص في حرب العصابات، ورافق جيفارا لاحقًا إلى بوليفيا وقاتل معه.

أخيرًا مع انطلاق الثورة الفلسطينية انضمّ للجبهة الشعبية وكان قد خطّط لعملية في أواخر شهر آب ١٩٦٩م إلا أن المنية قد وافته في ٤ آب ١٩٦٩م في الكويت أثناء زيارةٍ لأقاربه هناك.

٢

ليس نهري

قال برشتيان *

"يأتي الرجل الأبيض إلى النهر العريض المزمجر فيقفز فوق ظهر الرجل الزنجي من السكان الأصليين ويصرخ فيه: اسبح، فيسبح المسكين قاطعًا به عُرض النهر إلى أن يصل به إلى الضفة الأخرى، وهو منهوك القوى، فيطلب أجرته لكن الرجل الأبيض يصرخ به مستاءً ويقول: لولاي لما قطعت النهر"

صمتٌ وعيونٌ في الأرجاء تتلفّت

أين أنا؟

لولاي ما قطعت النهر

إلى أين أخذتني؟

لولاي ما قطعت النهر

ليست ضفّتي التي أحلم بها؟

لولاي ما قطعت النهر

أين لساني؟ أكاد أنسى منطقي؟

لولاي ما قطعت النهر

أين أشيائي؟ أين ملابسي وتعاويذي؟

لولاي ما قطعت النهر

أين كتابي؟

أين أجدادي؟

أين أحلامي؟

أين موطني؟

اين نيراني؟

لولاي ما قطعت النهر

أسلبت عيوني؟ لم تعد حسناء كما كانت امرأتي
البياض في كل مكان
امرأتي ادَّهنت من بيضاكم
لولاي ما قطعت النهر
ابني ينكرني
يلهو في استيهامي آكلًا للحم البشر
لولاي ما قطعت النهر
أين ذاتي؟ من أنا؟
لولاي ما قطعت النهر
أتلكَزني فوق هذا؟
لولاي ما قطعت النهر
أتأكل طعامي وتتركني جائعًا؟
تشرب مائي وتتركني ظمآنًا؟
لولاي ما قطعت النهر
أتضربني بسوطك؟ تقرحني
أعليّ أن أعرف ذاتي من قروحك؟
لولاي ما قطعت النهر
أتسودني فوق هذا؟
لولاي ما قطعت النهر
أتقتلني من أجلي؟
لخلاصي تبيدني؟
تهينني
تدينني
ثم تبكيني

ثم تبني لي صرحًا
يُمنع على أبنائي
ولأبنائك مرتع
ثم تقول لي
لولاي ما قطعت النهر!!!
وكلّ هذا باسم ربك؟ باسم علمك؟ باسم عقلك؟
كنت أبني جسري ببطءٍ وعلى مهل
أحلم بالعبور إلى الضفة الأخرى
أبنيه على مهلٍ كي لا أركب الناس
كان بإمكانك أن تيمِّم وجهك شرقًا وجنوبًا لترى كيف الناس تصنع جسورها لعبور النهر
لم يكن عريضًا ولا مُزمجرًا
أنت كذبت لتركبني
إنهاكي لم يكن إلا من ثقل أحلامك وذنوبك
تركتَ روحي في الضفة وسلبتَ جسدي للضفة الأخرى
آه نسيت لا أرواح لكم
فات الأوان لأن أندم على مخاطبتك
أرَميُك وإياي في النهر كان يجب أن يكون
ما كان هذا الألم سيكون
لا وجود لي إلا بفنائك
ثم من قال لك أن النجاة بعبور النهر؟؟؟
هذا ليس نهري

* برشتيان شخص مجهول لدي صاغ القصة في المقدمة لكي يلخص المشكلة حول الجدلية حول فائدة الاستعمار.

٣

«يا عيال صلدم»

كان يكفي أن يسمع الترابين هذا النداء حتى تستثار نخوتهم. في عام ١٨٧٥م قتل دهشان أبو ستة (من الغوالي من الترابين) محمد بن حمّاد الصوفي (من النجمات من الترابين)، فجلّى أبو ستة إلى التياها.

كان الترابين لم ترضيهم نتائج حرابة عودة وعامر (يطلق البدو مصطلح حرابة على الحرب وعامر وعودة إخوان اقتتلا في بداية القرن التاسع عشر بسبب غيرة النساء فأشعلت حربًا بين كلّ عرب النقب وسينا واستمرّت ٢٠ عامًا)، فألّب صقر أبو ستة الشيخ زارع الهزيل (من التياها) على العزازمة حلفاء الشيخ حماد الصوفي.

وجرت حرب استمرّت سبع سنوات بين الأحلاف أطلق عليها حرابة زارع. ولقد انتهت تلك الحرب "بحفار ودفان"(يعني هون حفرنا وهون طمرنا وبنظُبّ عالقصة) وأقسم التياهة والترابين على الصلح والحلف وأن لا يقاتلوا بعضهم إلى أن "ينشف البحر أو يطلع بالكف الشعر".

يصف الشاعر سويلم أبو عرقوب تلك الحرب بأبيات طويلة باللهجة البدوية وهو حليف للصوفي وممّا قال:

هذي "الشريعة" مثل بنات عجيبة

يحَرَم عليكم ما تذوقوا وطنها

ما زال الصوفي بقومو زحنها

مثل الدُبّان لقي عليكو مصابه

....

في أواخر نيسان ١٩٤٨م دخل ثمانية يهود على أراضي الترابين وقتلوا "عودة أبو شباب" انتقامًا لمقتل ٢٧ يهوديًا في كمين نصبه قبل شهرين عبد الله وعمرو وكريم أبو ستة و حمّاد وشطى الصوفي، فخرجت صيحة "يا عيال صلدم".

وعلى عكس المثل (البدوي أخذ ثاره بعد ٤٠ سنة وقال استعجلت) فإن ابن جدوع (ابن

الشيخ جدوع الصوفي الذي استلم المشيخة بعد شيخ المشايخ حمّاد الصوفي في ١٩٢٢م) ومعه جماعة من الوحيدات وحسنات أبو معيلق قد لاقوا اليهود عند الشريعة التي قال فيها أبو سويلم "يِحرَم عليكم تذوقوا وطنها ما زال الصوفي بقومو -بقومه- زحنها" وقتلوا خمسةً من اليهود وأكملوا على الثلاثة الباقين في "تل المقري".

في نفس اليوم ذبح عرب الشعوث (ترابين) ستةً من اليهود وغنموا سلاحهم في موقع يقال له "الرابية".

٤

لغة العصفورية

هل سمعتِ عن لغة زيزينيا أو لغة العصفورية؟ هي لغاتٌ اخترعتها الناس لتشفير الكلمات لكي لا يفهمها أحد، مثل أن تكون ابنتان تتبادلان حديثًا لا يفهمُه غيرهما. هذه اللغات مخترعةٌ ولها أصولٌ تاريخية مثال:

ريم بنا - يا طالعين الجبل.

وأكمل: هذه الأغنية تمّ غناؤها في ثورة الـ ٣٦، حينها كان يتواجد في سجن عتليت المساجين الفلسطينيين، وكان قائد منطقة حيفا الشهيد يوسف أبو درّة يخطّط لاقتحام السجن وتحرير الأسرى، وكان لا بدّ له أن يقوم بالتواصل معهم من أجل التنسيق وكان في رقابة شديدة، فطلب من النساء أن ينقلن الرسائل يوم ذهابهنّ للزيارة، والإنجليز يراقبن في النساء حين خروجهن حيث علموا بأنهم يقومون بمهمة نقل الرسائل، ويوم الاقتحام أنشدت النساء:

يا طالعين عين لل الجبل يا موللل الموقدين النار

بين لللل يامان يامان عين لل هنا يا روح

ما بدي منكي لللكم خلعة ولا لالالا لابدي ملبوس

بين لل يامان يامان

عين لل الهنا يا روح

ما بدي منكي لللكم خلعة ولا لالالالا بدي زنار

بين للل يامان يامان

عين للل الهنا يا روح

إلا غزال لللللذي جوين لللكم محبوس

بين للل يامان يامان

عين للل الهنا يا روح

إلا غزال للللللذي جوّين اللللللكم ما يدوم

بين للل يامان يامان

عين للل الهنا يا روح ....

وسمعهنّ الثوار في الجبال وفهموا ولم يفهم الإنجليز وتمّ اقتحام السجن وتحرير الأسرى.

في ترويدةٍ أخرى تقول:

شمالي يا هوا الديرة شمالي .. عن اللي بوابهم تفتح شمالي وأنا الليلة لأبعث مع الريح الشمالي ..

في الأغنية امرأةٌ تبوح بحبّها لشابٍّ لم ترد غيره من الذكور أن يفهم ما يُقال فغنّت الأغنية بلغة التشفير كليًا.

أمّا عن أصول التشفير: اللغة العربية ككلّ هي ليست مكتوبة؛ الكتابة تعدّ جديدةً نسبيًا، أي أنّها أتت فعليًا مع الإسلام، وما قبل الإسلام كلّ التراث والشعر والقصص كانت فقط روايةً ولهذا فإن اللغة العربية هي موسيقى، مثل التنوين في اللغة العربية، والمقامات في القرآن والتلاوة كلّها موسيقى، اللغة تموت إن حذفنا منها الموسيقى. وعن فكّ التشفير في الأغنية فهو بعد كل حرف لامٍ يتمّ مضاعفة اللام الأصلية في الأغنيتين، ويتمّ نقلها من أول الكلمة إلى أوسطها.

اللغة الفصحى الموجودة اليوم هي لغة قريش، واللغة العامية هي لغة أحد القبائل العربية اليوم مثل: عند قلب حرف الـ "القاف" إلى "غين" مثل "بقدر" تصبح "بغدر"، يُستعمل هذا الأسلوب قبائل اليوم من السودان واليمن.

واللغة قبل الإسلام كانت مقسومةً إلى قسمين: عربية شمالية وعربية جنوبية، الجنوبية هي لغة الجزيرة العربية وتتكوّن من عدة لهجات مثل اللغة السريانية وهي لغة عربية وهي لهجة أهل مدينة الرّها. والآرامية هي لهجة عربية وهي لهجة الساحل الشمالي الأكثر انتشارًا وكانوا يسمّونها بالنبطية، ولليوم يتواجد نمطٌ شعريٌ في الخليج يسمّى بالشعر النبطي وهو الشعر البدوي مثل الدحّية.

جاء التشفير عن اللهجة العبرية القديمة، ظلّت نساؤنا تحفظ أشياء قديمة من اللهجة العبرية، مثل: اسم جلعاد يقابله بالعربية "الجعد" فـ"جلعاد" بالعبرية هو الجعد بالعربية؛ مثلًا الجعد بن درهم وهو معلّم مروان الحمار آخر الخلفاء الأمويين، ومثله الكثير. والعبرية القديمة تنقل أيضًا اللام من أول الكلمة إلى أوسطها للضرورة الموسيقية يتمّ تكرار اللام وهكذا وُجد التشفير.

وإن تتساءلين الآن لماذا النساء التي قامت بالحفاظ على هذا الإرث من اللهجة القديمة وليس الرجال فالجواب: لأن اللغة والأكل والزيّ وكلّ شيء هو صناعة السلطة، فطول التاريخ النساء دائمًا أقلّ تأثرًا بالسلطة التي تسيطر، أي أنهنّ لم يكن لهنّ تداخل في الفضاء العام كما الرجال، وهكذا تتداخل الأشياء فيما بينها وتترابط.

سألني في آخر القصة: شو بتحكي للطفل عشان يمشي؟

- دادي؟

- ملابس جديدة شو منحكيلها؟

- دّحّة؟

- ماء؟

- مُبُو؟

صح.. تخيلي أن كلّ بلاد الشام تستخدم نفس الكلمات، أي من المستحيل ألا يكون هنالك أصل تاريخيّ لُغويّ. فعليًا هي كلمات كنعانية، بقينا نستخدمها مع الأطفال حيث اعتبرناها لغة بدائية يمكن للأطفال أن يفهموها عكس العربية الحالية حيث تُعتبر لغة راقية جدًا، وطبعًا النساء أيضًا هنّ من قمنَ بالحفاظ على هذه اللغة وتوتة توتة خلصت الحدّوتة.

٥

أبناء أم العبد وأبناء أم الشيطان

في العام ١٨٩٥م كان سؤال العالم الألماني ريتشارد ويلفنيستون "هل بالإمكان استخدام أحماضٍ غير عضوية في تحفيز التفاعل الكيميائي؟"

وبالصدفة البحتة ونتيجة التجارب أنتج مادة جديدة بعد أن قام بتجربة تفاعل بين "الأستون" و"الهايدروجين بروكسايد"، وأطلق على المادة اسم "استون بروكسايد".

المادة كانت عبارة عن بودرة كريستالية بيضاء غير مستقرة قابلة للانفجار، إلا أن تلك المادة ظلّت حبيسة الكتب ولم تُستخدم لأيّ استخدامات صناعية أو عسكرية لأن هناك مادة أخرى أشدّ انفجارًا وأكثر أمانًا واستقرارًا اسمها TNT.

طيب وين سمعنا في مادّة بتشبه هاي المادة قبل هذا التاريخ؟ اه اه في حصار ريتشارد قلب الأسد لعكّا في الحملة الصليبية ١١٩١م، ريتشارد جاب معاه من بريطانيا منجنيق أرعب العكّاويين.

بس كان عنّا شب جدع أصلُه مصري اسمه الراضي يعقوب الأسطولي وهذا كان أمير النفاطين (اشي بيشبه قائد سلاح المتفجرات يعني) في عكا، وكان قد تربّى في كنَف الحشاشين في قلعة الموت وتعلم الكيمياء عندهم، وجاء بمادة من قلعة الموت إلى قلعة عكا بيضاء كريستالية قابلة للانفجار كان الصينيون قد اكتشفوها وسمّيت بـ"ثلج الصين".

وعندما رأى قراقوش أمير القلعة ذلك المنجنيق طلب من الراضي أن يقوم بالقضاء عليه، فكانت محاولاته المتتالية قد فشلت حتى قرّر استخدام ثلج الصين فخلطها بالتراب والقشّ ووضعها في ماسورة معدنية وسحب منها فتيلًا وتسلّل إلى المنجنيق ووضع العبوة فيه وأشعل الفتيل وانسحب، وبعد هُنيهة كان المنجنيق قد اختفى بعد انفجاره، ولا ندري إلى اليوم إن كان ثلجُ الصين هو ما توصّل إليه بعد ٨٠٠ سنة ويلفنستون أم لا.

في ١٩٨٠م وجد العدو في الخليل هذه المادة مرّة أخرى، المصادر لا تقول من صنعها وكيف صنعها ومن أين جاءت.

في ١٩٨٧م وفي منتصف الليل رنّ جرس هاتف العالم الصهيوني في جامعة التخنيون

(وأصبح عميد كلية الكيمياء لاحقًا فيها وفي جامعة تل أبيب) "ايهود كينيان".

كان على الطرف الآخر من الهاتف رئيس الشاباك الذي أخبره بمُعضلة لم يجدوا لها حلًا، المعضلة كانت أنّ الفلسطينيين استخدموا بشكل محدود ولمرّات قليلة مادة متفجرة لا تستطيع أدوات الكشف الإلكترونية أن ترصُدها ولا الكلاب البوليسية أن تشمّها، واستباقًا لما قد يحدُث مستقبلًا علينا تطوير آلية للكشف عن المادة، فقبل البروفيسور ايهود المهمة ليخوض رحلة أكثر من ٢٠ عامًا وهو يصارع تلك المادة.

بعد ذلك الاتّصال بسنوات قليلة كان هناك شابٌ ضاع في كتب الكيمياء بحثًا عن سؤال كان يراوده، ووجد الجواب في هذه المادة.

الإجابة فتحت سؤالين مهمّين، الأول: كيف بالإمكان صناعة هذه المادة بأقلّ إمكانيات مخبرية وأقلّ التجهيزات وبما يناسب الفقراء وبطريقة يمكن أن يتعلّمها أيّ شخص متوسّط الذكاء؟ كان الجواب هو ضرورة التوصل إلى PROCEDURE جديد لصناعة تلك المادّة وهذا ما حصل.

والثاني: هو كيف بالإمكان تحويل هذه المادة المتفجرة إلى سلاح؟ الجواب هنا كان أكثر سهولة نظرًا لتخصُّص ذلك الشاب في الهندسة الكهربائية.

فكانت الدائرة سهلة الصناعة لكن كانت صناعة المفجّر صعبةً لغياب الإمكانيات الصناعية، فوجد إجابة سهلة أيضًا ربطت هذه الإجابةُ ما بينه وما بين الجيش الجمهوري الإيرلندي -لأن الإيرلنديين كانوا قد استخدموا نفس الطريقة- كان الجواب عبر استخدام مصباح كهربائيّ ذو رأس مدبّب، يتمّ بَرْدُ رأس المصباح لترسل البطارية عبر الأسلاك إلى ذلك المصباح شحنة كهربائية تتحوّل فيها الطاقة الكهربائية إلى طاقة حرارية تُشعل المادة المتفجّرة.

كان هذا هو العياش، أصبح هناك سباق هائل ما بين ايهود كينيان وما بين العياش في معركة غير متكافئة، ما إن يصل ايهود كينيان إلى حلّ لسؤاله حتّى يكون العياش قد وجد المثبّط لحل كينيان.

ورحل العياش وجاء خلف المهندس مهندسين كلٌّ منهم أضاف ما أضاف في تلك المعركة المستمرة إلى الآن، لكنها لم تستمر على صعيد فلسطين فحسب، بل إن تلك المادة الآن

هي في أيدي كلّ المستضعفين والفقراء في الأرض.

هذه المادة لها ٣ أسماء، الاسم العلمي لها "استون بروكسايد"، والاسم الفلسطيني الذي تبنّاه الفقراء "أم العبد"، والاسم في دوائر مكافحة "التمرّد" في كلّ العالم هو the Mother of Satan (أم الشيطان).

٦

مدوّنات بانوراما اغتيال زئيفي

في مثل هذا اليوم قبل بضع سنين كان ذلك الشابّ يقضي نهارهُ صعودًا ونزولًا على درج فندق ريجينسي في القدس، ليقيس كم من الوقت يحتاج للانسحاب بعد تنفيذ الاغتيال.

ارتدى أجمل ما عنده، تعمّد أن يلبس في قدمه حذاءً غير مريح ليزيد من وضوح إصابته في الانتفاضة ووضع أوراق الصليب الأحمر التي تُثبت قضاءه عدّة شهور في السجن، بحث عن الكوفية المزيّنة من طرفها بشعار الحركة، توجّه إلى مكتب الحركة ليأخذ بطاقة عضوية.

وجد الرتبة: مُبرّراتي (من التبرير)
سخط واعترض وشتم
قالوا له: ارضَ بنصيبك غيرك أخذ رتبة (سحّيج)

تسلّم ذلك الشاب وزملاؤه أمر تنفيذ الاغتيال، مع مُسدّسين بكاتم صوت وقُسّمت المهام وتمّ الكشف لهم عن الهدف، آخر اجتماع قبل التنفيذ.

وقف ذلك الشابّ الوسيم أمام عاملة الاستقبال في الفندق، ابتسمت له، كان عمّال الاستقبال قد اعتادوا عليه من الأيام السابقة، طلب حجز غرفة، أخذ المفتاح، وتوجه إلى المصعد، استكشف الثلاث مصاعد في الفندق حسب ما هو مطلوبٌ منه، توجّه إلى الغرفة، كان قد وضع سيارته الذهبية من نوع (كيا) في موقف الفندق، لا يدري بعدُ من أين أحضرها مجدي، جلس ليتفحّص مدى دقّة تزوير الهوية التي أعطاهُ إياها أيضًا مجدي، رفع سمّاعة الهاتف وطلب من عاملة الاستقبال أرقام بنات ليل ليمنع الشكوك من حوله.

في مثل هذه اللّحظة كان حمدي يفحصُ الطابق الثامن، قاس المسافة ما بين غرفة زئيفي والدّرج، صُدِم من دقّة المعلومات، نعم كما قالوا لي خمسة أمتار فقط.

باقي أفراد الخلية كانوا قد استأجروا سيارةً تحمل نمرة مقدسية بهوية مُزوّرة من نوع فونتو ويتدرّبون على طريقة الانسحاب من الفندق إلى رام الله، واستأجروا سيارة أخرى باسم لؤي عودة لتكون سيارة رصد الطريق بعد تنفيذ العملية.

في مثل هذه اللحّظة كان قد أنهى حمدي فحص الفندق وذهب ليسبح قليلًا في بركة الفندق ومن ثمَّ خرج ودفع أجرة الغرفة وعاد إلى رام الله، وصل حمدي قرعان إلى رام الله، واجتمع مع رفيقيه باسل الأسمر ومحمد الريماوي في المقهى العربي.

سأل حمدي: باسل ماذا فعلت؟

أجاب باسل: حضّرتُ السيارة الفان ووضعت فيها الوسائل القتالية التي أعطيتَني إياها، عدّة قنابل يدوية و٣ مسدّسات ورشّاش من نوع سكوربيون، فحصتُ الطريق من الفندق إلى رام الله ومن الفندق إلى العيزرية.

حمدي: وأنت يا محمد هل أمّنت البيت في العيزرية؟

محمد الريماوي: أمّنتُ البيت الذي سيستخدم كبيت آمن في العيزرية.

نحن مُكلّفون من قبل القائد العام للجهاز العسكري للجبهة الشعبية باغتيال رحبعام زئيفي ردًا على اغتيال أبو علي مصطفى، زئيفي أب لأربعة أطفال ويشغل منصب وزير السياحة، عمره ٧٥ سنة وصاحب مشروع الترانسفير، ينزلُ في فندق حياة ريجينسي في الطابق الثامن، الساعة السادسة ونصف يغادرُ غرفته لقاعة الفطور ثم بعد ربع ساعة يعود إلى الغرفة هناك بووم بووم.

أنا من سيُطلق النار على زئيفي، وأنت يا باسل ستكون برفقتي في حال كان هناك من يُرافق زئيفي، وأنت يا محمد ستنتظرُنا على باب الفندق بالسيارة المجهّزة.

في حال فشلت الخطّة سننتقلُ للخطّة البديلة، علينا أن نفتح جبهةً في القدس الشرقية بالأسلحة المتوفّرة معنا في إطار سلسلة عمليات ردًا على اغتيال أبو علي.

علينا أن ننطلق إلى الفندق الآن.

وصل الثلاثة إلى البيت الآمن في العيزرية، تفقّدهُ حمدي، تفقّد المداخل والمخارج، طلب من محمّد أن يوفّرَ الشمع والطعام وراديو وأن يتخلّص من هاتفه النقّال إلى الأبد.

ركب حمدي وباسل السيارة وتوجهوا إلى باب العامود في القدس، مُؤكّدٌ أنّهم زاروا فرن المصرارة ليتذوّقوا طعم القدس.

أغلق محمّد الريماوي البيت على نفسِه، أطفأ كلَّ الأضواء وأغلق الستائر والشبابيك، البيتُ لرفيقٍ آخر يُدعى محمد.

يجبُ أن لا يُثير البيت أيَّ شكوك أبدًا، محمّد الريماوي مواليد ١٩٦٦م في مخيّم "سوف" في جرش، له أربعُ بناتٍ يسكُنَّ مع زوجته وبناته في بيت ريما في رام الله، كان كهربائي سيارات تعلّمها في أثناءٍ خدمته في الجيش الاردني.

لا نعرفُ أبدًا كيف قضى محمّد ليلته وحيدًا، بماذا كان يفكّر، شوقُه لبناته، لكن دعونا نرسُم نحن بعضًا من تفاصيل تلك الليلة.

كان قد مرَّ وهو في طريقه على بائع الكتب في شارع ركب، بالقرب من الكوكيرز، توقّف وتفحّص الكتب، لاحظ أنّ إحدى الروايات قد قدّمها الحكيم؛ روايةُ الأقانيم الثلاثة كانت رفيقتُه تلك الليلة، نعم فهي أفضلُ ما كتب لمن قد أصبحَ التخفي رفيقَه.

مؤكّدٌ أنّ نوح إبراهيم وقصائدَه الثورية كان لها نصيبٌ في ليلته، غنّاها أكثر من مرّة، "كانوا ثلاثة رجال تسابقوا عالموت، أقدامهم علِيَتْ فوق رقبة الجلّاد". حاول الوهنُ أن يتسلّل لهُ عبر زوجته وبناته، طردَ الفكرة بسرعة، حاول أن يتخيّل منظر النشوة على وجهِ كلِّ فلسطينيٍّ عندما ستأتي الأخبارُ العاجلة على قناة الجزيرة، زاد إصرارُه.

حاول محمّد أن يتخيّل خطبةَ الجمعة المقبلة، لم يجد ما يُناسب أكثر من "إنْ تكونوا تألَمُون فإنّهُم يألَمُون كما تألَمُون وترْجُونَ من اللهِ ما لا يَرْجون"، هكذا خطب إمام صلاتنا في القرية في ذلك اليوم.

تقدّمَ حمدي وباسل إلى مكتب الاستقبال في حياة ريجنسي، نفسُ الموظّفة التي كانت في الأيامِ السابقة، قالت لهُ مُرحّبةً: أهلًا بك أستاذ سامر شحادة يبدو أنّ الإقامة قد طابت لكَ عندنا.

قال لها وهو يستعرضُ أمامها باقي الألف دولار التي أعطاهُ إيّاها عاهد أبو غلمة كميزانيّة للعملية وقد أظهرَ لها بعضًا من البطاقات المصرفية: أريد غرفةً بسريرين أرجو أن تكون في الطابق الثالث فأنا لا أحبُّ الأماكن المُرتفعة.

الساعة الثامنة، انتهت الموظّفةُ الجميلة من إعداد كامل الإجراءات، نعم يبدو أنّها حاولت أن تقضي وقتًا أكثر علّ هذا الشابّ الوسيم يدعوها للخروج، سلّمَتْهُ المفتاحَ للغرفة في الطابق الثالث.

قال حمدي لباسل، اذهب للغرفة ثمّ اصعد عن طريق الدرج وانزل أكثرَ من مرّة لتعتاد الطريق إلى الطابق الثامن، على بُعد خمسةِ أمتارٍ من باب سلالمِ الطوارئ هناك تقعُ الغرفة ٨١٦ حيثُ يرقُدُ الهدف.

توجّه حمدي إلى موقف السيارات التابع للفندق، نعم الهدف في الفندق، السيارةُ الفولفو البيضاء المُخصّصة لتنقّلات الوزير ترقُد في مكانها، عاد ليجلسَ في رُدْهة الفندق مُنتظرًا رفيق باسل.

وصل باسل الأسمر ذو الـ ٢٩ عامًا إلى الغرفة في الطابق الثالث، كان أعزبًا حادّ الطباع، مُؤكّدٌ أنّ له محبوبةً كانت تنتظره، دخل الغرفة، نظر في زواياها وخرجَ إلى الشّرفة المُطلّة على المدينة المنهوبة، وضع الحقيبةَ التي معه تحت السرير ففيها مسدّسان مع كاتم صوت.

خرج باسل من الغرفة، استحضرَ تصرُّفات رجال العمل السرّي في الأفلام، نظر يمينًا ويسارًا، أغلق الباب وابتعدَ قليلًا، عاد ليتأكّدَ أنّ الباب مُغلقٌ بإحكام فهو لم يعتد على المفاتيح الالكترونية، قال في خلده "مفاتيحنا غير عن مفاتيحكم" وتوجّه إلى سلالم الطوارئ.

وصل باسل إلى الطابق الثامن الممنوع على العامّة دخولُه عبر سلالم الطوارئ المخصّصة لعمّال الفندق، مرَّ من أمام غرفة الهدف، نزل وصعد السّلالم من الطابق الثامن إلى موقف السيارات ٣ مرات، ينزلُ راكضًا ويصعدُ بهدوء، هل لي أن اتخيّل عرقَهُ المُنساب على خدّيه، نبضاتُ قلبه التي ترتفعُ بتواتر، شعره الأسودُ الطويلُ نسبيًا الناعم يغطّي عينيه كجواد أصيل. أيقنَ أنّه يستطيعُ الآن أن ينزل الدرج مُغمَض العينين. عندما كان باسل ينزلُ راكضًا عن السلالم كان يُشجّعُ نفسه بجملة يكرّرُها طوال الطريق (طاب الموت طاب الموت طاب الموت).

وفي الصعود لاهثًا مُتعبًا يردّد: فلسطيني عربي أُممي، فلسطيني عربي أُممي.

كان يجلسُ ذلك الرجلُ الهادئُ الدّمثُ ذو الشعر المختلط بين البياض والسواد، عاهد، نعم اسمُه عاهد أبو غلمة، كان قد كُلِّف من قبل القيادة بترأس الجهاز العسكري في الضفة الغربية لِما لهُ من خبرة عسكرية وتجاربَ اعتقالية ولما يتمتّع به من ذكاءٍ حادٍّ وعينٍ فاحصةٍ وسرعة بديهة، مثقّفٌ مشتبكٌ بكلّ معنى الكلمة.

طلب قهوته، كان يُحبّها بلا سكّر، أراد هذه الليلة أن يتذكّر الرفاق في كوبا فقال للشاب العامل في المقهى: أريدُها سكّر زيادة. لم يكن قد قابل الثلاثةَ من قبلُ إلا في الاجتماع الذي جمعهُم في ذلك المقهى المُنزوي بالقرب من منتزه رام الله.

حدّقَ فيهم، رأى عليًّا والحسين وأبا ذرّ، سبارتاكوس، لوممبا، عمر الزين، جيفارا، وديع حدّاد، أبطالُ ميونخ، عزّ الدين القسام، مصطفى بن بولعيد، كارلوس، محمّد بوضياف سبيتان عوض، العياش، جورج اليتيم، فقراءُ فيتنام، مزارعي التبغ في الجنوب، علي شعيب، نعم نعم نعم كانوا أقرب إلى حبيب الشرتوني. تبسّمَ وقال "لكلّ الثوار وجهٌ واحدٌ في روحي"، لا بدّ أنّهُ كان يقرأ لفرانز فانون.

عاد باسل لينضمّ إلى حمدي في رُدهة الفندق، أخذوا جولةً في الفندق لمراقبة إجراءات الأمن والاطمئنان بأنّ كلّ شيءٍ بخير، وصعدوا إلى غرفتِهم ليقضوا ليلتهم.

وصل حمدي وباسل إلى الغرفة، قام حمدي بتأمين الرُّدهة أمام الغرفة، ودخلوا، لا ندري كيف قضَوْا ليلتهم، لكن دعونا نرسُم تفاصيلها:

استلقى باسل على السريرِ بحذائه، وقف حمدي أمامَه وأخذ يغنّي لذلك الشاب خرّيج كلية الصناعة في الخليل مقطعًا من أغنية الشيخ إمام (يعيش أهل بلدي):

يا غلبان بلدنا

يا فلاح يا صانع

يا شحم السّواقي

يا فحم المصانع

أكمل الأغنيةَ حمدي وباسل يتبسّم

كمان الصحافة حتكتُب في حالتك
وتنشُر مناظر لخالك وخالتك
وتطلَع يا باسل عليك الأغاني
وتسمع باسمك في قلب القهاوي
تحبّك مُشيرة وبنات الجزيرة
وقصّة غرامك حتشيع في الرداوي

تنبّه حمدي للرائحة التي تصدُر من باسل، قال له: قوم تحمّم، أجاب باسل ضاحكًا: يحّرم عليّ الحمام قبل ما آخذ ثار أبو علي. قفز باسل من على سريره في حركة بهلوانية أصدر صوتًا عاليًا، ممّا حدا بحمدي أن يؤنّبه بكشرةٍ من وجهه، قام باسلٌ واستلّ الحقيبة من تحت السرير.

فتح الحقيبة، شهق، حمدي ما في سلاح، أين السلاح؟ هل كُشفنا؟ هل خُدعنا؟

تبسّم حمدي قائلًا: وهل تعتقدُ بأنّي بهذه السذاجة لكي أُدخل السلاح إلى الفندق وأُبقيه في الغرفة؟ لم يكن حمدي خرّيج مدارس عسكرية أو أمنية، لم يتدرّب قطّ، كذلك باسل ومحمد، لكن اعتمدوا على ذكاء الفلاح الفلسطينيّ المُمتدّ قرونًا من التجارب. استطرد حمدي: السلاحُ في السيارة لقد أعدَدْتُ مخبأً سريًّا مُسبقًا. ذهب الاصفرار عن وجه باسل وتحوّل وجهُه إلى الحُمرة خجلًا.

جلس الاثنان بالقرب من الطاولة الصغيرة، مسك حمدي القلم والورقة، وتعمّد أن يكون السطحُ صلبًا للاحتياط الأمني لكي لا يتركَ أثرًا لما سيُكتب أو يُرسم، بدأ بإعادة رسم الخُطّة والتحرّكات، أعادها على مسمع باسل، آخرُ مرةٍ سيُراجعون الخطة.

انتهى حمدي من الشرح فأشعل الورقة واستلّ سيجارةً فاخرةً وأشعلها من الورقة، قائلًا: سيقتلُني شعور الرفاهية من فندق خمس نجوم وقهوةٌ لذيذةٌ وسجائرُ فاخرة.

انسلّ حمدي إلى فراشه وكذلك باسل. حمدي ما زال يفكّر ويشغلُ باله بآليةِ عمل كاتم الصوت، كيف يستطيع أنبوبٌ طوله ١٠ سنيمترات أن يكتُم صوت المسدّس، تذكّر أنّ باسل خريج كلية الصناعة فقال لا بدّ أنّ له معرفةً بالفيزياء.

وجّه السؤال لباسل: اه يا باسل كيف بيشتغل الكاتم؟

كان في هذه اللحظة آخرُ ما يشغلُ تفكير باسل القوانين الفيزيائية، كلّ ما يعرفُه ويشغلُه الآن أنّ في رقبته مسؤوليةً تاريخية، فهذا ثأرُ أبو علي، أجاب باسل ضاحكًا: والله بكرة لأخلّي الكاتم تبعك يزغرد.

صمت كلٌّ من حمدي وباسل في محاولةٍ لأن يناموا، حمدي ما زال يعدُّ سيناريو ما سيقوله لزئيفي عند اللحظة الحاسمة.

هل أقول له: حكمت عليك الثورةُ بالإعدام، باسم الله والشعب، باسم رُضّع عين الحلوة، باسم دماء الثوار في جرش، باسم الأسرى في السجون، باسم وديع حداد، باسم أحمد الدقامسة، باسم سليمان خاطر، باسم تلّ الزعتر، باسم سنين العبودية للأفارقة، باسم الهنود الحمر، باسم شعب تسمانيا، باسم أصابع الهنود المبتورة، باسم حقول سيريلانكا المنهوبة لتمنحكم وجبة الشاي بعد العصر، باسم الرفاق في الجيش الأحمر الياباني، باسم المعدة الفارغة للرفاق في إيرلندا، باسم بوب سان، باسم المعدومين بيد فرانكو في إسبانيا، باسم المليون شهيد في الجزائر، باسم التجارب الطبية على أطفال الكونغو.

أيقن أنّهُ لو أراد أن يُحصي لمَ يجبُ قتل زئيفي فلن ينتهي في سنين طويلة.

غطّ باسل وحمدي في نوم عميق، باسل أرهقه الصعود والنزول وحمدي لم يكن قد ذاق طعم النوم منذ عدّة أيامٍ، محمّد يتقلّبُ ينام قليلًا ثمّ يصحو خوفًا من أن يسلِبه النومُ ويتأخّر عن موعده.

عاهد عاد إلى البيت، أمسك ورقةً وقلمًا، حاول أن يكتب بيان التبنّي للعملية، ألفُ ألفُ فكرةٍ في الرأس، نظر إلى الجدار المقابل ورأى صورة غسان فعرف ما سيكتب "كلّ ما نقوم به ليس إلا وسائل تعويضية عن غياب السلاح"، إذن حملةُ السلاح الثلاث هم البيان وفعلُهم الإعلان، سأكتفي بنشر الخبر على بعض وسائل الإعلام بكلماتٍ مقتضبةٍ لا أكثر.

انتصب عاهد، حرّك رأسه يمينًا ويسارًا في حركةٍ رياضية، تبسّم وحاول أن يتخيّل منظر زئيفي ملطّخًا بدمائه.

تبسّم أكثر وهو ينظرُ إلى صورة أبو علي مُناجيًا نفسه "ماذا ستكون ردّة فعل الصهاينة لو عرفوا أنّ من وضع بنك الأهداف للجهاز العسكريّ ومن حدّد زئيفي كهدفٍ مستقبليٌّ هو نفسه أبو علي"، واساه قليلًا أنّ أبو علي أخذ ثأره قبل أن يموت.

الساعةُ تدقُّ الآن الخامسة والنصف صباحًا من اليوم السابع عشر في أكتوبر، استيقظ محمد الريماوي، أمسك رشّاش السكوربيون وتفقّده، الجوّ باردٌ قليلًا، ملمسُ السلاح أشعرَهُ بالنشوة، ترك بيت الرفيق صالح علوي وتوجّه إلى الفندق في السيارة المستأجرة من شركة عرابي للسيارت بالقدس باسم لؤي عودة الملقّب بالفرنسي.

الساعة تدقُّ الآن الساعة السادسة إلا ربع، استيقظ باسل ونادى على حمدي مُحاولًا أيقاظه، ما إن همس باسل حتى ردّ حمدي: هو اللي في عندو ثأر بينام؟

أجاب باسل: طول الليل وأنا أفكّر بشيء، من أين لعاهد بكلّ تلك المعلومات الدقيقة عن تحرّكات زئيفي وغرفته ورقم سيارته الفولفو.

قال حمدي: هذا ما لا أعرفه وما لن يعرفه أحدٌ (بقي هذا السؤال لهذه اللحظة معلّقًا في دوائر الأمن الصهيوني ولم يجد أحدٌ له جوابًا وعاهد لم ولن يتكلم).

وقفا ولبِسا الأحذية، سمع حمدي باسل وهو يُرنّم "فلسطيني عربي أُممي".

الساعة الآن السادسة والنصف، كان حمدي وباسل قد أعدّا نفسيهما، خرج عاهد إلى ردهةِ الفندق، تأكّد أنّ محمد يقفُ بسيارته في الجهة المقابلة للشارع، أومأ له برأسه، شاهد سيارة زئيفي رابضةً في مكانها، عاد إلى داخل الفندق إلى قاعة الفطور، لأوّل مرّةٍ يرى زئيفي، تلاقت عيناهما لأوّلِ مرةٍ مع بعض، كان زئيفي برفقة زوجته ياعيل يتناول فطورَه الأخير قبل أن يبرقه حمدي إلى جهنّم.

عاد حمدي إلى الغرفة، قال لباسل هيّا بنا، نزل الاثنان إلى موقف السيارات، الحذر والترقّبُ والتأهّب كان سيّد الموقف، وصلا السيارةَ المستأجَرة باسم سامر شحادة بالهويّة المزوّرة، وقف حمدي يراقبُ وأخذ باسل جولةً صغيرةً في الموقف لكي يتأكّد من عدمِ وجود كمين، توجّها إلى السيارة، فتحها محمد وأخذ الحقيبة التي فيها السلاح، استلّ المسدّسين وأمسك الكاتم وقال (عذرًا ناجي) خبّأ كلٌّ منهما مسدّسه بين طيات ملابسه وعادوا إلى سلالم الطوارئ.

انطلق الرفيقان من على سلالم الطوارئ إلى الطابق الثامن، وقفا أمام المصعد، سحبا المسدّسين، قاموا بتفحّص المسدسات، ذخر كلٌ منهما مسدّسه. حمدي قرّر أن لا يقتُله حتى تتقابل عيونُهما مع بعض. باسل تمنّى أن يرافق أحدً زئيفي لكي تكون له حصّةً أكبر في أخذ الثأر.

الإشارة الضوئية للمصعد تدلّ على أنّه في طور الصعود. ١-٢-٣.

أنهى فطورَه بكأس عصيرٍ من برتقال يافا المُصادر، عاد ليأخذ حقيبته، ربّما كان فيها أوراق خُططه للترانسفيرٍ، وحتمًا تحتوي على نشرة مقترحة للسياح تُصادر التاريخ وتحرِّف الرِواية، وقف أمام المصعد، مرّت من أمامه فتاةٌ شقراء، أمعن النظر في مؤخّرتها المكتنزة، دخل إلى المصعد وضغط على زرّ الطابق الثامن.

حمدى طلب من باسل أن يقف على باب سُلّم الطوارئ، أطاع باسل مُبتسمًا. الأدرينالين يرتفعُ منسوبُه تصاعديًّا كلّما ارتفع الرقم على لوحة المصعد الالكترونية، توسّعٌ في البؤبؤ، اتّساع القصبة الهوائية، انقباضٌ في رأس المعدة، جفاف الحلق، بروز العضلات، النبض أيضًا يرتفع.

عند وصول الرقم إلى ٧، كتم نفَسَه ليضمن إصابةً أدقّ وليكُن متأهّبًا، شريطٌ طويلٌ من المحاكمات، لا مجال للأرقام فلسنا أرقامًا، وجوهٌ وأسماءٌ وقصصٌ وعائلاتٌ وبيوتٌ وأشجارٌ مرّت أمام حمدي.

صوت عويل النساء على أبو علي يصمُّ أذنيه، تلويح القبضات بالهواء توعّدًا في جنازة أبو علي يمنحُه مزيدًا من الإصرار يرى نفسه مُكلّفًا من كلّ فلسطينيٍّ بهذه المهمة.

توقّف المصعد وانطلقت صافرة تيت تيت، فتح المصعد، بدء باب المصعد ينزلقُ رويدًا رويدًا، حمدي يحرّكُ رأسه يمينًا ويسارًا ليحصُل على أفضل زاويةٍ ليستكشف من في المصعد، ظهر ضخمًا، أيقن حمدي أنّ المشهد ينقُصه شخرةٌ من كتلةَ العنصرية هذه.

ناداه بلقبه (هيه غاندي)، هذا ما كان يتساءل عنه حمدي، كيف لهذا القبح أن يسمّى غاندي. اه يا شرقنا كم سرقوا منك، التقت العيون، حدّق زئيفي في عيون حمدي، رأى إصرارًا وأيقن أنّ هذا من سينفذ عليه الترانسفير إلى جهنم.

رأى حمدي في عيون زئيفي مدى الوهن والضعف والجُبن، فما الظالم إلا وهمٌ في عقل المظلوم، هذه هي اللقاءات الوحيدة المشروعة بيننا وبينهم بالضبط كما رسمها وخطّط لها وتمنّاها حمدي.

ثلاثُ رصاصات في النصف العلويّ من الجسم، حملتها كلّ آهاتِ المستضعفين في الأرض، صراع التحرّر والاستعمار لُخّصَ في موقفٍ لم ينزل عينيه من عيني زئيفي.

نظر حمدي إليه صريعًا يشخُر، أيقن أنّه نفّذ المهمة، انقطعت أنفاسُه أخيرًا.

استدار حمدي فالتقت عينيه في عيني باسل فرأى كلّ فلسطين في تلك العينين

٧

كبر الولد وصار بطل

(كتبت بعد تنفيذ الأسير صبحي أبو خليفة عملية طعن في القدس في العام ٢٠١٥).

هاظ شباب مخيم شعفاط بتعاملوا مع المخيم وأرض المخيم بمنطِق السيادة، يعني مين ما كان حاول يدخل المخيم بالخاوة تلاقي شباب المخيم فَزَعوا عليه، حتّى جيش العدو لمّا كان يحاول يدخل يعتقل تاجر مخدرات أو يعتقل حد على تهمة جنائية كانت تولّع الدنيا، حتّى سيارات الإسعاف تاعت نجمة داوود كانت توكل حصّتها من الضرب.

في يوم من الأيام كنت مداوم في الصيدلية في المخيم، وإلا ٣ دوريات جيش جايين يعتقلوا أحد الجيران، بيت الجار بيفصِله عن الصيدلية درج عرضه متر، وكالعادة الشباب دقّت في الجيش حجار، الشباب بترمي طوب ودبش عن ظهر البيوت. وإلا في هالولد الأسمراني الصغير بجوز ١١ أو ١٢ سنة سامع صوت القنابل الغازية والصوتية وطالع من الدرج حامل حجرين بإيده، باقي الولد مش عارف وينَ الجيش موجودين، لمّا طلع من الدرج لِقي حاله بينهم، أنا كنت فاتح باب الصيدلية بالمُواربة وبتفرّج شو بصير، لمّا طلع لقي حاله بينهم، مش إنو يشرُد أو ينزل الدرج كمان مرّة، لا الأخ وقّف وسفقهِن لجندي في وجهه وهرب.

لمّا هرب مدّيت إيدي وسحبته جوّا الصيدلية أخبّيه لإنه بيحتاج يركض ٦٠ متر في مساحة مفتوحة فخفت إنهم يصاوبوه.

دخل عندي بقلّه تعال أخبّيك في المخزن أحسن ما يكبسوا يعتقلوك، أو أهربك من الشباك الخلفي، قلّي لا لا استنّى. صار يفتح باب الصيدلية ويمدّ إيده ويسحب شويّة حجار من اللي بتيجي باب الصيدلية ويضربها على الجيش، المسافة كانت أقل من عشرة متر بين الباب وبين الجيش، يعني كل ضرباته صابت، يضرُب ويسكّر الباب وييجي يتخبّى عندي ورا الكاونتر، والجيش لمّا ينضربوا يركضوا باتجاه باب الصيدلية ومش عارفين الحجار منين جاية، بس لما يتطلّعوا على الصيدلية يلاقوني لحالي واقف ورا الكاونتر ولابس اللابكوت.

لمّا الجيش انسحبوا، بقلّه يا ولد أنت نمرود، ابن مين أنت؟

قلّي من دار أبو خليفة

قلتله بقربلك فلان وفلان

قال اه

بقلّه شو اسمك

قال صبحي

اليوم صبحي بطل ولد صار شب، اليوم صبحي أبو خليفة نفّذ عملية طعن في القدس.

والله يا عمّي إنو سبع ومن هو ولد صغير

الله يفكّ أسره.

٨

سنن ثورية فلسطينية

١. شكل الثورة أو المقاومة الفلسطينية متموّجٌ ولكنّه لم يتوقف نهائيًا، بغضّ النظر عن الشكل/النوع الذي كانت تُمارس خلاله عملية المقاومة، وذلك لأنّ الصراع مع الاحتلال الصهيوني صراعٌ وجوديّ.

٢. صراعٌ دائمٌ بين تيارين: تيارٌ فضّل التعامل مع العدو الصهيوني أملًا بتحصيل أيّ شيءٍ أو أيّ مكاسبَ جزئية من طريق هذا التعامل والعلاقة بغض النظر عن شكلها ونوعها، وتيارٌ رفض التعامل مع العدو أيمانًا منه باستحالة تحصيل أيّ شيءٍ أو مكسبٍ من العدو الصهيونيّ إلا عبر المواجهة. وهناك ملاحظةٌ بأن مُنحنى، نسبة

التعامل بين التيارين من جهة والعدو الصهيوني من جهة، أخذ شكل المُنحنى الطبيعي الذي يضمّ تياراتٍ بين الرفض التامّ للتعامل مع العدو الصهيوني وبين تيارٍ تعامل بشكلٍ تامٍّ ووظيفي مع العدو الصهيوني، وبينهما تراوحت فئات الشعب الفلسطيني. ويشكّل وسط المنحنى أغلبية الشعب الفلسطيني الذي يتأثّر بعوامل الشد والجذب من التيارين عبر وسائل متعددة.

٣. في كل فترةٍ ممتدة بين ٩ إلى ١٥ سنة هناك انتفاضةٌ أو هبّةٌ فلسطينية قويّة منذ عام ١٨٨٢م إلى وقتنا الحالي. وكان يصاحب هذه الثورات دائمًا حالةٌ من انسداد الأفق السياسي والإحباط في الوسط الفلسطيني، وكان العدوّ الصهيوني وحلفاؤه بالعادة ما يمارسون خداعًا لوأد هذه الثورات عن طريق فتح نافذة صغيرة جدًا لأُفق الحلّ السياسي. والذي كان يخلُق التناقض التاريخيّ بين تيارَي المواجهة والتسوية هو أنّ حجم تلك النافذة الصغيرة لا يسمحُ إلا لتلك الفئة بالدخول منه دون بقية شرائح الشعب الكبيرة بالنسبة لتلك النافذة الصغيرة. ولم تكُن تلك الفئة الصغيرة -إن فتحت تلك النافذة الصغيرة- قد تكون لتوريط تلك الفئة بالتنازل عن حقوق وثوابت للشعب الفلسطيني.

٤. على طوال العمر الزمني لثورات الشعب الفلسطيني، فإنّ تلك الثورات كانت تتأثّر بثورات دولٍ محيطة.

٥. سبق كلّ ثورةٍ في فلسطين بواكيرَ من الثورات الصغيرة والهبّات الصغيرة، وقد لعبت هذه البواكير دورَ الكشاف الذي يبيّن للشعب الفلسطيني إمكانية المواجهة والردع والتأثير في العدوّ الصهيوني وحلفائه. كما كان لهذه البواكير دورَ تحديد الاستراتيجيات والتكتيكات الخاصّة بتلك الثورة.

(من الصعب جدًا يجي حد يقعد في صالون ثقافي ولّة في مؤتمر ويقول هاي هي الاستراتيجية لِما بعد الثورة ولا مرّة صار هالحكي ولا في مكان في العالم. استراتيجية الثورة كانت تنشقّ بالعضلات، العضلات مش العقل، العضلات هي كانت تفتح المجالات للعقل في الأول كان يجي الفعل بعديه تيجي الكتابة والعقل الذي يكتب عن الفعل وينظم الجهد العام للفعل الموجود.)

٩

هل فلسطين جميلة؟

هو أكثر الأسئلة التي طُرحت عليّ، وبقدر سهولة السؤال فهو من أصعب الأسئلة، هو أصعبُ من سؤال (كيف حالك؟؟).

صعوبة الإجابة على السؤال لأنّك تُدرك أنّ معنى السؤال (هل يستحقّ هذا الشريط الساحليّ الضيّقُ كلّ هذه الدماء ؟؟) وأنت وهو تعرف أن الجمال نسبيٌّ وأن بيئتك هي التي تصقُل ذائقتك الجمالية التي تختلف عن شخصٍ آخر، وهنا تضطرّ أن تبدأ في المقارنة والمقاربة لإعطاء إجابةٍ سهلة.

لكن فعليًا فلسطين هي الأجملُ بالنسبة لي، ليس بخُضرتها أو زُرقتها أو صُفرتها أو حُمرتها أو زرعها وخيرها وطبيعتها. جمالُها في أنّها هي من منحتْني جوابي في البحث عن المعنى وهي من أجابت عن أسئلتي الوجودية وتمنحُني مبرّر وجودي وتعالجُ قلقيَ الدائم.

١.

حين قطع عددٌ من البريطانيين الأطلسيّ باتّجاه القارة الجديدة في أوائل القرن السابع عشر، تقريبًا ١٦٢٠ ميلاديّة على قاربٍ اسمه ماي فلور، ونزلوا على الشاطئ على صخرةٍ اسمُها بيلموث.

الوافدون كانوا همجًا لا يعرفون الزراعة والصيد، قام ساموسيت وسكوانتو بتعليمهم الصيد والزراعة وأنقذوا حياتهم، ما أن تعلّم المهاجرون -الحجاج- أساليب العيش في العالم الجديد حتّى قاموا بإبادة كامل القبيلة وتمّ تدشينُ عصرِ أكبر إبادةٍ مرّت على التاريخ .... "ساموسيت وسكوانتو" اللذان يضعان على رؤوسهم الريش .

١١

فوق التلّ تحت التلّ

بين الوادي والوادي

يا ويلو منّا المحتل

الثورة فتحت الزنادِ

قبل ٧٠٠ عام قال ابن واصل "وكَمَنوا لهم تحت كلّ رابية" هكذا يصفُ مقاومة الفلسطينيين للغزو الصليبي. تركت لنا رحلاتُ الحُجّاج الصليبيين إلى فلسطين تأريخًا وتوثيقًا لمقاومة الفلسطينيين للوجود الاستيطانيّ الصليبيّ في فلسطين.

وليم الصوري ودانيال الروسي والحاج سايلوف وثّقوا لنا تلك المعلومات.

بعد سقوط فلسطين في يد الحُكم الصليبي وبداية إنشاء المستوطنات الصليبية لم يرْكن الفلسطينيون إلى الهدوء والراحة. ولتوضيح الصورة يذكرُ الشارتري في تاريخ الحملة عن عام ١١٢٥ ميلاديّة أنّ المستوطن لم تكُن لديه فرصةٌ لالتقاط أنفاسه، وأنّه كان يعيش في توتّر وقلقٍ دائم بسبب دقّات طبول الحرب، لدرجةِ أنّه كان يعود إلى منزله مُحمّلًا بالمؤن، والأغذيةِ مُتسائلًا عمّا إذا كان يستطيعُ العودة إلى حقلِه مرّةً أخرى.

وقد استهدفت المقاومة في طورها الثاني هذا ضرب الاقتصاد الصليبي المعتمِد على الزراعة (أباد الثوار في العام الأول لثورة الـ٣٦ ٢٠٠ ألف شجرة لليهود وحرقوا ٤٠٠٠ فدّان من المحاصيل) لإجبار المستوطنين على العودة إلى بلادهم عبر مصادرة الامتيازات الممنوحة لهم وعبر تسفيه أحلامهم بالثروة والغِنى.

١٢

نقطتان

الأولى: على طول الوقت كنّا نمرّ بثلاث مراحل نفسية (خضوع، اضطهاد، انتفاض)، كان شرطًا لكي نصل إلى الانتفاض أن نمرّ بمرحلة الاضطهاد، في تلك المرحلة يشعرُ الناس بمدى الذلّ والهوان، في هاي المرحلة عادةً العدو كان يلجأ لإجراءات للحيلولة دون الانتقال إلى الانتفاض ولضمان عودة المجتمع إلى الخُضوع، كان العدوّ يقوم بعمل حُزمتين، حزمة إجراءات أمنيةٍ لتشديد القبضة الأمنية بشكلٍ خفيٍّ والتحضير لأيّ طارئٍ في حال خرجت الأُمور عن مسارها، والحزمةُ الثانية كانت تخفيف الإجراءات العقابية ومحاولة رشوة المجتمع رشوةً جماعيةً وعمل تسهيلاتٍ للمجتمع وتحسين الظرف الاقتصادي.

في مرحلة الاضطهاد الناس في المجتمع بنقسموا لعدّة أقسام، قسم يختار أنّه بكامل إرادته ليعود الى مرحلة الخضوع في اعتقادٍ منه أنّ الخضوع سينجّيه من الويلات

القادمة وأنّ الخضوع أقل الشرّين، وقسمٌ يحاول سحب المجتمع والدفع به إلى الانتفاض، وهناك قسمٌ ثالثٌ وعادةً بيكون هو الأكبر، هذا القسم الذي لا يعود يتحمّل العبء النفسيّ الهائل من شعوره بالذلّ والعار ويدرك أنّ الانتقال إلى مرحلة الانتفاض يحتاجُ إلى تقديم تضحيات حقيقية، فما يقوم به هو أن ينتقل فقط على مستوى اللغة إلى الانتفاض لكن على باقي المستويات الأخرى فإنّه يلجأ إلى إزاحة هذا الشعور إلى من هم أضعف منه في المجتمع، يعني يشعر بأنّه بحاجة لأنْ يمارس العنف كحاجةٍ ضرورية، فيمارسه داخل مجتمعه، يختار أهدافًا أسهل وأقلّ ثمنًا، هذا السلوك يؤدّي إلى ازدياد العنف المجتمعيّ بشكلٍ هائل، طُوش وحوادث سير ومشاكل وتوتر، وفي نفس الوقت يقوم بتحميل الآخرين مسؤوليةَ ما هو فيه.

فعليًا هذا هو الحاصل الآن، من فترة وكلّ تقارير العدوّ تتحدّث عن احتمال قيام انتفاضة، فقاموا بعمل الحزمتين لتفادي هذا. وأيضًا حجم العنف المجتمعي المنتشر الآن هو دلالةٌ على مدى شعور المجتمع بحالة الاضطهاد.

النقاشاتُ الدائرة الآن والردح المُخزي بين قطاعات من الشعب، إن كانت قطاعاتٍ مناطقية أو حزبية أو فكرية وتحميل كلّ طرفٍ مسؤولية الأمر هو من ضمن عمليةِ الإزاحة (حتّى القيامِ بصبِّ كلّ غضبك على السلطة يندرجُ ضمن عملية الإزاحة وتختارُ هذا لأنّه هدفٌ أسهل وهذا لا ينفي ضرورة مقاومة السلطة لكن وفق شروطٍ وقواعد معيّنة).(ومثلًا أصبح مطلب ضرب راسم الكاريكاتير المُسيء أكبر من مطلبِ الانتقام من العدو).

إن كنت تودّ أن تشارك العدو والمتخاذلين في سحب المجتمع وإعادته للخضوع فشارك في تلك الحوارات واطّلع، وإن كنت تودّ أن تكون من الفئة التي تسحب المجتمع إلى الانتفاض فكفّ لسانك.

النقطة الثانية:

خلّصنا رثاء وتفجّع وحسرة على علي دوابشة؟ يلّا نلعب لعبة ونتوقّع وين الضربة القادمة للمستوطنين، أو شو رأيكم نظلّ نبكي على هذا الطفل حتّى الطفل التالي؟، في مثل شعبي بيقول "ما بيتّاخذ بعد الحذر إلا القوم الردية" (بيتاخذ يعني يؤخذون على حين غرّة)، واحنا تمّ تحذيرنا بشكلٍ متتالي على طوال عشر سنوات سابقة أنّ هناك من يكيد لنا ومع

هيك في كثير من الأحيان استطاعوا أخذنا على حين غرّة لأنّنا لم نتجهّز.

الأمر لا يحتاج بناء بنية مادية معقّدة جدًا وليس بحاجة لموارد ومصادر تفوق إمكانية المجتمع، الأمر بحاجة فقط لمجموعات من الشباب في كلّ قرية بإنهم يحرسوا بيوتهم وقراهم، والاعتماد على الذات مش نقعد نرّدَح ونطالب بحماية، والله ما حد بيقدر يحميك إلا إيدك.

١٣

عن قباطية

ولكأنّ أهل قباطية يلِدون أبناءَهم من صخرِهم كما ينزِعون خبزهم من صخرِهم أيضًا، وقباطية هي تحريفٌ لقماطية فإنّ قلبَ الميم إلى باءٍ جاء ليزيد صفة الموصوف دقّةً وجمالًا واختيالًا؛ فالقمْطُ هو الشدّ، فنقولُ للغطاء الذي يشدّ ويضمّ أعضاء الطفل ويسنُد جسده القماط، وفي صناعة الحجر نقول للحجر الذي يعلو الفراغ بابًا كان أم شباكًا بالقمط، لأنّه يشدّ باقي البناء إلى بعضه ويرفعُ الحمل ويحمله ويسنده، ولا استقامةَ لمن لا قمْطَ له.

وفي قلب الميم إلى باء زيادةٌ في جمال الوصف؛ فحرفُ الباء استعانةٌ ومصاحبةٌ واستعلاءٌ وقسَمٌ وغاية، وإن قلنا في أغانينا "أهل قباطية والجيش تغلب والهم فعايل منها بتتعجّب" فوالله ما قُلنا إلا حقًا، فوالله ما من ثورةٍ لنا إلا وكان أهل قباطية قِماطها.

فما بالكم بهم ذكورًا وإناثًا يذودون عن الديار في صدّ الفرنسيين وفي ثورة ١٨٣٤م وفي البراق والثورة الكبرى والـ٤٨ وفي الـ٦٧، وأوّل قريةٍ بايعت -بأكملها- الثورة فصعدوا إلى الجبال جميعًا ليُقسِموا على تحرير فلسطين من البحر حتّى النهر، وفي فهودها السوداء ونسورها الحمراء وقسّامها.

والله ما قباطية إلا شدّ ثوراتنا وقِماطُ شعبنا تلفُّنا حتّى يشتدّ العود.

١٤

الزواج المبكر

"بما أنّنا محكومون لواقعٍ اجتماعيٍّ موضوعيٍّ فان الزواج المبكّر هو حلّ أغلب أفراد المجتمع".

ما هو سنّ الوعي والإدراك؟ ومن يحدّد سنّ الوعي والإدراك؟ وهل من المُمكن لشخص ما عمره ٣٠ ومع ذلك بناءً على بيئته وحياته لم يصل لسنّ الوعي والإدراك فبالتالي يُمنع من الزواج؟

والسؤال الأهمّ، ما هو الوعي؟

مثلًا أبو مازن يبلُغ من العمر ما يقارب الـ ٨٣ عامًا ولا يملكُ الوعي ولا الإدراك للواقع المحيط بهِ فهل أبو مازن بهذه الحالة يتواجد في مرحلة الزواج المبكر؟

وهل حقيقةً هنالك علاقةٌ بين العمر وبما يسمّى وعي؟

بدايةً مقولةُ الإدراك والوعي هي مقولةٌ نسبيةٌ ويوجد بها الكثير من الإشكاليات وثانيًا: الزواج المبكر يُعرّف على أنّه الزواج قبل بلوغ ١٨ سنة.

إذا وسّعنا النظر، فكم من فتاةٍ سوف نجدها تبلغُ من العمر ١٤ عامًا وهي في درجة من الفهم والإدراك أكثر من بنتٍ في الـ ٣٣ من عمرها. ولذلك فإنّ المتداول هو مجرّدٌ وهم ليس إلّا، واجترارٌ لمقولاتٍ جاهزةٍ فما القصّة في ذلك؟ وما هو الجهاز الموجود لكيٍّ نستطيع القياس به إن كانَ هذا الإنسان قد وصل للإدراك أم بعد، وما هو المقياس الحقيقي؟

هل لنا بأن نعرف؟ نحن نعلم بالطبع أنّه لا يوجد وإن بحثنا طويلًا. ولا يوجد أيٌّ منّا يمتلك هذه السلطة ليعتبر أن الباقين غيرُ مدركين. هذه فوقيةٌ ما بعدها فوقية واحتقارٌ للبشر هائل.

في التاريخ: أغلب قوانين العالم تعتبر أن أي زواجٍ أقلّ من ١٨ هو زواجٌ مبكر، بعضُها تعتبره ٢١ سنة.

نكرّرُ السؤال، من هو صاحب القرار في تحديد ذلك "أقلّ من سن ١٨ طفلٌ وأكبر من ١٨ ليس طفلًا؟ الجواب: القانون. والقانون كما نعلم أن من وضعه هم البشر ذاتهم، يقومون بوضعه وفق المصالح والاحتياجات والضرورات أو لغاية السيطرة والتحكّم في البشر.

مثال: سن الطفولة في ألمانيا من سنة ١٩٤٥م لسنة ١٩٨٨م كان ١٦ مش ١٨. لماذا؟

ببساطة .. في ألمانيا كان هنالك نقصٌ في الأيدي العاملة ومن أجل التوفير في الأيدي العاملة جعلوا عمرَ التكليف أو البلوغ ١٦ بدل ١٨ ،وهكذا كان بالإمكان "قانونيًا" البدءُ في العمل منذ سن ١٦. ولذلك أيضًا فكرة تحديد عمر الطفولة ليسَ مقدّسًا. مثال آخر: في أميركا في أغلب الولايات ممنوعٌ شرب الكحول لمن دون الـ ٢١ سنة "قانون ١٩٢٩". ولكن مسموحٌ أن تقتل وأنت في الـ ١٨ من عمرِك؛ لانَ سنّ التجنيد ١٨ ولكن سنّ الكحول ٢١.

لماذا هكذا؟ لأنّهم كانوا بحاجة لمقاتلين وبالتالي لم تكن هنالك أيُّ مشكلةٍ لإنزال عمر التجنيد لـ١٨ من ٢١. لبنان أيضًا تمارس نفس القانون في حقّ الانتخاب وهو ٢١ وليس ١٨.

كلّ القصة هذه أتت في العالم تقريبًا منذ ١٥٠ عامًا منذ اندلاع الثورة الصناعية في أوروبا حيث أنّه قبل الثورة الصناعية كان الولد أو البنت على حدٍّ سواء عندما يصل عمره إلى ١٥ في حينه يكونُ الشخصُ قد تلقّى التعليم الذي يحتاجُه في تلك الفترة، وتعلّم صنعةً أيضًا ليجني منها المال.

فتتكوّن العلاقة الطردية بين العاملين، أي عندما يصل الإنسان سنّ المراهقة يكونُ في نفس الوقت في سنّ التأهيل-سنّ التأهيل يعني العمر المطلوب ليُصبح الشخص مؤهّلًا فيه ليصبح ربّ أسرة.

المشكلة التي نجمت في وقته، عندما ارتفع سنّ التأهيل بسبب الاحتياجات اللي فرضتها الثورة الصناعية، ما نسمّيها عصر الحداثة وأصبح سنّ المراهقة لليوم ١٥ ولكنّ سنّ التأهيل ارتفع لأنّ التعليم ازداد وصار التعليم التخصّصي وتفرّع في العلوم وتوسّع وتدريب ومهن، وهذا ارتبط ببداية موت العمل الحرِفي الأسريّ وانتشار العمل المهني الوظيفي. انخلق عندنا وقتها الوظائف التي تخصّ البرجوازية وهم أرباب العمل.

فصار سنّ التأهيل ٢٥ سنةً، وظلّ المراهقة ١٥. أي هنالك فارقٌ في عشر سنين يمنع فيهم ممارسة الجنس، بحكم أنّك لا تستطيع الزواج بسبب أنّك غير مؤهّلٍ بعد.

هذا مع الوقت خلق مشاكل اجتماعية كبيرة واحتاجوا الأكثر من ١٠٠ سنة لغاية ما حلّوا الأمر. الأزمة هذه قد انحلّت بالشكل التالي: الأزمة التي تتمثّل في تناقضٍ ما بين الحداثة والطبيعة الإنسانية المحكوك لقيم دينيةٍ تمنع الجنس خارج الزواجِ. كان حلّ الأزمة فعليًا هو إباحة الجنس عبر استبعاد الدين.

لقد بدأت هذه الأزمة عمومًا في المجتمع الفلسطيني تقريبًا في الثلاثينات وكانت فقط محصورةً في أولاد الزّنا البرجوازية، وبعد النكبة استفحلت الحالةُ وصرنا في وضع أوروبا قبل ١٥٠ سنة، صار من الضروري أن تُنهي تعليمك وبعدها تتدرّب وتجدُ مهنةً وبعدها تجمع المال وبعدها تتزوج، وهذا ارتبط مع انتشار النزعة المادّية الاستهلاكية الرأسمالية فأصبح لدينا كمٌّ هائلٌ من المشاكل الاجتماعية، أكبرها الكبت وكلّنا مكبوتين، لأنّ الكبت حالةٌ اجتماعيةٌ عامةٌ وليس حالةً شخصية.

حتى من يتزوج يبقى مكبوتًا أيضًا؛ لأنّ الكبت عدوى مثل المجاعة starvation. فيُصبح من المعقول القول أن رام الله لوحدها في السنة الماضية كان هنالك ٣٥ ألف حالة طلاق، بسبب الكبت، الكبت اللي صنعته الحداثة، ولهذا لا يمكن إلغاء حقيقة أنّ الجنس مهمّ، لدرجة أن الإسلام شرّع قوانين الزواج قبل الصلاة. لقد حارب الإسلام الزنا كثيرًا، مع أن مجالات الجنس واسعة، مثل تعداد زواج وزواج متعة وزواج مسيار وجواري ....ومع ذلك كانت الناس تزني، لقد كان العديد من مجالات الجنس ومع ذلك كانوا يقومون بالجنس خارج هذه المجالات.

لحل القضية يتوفّر لنا حلّان: الحلّ الأول إما نقوم بترك كلّ الموروث الثقافي والديني ونصبح تمامًا مثل أوروبا، أو نترك الحداثة، ونرجع إلى نمط حياة أجدادنا، نتجوّز في عمر الـ١٣، وباعتقادي لن يتمّ حلّ هذه الأزمة لأنه في تناقض بين الإسلام والحداثة.

وهنا نتمكّن من السؤال: لكي يستطيع البشر من ممارسة الجنس في الوقت الذي يلزمهم، علينا إما أن نُبيح العلاقات الجنسية مثل أوروبا أو نختار الزواج المبكر.

وكلّي يقينٌ بأنّه لو تمّ الفرضُ على كلّ المجتمع الزواج قبل الـ١٨ وأنّ من يتأخر هو أكثر الناس عيبًا مُعظم مشاكلنا سوف تقضى، أوّلها أنّنا نتحرّر من السيطرة الاستعمارية على نظام حياتنا ثم نتحرّر من منظومة الزواج الكاثوليكي.

قبل ٥٠ سنةً كانت المرأة في مجتمعنا تتزوّج وتتطلّق ٥ مرات ولم يكن بذلك عيبٌ في أعين المجتمع. الحداثة هي سبب أزمة الطلاق وأصبحت المطلّقة ما بعدها تعتبر عيبًا وعارًا. لماذا عار؟

لشيءٍ واحد، أصبح بالإمكان أن تُضاجع بلا أن يتمّ معرفة ذلك.

ماركس يعرّف القانون على أنّه عبارةٌ عن ترجمة مصالح البرجوازية للتحكّم والاستفادة من البروليتاريا، وأنّ فكرة وصول الوعي والإدراك والفهم كلّ هذا وهمٌ، من قال أن الوعي الذي تصل إليه في لحظةٍ من حياتك هو الوعي الصحيح؟ بعد بسنة تكتشف أنك لم تكن واعيًا عندما تنظر إلى حياتك السابقة، وتكتشف أنّ هناك وعيًا لكن أيضًا هناك وعيٌ زائف.

وصدقًا عندما نسمع من مؤسّسات النسوية الحالية وماذا يقول الإسلاميون عنهنّ، على أنّهم يستهدفوا المرأة وخطرٌ على مجتمعنا، هذا صحيح، للأسف صحيح، المغفّلين من اليسار الجدد الليبراليين تحديدًا هم من يقومون بهذا ويستنكرون عليه، وتجد بعدها صبيةً عمرها ٢٢ وتعمل في مؤسّسة نسوية ما تعيب على بنت عمرها ٢٣ لأنها لا زالت صغيرة وهذا تخلّف وزواجٌ مبكرٌ مرفوض. الشيءُ الوحيدُ المرفوض في "الزواج المبكر" هو الغصب والإجبار، ومعاملةُ الناس على أنّهم غير مدركين وليسوا بفهمانين شيءٌ مُقرف.

الخلاصة: التعليم المؤسّسي هو ليس كلّ ما تكتسبه، أنا أعرف في التاريخ وهو ليس بتخصّصي أكثر مما أعرف في الصيدلة وهو تخصّصي، كلّ ما نعيشُه وهمٌ، يقنعوك أنّ حياتك تدمّرت وانتهت لأنك لم تعش حياتك وفق المرسوم لها كما رسمته البرجوازية والسلطة القائمة.

الأغنياء كانوا يتأخرون في الزواج في الماضي، والفقراء يتزوّجون مبكرًا، ولليوم ..هذا رأيي. "أقنعونا أنّ الحياة مستحيلةٌ وأنّها مدمّرةٌ لو ما عشناها مثلهم يشعرونك وكأنهم يعطوك الخيارات. لكن فعليًا أنت تمتلكُ خيارًا أو اثنين من ضمن الخيارات التي أعدّوها لك"، هذه برمجة، والأغبياء من التقدُّميين يظنّون بأنّهم أفهم من الناس وهم بعيدين كل البعد عن هذا.

١٥

بدأت الآن الدعايةُ المضادة واستحلافُنا بدم الشهداء بأن ننتبه لحجم المؤامرة التي يحيكُها هؤلاء الشباب أصحاب الأجندات. عفوًا غيّروا من هذا الأسلوب، قسمًا بالله سمعناه في مصر وسوريا واليمن وتونس والبحرين وليبيا .. نفس الكلمات والاستعطاف والترجّي وكأنّ هؤلاء الشباب هم من تنازلوا عن الساحل.

إن لم تعرف هؤلاء الشباب فاسأل عوفر عنهم واسأل الولجة والنبي صالح وقلنديا واسأل خضر عدنان واسأل ثائر وبلال والسرسك. تتّهمون هؤلاء الشباب بالتمويل الأجنبي، أنا أستحلفكم أن تسألوا عبد اللطيف القدّومي عن الذين قمعهم أمام كلّ مؤتمرات التطبيع وقِمم الشباب المُموّلة أجنبيًا. واسألوا سيادة المُقدّم عن فندق الروكي وحمايته لمتنازلي وثيقة جنيف.

اسألوا اسفلت المنارة عن روّاد المُصالحة من هم، اسألوا شارع الشهداء، والقائمةُ تطولُ وتطولُ.

هل تريدون معرفة من يتلقّى تمويلًا أجنبيًا؟ سأقول لكم، أجهزة الأمن هي أكبرُ مُتلقٍّ للدعم الأمريكيّ مالًا وعتادًا وتدريبًا وخُططًا ومعدّات وفي النهاية لا تحمينا من مستوطنٍ واحد.

إن كنّا أصحاب أجندات أجنبية وتملك تلك الأجهزة أدلةً علينا فهذا لا يُديننا، نحن يدينُنا القضاء، لكن إذًا كنّا كذلك وتملكون أدلةً لماذا ندعي لك لاجتماعٍ مع الرئيس ومنظّمة التحرير والفصائل والمؤتمرات، لماذا يدعونا ماجد فرج لمقابلته، لماذا يدعونا الرئيس لمقابلته، الأحرى إن كنّا عملاء أن نكون في السجن لكنّهم أفّاقين كذّابين دجّالين، نحن نرفض المفاوضات العبثية من المبدأ، وهم يعتبرون المفاوضات نضالًا وكفاحًا، لا تنخدعوا بدعايتهم الكاذبة.

يكفي كذبًا، يكفي تدجيلًا ...

١٦

قصة قصيرة

غرافيتي وحائط يتيم

تعثّر في أثناء نزوله عن درج البيت، وقع وتلطّخت ملابسه، وقف وشتم الاحتلال، اعتاد على مثل هذه العثرات واعتاد أهلُ القرية أن يهبّوا لمساعدته، قِصرُ عظمة الفخذ اليسرى نتيجة رصاصة دمدم لم يكن يُخجله أبدًا، كانت شهادةً له أينما ذهب على حجم تضحياته ونضالاته، أطفال القرية حتّى كانوا يتعمّدون تقليد مشيته إعجابًا به.

وصل إلى سيّارته وشقّ طريقه إلى المجلس القرويّ في الشارع الذي قام المموّلون بتوسعته، اختفت كل زقاق البلدة القديمة التي كان له فيها صولاتٍ وجولاتٍ، مرّ أمام ذلك الحائط اليتيم الذي رفض أن يتمّ هدمُه أبدًا في إطار توسعةِ البلدةِ القديمة، ووافقه أهل القرية على هذا؛ فعند هذا الحائط استُشهد أحمد وفقد هو ثلاث سنتيمراتٍ من عظمة فخذه، تبسّم وهو يقرأ الفاتحة على روح أحمد ونظر إلى ذلك الغرافيتي الذي ما زال واضحًا لشعار العاصفة على الحائط، تذكّر تفاصيل تلك الليلة، أحمد يقف ملثّمًا وهو يحرس ويراقب خوفًا من قدوم جيب حرس الحدود، فجأةً سقط أحمد مع سماع صوت الرصاص، حاول أن يهرب لكن خانته قُواه، نظر إلى رجله فأيقن أنه أصيب، لم يكمل الشعار تحت الغرافيتي، كان قد كتب (لا صوتَ يعلو فوق صوت ...).

في اليوم التالي كان مقيّدًا إلى سرير المشفى العسكريّ وفوقه لافتة (مخرّب)، شباب القرية المتحمّسين أكملوا الشعار بكلمة (الانتفاضة) بدمائهم عند مرور جنازة أحمد من أمام ذلك الحائط، أصبح تقليدًا في القرية أن تتوقّف المسيرة السنوية لعيد الاستقلال بضع دقائق أمام هذا الحائط، وترفع التحية العسكرية لذلك الغرافيتي الذي كلّف حياة أحد شبّان القرية وكلّفه إعاقةً مُستديمة.

وصل إلى مبنى المجلس القروي، كان قد لاحظ السيارة المرسيدس التي اشتراها علي والتي يتحدّث كلّ أبناء القرية عنها ،علي حديث النعمة والمقاول الكبير في المستوطنات والذي تعرّض في الانتفاضة الأولى عدّة مرات للتحقيق من قبل الفصائل لبعض الشكوك التي تحوم حوله قد أصبح رئيسًا لمجلسهم القرويّ.

ترأّس علي الجلسة، كان من ضمن الحضور كلّ أعضاء المجلس وقادة الفصائل في القرية ومدير المركز الشبابي، والنادي الرياضي، ومديرة النادي النسوي، ومدير مركز الأطفال بالإضافة إلى مهندس المشروع ومندوبٍ من الجهة المموّلة، الاجتماع سيُناقش الرتوش الأخيرة في التحضير للاحتفال المزمع عقدُه كخاتمةٍ للمشروع.

تمّ الاتفاق على تقسيم المهام والفقرات، المركز الشبابي سيقدّم فقرةً للدبكة وأكّد مدير المركز أنّ الفرقة تتدرّبُ على دبكة جديدة تسمّى بالزمر، لطالما شعر المُناضل بالغثيان من تلك الدبكة المُستحدثة التي تختلطُ فيها حركاتٌ الدبكة التقليدية مع حركات رقص الهيب هوب المُستوردة، النادي النسوي سيقوم بتحضير الضيافة وقد تمّ تخصيص ميزانيةٍ

خصوصية لتلك الضيافة، مركز الأطفال سيقدّم رقصةً تعبيريةً صامتةً وأحد شباب القرية سيقوم بعمل فيديو عن المشروع وتنمية القرية، تسألُ المناضل في خلده لماذا لا يوجد مارش عسكري كما تعوّدنا في كلّ احتفالاتنا؟ وقد وقع عليه الاختيار بالإجماع أن يقوم هو بإلقاء كلمة نيابة عن فعاليات القرية لما يحظى باحترام وتقدير من كافّة أهالي القرية. طلب علي من الفصائل أن تقوم بالحشد الجماهيري لأهالي القرية لحضور الاحتفال، صمت القادةُ فهم يعرفون أنّه لم يعُد بإمكانهم تحشيد الجماهير، لكن أنقذهم مدير المركز الشبابي ذو الميول الليبرالية والمُناهض للعنف والمتحدّث بطلاقةٍ بالإنجليزية أنّه هو وباقي المراكز من سيقومون بالتحشيد.

جاء دور المهندس أن يقدّم تقريره للحضور عن المشروع وبعض إشكالياته، واقترح أن يتمّ دهان جدران القرية باللون الأبيض لإخفاء الخربشات القديمة التي كانت باللون الأسود والأخضر والأحمر، لإعطاء مظهرٍ جماليٍّ للقرية، وافق الحضور وكان أكثرهم تحمّسًا وتشجيعًا عليّ قائلًا: علينا أن نبدو متحضّرين ونظيفين أمام الأجانب، همس المُناضل لنفسه: "علي يريد أن يمحي اسمه عن تلك الجدران، فهل يستطيع أن يمحو تاريخه المُشين من عقول الناس؟"، وتمّ الاتفاق على الحفاظ على نظافة جدران القرية من الخربشات وتعهّدت الفصائل بهذا.

وأكمل المهندس بأنّ مندوب الجهة المموّلة الأجنبيّ يريد أن يضع لافتةً لوصف المشروع وقد اقترح أن يضع اللافتة في وسط ذلك الحائط الذي يُعيق الطريق فهو أكثر مكانٍ مناسب، وأكمل المندوبُ قائلًا: "It is the ideal position". صمت الجميع وولّوا وجوهَهم نحو المناضل يريدون أن يسمعوا ما سيقول، سكت المُناضل، فكّر قليلًا وتذكّر تلك الكلمة التي كثيرًا ما يسمعُها هذه الأيام في التلفاز وفي مقرّ الإقليم (براغماتي)، وقال: لا مشكلةَ أبدًا.

في اليوم المشهود استيقظ المناضل مبكّرًا، لبس لأول مرة في حياته بدلةً رسميةً بعد حلق الذقن مرّتين مُتتاليتين، كان أيضًا قد اشترى حذاءً طبّيًا والكعب للفردة اليُسرى يرتفعُ ثلاث سنتيمتراتٍ ليُخفي إعاقته؛ ففي هذا اليوم سيحضُر القنصل لحضور الافتتاح كذلك تلفاز الدولةِ الرسميّ سيقوم بعمل تقريرٍ عن المشروع والاحتفال.

خرج من البيت متوجّهًا إلى مكان الاحتفال حيثُ نُصبت المنصّة أمام الحائط اليتيم، لم يتعثّر هذه المرّة على درج البيت، وصل إلى مكان الاحتفال، كلّ القرية مجتمعةٌ ومندوبي

الوزارات والشخصيات المهمّة والقنصل يجلسون في الصف الأول، الكاميرات متأهّبة، ابتدأ الحفل بقطع الشريط وإزالة الستار عن اللوحة التي وُضعت فوق الغرافيتي وكتب عليها " مُقدّم من الشعب الأمريكي إلى الشعب الفلسطيني" وفي أعلاها كلمة USAID.

حانت اللحظةُ لكي يصعد إلى المنصّة ويلقي بكلمة فعاليات القرية والتي كان قد سهر طوال الليلة الماضية لكتابتها، وكان قد استبدل التحية التي كان معتادًا عليها "تحية العروبة والوطن والتحرير"، بجملة "تحيّة البناء والدولة والتنمية".

اقترب من درج المنصة، خانته قدمُه مرّةً أخرى ووقع أرضًا، ضجّ الحضور ضحكًا لهذا المنظر المُخجل.

وصرخ أحدهم من بعيدٍ مُستنكرًا: "ألم تجدوا غير هذا المُعاق ليمثّل القرية؟ فضحتونا، ليش ما خلّيتوا علي يلقيها؟".

١٧

عن أم المجد زيادة

اليوم انتقلت إلى رحمة الله تعالى أم المجد (لطفية الشريف زيادة) زوجة النقابيّ المناضل محمود زيادة وأمّ رفيقتينا راية وحرّية وأم الأسير مجد، مجد بكرها الذي يقضي حكمًا بـ ٣٠ سنة في سجون العدو.

هناك موقف لن أنساه ما حييت عن هذه المرأة. قبل بضع سنوات قرّرنا إغلاق مقرّ الأمم المتّحدة في فلسطين، المبنى يقعُ في رام الله داخل مربّع أمنيٍّ للأجهزة الأمنية ومؤسّسات دولية، كان قرارًا خطيرًا لإغلاق المبنى، قرّرنا إغلاقه احتجاجًا على تواطؤ الأمم المتّحدة مع العدوّ الصهيوني وسكوتهم عن إضراب الأسرى وعدم تحرّك الجهات الحقوقية الدولية ذات الاختصاص.

التحرّك كان غيرَ علنيٍّ، حوالي ٥٠ شابًا وشابةً، لم نعلن عن الأمر لتفادي إحباط مساعينا عبر إغلاق المنطقة ومنع الوصول لها، كانت الفكرةُ تدور حول أن نصل قبل الموظّفين ونُغلق المبنى ونمنع الدوام ونسلّم رسالةً للأمين العام، كنّا نسمّيه تكتيك الإغارة لاحتلال الحيّز العام.

في ذلك الوقت كان ما يزالُ القمع على أشدّه، لا أخفيكم أنّ الخوف كان رفيقنا، كنّا نعلم أنّ الأمر تحدٍّ للسيادة المزعومة للسلطة، إغلاق مثل هذه المؤسسة هو اختصاصٌ سياديّ يحتاج إلى قرارٍ من أعلى الهرم السياسي والأمني.

بعد لحظة وصولنا وإغلاق المبنى وتعليق الشعارات، كنّا حوالي ٥٠٠ شخص، قام الأمنُ باستجلاب قوّات مكافحة الشغب والشرطة الخاصّة، عددُهم ضعفُ عددنا، وقد أدركنا أنّه من المستحيل أبدًا أن يكون هناك أيّ تهاونٍ في التعامل معنا.

نحن أمام المبنى، عناصرُ من الشرطة باللّباس المدنيّ حاولوا فكّ الطوق حول البوابات، وحاولوا اختراق تجمهُرنا، ما كان منّا إلا أن تجمهرنا جميعًا أمام الباب الرئيسي وأغلقناه بأجسادنا.

بعد فشل العناصر المدنية في الشرطة من اختراق الكتلة البشرية التي أغلقت الباب، تقدّمت الشرطة الخاصّة شاهرين عصيّهم باتّجاهنا، كان هناك قرارٌ من قبل المنظّمين بعدم التصادم مع الشرطة والأمن.

هي مرّاتٌ قليلةٌ التي شعرت فيها بكمّية الخوف هذه، أدرك أنّ كلّ الموجودين شاركوني الخوف دون أن يصرّح به أحد، في لحظة وصول الأمن وقد أدركنا أنّها ثوانٍ قليلةٌ لتبدأ العصيّ بالانهمار على رؤوسنا حتّى اخترقت امرأةٌ المساحة المتبقيّة بيننا وبين الشرطة شاهرةً صورة شاب، نعم إنها صورة مجد المُضرب عن الطعام، أعرفُ مجد لكن لم أكن أعرف أمِ المجد، فما أن رأيتُ صورة مجد حتى عرفتُ أنّها أمّ مجد وحرّية وراية. دخلت غاضبةً ترفع صورة مجد في وجوههم، تصيح في وجوههم أن يخجلوا. وقفوا ولم يتقدّموا ولو خطوةً واحدة، كأنّما على رؤوسهم الطير.

الصمت ساد للحظات والكلّ يسمعُ كلماتها، كلماتُها كانت لنا سيفًا، كلماتها ضخّت فينا الشجاعة. مديرُ الشرطة يأمر عساكره بالتقدّم ولا أحد يجرؤ منهم بأن يخطو خطوةً واحدة. بعد قليل انسحب الأمن. في ذلك اليوم أمّ المجد وحدها من حمانا. الله يرحمك يا أمّ المجد ويفكّ أسر مجد.

١٨

عندما اجتمعت الأساطير وُلد صلاح

بروميثيوس[١] كان هناك، كلابٌ شيطانيةٌ تنهشُ كبده، سرق شعلة النار بسكّينه ليهديها لمن ظنّ بأنّهم يستحقون المعرفة، ألقاها لنا، انطفأت بفعل بُصاق الكلمات من أفواه أصحاب الأنوف المُستطيلة البينوكيّين الذين يحرّضون على البناء والدولة.

طريق الآلام رسمتها خطواتُ نعلك البنّي نحو قيامة الفقراء، مسيحٌ يُستنسخ في كلّ يوم، روحٌ هائمةٌ لم تجد إلا بني قومك مُستقرًا لها، صليبه كان خشبًا، صليبك ترابٌ وحجر، إن صليبك الأرض المُشتهاة فلا تلقيها كما ألقى ابن مريم صليبه ورحل.

فيتزوفيوس[٢] هذه المرّة كان بين ميلاد نبيٍّ وموت نبي[٣]، سبارتاكوس[٤] لم يقطع الميدان مُطأطأ الرأس بل حملوه على حمّالة إلى قبو العبيد المجالدين، تلفّت حوله فرأى عبيدًا منّا لبسوا زِيّ حاشية القيصر، وأطلقوا مشروعًا وطنيًا لإقامة دولة العبيد بمشيئة كراسوس[٥].

اللات اشتاقت إلى إيل، حزنُها الأزليّ تفجّر، منعها جبل الربة والأحمر صار أحمرَ ورماديًا وكائنات شقر مخضرّين تنهرها عن إيلها [٦].

يستصرخ بينلوبي[٧]، أما آن لكِ أن تتوقّفي عن لعبتكِ السمجة، لم يعد أحدٌ يرجوكِ له زوجة، عند خوف العبيد لا يقذفون إلا شتائمَ وأدرينالين، أمّا التستستيرون فهو لرفاهية الأحرار، لا تخيطي لكِ ثوبًا ولا تخيطي لي كفنًا، خيطي لهم أقنعةً ومقاليع.

عزيزي صلاح ...

إذا لاقيت الملائكة نوصيك بهم رفقًا، فلهم في بدر صَوْلة ...

لا تقلق فقد عرفنا قبلك ألف ألف، وسنعرفُ بعدك ألف ألف، نُتقن النُّواح وضرب الهواء بالقبضات، والنسيان كذلك نتقنه، سنختار لك زاويةً تليق بحجم ألمك على حائط مهجور، وستظلّ هناك حتّى موسم المطر القادم إذا ما غادرت الشقاوةُ أطفالها، لا تقلق علينا سنظلّ نعلّم الحرباء فنّ التماهي، لا تقلق سنرِثُ الأرض لأنّ الشجعان يموتون على المشانق والجُبناء يظلّون وحدهم ليرثوا الأرض.

ستظلّ أسئلة الشيخ إمام تقرعُ رأسي وإن أجدك لها مجيبًا
يمكن صرخ من الألم من لسعة النار بالحشى؟
يمكن ضحك أو ابتسم أو ارتعش أو انتشى؟
يمكن لفظ آخر نفس كلمة وداع لأجل الجياع؟
يمكن وصية للي حاضنين القضية بالصراع؟
ادعوا لصلاح الزغير بالشفاء.

١٩

على غير عادتي جلستُ قبل قليلٍ لأشاهد التلفاز، وبالصدفة أيضًا وعلى غير عادتي وضعتُ على قناة الأقصى لأجدَ أنّ هناك حفلَ تخريجٍ لضبّاط شرطةٍ وأمنٍ وطنيٍّ تابعين لحكومة غزة، هنيّة كان حاضرًا، وليس هذا المهمّ.

المهمّ انه قبل ١٢ عامًا كان لي زميلٌ في المدرسة، هذا الشاب ينحدرُ من أسرة من العائدين، في الانتفاضة لمع اسم أخويه محمود وأحمد، محمود استُشهد أثناء زرع عُبوةٍ بالقرب من خطّ ستين، وأحمد أصبح علمًا من أعلام الانتفاضة، اسمُه كانت تتناقله الفضائيات، كان مسؤول تنظيم مخيّم الدهيشة وكان خبيرَ متفجّراتٍ ورجلًا دمث الأخلاق مهذّبًا ضخمَ الجثة كما كلّ أفراد عائلته. بيتهم قُصف ثلاثَ مرّات، إحدى تلك المرّات تمّ قصفُه بصاروخ أرض أرض، أخوه عليّ فقد عينه في المواجهات، أمّا أحمد فقد كان مسؤولًا عن إرسال الاستشهاديين.

أثناء حصار المهد قام صديقي بحماية أخيه المطلوب أحمد بحيث أنّه أشاع وفاته واستشهاده وقد أذاعت الجزيرة والعربية وأبو ظبي الخبر، أتذكّر مدى الحزن الذي ساد، صديقي كان يحتمي في الكنيسة وهو أيضًا مطلوبٌ للاحتلال، كان ١٧ عامًا ومسؤولًا عن تجنيد وإرسال استشهاديين.

عند الوصول إلى الصفقة المشبوهة التي تفاوض رجال السلطة مع العدوّ عليها إلى حيّز التنفيذ تمّ نقل كلّ من كان بالكنيسة إلى معسكر عتصيون، وتمّ فحص وتشخيص الأسرى، صديقي كان يحمل شهادة ميلاد ابن خالته، وانطلت الحيلةُ على العدوّ وأطلق سراحه، بعد فترةٍ وأثناء محاولة العدو اعتقال أو تصفية أحمد قام صديقي بالتغطية على انسحاب

أخيه من المخيم ليقع هو في الاعتقال، وبعد عدّة شهور وقع أيضًا أحمد في الاعتقال، ليُحكَم صديقي مؤبدين وأكثر من ثلاثين سنة وأخوه أحمد حُكم أكثر من عشرين مؤبّدًا.

انقطعت أخبار صديقي ولم أرَه أبدًا، وقبل عدّة شهورٍ وأنا أمرّ أمام مخيم الدهيشة تفاجأتُ بوفاة والدته، وقد سمعتُ عن إطلاق سراحه ضمن صفقة وفاء الأحرار (شاليط) إلا أنّي لم أجد اسمه ضمن القوائم ونسيتُ الأمر.

بالصدفة عندما وضعتُ على قناة الأقصى كان عريف الحفل يُنادي لتكريم الطالب المثالي في دورة الضباط، سمعتُه ينادي "علي المغربي" الأسير المحرّر من مدينة بيت لحم الصمود. خفَقَ قلبي لحُبّ هذا الشاب وأنا على إدراك أنّه لم يعد يتذكّرني إلا أنّه لم ينفكّ يعود إلى ذاكرتي دومًا، كان جميلًا طويلًا مُلتحيًّا رياضيًا سريعَ الحركة. يا الله كم أسعدتني رؤياك يا عليّ!

٢٠

لماذا النقب؟

مشروع استيطان النقب (لا تتفاجأ، الاستيطان ليس فقط في القدس والضفّة الغربية) هو أهمّ مشروعٍ استراتيجيٍّ لدى العدوّ في العقد القادم، أوّل خطوة في ذلك المشروع هو تمريرُ قانون برافر ...العدوّ وبعد حرب ٢٠٠٦م وحرب ٢٠١٢م قرّر أن يقوم بتفكيك مجمّع غوش دان وتوزيع المواقع الاستراتيجية له في العُمق لتفادي أيّ انهيارٍ في منظوماته أثناء أيّ حربٍ مُقبلة، وعُمق العدوّ الوحيد هو باتّجاه النقب.

هنا النقب.

٢١

مالك مدينة روابي التي تمّ فيها عقد المؤتمر الصحفيّ لـ #أوبريت_روابي يملك مبادرةً لمساعدة الفلاحين الفلسطينيين. تخيّل المبادرة هي تعليم الفلاحين الفلسطينيين في الأغوار حيثُ أخصبُ بقاع الأرض كيفية الزراعة الصحراوية، وتمّ التدريب في مزارع صهيونية في النقب، كلّ هذا لتخفيف احتجاج الفلاحين على مُصادرة المستوطنات في الأغوار للمياه وحرمان المُزارعين منها.

٢٢

يتحمّلُ وزير الأسرى عيسى قراقع المسؤولية المُباشرة على موافقة الوزارة على رعاية روابي لما يُدعى بأوبريت نداء الحُرّية. هذا #أوبريت_روابي وهو نداء لزيادة المبيعات في المدينة المُتعثّرة مبيعاتُها باستغلال قضية الأسرى.

كلّ قلاع الصُّمود من قرًى ومدنٍ ومخيمات فلسطينية لم تكن مناسبةً لإطلاق الحفل وتمّ إطلاقُه في مدينة الفلسطينيين الجُدد. قبّحت سائرٍ هذا الدهر.

٢٣

بربكم كم مرّةً علينا أن نُكوّن عسقلان جديدة.

عند احتلال الصليبيين لعسقلان في الحروب الصليبية صمدت تلك المدينةُ تحت الحصار ٥٠ عامًا، وقاتلت على الأسوار صباح كلّ يومٍ في تلك الخمسة عقود.

حتّى دبّت الشهامة في حاكم القاهرة (يحمل اسمًا فخمًا) فقرّر أن يجنّد الجند لفكّ الحصار، ما إن قطع مسافةً قليلةً مُبتعدًا عن القاهرة حتّى حنّ إلى بغايا القاهرة فعاد، فدبّ الوهنُ بين أهل عسقلان فسقطت.

في تأريخ معارك النكبة ستجدُ انّ هذه الحالة تكرّرت أكثر من مرّة، صمد الناسُ وقد وعدهم القادةُ بالمَدد والنفير وعندما لم يأتِ دبَّ الوهنُ بهم.

٢٤

وإذا ما تجاوزنا فكرة الضّرر والاستلاب وترسيخ الاكتئاب الوجوديّ لدى الشباب، وإلهائهم في ما لا ينفعُ فإنّ برامج المسابقات وكمثال اراب ايدول يدفع إلى مزيدٍ من ترسيخ مفهوم الدولة القُطرية، شخصيًا ألاحظُ الشوفينية الفلسطينية في أوج انتشارها في الترويج لمُتسابقٍ اسمه محمد عساف.

حتّى المصروفُ بأمر الحاكم فيّاض يقوم بالترويج له ويقول هذا نصرٌ لفلسطين، أي تلحسوا .... ، والصراحة هل هذه معركةٌ مُشرّفةٌ لأخوضها وأبذلُ بها جهدًا ؟ أنا شخصيًا أُصوّتُ لحذاء الدقامسة ولا أصوّتُ لأكبر رأسٍ مُشاركٍ في مثل هذه البرامج.

٢٥

من الآن: يجبُ الالتزام التّام برواية المقاومة.

لا حديثّ إلا عن جنديٍّ صهيونيٍّ مفقود، لا تعرفُ المقاومة مصيرَه، فما بالنا نحن!

لدى المقاومة جنديٌّ واحدٌ مأسور، اسمه: "شاؤول أورون"، سمعناها تُعلن عنه في التلفزيون. والاحتلال أعلن فقد جنديٍّ آخر، ولا يعرفُ أحدٌ شيئًا عن مصيره.

كفّوا ألسنتكم.

٢٦

داعش ظاهرةٌ طارئةٌ على التاريخ، عرفنا عشرات الدواعش في تاريخنا من الخوارج إلى القرامطة إلى الحشّاشين و و و، كلّها كنّسها التاريخ ولم يمتدّ أثرُها وضررُها لفترةٍ طويلة، وسرعان ما ذابت.

لكن الاستعمار نعرفُه جيدًا، نقتُله من هنا يجيئُنا من ألف هناك، فاجرٌ ماكرٌ قتّالٌ مُبيدٌ مبير، مقرٌّ مستقرٌّ طويل الأمد شديد العزيمة والإصرار مكثرٌ للتكرار. الاستراتيجية العسكرية التي أعلنها أوباما للتحالف قائمةٌ على القصف الجوي العنيف الذي لم تعرفْهُ منطقتنا أبدًا، والتوقّع أن يستمرّ لثلاث سنوات، مجازرُ حقيقيةٌ قادمةٌ سيكون جلّ ضحاياها من العراقيين الأبرياء. لا يوجد هناك ما أتمنّاه الآن أكثر من هزيمة التحالف.

٢٧

بما أنّ هناك حديثاً عن عمليةٍ بريةٍ يجب الانتباه لعدّة نقاط:

١. المقاومة الفلسطينية هي تشكيلاتٌ عصابيةٌ استراتيجيّاتُها تتّبعُ لمنطق حرب العصابات أو الحرب الهجينة التي أصبح العرب والمسلمون ساداتها في تجاربنا في أفغانستان والعراق ولبنان وغزّة، الحربُ لا تكون أبدًا وفق منطق الحروب النظامية والدفاع عن نقاط ثابتة وحدود، بالعكس تمامًا أنت تقوم بجرّه إلى الكمين، ولا تلزَمُ موقعك الثابت لتدافعَ عنه، أنت تقوم بالمُناورة والحركة والانسحاب والهجوم على جوانبه وعلى المؤخّرة، فلا تقيسوا أبدًا على الحروب النظامية.

٢. العدو سيقوم بنشر صورٍ وفيديوهات عن اختراقه لغزة واحتلاله لمبانٍ سكنية أو وجوده في مناطق عامّة ورموزٍ معروفة، وهذا يأتي ضمن الحرب النفسية، في حروب العصابات أنت تسمحُ لعدوّك أن يتحرّك كما يُريد لكي يقع في كمينك لتضرُبه ضربتك، أنت من تُحدّد مكان المعركة ووقتها، يعني ممكن أن ترى صورًا من ساحة الكتيبة أو السرايا أو الرمال أو شارع عمر المختار، إياكم أن تُهَدّ عزيمتكم؛ فالأصلُ المعركة بنتائجها الكلّية وهذا استعراضٌ لا أكثر.

٣. لا تقوموا بنشر دعاية الاحتلال أبدًا، ولا تساهموا في استدخال الهزيمة، هذه يجب التركيز عليها، فسُرعان ما سنبدأ بالحديث عن توغُّلٍ واسع في بيت لاهيا والنصيرات مثلًا، لا تقوموا أبدًا بنشر الفزع وكُن عونًا للمقاومة ولًا تقُم بنشر أيٌ خبرٍ يقوم الاحتلال ببثّه (وانسوني من أخلاقيات وحِياد الصحافة، فكما الصحفيُّ الصهيونيّ مقاتل، أنت أيضًا مقاتل).

٤. سيقوم العدوّ ببثٍّ صورٍ عن أسرى، بالأغلب أنّهم سيكونون مدنيين لكنّ الهدف هو الإيحاء بالسُّقوط السريع للمقاومة، فلا تصدّقوهم.

٥. سيقوم العدو بعمليات نوعية تكتيكية لاغتيال بعض الرموز، وكلّ هذا ضمن الحرب النفسية، من مات ومَن سيموت لن يؤثّر أبدًا على منظومة وتماسُك المقاومة، لأن بُنية وتشكيلات المقاومة ليست مركزيةً بل أفقية ومُنتشرة، لكنّ الهدف هو التأثير على حواضِنِ المقاومة وأهل المقاومين وهؤلاء هم فقط من يستطيعون التأثير على رجال المقاومة.

٦. خسائرنا البشرية والمادّية المباشرة ستكون أكثر بكثيرٍ من العدو، وهذا طبيعيٌّ فحروب العصابات تعتمد أصلًا على الإرادة والعنصر البشريّ ومدى الصبر والتحمُّل، ونحن أقدر منهم بكثيرٍ على تحمُّل الفواتير، فلا داعيَ للمقارنة أو أن تهتزّ لحجم الأرقام.

٧. حروب اليوم لم تعُد حروبًا وصدامات جيوش فقط بل هي صراع المجتمعات، لنكن كالبُنيان المرصوص ونلعبُ مع العدوّ لَعبة عضّ الأصابع يا مجتمعنا يا مجتمعهم.

أخيرًا كلّ فلسطينيٍّ (بالمعنى الواسع أي كلّ من يرى فلسطين انتماءً نضاليًا بغضّ النظر عن الهويات الفرعية)، كلّ فلسطينيٍّ على ثغرٍ من ثغور فلسطين فإيّاك أن تؤتى من قبلك.

٢٨

يكونُ هدفُ الطرف المُهاجم إخضاع العدوّ، ويكون هدف الطرف المُدافع عدم الخضوع وإجبار المُهاجم على اليأس من مواصلة القتال، هذه هي الحرب. مثلما انحسرت رويدًا رويدًا أهدافُ العدوّ المُعلنة في الحرب على غزة، كان من الممكن في حال لو أنّ المقاومة فشلت أن يتمدّد هدفُ العدوّ إلى مصادرة حتّى سكاكين المطبخ من بيوت الغزّيين.

تخيّل معي لو فشلت المقاومةُ في دفع العدوّ لليأس من مواصلة القتال، آلافُ الجُثث في الشوارع، عشراتُ آلافِ المُعتقلين العرايا، انتهاك كلّ موقع ذي رمزيةٍ سيادية في غزة، جبالٌ من الأسلحة الخفيفة المُصادرة والتي في طريقها إلى البيع في سوق حربٍ ما في إفريقيا، مساحاتُ أضعاف أضعاف ملاعب كرة القدم من مخزون الصواريخ، مُجنّدةٌ روسيةٌ تتموضعُ أمام الكاميرا بوجهٍ ممدودٍ بجانب رمزٍ قياديٍّ أسير، جُنديٌّ لم يبلغ العشرين يرفع قدميه على مكتب رئيس الوزراء في غزة ... شغّل خيالك.

في الحقيقة فلسطينيون كُثُر كانوا يتمنّون هذه المشاهد.

٢٩

هناك حركةُ مقاومةٍ شعبيةٍ قويةٍ جدًا في كلّ فلسطين، بعيدةٌ كلّ البعد عن البلاغة وخرجت تمامًا عن عصر الصورة ذات السياق العالمي.

بيوتُ المستوطنين تُسرّق يوميًا، بلاغاتٌ بسرقة مئات السيارات، أحراشٌ تشتعلُ هكذا فجأةً، شبابٌ يواجهون في نقاط التّماس، شبابٌ آخرون يصنعون نقاط تماس جديدة ويجرّون العدو إلى داخل قراهم، أناقة المظاهرات اختفت تمامًا، إصاباتٌ يومية للشباب ويُخفون إصابتهم ولا يتباهون بها هنا أو هناك، لا وجود للصحافة في أغلب تلك المواجهات التي تتّخذ طابعًا خفيًّا.

كلّ هذا الفعل لا يكونُ له هذا التأثير الكبير في مراحل الهدوء لكن وقت الحرب هذا تكتيكٌ من تكتيكات الحروب التي يوكَلُ بها للمدنيين وغير المُسلّحين، هذا هو التخريب Sabotage.
#هذي_الأمة_تعطي_درسا_في_التخريب

٣٠

التطبيع ليس أكبر الموبقات، هناك ما هو أكبرُ بكثير، التمويل من الـ USIAD جريمةٌ تفوق التطبيع بكثير.

يذكر عبد الله البردوني التمويل الأجنبيّ في قصيدته "الغزو من الداخل" بـ"صدقات وحشيّ يؤنسن وجهه الصخريّ" لكنّ الأمر يتعدّى الأنسنة للوحش الغربي، الأمرُ يصلُ للهندسة الاجتماعية وكيٍّ وعي المجتمع، بعد العولمة وأثر انسحاب الدولة من قطاعات كثيرةٍ أصبح لمؤسسات المُجتمع المدنيّ دورٌ أخرُ وهو أن يملؤوا الفراغ (التمويل الغربيّ والغزو عبره لم يبدأ مع العولمة هو أقدم لكن اختلفت طريقة العمل مذ البدء بالعولمة)، لتصبح مؤسّسات المجتمع المدنيّ التي بُنيت بعرق الشعب إلى ذراعٍ من أذرع الاستعمار.

الأمر ليس فقط الفيتينغ ووثيقة نبذ الإرهاب هذه أيضًا من أهون الجرائم.

خطّة كيري المرحلة الأولى التي تمتدُّ إلى ٣ سنوات (أغلب نقاط المرحلة الأولى قد تمّت وحجم البشر والمؤسّسات المُتورّطة أضخمُ ممّا تتصوّرون) تنصُّ صراحةً على أن "سينحصرُ الصرفُ على تسويق السياحة على دعم المانحين خصوصًا الـ USIAD" وأريحا هي من ضمن المناطق المُستهدفة في الخطّة السياحية لكيري، والمهرجانات هي من أهمّ أدوات ترويج السياحة كما تنصُّ عليها وثيقة كيري.

من يشاركُ في مهرجانٍ مدعوم من الـ USIAD وضمن مخطّط كيري هو مشاركٌ فعليٌّ في تصفية القضية. بالمناسبة ألشيخ إمام قام بغناء قصيدة الغزو من الداخل.

٣١

في سنة ١٩٢٩م بعد ثورة البراق كانت أحكام القضاء الإنجليزي مُتحيّزة للصهاينة وقاسية اتّجاه العرب، وانحكم بحدود ٣٠ شابّ بالإعدام.

كان في شابّ صغير عمره تقريبًا ١٥ سنة اسمه محمد عبد الغني أبو طبيخ من قباطية وكان آذن في المحكمة، هذا الشب ما رضي أن يعطي الدنية، وحط مخزن رصاص المسدس في جسم المدّعي العام البريطاني بنتوتيش. فيا حبايبي بلا لطم على ٥٢٩ حكم إعدام من محكمة واحدة ومن ثلاثة قضاة ومن مدّعي عام واحد.

سيف زيادة في كربلاء كان ممكن يصنع فارق أكثر من كلّ اللطميات، أربع رصاصات كمان راح يصنعوا فرق حقيقي واخرُجوا من هالجبن. إلا أن الدعي ابن الدعي قد ركّز بين اثنتين، بين السلة والذلة، هيهات منّا الذلة، يأبى الله لنا ذلك ورسولُه والمؤمنون، وحجورٌ طابت وطهرت، وأنوف حمِية، ونفوسٌ أبيّة من أن نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام.

٣٢

نحكي كيمياء

يستخدم العدو غاز الفلفل للاعتداء علينا، النوع الذي يستخدمونه هو صناعة العدو أو صناعة بريطانيا وتسمى التركيبة التي تُستخدم بـ "triple action pepper spray".

عادةً يتمّ التعامل بشكلٍ خاطئٍ مع آثار المرذوذ، في الأصل يجب عدم فرك الرذاذ ولا استخدام الماء أيضًا في تنظيفه، لأنّ هذا سيزيد من انتشار الرذاذ على الجسم ممّا سيزيد فاعليته.

هذا الرذاذ غير قابل للذوبان في الماء (insoluble in water)، لذلك لتنظيفه وإزالته عن الوجه والجسم، يجب تحويله ليصبح قابلًا للذوبان في الماء.

كما نعرف أنّ المواد غير القابلة للذوبان في الماء يتمّ استخدام سوائل حامضية أو قاعدية لتحويلها إلى ذائب، يعني بنزيد الـ PH أو بنقلّلها، طبعًا خطير جدًا أن يتعرّض الجسم لمادّة حامضية لأنّها حارقة جدًا، لذلك نضطر لاستخدام مادّة قاعدية نخلطُها مع الماء لجعل الرذاذ ذائبًا في الماء (وكمعلومةٍ على الهامش، فإنّ سبب وجود تقرُّحات في مكان حقن المدمنين على الهروين هو أن الهروين غير قابل للذوبان في الماء لذلك يضطر المدمن أن يضع بعض نقاطٍ من الليمون أو الحامض لجعل الهروين يذوب في سائل الحقن لذلك تتركُ حُقن الهروين تقرُّحات وعلامات على مكان الحقن).

وأفضل مادة قاعدية نستخدمُها هي دواء الحموضة السائل maalox، نخلطُ الدواء بكمية مساويةٍ من الماء ونغسل أماكن وجود الرذاذ، في أقلّ من دقيقةٍ سيكون أثر الرذاذ قد زال، ممكنٌ أيضًا استخدام شامبو الأطفال جونسون آند جونسونٍ لكنّ فعاليته أقلّ.

٣٣

غيّرت المقاومة في غزة قواعد الاشتباك عبر تغيير تكتيكاتها بما يُناسب واقعها وظروفها وجغرافيّتها وطوبغرافيتها لذلك نجحت في الانتصار. في الضفّة يجبُ التعلّم من الأخطاء وعدم تكرار تكتيكات الانتفاضة الأولى والثانية بدون دراسةٍ وبما يناسب الوضع الحالي.

والواقع يقول أنّه لا حاجةَ في الضفّة لمظاهراتٍ عدديةٍ ضخمة تنتهي بالاشتباك مع العدو، لأنّ الجُغرافيا لا تتحمّل، أيّ شخص يعرف كيف تحدُثُ المواجهات في المدن يُدرِك أن ١٠٪ من الموجودين في ساحة الاشتباك هم من يشتبكون وذلك لظروف الأرض، فعادةً يحدث OVERLOAD أو إشباع لتلك الساحة بما لا يسمحُ بدخول أرقام أخرى إلى الاشتباك، ويتحوّلُ باقي الجمهور لأهداف سهلة يصطادهم العدو، وبدلًا من تجميع الناس من القرى يجب بأن يحدُث العكس تمامًا، أبناءُ القرى يجب أن يعودوا إلى قراهم وإشعال مناطق اشتباك جديدة لتتّسع رُقعة الاشتباك.

الوضع في مدن الضفّة يختلفُ عن القدس والداخل والقرى بحيثُ أنها لا تخضع لحكم العدوّ المباشر لذلك في ظلّ هذا النهوض الكبير لا حاجةَ لمظاهرات كبيرة في المدن؛ فهدفُ المظاهرات هو تحريضُ الناس واحتلال الحيّز العام، والحيِّز العامّ بأغلبِه في المدن متاحٌ والناس لا تحتاج إلا إلى تعبئةٍ أو تحريض.

ويجبُ الانتباه إلى أنّه من الضرورة الآن عدم الاشتباك في النقاط التقليدية التي كانت في الانتفاضة الثانية من مثل عوفر وقلنديا ومسجد بلال بن رباح؛ لأنّ تلك النقاط تمّ إعدادُها مُسبقًا من قبل العدوّ لتحتوي هذا النوع من المقاومة، بحيثُ أصبح الاشتباكُ عليها أقلّ فاعليةً وأكثر ثمنًا، يعني بسبب التحصينات الموجودة في مسجد بلال بن رباح يستطيعُ عشرة جنودٍ مواجهة ١٠٠٠ متظاهرٍ وإيقاع خسائر أكبر في صفوفنا، في حين أنّ الاشتباك في القرى يحتاجُ العدو ٤٠ جنديًا لمواجهة ٢٠ شابًّا، لذلك أصبحت هناك ضرورةٌ حقيقيةٌ لأن يقوم أبناءُ المدن بالبحث وبإيجاد نقاط اشتباكٍ أكثر هشاشةً من الحالية.

٣٤

قبل ٩٠٠ سنة تقريبًا يعني في حدود ١١٩٠ ميلاديّة كان هناك أمير، أسموه بالأمير المشطوب لتلقّيه سيفًا في وجهه حيث كان يظهرُ وكأنّ وجهه قد شُطِر إلى نصفين،

هذا كان أهمّ أمراء حرب صلاح الدين، إلى اليوم لم يُغادر هذا الرجل ذاكرة كثير من الأوروبيين، فقد شخّصوا الشيطان بشكل هذا الأمير لما أوقع فيهم من قتلٍ، وشكلُ الشيطان مثلًا في بعض كنائس لبنان هي صورة الأمير المشطوب.

قاد معارك الدفاع عن عكّا وشفاعمرو وبيروت وصيدا.

هذا كان الأمير محمود أبو الهيجا أحد أجداد حمزة أبو الهيجا.

٣٥

كلّ من لا يضعُ فلسطين كقضيّته المركزية ولا يضعُ العدوّ الصهيوني كتناقض رئيسيٍّ أنبّئكم بأنّه سيضلّ الطريق وسيضرّ القضايا التي ينحاز لها وسيضرّ قضيته، من سيفهم أن الأمر من باب أنّي فلسطينيٌّ فهو مُخطئٌ تمامًا، الأمرُ من باب دروس التاريخ والتجارب السابقة وتقدير الموقف وتحليل الوضع الاجتماعيّ والسياسيّ والاقتصاديّ في الإقليم، فلا تحلُموا بعالم سعيد ما دامت إسرائيل موجودة، مهما فعلتُم من أقصى شرقِكُم إلى أقصى غربكم، الذهابُ لحلّ التناقضات الداخلية وترْكِ التناقض الرئيسي يعني نهر دم لانهائيٍّ بدون حسم وتفكيك القوى وحروب تدمير ذاتية، لكنّ الذهاب إلى الصراعِ مع العدو سيقوم بحلّ أغلب تناقُضاتنا الداخلية في خندق المُواجهة، وهذا لا يعني القبول بالظلم والاضطهاد والتعذيب لكن دون القضاء على هذا السرطان في جِسم المنطقة فلن يختفي أيُّ شيءٍ من هذا، ستتغيّر الوجوه والشعارات فقط لا أكثر على جبالٍ من جُثث أبنائنا.

أدناه رابطٌ للمناضل حاتم ملاعب في حفلة في الجنوب اللبناني، أغلب الظنّ أنّ الحفلة تمّت بعد وقف إطلاق النار بين الفلسطينيين والسوريين في لبنان، وقامت هذه المجموعةُ الطليعية في لحظة توقيع وقف إطلاق النار وآثَرَ تحليل الموقف السياسيّ والعسكريّ المحليّ والإقليميّ والدوليّ بالانتقال إلى الجنوب اللبناني والتصدّي لقوّات العدو الصهيوني وحصر تمدُّد جيش سعد حداد (جيش لبنان الجنوبي الذي أصبح يُعرف لاحقًا بجيش لحد).

https://www.youtube.com/watch?v=6SKCl-r36DA&t=1s

المثير في الأمر أنّ القوى التي كانت ترى ضرورة حسْم الصراعات الداخلية قبل القتال

مع العدوّ الصهيوني في ذلك الوقت مع أوّل رشقة صواريخ سورية على ما كانوا يُطلقون عليه الجبّ الأحمر قد ولّوا الأدبار، ومن كان يحلّلُ الأمور كما أعْلاه هم من صمدوا، وعند وقف إطلاق النار قام الهاربون باتّهام من صمدوا في وجه الجيش السوري والقوى اللبنانية المُتحالفة معه بأنّهم يريدون وضع المُقاتلين ما بين مطرقة الصهاينة وسنديان السوريين.

كان ذلك الخطّ لا يرى أنّ الطريق إلى فلسطين يمرّ عبر جونيه أو عبر أيّ مكانٍ آخر، كانوا يرون أنّ الطريق إلى فلسطين يمرُّ عبر القتال المباشر مع العدو، ولم يقاتلوا في أيّ موقفٍ ضدّ أي قوًى أخرى إلا من باب الدفاع عن النفس.

أدناه أغنيةٌ تمّ اشتقاقُ كلماتها من نظريةٍ وممارسة، ليست تلك الكلمات من إنتاج الصالونات الثقافية واستنساخ التجارب بل هي إنتاجُ الخنادق.

اسمع من الدقيقة ٥

ضربنا التقسيم تخطّينا الظرف القاسي
منعنا التحجيم العسكري والسياسي
وأصفى من ميّة بردى
سيقنا ترابات الشهدا
وجينا يا جنوب جينا يا جنوب
نتصدى للعدوّ الأساسي
جينا يا جنوب ما غبنا
رغم الصعاب ما تعبنا
بحقّلك تعاتبنا
لكن وحياتك مش ناسي
حقّك يا جنوب على راسي
جينا يا جنوب نتصدّى
للعدو الأساسي
أرض العرقوب كيف حالك

يا بنت جبيل اشتقنالك

ويا قرانا الحدودية جايين

يا جارة الوطن فلسطين

جايين بأرضك نتعلم

نرصّ الصفوف ولا نتقسم

بين الكماين والخندق

والنقاط الحساسة

جينا يا جنوب نتصدّى

للعدوّ الأساسي

....

وتشكيل المحاور

وتقسيم القوى

وتفسيخ الصفوف

هالدرب مش دربي

أبدًا أبدًا

هذا رجعي سافل

وهذا وحدو مناضل

هذا طرح جاهل

ما بيقبلوا شعبي

.....

نحنا مع كل القوى

يا اللي بيجمعها سوى

محاربة العدو

بالتضامن العربي

.....

التضامن المطلوب أبدًا ما بيعني

بكيان رجعي نذوب

نتعب وهو يجني

التناقض المحسوب

مين أول وثانوي

للثانوي التأجيل

وعالأول الضربة

نحنا مع كلّ القوى

اللي بيجمعها سوى

محاربة العدو

بالتضامن العربي

.....

نحنا مع الوحدة

نحنا مع ....

ومع كلّ الجهود

ومع كل الجنود

ومع كل من يعطي

للحرب للتحرير

٣٦

"من الأخطاء الفادحة التي يصعُب الدفاع عنها من جهةٍ أخرى أن نحاول تحقيق تجديدات ثقافية، وأن نحاول ردّ الاعتبار والقيمة إلى الثقافةً الوطنية، و نحنُ ما نزال في ظلّ السيطرة الاستعمارية." (فرانز فانون)

كما كلّ المضطهدين قام الفلسطينيون بخلق رمزياتهم لنفي نفيهم وللتوكيد على

وجودهم، المُستعمِر (بكسر الميم) يقوم إمّا بالنفي و/ أو التحريم و/أو الاستلاب لكلّ العناصر المادّية والرمزية والثقافية للمُستعمَر (بفتح الميم).

صنع الفلسطينيون رمزيّاتهم لتوكيد الهوية الجماعية للشّعب المُشتّت ولمحاولة تطبيق الهيمنة المُضادّة لقلب السُّلطة الاستعمارية (الحرب على البطّيخ في الانتفاضة الأولى كانت محاولةً من العدو لمنع الهيمنة المُضادّة لهيمنته على المجتمع الفلسطيني).

تقول الأغنية "طول ما سلاح الثورة بإيدي يبقى وجودي مفروض فرض" هنا تمّ استخدامٌ مزدوجٌ للسلاح، استخدامه بشكلٍ "تجريدي" عبر وظيفته الميكانيكية واستخدامه بشكلٍ "ترميزي" لتصبح الأداة لإثبات الوجود، هي نفسها رمز التوكيد على الوجود.

كلّ الرمزيات الفلسطينية تحملُ أيضًا تلك الوظيفة المُزدوجة، ولا قيمة فعليةً أبدًا لأيٍّ من الرموز الفلسطينية إن لم يصاحبها التجريد للرمز، يعني لا قيمةَ للكوفية أبدًا إن لم تعُد تُستخدم كأداةٍ لإخفاء الهوية، ولا قيمةَ للكلاشينكوف كرمزٍ إن لم "يُلعْلِع في العالي" في مواجهة العدو، ولا قيمةَ للعَلَم إن لم يكن ثمنُ رفعه دمًا.

فعليًا مع أوسلو تمّ تفريغ المحتوى النضالي لكلّ الرمزيات الفلسطينية (ربّما المفتاح والصبّار ذلك الرمز المُستحدث لم يتمّ تفريغُه تمامًا) عبر "اعتراف العدو بمجموعة الرموز الدالة على الهوية الفلسطينية" في اتّفاقية أوسلو.

إفراغ الرموز من محتواها وعدم حظرها في الضفة وغزّة جعل من تلك الرموز للاستهلاك الداخلي وموجّهةً نحو الذات.

يُقالُ أنّ جنازةً مرّت من أمام قراقوش وفي داخل النعش رجلٌ يصيح "يا جماعة أنا مش ميّت" ويكرّرُها، وعندما شاهد الحاكم قراقرش قال له: "يا مولاي يريدون دفني وأنا ها هنا أمامك حيّ" فما كان من قراقرش إلا أن قال له "يعني كلّ هؤلاء كاذبون وأنت صادق؟ ادفنوه"، والواضح أنّ الرجل في ادّعائه أنّه حيّ لم يكن يقوم إلا بالتوكيد لذاته فقط على أنّه حيٌّ دون أن يقوم أو يُثبِت لمن يحمِله بما يقوم به الأحياء، فلو أنّه قفز من النعش أو ضرب رؤوس حامليه لتعدّى خطابُه لذاته ليصل للناس.

هذا يدفعُنا للمقولة التالية لفانون: "ليست الثقافة الوطنية ذلك الفلكلور الذي حسب من ينظرون إلى الأمور نظرةً مجرّدةً أنّهم يكتشفون فيه حقيقة الشعب ..

إنّما الثقافة الوطنية مجموعةُ الجهود التي يبذلها شعبٌ من الشعوب على صعيد الفِكر من أجل أن يصف وأن يبرُز وأن يغنّي النضال الذي به يتكوّن الشعبُ ويبقى".

يرى فانون أن الاندماج مع ثقافة المستعمر (بكسر الميم) أو النّزعة السلفية للتقوّقُع على الثقافة التقليدية لم تستطِع أن تُنتج أبدًا أو تؤسِّسَ لثقافة وطنية جديدة، هو يرى أنّ الكفاح المُسلّح -الكفاحُ المسلّح ليس بالمعنى التسطيحي له كما تمّ زرعُه في وعينا- هو فقط من يستطيع أن يبني ثقافةً وطنية، ولا يُقيم فانون فصلًا أبدًا بين الكفاح المُسلّح وبين الثقافة الوطنية فهما مُندمجان (الوظيفة المزدوجة تجريدٌ وترميز)، حيثُ ينشأ الكفاح من خِضمّ الثقافة، كما يُؤسِّسُ الكفاح ذاته ثقافةً وطنيةً خاصّةً تُستمدُّ من أهداف هذا الكفاح و مبادئه.

الملخّصُ في كلّ ما سبق أنّه لم يعُد هناك قيمةٌ للكوفية ورمزيّتها مذ أن وقف بها عرفات في واشنطن بجانب كلينتون ورابين.

٣٧

هناك عدّةُ قضايا تُواجه المجتمع الفلسطينيّ،

وكُلّي يقينٌ أنّنا نعيشُ بواكير الانتفاضة القادمة.

أهمّ سؤالين يحاولُ المجتمع أن يجد أجوبةً لهما "سؤال كيفية التنظيم" و "سؤال كيفية إيجاد الفعل".

العمليات التي تمّ تنفيذها خلال الفترة الماضية في الضفة الغربية والقدس هي مؤشّرٌ مهمٌّ على الانتفاضة، لطالما سبقت انتفاضاتُنا وثوراتُنا مثل هذه الحالات، وتحدّدت الاستراتيجياتُ للانتفاضات والتكتيكات عبر ما سبقها من بواكير.

لنأخذ كمثالٍ حالات التمرُّد في بداية الثلاثينات فقد اتّخذت شكل العمل العصابي المُسلّح وحرب العصابات تلك الحالات هي التي صبغت لثورة ١٩٣٦م شكلها واستراتيجيّتها وأدواتها وآليّات عملها وسُبل تنظيم المجتمع.

وجاءت مرحلة التسلّل والتي رافقها طفرةُ الأحزاب اليسارية والقومية لتُصبح بدايات الستينات مرحلة بواكير للثورة، لتأخذ الثورةُ الحزبَ اللينينيّ الهرميّ كآليةِ تنظيمٍ

للمُجتمع ويتمّ تقليد استراتيجية مرحلة التسلُّل كإستراتيجيةٍ عامّةٍ للثورة بغضّ النظر عن التسميات والأدلجة.

وفي الثمانينات كانت بواكير الانتفاضة الأولى والتي حدّدت أساليب التنظيم والإستراتيجيا والأدوات للانتفاضة.

في النصف الثاني من التسعينات جاءت هبّة النفق التي سُرعان ما تحوّلت لاشتباكات مُسلّحةٍ تنطلقُ من مناطق السُّلطة باتّجاه العدو والتي تمّ نسخُها تمامًا في الانتفاضة الثانية.

كلّ حالات الذئب الوحيد the lone wolf التي نراها في هذه الفترة سيكون لها اليدُ في تحديد استراتيجية الانتفاضة القادمة وأدواتِها ومنطِقِها وآليّات تنظيمها.

الذئبُ الوحيدُ الآن هو يشبه تمامًا الكشّاف في الحرب العالمية الأولى الذي كانت وظيفتُه الخروج من الخندق والركض سريعًا باتّجاه العدو ليكشف لرفاقه نقاط قوّة وضعف العدو.

اقرأ المرحلة هذه جيّدًا لكي تفهم ما هو قادم، المؤشّراتُ توحي بأنّ الإستراتيجيا للانتفاضة القادمة ستكون "الانتفاضة الشعبية العامّة المُسلّحة" ولن يكون الحزبُ الهرميّ اللينينيّ هو آليةُ تنظيم المجتمع الرئيسية.

٣٨

أستطيعُ أن أحصي عشرات القرى والبلدات التي كانت شُعلة الانتفاضة الأولى والثانية والتي أصبحت الآن تُصنّف على أنّها مناطق صديقة من قبل الاحتلال ... الحمد لله من فترةٍ قصيرةٍ -أتوقّع ٣ سنوات- تغيّر تصنيف قريتي من مُسالمةٍ إلى قريةٍ مُعادية.

بعضُ هذه القرى والبلدات تقومُ مجالسها المحلّية بوظيفة روابط القرى وتمنعُ أيّ مواجهاتٍ في القرية، حتّى أنّ إحدى تلك القرى استأجرت مرتزقةً لمنع الشُبّان من ضرب الحِجارة والمواجهات.

بعض القرى الأخرى كان الاختراق لمستوى القاعدة حتّى، لتجد الناس تثور عليك وتمنعُك مشكّكةً بنواياك وبأهدافك وبجدوى فعلك.

فعليًا بدلًا من إطلاق أحكامٍ وشتائم أفضّلُ كثيرًا أن أحلّل وأدرس الأسباب.

في إطار العمليات التأديبية المُمارَسة على المجتمع واجتراح الأدوات والآليّات الجديدة لقمع المجتمع، يبدو أنّهم حتّى خصّصوا لكلّ قريةٍ خطّة، مثلًا قريتي تمّ قمعُ الناس عبر إعطاء تصاريح عمل عن طرفٍ وجنبٍ لقمعهم بطريقةٍ ناعمةٍ وخفيّةٍ فالناس أصبحت تخافُ على أرزاقها.

في سبسطية الأمرُ يختلف قليلًا؛ فالعمليةُ تُمارَس من قبل أكثر من طرفٍ حتّى من قبل مؤسّسات المجتمع المدنيّ (النظيفة نسبيًا) حيثُ تمّ بناء الاقتصاد المحليّ على السياحة والتي تتطلّبُ أمنًا تامًا.

في حزمة وحوسان مثلًا تمّ أمرٌ آخر، تلك البلدات قريبةٌ من تجمّعات مستوطنات وحواجز رئيسية؛ إذن جعلوا اقتصادهم قائمًا على القطاع الخدماتي التي يوفّرونها للمستوطنين، من كراجات تصليح السيارات وقطع الغيار إلى مواد البناء والمشاغل.

لن نستطيع أبدًا أن نحوّل تصنيف تلك القرى والتي -بأغلبها- تُعتبر مناطق (ج) إلا بالعمل جدّيًا على

فصل مصالحهم عن العدو. باختصار ورّطوهم .. انصحُ بمشاهدة الفيلم الجزائري الفرنسي "خارجون عن القانون".

٣٩

عن نشأت ملحم

في انتفاضة ١٩٤٧م في مدغشقر على الاستعمار الفرنسي تمّ قتلُ ٨٠ ألف مواطنٍ على يد الفرنسيين في فترة قصيرةٍ جدًا، وكان رئيسُ المخابرات الفرنسية في مدغشقر هو أوكتاف مانوني، الفيلسوفُ والمُحلّل النفسيّ الذي قام بإصدار كتابه "علم نفس الاستعمار" في ١٩٥٠م ليقوم فرانز فانون بالردّ عليه.

وممّا قاله مانوني في كتابه عن المستعمَرين "إنّ الواحد من هؤلاء ثرثارٌ وكاذبٌ وسارقٌ وكسولٌ ومن وجهة النظر النفسية يعدُّ أحمقَ وهستيريًا ويتّسمُ بغريزة قتلٍ دموية" ولطالما رأى الاستعمارُ أنّ من يقاومه هو شخصٌ "مجنون" "مُختَل" و"مضطرب"، واخضعوا المقاومين لبرامج علاجٍ نفسيٍّ وعصبيٍّ وسلوكيّ، فرانز فانون بدأ رحلته

في مقاومة الاستعمار بالشكل الجادّ من داخل مصحّة "جوانفيل" في مدينة بليدة الجزائرية، حيثُ كان يرى أنّ المقاومين يُساقون إلى المشفى ليتمّ التعامل معهم كمرضى وَجَب علاجُهم، هناك انتفض على هذا وسُرعان ما انضمّ إلى"مرضاه" السابقين ليرُدّ على مانوني "الاستعمار هو الذي يسلب الإنسان المستعمَر شخصيّته، مُحاولاً أن يجعله كائنًا طفوليًا، مقهورًا، منبوذًا، مسلوبَ الإنسانية، وبلا ثقافة من أجل تكريس تبعيّته" ليقترح طريق الحُرّية التي تعلّمها من (المجانين) بـ "إنّ الإنسان يتحرّرُ في العنف و بالعنف".

كلّ ما ذكره مانوني من توصيف للمقاوم للاستعمار تمّ إسقاطُه على الشهيد البطل نشأت ملحم، مجنونٌ ومضطربٌ ومتطرّفٌ ومجرم.

في الأراضي المحتلّة عام ١٩٤٨م عمل العدو بشكلٍ محموم ومُركّز على إبادة أي وعي مقاوم، لم يكن يكفي أن يُبيدوا تاريخ العمل المقاوم في الداخل بل أيضًا كان من الضرورة خلق مساحات لممارسة العمل "السياسي" ليتمّ فيه إعادة تأويل معنى المقاومة، ليصبح إميل حبيبي العميل حسب هذا التأويل وطنيًا مقاومًا، وليصبح خطاب المواطنة تاع عزمي بشارة خطابًا تحرُّريًا، ولذلك ترى أنّه من الشائع جدًا في سرد تاريخ المقاومة في الداخل المحتل أنّه يتمّ إبراز نموذج "الحزب الشيوعي الإسرائيلي" كأنّه هو المقاوم في حين يتمّ التغطية وحتّى إبادة ذكر العمل السياسيّ الحقيقيّ في الداخل الذي اتّخذ طابع الكفاح المُسلّح العنيف ضدّ العدو، وممّا يعرفُه كلّ من هو مهتمٌّ بتاريخ المقاومة أنّ طلائع العمل العسكري الجادّ والفعال لم يبدأ على حدود فلسطين الانتدابية انطلاقًا من دول المحيط كقواعد ارتكاز، بل بدأ من فلسطينيي الداخل المُحتلّ ٤٨، مئاتُ الشباب وعشرات الخلايا والعمليّات التي قصمت ظهر دولة العدو، مثل هذه النماذج يتمٌّ إخفاؤها.

ولعب العدو والمتواطئون معه على فكرةٍ مهمّةٍ جدًا وهذا الآن يعود ليتكرّر.

كلّ النقاشات التي جرت حول الشهيد البطل نشأت ملحم والمقولات التي حملها المتخاذلون والجبناء والمتواطئون مع العدوّ هدفُها هو قتل فكرتين مُهمّتين جدًا يحتاجهما أيّ شعبٍ تحت الاستعمار.

الفكرة الأولى هي قتل فكرة أنّ هناك من يُقاوم ويقاتل، قتلُها في عقول الناس، والفكرة

الثانية هي قتْلُ مخيال الناس لإبادة فكرة الحلم عند المجتمع، لذلك تمّ ترديدُ مقولات "دوافع" البطل لتنفيذ عمليّته والدخول في تحليل شخصيّته وتاريخه "المشرف كموته" ووَصْمه بالجنون (مع أنّنا قلنا عن دور علم النفس في العملية الاستعمارية وبالمناسبة يكفي أن تطّلع على تجربة العدو في إبادة قادة انتفاضة ٨٧ في القدس عبر توظيف النظام الصحّي الصهيوني) ووصْمِه بالإجرام ونزع الغطاء الأخلاقيّ عنه.

ولم يبخل العدوّ في سبيل قتل المِخيال وفكرة أنّ هناك من يقاوم في عمل أيّ شيء، ومن الأمثلة على هذا، أنّ عشرات القضايا تمّ تحويلُها من قضايا "أمنية" إلى قضايا جنائية، عشرات القضايا تمّ العملُ على تحويلها إلى جنائية، يعني شابٌّ قام بقتل جندي وأخذ سلاحه كان يتمُّ العمل مع محاميه على صفقة لتحويل العملية إلى فعلٍ جنائيٍّ وبحُكم مخفّف مقابل أن يعترف الشاب بأنّه فعل ذلكَ لأسبابٍ جنائيةٍ وليستْ لدوافع وطنيةٍ، حتّى أنّ الشهيد نشأت ملحم تم سجْنُه ٥ سنوات واتّهامُه بالجنون وتعريضه "لعلاجات" وتمّ تحويلُ قضيته من قضيةٍ "أمنية" إلى جنائيّةٍ.

كلّ أمثال نشأت ملحم قام الشعب بتخليد ذكراهم وأسطرتهم، ربح البيعُ يا نشأت وشاهت وجوهُ المتواطئين.

٤.

معركة واد ايا درانغ (عملية الرمح الفضي)

مع بداية تنفيذ المرحلة الثانية في الحرب الأمريكية على فيتنام وهي مرحلة الحرب المحدودة بحيث قرّر الأمريكيون أن يخوضوا الحرب بجنودهم بدلًا من الاعتماد على جنود الجيش الفيتنامي الجنوبي (الخائن)، قرّر المُقدّم هارولد موور استطلاع منطقة إكس راي (xray)- قائد الكتيبة الأولى لفرقة الفرسان السابعة الأمريكية- أثر معلوماتٍ عن وجود كتيبة ثوّار في المنطقة.

خريطة المنطقة وطرق تسلُّل الطائرات الأمريكية في ١٤ نوفمبر ١٩٦٥م في الأسفل

الخطّة الأمريكية التي وضعها هارولد موور كانت تقوم على:

١. هجوم جويٌّ على المنطقة يعقبُه عملياتٌ تمشيط وتطهير في المناطق كثيفة الأشجار.

٢- أمْر السرية ٢١ مدفعية بقصف منطقة يانكي وتانجو للتّمويه لمدّة ٨ دقائق ثمّ

التحوّل إلى قصف منطقة إكس راي لمدة ٢٠ دقيقة.

٣. ثمّ تتولّى السفن الحربية للكتيبة الثانية الصواريخ التابعة للفوج ٢٠ مدفعية القصف.

٤. ثمّ تتولّى سفن السرية A التابعة للكتيبة ٢٢٩ مسح المنطقة.

٥. النقيب جون هيرين قائد السرية B يقوم بتأمين منطقة XRAY والانضمام إلى السرية A,C,D البرّية لشنّ هجوم على القطاعين الشمالي والشمال شرقيّ للمنطقة.
٦- ثمّ تتولّى السرية B مهمّة التحرّك غربًا وشمال غرب لتمشيط منطقة جبل شو بونج.

تمّ تزويد كلّ جنديٍّ أمريكيٍّ بسلاح M١٦ (كانت التجربة الأولى للسلاح في المعارك حيثُ سابقًا كان يستخدم M١٤) و٣٠٠ رصاصة و٣٦ قذيفة ٤٠ ملم واستخدم ٨٠٠ قذيفة ٧,٦٢ ملم وتمّ تحريك ١٦ طائرة عمودية من نوع هوي.

وتمّ تنفيذُ الخطّة كما حدَّدها موور وسيطر على منطقة إكس راي في ليلة ١٤ نوفمبر.

تحرُّكات القوات الأمريكية في منطقة إكس راي في ١٤ نوفمبر في الخريطة أدناه (لفكّ الرموز مثلًا ٧/A١تعني السرية الأولى من الكتيبة الأولى من الفرقة السابعة لسلاح الفرسان وهكذا، ٧/C١ تعني السرية الثالثة من الكتيبة الأولى التابعة للفرقة السابعة لسلاح الفرسان) إذا حد مش فاهم الرموز لا يخجل ويراسلني.

الخطّة الفيتنامية:

١. حرّك الفوج ٦٦ شمال (قواتٌ نظاميةٌ تابعةٌ لجيش هوتشي منه) كتيبته الثامنة جنوبًا من موقع شمال ايا درانج لتكثيف الهجوم على القطاع الشرقي من موقع إكس راي.

٢. تحرّكت الكتيبة H١٥ فيتكونج (قواتٌ غيرُ نظاميةٍ من الثوار) جنوبًا والفوج ٣٢ شمالًا على بُعد ١٢ كم.

٣. بقيت وحدات الهاون الثقيلة ووحدات مُضاد الطيران على الطريق إلى إكس راي.

أحداث المعركة:

صباح ١٥ نوفمبر نجح المُقدّم روبرت توللي قائد الكتيبة الثانية الأمريكية من تجميع سراياه الثلاث التابعة للفرقة الخامسة فرسان الأمريكية. مخطّط تحركات الكتيبة الثانية

في الأسفل (لفهم المخطّط: الحرف يعني اسم الكتيبة والرقم دلالةً على السرية. مثال: B٢ يعني السرية الثانية في الكتيبة بي أو الكتيبة الثانية أو D٢ يعني السرية الرابعة من الكتيبة الثانية حيثُ الرقم يدلُّ على السرية والحرف يدلُّ على الكتيبة والرقم خمسة يدلُّ على الفرقة الخامسة والمستطيل الذي فيه إكس يدلُّ على رمز سلاح الفرسان الأمريكي).

خاضت الكتائب الأولى والثانية من الفرقة السابعة والكتيبة الثانية من الفرقة الخامسة أشرس معارك فيتنام كلّها في مواجهة الفوج ٦٦ شمال قرب موقع شو بونج ماسيف وكادت القوّات الفيتنامية أن تفتكّ بكلّ القوات الأمريكية لولا الإمداد المدفعيُّ والجويُّ للكتائب الأمريكية، وأعلن الأمريكيون عن مقتل ٧٩ جنديًا وجرح ١٢٥ آخرين وأعلنوا أنّهم قتلوا ٨٣٤ فيتناميًّا من الثوار (هذا يخالف إعلان الفيتناميين).

في ١٦ نوفمبر ألقت ١٨ طائرة -بي ٥٢- ٣٤٤ طنًّا من القنابل دعمًا للقوّات البرية (متذكرين هاي الطيارات وهي تقصف في أفغانستان والعراق؟) في ١٧ نوفمبر سقطت كتيبتا الفرسان ٧/٢ وa١/٥ في كمينٍ في موقع Iz Albany فسقط منهم ١٥١ قتيلًا و١٢١ جريحًا وأربعة مفقودين.

في ١٨ نوفمبر آخر يوم للمعركة أمطر الفيتناميون فرقة الفرسان ١/٥ وتدخّل الطيران الأمريكي فسقط قتيلان أمريكيان و٢٧ قتيلًا من الثوار الذين قُصفوا في النابالام.

قام المُمثّل الأمريكي ميل جيبسون بتخليد المعركة في فيلم "كنّا جنودًا" وقام بعرض المعركة على أنّها نصرٌ أمريكيٌّ وأنّه قام بإبادة الفوج ٦٦ شمال لكنّ الحقيقة أنّ الأمريكين تركوا ساحة المعركة ليعودوا في ٢٠ نوفمبر، أي بعد يومين إلى نفس المنطقة حيثُ اشتبكت الكتائب ١/٥ ، ٢/٥.

و٢/١٢ من اللواء الثاني التابع لفرقة الفرسان الأمريكية الأولى ويساندها لواءٌ كاملٌ محمولٌ جوًّا من الجيش الجنوبي الخائن وحملت المعركة اسم البيت الأخضر في مواجهة الفوج ٦٦ شمال، بالإضافة إلى الفوج ٣٣ شمال لكن تمّ قتل ١١٩ جنديًا أمريكيًّا فانسحبوا ومن ثمّ عادوا في ٢١ نوفمبر إلى ٢٦ نوفمبر في عملية جديدة سُمّيت بعملية الرمح الفضي الثانية في شو بونج ماسيف في واد ايا درانج وانسحبوا مرّةً أخرى.

حاولت أن أشرح المعركة بأسهل طريقةٍ لتكون مفهومة.

٤١

قصّة الحمامات العامّة

في بداية الانتداب وتشكيل حكومة فلسطينية بريطانية قامت وزارة الصّحة الانتدابية بزيارة القُرى وعمل حمّامات عامّةً، بحيث حفروا في الأرض حُفرًا ووضعوا فيها براميلَ كبيرة وبنوا عليها مثل الغُرفِ الصغيرة وطلبوا من الناس أن يقوموا بقضاء حاجتهم هناك بدلًا من قضائها في الخلاء كما كانوا مُعتادين وقتها.

ما أن غادرت وزارة الصحة حتى خرج منادٍ يُنادي "يا سامعين الصوت صلّوا على النبي ما حد يشُخّ في البراميل لأنّ الإنجليز بدهم يوخذوا خراكم يعملوه سبيرتو"، وهذا ما حدث، لم يتمّ أبدًا استعمالُ تلك البراميل إلا في حرب ٤٨ واستُعملت كاستحكاماتٍ فرديةٍ في المعارك.

لم أكن أفهم هذا وكنت أضحكُ كلّما سمعتُ القصة حتّى قرأتُ فانون وشريعتي؛ فهم يتحدّثون عن سلوكيات مُشابهة يقوم بها المضطهدون في كلّ مكان، هناك عشرات الأمثلة التي يسوقونها عن أفعالٍ مُشابهةٍ. لكن بدلًا من أن يستهزئوا بهذا قاموا بتحليل الأمر عميقًا ليصلوا إلى استنتاج أنّ هذا نوعٌ من أنواع بُنى المقاومة الخفيّة التي تملكها المجتمعات لكلّ ما هو استعماريّ، فيكون السؤال "وشو مصلحة ابن لندن وين صفية الجربة بدها تشُخّ؟" ويُصبح الأمر كنوعٍ من رفض كلّ ما هو أجنبيّ للحفاظ على المجتمع.

قصّة الشلحات

كانت التي تلبسُ شلحةً تحت ثوبها في قريتنا توصَفُ بأنّها عاهرة، ويُقال لها: "يا إمّ المكشكش والرقامى"، طبعًا هذا يُخالف خلافًا صريحًا لفكرة العيب والعار والشرف المُرتبطة بجسد الأنثى؛ فكان يكفي بضعُ نقاط من الماء ليُفصّل كامل أعضاء جسد المرأة إذا لم تكُن تلبسُ شلحة ولكن مع هذا رفضوا أن تلبس شلحة، عندما بحثتُ أكثر وجدتُ أنّ الأمر بدأ في بداية العشرينات وفي نفس الوقت كانت أن انطلقت حملاتُ مقاطعة للبضائع الصهيونية وللبضائع البريطانية وكان أن بدأ تكوُّن برجوازيةٍ صناعيةٍ فلسطينيةٍ وطنية، ولكنّ ما يُذهب الغرابة أنّ نوع القماش المُستخدم في صناعة الشلحات كان بريطانيًا ويمرّ عبر مصانع صهيونية، فكان بدلًا من إعطاء الأمر صِبغةً سياسيةً ثقافيةً مُعقّدة أن تمّ اختصارُها في هذا ونجحت تلك الفكرة.

في نفس الفترة كان الصبيانُ في القدس يلاحقون السيدات اللواتي يلبِسن على الطابع الغربي بالغناء لهنّ "يا إمّ البرنيطة الرقّاصة بدّك بومبة ورصاصة البومبة هي القنبلة.

قصة الكهرباء

في بداية الثمانينات دخلت الكهرباءُ إلى قريتي وكان أن قامت مُنظّمة التحرير بدعم ذلك المشروع سرًّا كمكافئة لأهالي القرية لأنّهم أوّلُ من أصدروا بيانًا شعبيًا -أملكُ نسخةً منه- موقّعٌ من كلّ سكّان القرية يرفضون فيه التعاون مع روابط القرى التي كانت تنوي القيام بمشاريع بُنًى تحتيةٍ في القرية.

إحدى تلك المناطق وتُسمّى عين جويزة -هل تتذكّر أين جلسنا تحت الزيتونة الكبيرة هي تلك المنطقة- تأخّر وصول الكهرباء لهم لمدّة خمس سنوات والسببُ أنّ شركة الكهرباء وعندما حسبت التكلفة وجدت أنّ التكلفة ستكونُ منخفضةً جدًّا لو قاموا بتغذية تلك المنطقة بالكهرباء من المالحة التي تقع أسفل تلك المنطقة، فكان أن قام أحد سكّان تلك المنطقة بإقناع كلّ السكان بأنّهم يرفضون أن تأتي الكهرباء من الواد وأنّهم يودّون أن تأتي من بيت جالا التي تقعُ على منطقةٍ أعلى من عين جويزة، وقام بالقول بأنّ الكهرباء ستكون أقوى لو كانت نازلةً من فوق إلى تحت، أكثر بكثير لو كانت تصعد من تحت إلى فوق، وتمسّك أهالي المنطقة تلك بهذه الفكرة واقتنعوا بها ورفضوا إلا أن يتمّ تزويدُهم بالكهرباء من بيت جالا ولم يُفِد أبدًا كلّ وفود شركة الكهرباء وكلّ مثقّفي القرية في إقناعهم بأنّ الأمر ليس مثل الماء فلا فرق إن كانت نازلةً أم صاعدة، واستمرّوا على هذا الموقف خمس سنواتٍ مُتتاليةٍ حتّى خضعت الشركة لهم وقامت بتزويدهم بالكهرباء من بيت جالا.

قمتُ بزيارة ذلك الشخص الذي حمل تلك الفكرة وعمّمها وقال لي: "هل تُصدّق أنّي بهذه الجهالة لكي لا أفرّق بين الماء والكهرباء، كلّ ما في الأمر أنّي لم أود نهائيًا أن نرتبط بشبكة الكهرباء التابعة لليهود خوفًا من أن يتمّ ضمُّ منطقتنا إلى حدود بلدية القدس".

طبعًا هذا الرجل كان يملك بصيرةً هائلةً والسببُ أنّه في الانتفاضة أعلنت بلديةُ القدس أنّ تلك المنطقة تابعةٌ لها، وكانت أن خسرت البلديةُ القضية في المحكمة العليا لأن السكّان أثبتوا بأنّ المنطقة لم تتزوّد نهائيًّا بأيّ نوعٍ من الخدمات من قبل اليهود منذُ

النكسة، فلو كان تمديدُ الكهرباء من الشركة القُطرية كما كان يودّ المهندسون لكانت الآن منطقةً تابعةً للقدس وذلك يعني أنّ كلّ الأراضي في تلك المنطقة والتي أغلبها لمواطنين يسكنون خارج تلك المنطقة لتمّت مصادرتها، طبعًا القضية لم تنته لكنّ عناد ذلك الشخص والدعاية التي أطلقها هي من جعلت أصحاب الخطّ الرافض بالانضمام إلى البلدية أصحاب موقفٍ أقوى.

٤٢

العربي بن مهيدي

ارمُوا بالثورة إلى الشارع فسوف يلتقطُها الشعب

وُلد العربيّ بن مهيدي في عام ١٩٢٣م بدوار الكواهي بناحية عين مليلة التابعة لولاية أمّ البواقي، وهو الابن الثاني في ترتيب الأسرة التي تتكوّن من ثلاث بناتٍ وولدين، دخل المدرسة الابتدائية الفرنسية بمسقط رأسه، وبعد سنةٍ دراسيةٍ واحدةٍ انتقل إلى باتنة لمُواصلة التعليم الابتدائيّ ولمّا حصل على الشهادة الابتدائية عاد لأسرته التي انتقلت هي الأخرى إلى مدينة بسكرة وفيها تابع محمّد العربي دراسته وقُبل في قسم الإعداد للالتحاق بمدرسة قسنطينة.

في عام ١٩٣٩م انضمّ لصفوف الكشّافة الإسلامية "فوج الرجاء" ببسكرة، وبعد بضعة أشهرٍ أصبح قائد فريق الفتيان. في عام ١٩٤٢م انضمّ لصفوف حزب الشعب بمكان إقامته؛ حيثُ كان كثير الاهتمام بالشؤون السياسية والوطنية، في ٨ مايو ١٩٤٥م وكان من بين المُعتقلين ثمّ أفرج عنه بعد ثلاثة أسابيع قضاها في الاستنطاق والتعذيب بمركز الشرطة. عام ١٩٤٧م كان من بين الشباب الأوائل الذين التحقوا بصفوف المنظّمة الخاصّة، حيثُ ما لبث في عام ١٩٤٩م أن أصبح مسؤول الجناح العسكريّ بسطيف وفي نفس الوقت نائبًا لرئيس أركان التنظيم السريّ على مستوى الشرق الجزائري الذي كان يتولّاهُ يومذاك محمّد بوضياف، وفي عام ١٩٥٠م ارتقى إلى منصب مسؤول التنظيم بعد أن تمّ نقلُ محمّد بوضياف للعاصمة. بعد حادث مارس ١٩٥٠م اختفى عن الأنظار وبعد حلّ المنظمة عُيّن كمسؤول الدائرة الحزبية بوهران إلى ١٩٥٣م، وعند تكوين اللجنة الثورية للوحدة والعمل في مارس ١٩٥٤م أصبح من بين عناصرها البارزين ثم عضوًا فعّالًا في جماعة ٢٢ التاريخية.

لعب بن مهيدي دورًا كبيرًا في التحضير للثورة المُسلّحة، وسعى إلى إقناع الجميع بالمشاركة فيها، وقال مقولته الشهيرة: "ألقوا بالثورة إلى الشارع سيحتضنُها الشعب"، وأيضًا: "أعطونا دبّاباتكم وطائراتكم وسنُعطيكم طواعيةً قففنا وقنابلنا، وأصبح أوّل قائدٍ للمنطقة الخامسة (وهران).

كان الشهيد من بين الذين عملوا بجدٍّ لانعقاد مؤتمر الصومام التاريخي في ٢٠ أوكتوبر ١٩٥٦م، وعّين بعدها عضوًا بلجنة التنسيق والتنفيذ للثورة الجزائرية (القيادة العليا للثورة)، قاد معركة الجزائر العاصمة بدايةً من سنة ١٩٥٥م.

اعتُقل العربيّ في شهر شباط ١٩٥٧م إثر عملية حصار القصبة لتطويق الثورة في العاصمة الجزائر وفي عام ٢٠٠١م اعترف الجنرال الفرنسي أوساريس بأنّه هو من قام بإعدام العربي بن مهيدي، حيثُ حاول الجنرال بجيار التفاوض معه وإقناعه بالتعاون مع فرنسا إلا أنّه رفض وتمّ سلخُ وجهه أثناء التعذيب إلا أنّه رفض التعاون.

٤٣

عن يحيى عياش

الفرصة مواتية جدًا لخلق عياش جديد في الضفة الغربية.. وفي هذا فليتنافس المتنافسون. كثيرًا أفكّر بفكرة الأسطرة، لماذا يخلق المقهورون أساطيرهم، هل هي محاولةٌ لتبرير التواكل والاستكانة؟

عياش بالمعنى العسكري لم يكن ذو قدرات خارقة، الانتفاضة الثانية عرفت من هو أشدُّ وأكثر تمرّسًا، عياش لم يكن عبقريًا في الكيمياء وصنع المتفجّرات، حامل بكالوريوس كيمياء يتقن كلّ المعرفة التي استخدمها العياش، عياش لم يكن متفرّدًا في ذكائه.

سأل الروم خالد بن الوليد عن السيف الذي أنزله له ربّه من السماء بحيثُ لم يعُد يُقهر، هذا السيف لم يكن صنيعة الله بل صنيعة المهزومين. العياش ليس بأسطورة، العياش من لحمٍ ودم، حتّى أنّ له زوجة وابن وأم وأب، استنساخ العياش ممكن، هذا ما أقول به.

لم أعرف العياش إلا بدموع أمّي عليه، عرفته بصلاة الغائب، عرفته بنحيب جدي

وبمناجاة أبي لربّه برحمة العياش واحتسابه شهيدًا، عرفته باجتماع العائلة الممتدّة كاملةً حول التلفاز والدموع تسيل بصمت، هذا المشهد لِم أرَه في العائلة إلا في حال وفاة أحد أفراد العائلة.

سألت: هل لنا به قرابةٌ لنبكيه؟

عرفتُ العياش بإضراب المدرسة الإعدادية لقرية منسيّة، عرفتُه بهمسات الطلاب عن ذلك الأسطورة غير القابل للهزيمة، "العياش لم يمُت"، هكذا كان التلاميذ يتهامسون فيما بينهم.

عبقرية العياش وأسطورته تكمن في تلك اللحظة التي كان الكلّ فيها في هذا المجتمع يحاول أن يتأقلم مع الواقع الجديد إلا هو كان يرسّخُ لعالمٍ آخر رسم معالمه لعشرين عامًا من النضال لاحقًا.

٤٥

ربّما يجب أن أقول هذه القصة.

لطالما كانت الأمّ عقدة المناضلين، هي فخٌّ أمنيٌّ حقيقي، وإن كان العدو قد استخدم الأمّ كمصيدة للابن المطارد فإنّه أيضًا استخدمها لتحطيم الحالة النفسية للأسير عبر ابتزازه عاطفيًا. هي قصة أم ناصر أبو حميد، أمٌّ لشهيد وأم لأربعة أبناء محكومين بالمؤبد، وأمٌّ صاحبة بيتٍ مهدوم.

قصتها التي لا ينفكُّ صديقي- الذي طلب أن لا أقول من هو- الذي لا ينفكُّ يشعر بنفس الدهشة، دهشة المرة الأولى لسماع القصة، نفس ردّة الفعل، نفس الجواب: "يسعد دينها". عندما تمّ سجنُ أبنائها، ولتحطيم النفسية الدفاعية لأحد أبنائها في التحقيق فقد جعلوه يُحدّثها هاتفيًا، طبعًا المنطق أن تحصل وصلة عويلٍ وبكاء وكيفك يمّا وشو أخبارك ويا ويلي عليك يمّا، لكنّ هذا لم يحدث.

ما قالته هذه المرأة لابنها: "يمّا هاي مواقع الرجال، إذا فتحت فمك ترجعش عالدار، طلعت زلمة ارجع زلمة".

٤٤

والله يا عمّي البكاء على الشهداء مش عيب، والله يا عمّي مش مطلوب من أهل الشهداء يظهروا مظاهر البطولة، والله يا عمّي من حق أم الشهيد وأبوه يبكوه ويعطوه حقّه في البكاء والحزن ويعبروا عن مصيبة فقدهم لأولادهم، والله يا عمّي مش مطلوب منك تستنطق البطولة والتحدّي منهم. والله يا عمّي من حق الشهداء علينا نحترم خصوصية أهاليهم وما نخلّي مشاعرهم مشاع لكل البشرية.

٤٥

هناك فكرة بسيطة جدًا يجب العودة لها، فكرة المسؤولية تجاه الأفراد الآخرين والجماعة، فعليًا كل فعل كل كلمة تقولها في هذا الظرف يجب أن تحسب نتائج ما تقوله أو تفعله، كيف إنّه ممكن قولك وفعلك أن يكون دافعًا للفعل الثوري أو مثبّطًا له، لذلك من الضروري التأنّي والصبر والتفكير والتعلّم وأن نسمع أكثر ممّا نتكلّم.

هناك قاعدتان أؤمن بهما، الأولى قاعدة ماوتسي تونغ: "من لا يعرف لا يتكلّم"، وهي ليست دعوةً للقمع أو فرض سلطة أو تقييم للبشر، بل هي دعوةٌ لاكتساب المزيد من المعارف. الثانية مقولة سيدنا عمر: "كلّ مسلمٍ على ثغرٍ من ثغور الإسلام فإياك أن يُؤتى الإسلام من قبلك". ونقول: "كلّ فلسطينيٍّ على ثغرٍ من ثغور فلسطين، فإياك أن تُؤتى من قبلك". لا تسمح لأن تكون أنت الثغرة في البنيانِ المرصوص.

"ولا تقْفُ ما ليس لك به علمٌ إنّ السمع والبصر والفؤاد كلّ أولئك كان عنه مسؤولًا" صدق الله العظيم.

٤٦

من عليّ أن أشكر لأوفى من حموني اليوم من الضرب والاعتقال، القائمة تطول جدًا ولا يستوعبها الفيس بوك لأذكرهم كلّهم، أيادٍ كُسرت، رؤوسٌ هُشّمت، عضلاتٌ مُزّقت، رأيتُ فلسطين فيهم، شكرًا فلسطين.

٤٧

حين كان يُساق الشاعر محمّد عوض إلى المشنقة في ١٩٣٨م، بعد أن باع مصاغ زوجته ليشتري مرتينة، وبعد أن سبقه اثنين من إخوته إلى المشنقة يختم قصيدته بـ:

ظنّيت النا ملوك تمشي وراها رجال

يخسا الملوك إن كانوا هيك أنذال

والله تيجانهم ما بيصلحوا لنا نعال

احنا اللي نحمي الوطن ونضمّد جراحو

بعد ١٠ سنوات عندما كان أصحاب الألقاب الفخمة (ركن، لواء، أمير، وزير، رئيس أركان، الزعيم) يتنقّلون في مؤتمراتهم بين عمان ودمشق (٣ مؤتمرات في أسبوع)، كان حلاق قرية صوريف إبراهيم يردّ هجوم البالماخ على حيّ القطمون باستعداداته التي أعدّها في ٥ مواقع، وبـ ٢١٧ مقاتل استشهد منهم ٢٠٠.

أصيب إبراهيم أبو دية في معركة رامات راحيل بإصابةٍ خطيرةٍ في عموده الفقري أقعدته إلى الأبد، ليستشهد في بيروت بعد ٤ أعوامٍ إثر إصابته.

٤٨

من وحل واقعنا الفلسطيني ... مفاهيم تحتاج لتوضيح

هذه نماذج من مجتمعنا العربيّ والفلسطينيّ تتكرّرُ في أكثر من شخصٍ وتأكّد أنّك قابلت إحداها في حياتك.

تُجّار ذكريات (فقط لمن فسدوا وأفسدوا)

أنا مناضل حاربتُ في الثورة وخدمت أربعين سنة وقدّمت وضحّيت وجاي بتسألني وبتشكّك في وطنيتي، أنت شو قدّمت وشو عملت؟

يا راجل (عفوًا ألفظُها باللهجة المصرية مع حالةٍ من الاستغراب والاستنكار) مناضل شو؟ أولًا يا سيدي ما ظلّ عنّا مناضلين (أستثني بعض الحالات) اليوم عنّا موظفين ...

ثانيًا فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، وركّزلي في هاي كويس والشرط: "وما بدّلوا تبديلًا".انتوا بدّلتوا فلسطين بعيادة مسالك بولية، وبدّلتوا النضال بالابتذال، وبدّلتوا الخنادق بالفنادق، وليش محزّق هلقدّي هدّيلي حالك حبيبي زلمتي ليفقعلك عرق، نهبتونا ونهبتوا الثورة، وأخذتوا وظائف عالية وبدالات وعمولات وحوافز ومُرافق يحمل الجاكيت وواحد لبكيت الدخان وواحد للسيارة وواحد يتخوّثوا عليه ولاد حضرتك ... يعني فلسطين أعطتك اللي ما بيحلم فيه حدا (ولفترة من الزمن منحتك الاحترام أمام العالم أيضًا) ولو عرفوا ضُبّاط الجيش الإسرائيلي عن هاي الضمانات التقاعدية كان انضمّوا للثورة بدل ما ينضمّوا للجيش .... وليش معصّب ما دام وضعك زينون .... أخذتوا كل اشي وفقدتوا الاحترام وفلسطين ما ظلمت حدا.

عدالة اجتماعية

بدلة بس شو ماركة أرماني ودماء أصابع الطفل الهندي لسّا في خيوط الصوف تاع البدلة ... ربطة عُنق فاخرة على كيف كيفك جاية مباشرة من حرير تايلاند ... وحذاء جلدي مُستخلص من حيوان سعى وراءه رجل إفريقي أسبوع كامل في البراري عشان يطعمي أولاده ... وقهوة برازيلية بيجمع حبوب البن تاعها أطفال ما تخطّوا الثامنة ... وجيب الباجيرو برّة واقف ... وأهم اشي الفيزا مبينة كويس من جيب القميص .... وبقلّك قال عدالة اجتماعية وتسقط الرأسمالية وتسقط العولمة ... وأنا بقولك كل خرا.

المقاومة الجميلة

جرى وصف المقاومة الشعبية التي يقودُها ويشارك فيها بعض الشابات والشباب في القرى المعزولة في فلسطين من قبل بعض المتهكّمين بالمقاومة الجميلة ... وبعدها تبدأ سلسلة من الردح اللي ما بتفهم منو اشي إلا إنو أنت المسؤول عن وقف الكفاح المسلح ... طيّب يا عمّي على رأي ستّي هي الميدان يا حميدان ورجينا مراجلك وعيب عاللي مانعك.

قائد شبابي

مرحبا

أهلين

الأخ قائد شبابي؟

هيك بيحكوا (مع ابتسامة صفراء ويحاول إظهار التواضع)

طيب سيدي شو بتعمل؟غير إنك بتسافر وبتحكي بمؤتمرات؟ وبتقابل سيادته ومعاليه وتثني على كلام عطوفته؟وشاطر بالتنسيق للندوات وبتكتب في جريدة؟ ... يعني بتشارك بمظاهرات ضدّ الاستيطان والجدار؟... عمرك ذقت طعم المياه العادمة اللي بيرشوها؟ ..عمرك حسيت بلسعة رذاذ الفلفل بعينيك؟... عمرك انضربت بالعصي؟ ... تظاهرت عشان المصالحة؟... تظاهرت تحت المطر ضدّ المفاوضات؟ .... حاولت تقتحم مؤتمر تطبيع؟

بلا هبل أنا نذرت نفسي لاشي أكبر من كلّ الحكي هاد ... أنا بجهز حالي لقيادة الهبل اللي مثلك.

فياض

فياض وما أدراك ما فياض .... هذا الزلمة عمري ما استوعبته ... يعني كيف نزل بالباراشوت مش عارف ... هاليومين في نقاش حادّ بالمجتمع عن قانون الضرائب ... مين قرأ القانون أو بيعرف عنه... أنا شخصيًا ما بعرف عنّه اشي بس بعرف اشي أهم ... بعرف فياض لأي مدرسة اقتصادية بينتمي ... الأخ بينتمي لمدرسة بتقول إنه الظلم الاقتصادي وعدم المساواة هو أساس النموّ الاقتصادي (النظرية النيوليبرالية) ...يعني اليوم صار عندكم الوعي؟ وصرتوا تخاوفوا على الفقرا؟ وإلا وقع وكثرت سكاكينه؟

عن أيّ وطنٍ يتكلمون؟

يقف ذلك القائد ليخطب بالجماهير ويثني ويقول ويستشهد ويداعبنا بأسماء الشهداء ويُنهي خطابه بوعد: (لن نتخلّى عن أيّ شبرٍ من تراب الوطن)

بعد التصفيق الحادّ اللاإرادي انظر لوجوه الناس ستجد عيونهم تفضحهم بما يفكّرون وتكاد تسمعهم يتساءلون: (عن أي وطن يتكلم)؟

أفتينا يا شيخنا

إلي صديق أقسم إنه كل أبناء أحد أعمامه أولاد حرام .... استغربت الكلام وما صدّقته ... فأجابني إنه عمّه طلّق زوجته فوق العشر مرات والشيخ كان يردّلوا إياها بعزومة منسف ويلاقيلوا كل مرة حجة.

اليوم بعد اللي بسمعوا من فتاوي أتمنّى إني ألاقي صديقي وأحكيلوا كلامك صحيح بس إذا ظلّ هيك الوضع كلنا بنطلع أولاد حرام.

شيخ بيفتي إنه سبب حرمة سياقة المرأة هو إمكانية فقدانها عذريتها ... وشيخ بيفتي إنه اللي راح يموتوا في ذكرى الثورة الأولى في مصر مش شهداء .... وشيخ بيفتي إنه لا يجوز للبنت تقعد مع أبوها إلا بوجود أمها .... وشيخ بيفتي البيرة حلال ... وشيخ وشيخ وشيخ.

نضال الكتروني

أثلج صدرنا ذلك الفدائيّ الرقميّ من جزيرة العرب ... واستهجنتُ كثيرًا لمن يصفونه بالهاكر السعودي ... كيف ننسب فدائي لآل سعود زعماء الفتن والمؤامرات.

المهم فقط للملاحظة: لاحظ الفرق بين شخصٍ مثل هذا الفدائي الذي يستخدم مهاراته وإمكانياته في خدمة القضية وبين من يضغط (like or attending) لمظاهرة (وما بيحضر) أو صفحة على الفيس بوك ويعتبر بأنه قام بواجبه النضالي.

كفاح مسلح ضد الظلم

احنا منتهكات ..وإحنا طفلات ..ولما نحب ..وفي العائلة ..ولما نرتبط.. وكيف بنرتبط بحدا ..وبالشارع ..والجامعة وبالعيادة ..ولما نصير أمهات.. أيضًا منتهكات (اقتباس من حوار مع صديقة)

نعم صحيح وأقرّ بأني اقتنعتُ بأنّ الظالم له وجهٌ واحد إن كان الأب أو المجتمع أو الاحتلال أو العادة أو التقاليد أو الإسلام الوهابي وحتى أني اقتنعتُ بإمكانية إعلان الكفاح المسلح ضد العائلة في بعض الأحيان.

٤٩

أصدقائي

أشكرُ لكم كرمكم الدائم، وأشكر الاستعداد الدائم لدى العديد منكم لشراء هاتف لي، لاعتقاد الكلّ أن سبب عدم حملي هاتف هو بسبب اقتصاديٍّ بحت. بعد شكركم أودّ أن أطمئنكم أنّي أملك هاتفًا ولا داعيَ لأن تشتروا لي واحدًا، لكنّ هاتفي مغلقٌ دائمًا ولا أستعمله وموجودٌ في درج المكتبة..

ليس السبب الاقتصاديّ هو ما يمنعني من حمل هاتف، هناك أسبابٌ عديدة. لم أعُد قادرًا على أن تظلّ حياتي مُستباحةً أو أن تظلّ برسم مزاج الآخر، لم أعد أستطيع أن أسمح لأحد أن يخترق لحظاتي الخاصّة في أيّ وقت يقرّرُ هو أن يدخلها، طبعًا وإذا ما ردّيت سيعتبُ عليك كثيرًا لأنّك ما رديت، ستحتاجُ إلى وقتٍ أكثر في محاولة شرح الأمر له أو تبريره من الوقت الذي كنت ستقضيه معه في المحادثة الهاتفية.

العدو يتفوّقُ علينا في أغلب المجالات، ومنها مجال الاتصال والتكنولوجيا، فإمّا أن نحاول اللحاق بهم، وهذا من المستحيل لأنّ الاتحاد السوفيتي تلك الإمبراطورية سقطت بسبب مُلاحقتها لأمريكا، فكيف احنا المسخّمين بدنا نلحق إسرائيل، إذن يظلّ أمرًا آخر يجبُ أن نقوم به.

مع الوقت يتمُّ برمجة وهندسة العقل بناءً على نمطه الحياتي، في عملية خطف شاليط مثلًا يقول أحد الجنود الذين يراقبون شاشة المراقبة الخضراء أنّها وصفة نوم سريعة، علمًا لو أنّه رفع رأسه من خلال الشبّاك في البرج الأحمر في المعسكر لكانَ قد رأى المقاتلين وهم يتسلّلون من خلف المعسكر، لكن تمّت برمجة عقله من خلال الرؤية فقط من خلال الشاشة.

وفي خلاصته إذا تقدّموا هم خطوةً للأمام في التكنولوجيا يجبُ أن نعود للخلف خطوةً في الاعتماد عليها، هذا يصبحُ نمطًا حياتيًا ونمط تفكيرٍ وتحدّدُ أنت قوانين اللعبة لا هم. كذلك هناك خصوصيةٌ من نوعٍ آخر، شخصيًا لا أقبل أن يقوم أخي سعيد -أحبُّ الناس لي- بقراءة رسائلي النصّية أو أن يقوم بقراءة الأسماء على هاتفي فكيف أقبل بأن أكون مُستباحًا لكلّ أجهزة الأمن في المنطقة، أنت تحملُ جاسوسًا مهنيًا ودقيقًا جدًا في جمع المعلومات عنك.

أخيرًا اكتشفتُ بعد ٦ أشهر أنّي أستطيعُ العيش فعلًا وكما كنتُ أعيش تمامًا وأكثرُ إنتاجًا وأكثر راحةً نفسيةً بدون هاتف، واكتشفتُ حجم المهارات التي فقدتُها في اللحظة التي بدأتُ أستعملُ فيها الهاتف، اليوم أستطيع وبدون أن أحمل هاتفًا أن أصل لمن أريدُ من أصدقائي وأن أنسّق معهم ويستطيع أي شخصٍ أن يصلني إذا ما قرّر هذا.

٥ .

في ذكرى سقوط الأندلس

"هناك متلازمةٌ غريبةٌ جدًا يحملُها الشباب العربيّ هذه الأيام بإصراره على إدانة فتح الأندلس ويحملون مقاربةً غريبةً جدًا، مقاربة الاستعمار بالفتح الإسلامي."

ليس هذا المهم ولن أتحدّث عن الاختلاف في المفاهيم والمنطق والعالم قبل ٥٠٠٠ سنة واليوم ولن أتحدّث أصلًا عن مفهوم الاستعمار وكيف لا يمكن إسقاطه على الحالة الإسلامية أو ما قبلها من حالات التوسُّع في الإمبراطوريات القديمة، ولن أتحدّث عن أنّ من جاء إلى الأندلس وطرد المسلمين ليسوا من أهل البلد بل من ممالكَ غازية.

سقوط الأندلس هو ذكرى تدشين وبداية حركة الاستعمار، حركةً لم يعرف قبلها البشر هذا الإجرام والعنف والإبادة، إبادةً على كلّ الأصعدة، إباداتٌ جماعيةٌ وثقافيةٌ وحتّى جنسية كما قال منير العكش.

سقوط الأندلس هو بداية عصر الانحدار العربيّ والإسلامي ..

كيف؟

ببساطة تبدأ القصة قبل سقوط الأندلس بحوالي ثلاثة قرون، تبدأُ القصة مع سقوط طُليطلة في عام ١٠٨٤ ميلاديّة، والغريب كيف أنّهم تركوا كلّ الأندلس ليحتلّوا مملكةً منفصلةً ومعزولةً عن باقي أراضيهم، الفكرة ببساطةٍ هي حشر العرب داخل البحر المتوسط وعدمُ السماح لهم بالخروج منه، ممّا أدّى إلى احتكار المحيط للأوروبيين (باستثناء العرق السُّلافي)، وكانت هناك محاولةٌ للمسلمين عبر سلطان مالي للإبحار في المحيط ويُقال أنّه وصل أمريكا قبل الأوروبيين بـ٣٠٠ عام، المهم في الأمر أنّ الصراع على المحيط هو من رسم العالم كما نعرفه اليوم (وقد خرَج العرب من الصراع على المحيط قبل أن يبدأ)، مع بداية الحملات الصليبية على المشرق العربيّ لم ننتبه إلى أنّ هناك هجومًا آخر قويًا على جناح الأمة الإسلامية في المغرب العربي، سقطت طُليطلة قبل القدس بـ١٥ عامًا.

من هذه اللحظة بدأت حربٌ طويلة الأمد عبر الحصار البحري ضدّ المشروع الإسلامي

العربي (العربي هنا بمعنى المتحدّثين بالعربية وليست القومية)، لتأتي المرحلة اللاحقة في ١٤٩٢ ميلاديّة بسقوط آخر معاقل المسلمين في غرناطة وليُحسم الصراع هناك وليرث الغرب كلّ ميراثنا ها هناك، أحد أهمّ ما ورثوه هو السفن عميقةُ القاع القادرة على عبور المحيطات، التي استخدموها في استعمار العالم وإبادة أممٍ وشعوب كاملة.

بعد سنوات قليلة اكتشف أوّل أوروبي القارة الجديدة التي سُمّيت لاحقًا بأمريكا واكتشف أوروبيٌّ آخر رأس الرجاء الصالح الذي كان يستخدمه الأفارقة والمسلمين والعرب لآلاف من السنين خلت، كانت الفكرة من محاولة كولومبوس هي الوصول إلى الهند بدون الحاجة للمرور عبر الممرّ التاريخي والجغرافيا المعروفة للطريق إلى الهند، أي محاولة التخلّي عن الطريق عبر أراضي العرب والمسلمين، وفشلت تلك المحاولة، لتأتي لاحقًا محاولة فاسكو ديغاما واكتشافُه لرأس الرجاء الصالح، ذلك الاكتشاف للأوروبيين أصابنا في مقتل، لم يعودوا وقتها بحاجة للمرور عبر طريق الحرير بل أصبحوا يستخدمون البحر للوصول إلى الهند، هذا الأمر أسقط العامل الاقتصادي للوحدة للإمبراطورية الإسلامية، ممّا دفع لتدشين عصر التفكّك والدوَيْلات في العالم العربي والإسلامي والتناحر المستمر.

الصراع على المحيط كان في تلك الأيام بين الإسبان والبرتغال والإنجليز فكانت شعوب الأرض تُستَعبد من تلك الدول، وحسم الإنجليز الصراع ضدّ الإسبان والبرتغاليين عبر تحطيم أساطيلهم والسيطرة على المحيط وللمفارقة فإنّ سبب هزيمة البرتغال والإسبان في ذلك الصراع كان محاكم التفتيش التي قتلت ورحّلت المسلمين من الأندلس ليفقدوا كمًّا كبيرًا من حملة العلم والأيدي العاملة الماهرة، طبعًا دخل لاعبون جدد على الصراع على المحيط لنرى الصراع الفرنسي البريطاني والهولندي في القرون اللاحقة، والصراع الأمريكي الياباني على الهادئ في الحرب العالمية الثانية، ومحاولة روسيا الدخول إلى المياه الدافئة عبر شبه جزيرة القرم والسيطرة عليها (التي يدورُ عليها صراع اليوم في أوكرانيا ليضمنوا حصّتهم في الصراع).

ليس مهمًا ما هي تصوّراتك عن فتح المسلمين للأندلس ومهما كانت تصوّراتك عن سقوط الحكم الإسلامي فيها، المهم أنّ كلّ ما تعرفه الآن في هذا العالم هو نتيجةٌ حتميةٌ لسقوط الأندلس.

كلّ الجرائم التي تمّت ممارستها ضدّ الأمم والشعوب في هذا العالم هي نتيجة سقوط الأندلس، الاستعمار والرأسمالية هي نتيجةُ سقوط الأندلس. النكبة هي نتيجة سقوط الأندلس.

٥١

أسطرة (الأسطورة بمعنى الكذبة) الانتفاضة ومتلازمة HAPPY FEET ومشاهد من الطفولة

مشهد ١:

تشدّني أمي من ساعدي بقوّةٍ لتُفسح المجال لشبابٍ يقطعون المسافة بين السينما والمدبسة (وسط بيت لحم) يحملون الأعلام ويهتفون، البلطة حاضرةٌ بقوةٍ في الاستعراض العسكريّ الراكض.

مشهد ٢:

وآخرُ ما يتوقّعه طفلٌ قرويٌّ من أمه أن تطعمه في زيارتهم للمدينة رأس بصل، الأمر صعبٌ عليه أن يستوعب هل هذا هو (الزاكي) الذي وعدتني به؟ بابا نويل يختلفُ هذه المرّة، لم يعُد يرتدي زيّه كالعادة ولا يقذف السكاكر لنا، بابا نويل هو سيدةٌ أرطاسيةٌ أو بتّيرية أو خضرية على الأغلب تلبسُ ثوبها الفلّاحي ولا تملك ذقنًا بيضاء طويلة، تصيح ولا تبتسمُ وترمي ما في سلّتها على الناس وهي تهتف، سكاكرُها كانت بصلًا، أعترف: كان حلوَ المذاق.

مشهد ٣:

صوت آلات الخياطة يأتي بعد منتصف الليل -مع الانتفاضة افتتحت العائلةُ مشغل خياطة مُلحقًا بالبيت كما كثيرٍ من العائلات-، أمّي تترك سريرها لتتفحّص الأمر، عمّي عليٌّ وزوجته رقية يخيطونَ الأعلام ليلًا، أمّي تسكتُ ويصبح سرّهم الثلاثة، العام الماضي فقط عرفتُ لماذا كان ينام عمّي وزوجته متأخّرًا ويتركون أطفالهما في كلّ ليلة.

مشهد ٤:

ينام أبي وهو يلبس الجاكيت الثقيلة والحذاء، أمّي ترمي له الغطاء يحمله ويرافق أعمامي كلّهم إلى الواد، كلّ الأطفال والنساء مستيقظون، الجندُ يطرقون الأبواب بحثًا

عن أيّ رجلٍ ليقوم بإنزال العلم وفتح الطريق وطمس الكتابات.

عار ذلك الرجل الذي أنزل العلم عن المئذنة ما زال يلفُّه.

مشهد ٥:

الجندُ في بيتنا وبيت جدّي خليل، صراخٌ في صراخ، منجد الصغير يختبئُ خلف الخزانة هربًا من الجند، اعتقلوا أبي وجدي، أبي عاد بعد أسبوعٍ وجدّي حُكِم عليه بالسجن بتهمة نقل أموال ورسائل ومساعدة خليةٍ عسكريةٍ لتفجير مركز الشرطة القطري في القدس.

مشهد ٦:

أنا ورفيقايَ في الصف ندخل إلى حُرش كريمزان، هو يشبه في سمعته أساطير الغابات والأماكن المهجورة والمُحرّمة، جنٌّ وأشباح وفعلٌ فاضحٌ بالأطفال وملثّمون وعملاء يموتون ومغاراتٌ وأسرار.

نزلنا في بير سيدتنا العذرا، وجدنا ما كنّا نبحثُ عنه، بلطاتٌ وأعلام وملابس وعلب رشّ وأقنعة، نبحثُ عن كيس الخيش السحري الذي كان يلبسه أصغر الأعضاء حجمًا في التنظيم ليساعده على الصعود لرأس العمود لتعليق العلم، كان كيس خيشٍ سحريّ، لم نجده.

بقي سرّنا الصغير ولم نلمس أي شيء من الموجودات سوى أنّنا لبسنا الملابس واستعرضنا البلطات وهتفنا، نظّفنا البلطات بملابسنا وأعدناها لمكانها، لا اعرفُ كيف أنا الطفلُ الثرثار حافظتُ مع رفيقاي على السر، كنّا نحميه ونطرُد حتّى أيّ طفلٍ يودُّ الذهاب إلى البئر، كنّا نحمي سرّ الملثّمين فقد أصبحنا منهم.

مشهد ٧:

نحن الأسرة المُتديّنة المُحافظة لم يستنكر أحدٌ فعل عمّتي الشابة المراهقة عندما قالت أنّها أمسكت بيد شابٍ هاربٍ من ملاحقة الجيش، العيونُ كلّها تنظرُ لها بإعجابٍ وليس باستنكار.

مشهد ٨:

شرين في البيت، جاء معها زملاء لا أدري هل كانت بالجامعة أم المدرسة، المهمُّ أنّ الكلّ

يعرفُ أنّها من نشطاء الانتفاضة، سيكونُ لها يدٌ في تحديد مستقبلك كثيرًا.

مشهد ٩:

الذكور من الأطفال تدبُّ فيهم حمًّى غريبةٌ في القفز والغناء بصوتٍ يحاولون أن يجعلوه أكثر خشونةً عندما نصل إلى مقطع (وين رح تهرب ولك يا ذيب)، عندما نغنّيها في الروضة.

في فيلم الأنيميشين "القدم السعيدة" الذي يقصُّ سيرة حياة وأسطورة البطريق الذي لا يعرفُ الغناء عكس قومه لكنّه يجيد الرقص، الجوع ينتشرُ بسبب هرطقته لأنّه يرقصُ وهذا عكس إيمان البطاريق الأخرى، يقرّر أن يجد تلك المخلوقات التي تتسبّب بنقص السمك، نوح كبير القوم يعتبر أيّ شخص يتحدّثُ عن مخلوقات صوفيّة أو غريبة مهرطق، يقرّرُ بطريقنا الراقص أن يجد تلك المخلوقات ويثير شفقتها لكي يتوقّفوا عن صيد غذائها، يصل إلى موطنهم ويرقص، أعادوه إلى وطنه بعد فترة الحجز وشاهدوا حُمّى الرقص والغناء تدبُّ في كلّ البطاريق، ذلك المُستعمر الإنسان يقرّرُ بعد أن أثار بطريقنا شفقَتَهم أن يوقفوا صيد السمك للحفاظ على البطاريق الراقصة.

عزيزي نحنُ لسنا بطاريق ولا نملك أقدامًا سعيدة، حتّى أغاني أفراحنا فيها من الحزن والشجن ما يقطع الحديد.

بعد أن توقّفت جرافة D٩ عملها في المخيم بدأ عملُها في العقول، في محاولةٍ لزرع اللاعنف كأيديولوجيا في الشعب لتتمّ إبادته بهدوءٍ وأناقة، لا تصدّقوا من يقول لكم أنّها كانت لا عُنفية، هي كانت شعبيةً وشعبيةً بامتيازٍ تستخدمُ أيّة أداةٍ يمكن إيجادها لمحاربة العدو، من الحجر والهُتاف والمليتوف والبلطة والسيف والسكين والعوزي والمسدّس والرشّاش والقنبلة.

كملاحظة صغيرة: في عمليةٍ واحدة وزّعت خليةٌ عسكرية ٢٠٠ عوزي على المناضلين، ما حد يقول ما في سلاح.

كنتُ قد لمتُ بعض قيادات الانتفاضة الأولى لعدم كتابتهم عن هذا الأمر وللسّماح للبعض بتشويه وعينا وذاكرتنا، وها أنا مرّةً أخرى أذكّرهم بتقصيرهم.

٥٢

باللّه من هو أكثر ابتذالًا ليستحقّ القص من الأفلام، قبلةً ومشهدٌ جنسي أم عشرات المسلسلات والأفلام والمشاهد والكلمات والإيحاءات العنصرية والتحقيرية ضدّ العرب والمسلمين، يعني بيشطبوا مشهد مثير وبيخلّوا دافيد ضابطة الموساد البطلة والشجاعة التي حاربت الإرهاب الفلسطيني لتبدأ بحرب الإرهاب الأفغاني. هذا فقه علماء آل سعود . فقه أولويات غريب

من هو أخطرُ على ذواتنا هذا أم هذا؟

٥٣

الهرب من المنظومة

تبثُّ قناة ناشيونال جيوغرافيك برنامج باسم "هروبٌ ماكر" وهو يتحدّث عن كيفية هروب "مجرمون" من السجون الأمريكية، أدمنتُ في فترة اعتكافي على مشاهدة كلّ حلقات البرنامج عبر اليوتيوب وكذلك قرأتُ عدّة كتبٍ وشاهدت عدّة أفلام تتحدّثُ عن الهروب من السجون، وأكثر من ألهمني في عزمه وإصراره وذكائه وجُرأته طيّارٌ ألمانيٌّ أثناء الحرب العالمية الثانية حيث هرب ٣ مراتٍ وفي كلّ مرةٍ كان يعود بطائرته لتسقط مجددًا ويتمُّ أسره.

متابعةُ مثل هذا البرنامج مفيدةٌ جدًا في حالتنا، حتّى أكثر من دراسة التجارب الثورية في العالم، هو يعلّمك كيفية التفكير بتخطّي تقنيات المراقبة والتحكّم والسيطرة التي تضعها السلطة المتحكّمة للوصول إلى هدفك، الأمر ليس بالسهل يحتاجُ إلى ذكاءٍ خارق ويحتاج إلى صبرٍ ورويّة وأهمّ شيءٍ يحتاج إلى إرادةٍ ولا ظروف موضوعية أو ذاتية من الممكن أن تقف سدًا في سبيل منع الهرب (أحد تلك القصص يهرُب المجرم المُصاب في قدمه والذي لا قدرة له على الركض السريع إلا أنّه أوجد طريقةً لتخطّي الظروف الذاتية التي تمنع هربه، كذلك كلّ الفكرة تقوم على تحييد الظروف الموضوعية التي تمنع الهروب)، وبعد كلّ حالة هربٍ كانت مصلحةُ السجون تُعيد دراسة النظام الأمني في السجن وتُصحّحُ الثغرات الأمنيةَ فيه ومع هذا في بحثٍ بسيطٍ ستجدُ أنّ السجون التي نجحت فيها حالات الهرب ومع أنّ التشديد الأمنيّ زاد إلّا أنّ محاولات الهرب ونجاحها.

زادت في تلك السجون عكس السجون التي لم تنجح أو لم يكن فيها محاولات هرب.

ورغم أن مُعِدّي البرنامج هم بشكلٍ أو بآخر جزءٌ من المنظومة بحيث أنّ الفكرة التي يحاولون توصيلها للمشاهد هي حتمية القبض على الهارب من السجن (حتمية العقاب)، وهذا سيكون واضحًا جدًا إذا عرفت أنّ هناك حالاتِ هربٍ من السجون الأمريكية والتي لم يتمّ القبض على الفارين إلى الآن (هرب من سجن الكتراز في بداية الستينات ٣ سجناء وإلى الآن لم يتمّ القبض عليهم)، وهناك عشرات الأمثلة في أمريكا وحول العالم.

لكن إذا ما قمت بمحاولة معرفة أسباب القبض على الهاربين ستجدُ أنّ السبب الرئيسيّ هو غياب من يُقدّم خدمات الحماية والأمن والإيواء والغذاء للهاربين في الخارج ثم يليه الاستهتار، في حالات الهروب التي استمرّت فترةً طويلةً ستجد أنّه كان هناك من ساعد الهارب من أصدقاء ومجرمين في الخارج ووفّروا المكان والغذاء والسلاح لهم في الخارج.

في زيارتي إلى الأردن قمتُ بمقابلة أحد أعتى مجرمي الأردن، كنتُ قد رتّبتُ الزيارة بأن تحدّثتُ مع أحد أقاربه ممّن يقيمون في فلسطين ورتّب الأمر معه، أهديتُه كروز سجائر وقضيت في الحديث معه ٣ ساعاتٍ ولا أخفيكم أنّ اللقاء كان رائعًا وأنّ الرجل يتمتّع بذكاءٍ مرعبٍ وثقافةٍ لا بأس بها، عندما كنت أقول لأصدقائي بأنّي قابلتُ فلان كان الاستغراب واضحًا على وجوههم والسؤال المتكرّر: "شو بدك فيه؟"، كنت أجيبُ أنّ الثوار فعليًا هم قطّاع طرقٍ يحملون مشروعًا سياسيًا ويملكون حاضنةً شعبية، فلا فرقَ بين حرب العصابات الثورية وبين عصابات قطّاع الطرق إلا بالمشروع السياسيّ والحاضنة الشعبية.

في دراسة التجارب الثورية العالمية ستجدُ أنّ الثورات التي فشلت هي الثورات التي تمّ عزلُها أو عزلت نفسها عن حواضنها الشعبية مثل الثورة اليونانية والثورة في الفلبين.

تعلّمتُ كثيرًا من هذا الرجل واستفدتُ منه أكثر من استفادتي من كتاب جيفارا (جالستُ في حياتي عشرات اللّصوص وسمعتُ منهم كثيرًا عن تجاربهم وقصصهم).

وأهمّ درسٍ تعلّمتُه من البرنامج وبما أنّك لم تصل بعدُ لتفكيك أدوات السيطرة والتحكّم والمراقبة المحيطة بك للهروب من سجنك فاعمل على صُنع حاضنتك الشعبية لكي تتفادى أن تقع فيما وقع فيه هؤلاء.

٥٤

تحديدًا في أمريكا حركة التضامن مع القضية الفلسطينية بأغلبيّتها مشروطةً باستمرار وجود الكيان الصهيوني، من يُناصر قضيتنا من الأمريكيين ويعادي تمامًا الكيان الصهيوني ووجوده بالضرورة أنّه يعادي فكرة أمريكا، دولة العدو تكاد تكون نسخةً كربونيةً طبق الأصل عن أمريكا باستثناء أنّ المشروع الصهيوني كان يعي ذاته تمامًا منذ النشأة.

من المستحيل كسب أمريكيٍّ إلى معسكرنا بدون أن يعادي فكرة أمريكا، لذلك ما تغلبوا حالكم وأنتم تستثيرون عواطف الأمريكيين وتستجّدون دموعهم على ذواتكم الجريحة. الأفضل والأهم أن تُفكّكوا فكرة أمريكا من رؤوسهم كمدخلٍ لضمان استيعاب قضيتنا وحقوقنا وكلّ ما عدا هذا من جهدٍ إنّما كزبدٍ سيذهب جُفاءً.

٥٥

الصهيونيُّ ليس جاهلًا عندما لا يميّزُ بين القومية والديانة، ليس جاهلًا عندما يقول أنّ المسيحيّ غير عربيٍّ وعندما ينسب المسلمين فقط للعروبة.

ببساطة هو يقوم بإعادة تشكيلنا من جديد، هو يمنحُنا هويّتنا من جديدٍ، هو يصنعنا كما صنعنا أوّل مرة.

هل تذكرون بريمر في العراق وما فعل وكيف أعاد تشكيل الهوية العراقية؟ بالمناسبة على الأقل أعرف عشر قرًى فلسطينية مسلمين من أصولٍ غير عربية (ظلّوا بعد الحروب الصليبية) في حين بإمكاني أن أعود بنسب بعض عائلات بيت جالا (المسيحيين) إلى لخم العدنانية.

٥٦

في عام ١٠٨٥ ميلاديّة أي قبل ١٤٤ عامًا من بداية الحملة الصليبية على الشام سقطت طُليطلة في الأندلس، قام باحتلالها الفونسو السادس القشتالي ولم يشغل بالَه بغرناطة فقد كانت عيونه موجّهةً إلى سبتة ومليلية وبذلك وصل الأوروبيون إلى مضيق جبل

بن طارق وضمنوا معبرًا بحريًا إلى آسيا الذي عبره فاسكو ديغاما في عام ١٤٩٨م (التأخير كان بسبب عدم توفُّر التقنية للإبحار الطويل لدى الأوروبيين وأيضًا بسبب الحرب المستمرّة في المشرق)، وبذلك تمّ حصرنا داخل البحر المتوسّط ومنع علينا ارتياد المحيط لنتفرّج على التاريخ من بعيد وهم يصنعونه بالسفن المحيطية عميقة القاع التي صنعها العرب تخوضُ المحيط لاكتشاف الأمريكيّتين ونيوزيلندا وأستراليا، من شاركنا أيضًا في الحرمان هم شعوب شرق أوروبا.

تتكون أوروبا من ثلاث ثقافات رئيسية، الجرماني واللاتيني والسلافي، وشعوب شرق أوروبا تنحدر بالمُجمل من الثقافة السُّلافية الذين تمّ منعهم من ارتياد المحيط (باستثناء الاتحاد السوفيتي الذي ارتاده بردعه النووي). السباق على حيازة المحيط هي الزاوية الصحيحة للنّظر إلى خارطة العالم كما نعرفُه اليوم.

في ذلك الصراع على المحيط خسرت الأنظمة البدائية الإقطاعية (إسبانيا والبرتغال) ذوات الثقافة اللاتينية معركتها مع الأنظمة التي يديرها التجّار الحاذقين في بريطانيا وهولندا وخرجوا من مسرح التاريخ.

هكذا تمّ رسمُ العالم الذي نعرفه، لكي نفهم أكثر الموقف المُستميت لروسيا للاحتفاظ بشبه جزيرة القرم التي تُطلُّ على البحر الأسود وعبر البسفور وبحر مرمرة يتّصلُ بالمتوسط ليصبح على شواطئ الأطلسي.

٥٧

الحرب المُجدية

هناك اعتقادٌ ينتشر كما النار في الهشيم أنّ الصهاينة عدوٌّ حنون، ويتمّ دعم وإسناد هذا الاعتقاد بمقارنة أعداد الضحايا وحجم الجرائم المُرتكبة في الصراعات الداخلية الموجودة في المنطقة مع جرائم الصهاينة. لكنّ هذا الأمر لا يعني أنّ الصهاينة عدوٌّ حنون وخلوقٌ بل دليلٌ على أنّ الصراع مع الصهاينة والحرب معها كلّفته أقلّ من كُلفة أي صراع آخر ممكن أن يشتعل في المنطقة. نعم الحرب مع الصهاينة أقلّ ثمنًا من أيّ حربٍ أخرى، لا تغرّكم دعايتهم التجميلية.

٥٨

تصارعتُ أنا وعبود فصَرَعني عبود، قرّرتُ أن أعيد تقييم التجربة وأنقُدَها لكي أستطيع صَرْعه، برازخُ تتداخل وتتصارع في عقلي ما السبب؟ يا ربُّ ما السبب؟

يا ربّ يا قوم يا ناس لماذا صرعني عبود؟ فقرّرتُ أن أدرس تجارب الآخرين؛ لأشخّص أسباب قوّة الآخرين وكيف يصرَعون أعداءهم؟

لماذا لا أستطيع صرْع أعدائي؟ لا بدّ أنّ الخلل في طريقة تفكيري وعقلي وثقافتي وتاريخي، إذن سوف أنقُد ثقافتي وعقلي وعقلي الديني وسأخلعُ ردائي.

لأصرع عبود لا بدّ أن أدرس تجربة الآخرين وأطبّقها، ويجب تبنّي نظرية، وتنظيم نفسي كما نظّم الآخِرون أنفسهم.

يوريكا وجدتُها، النظرية نعم النظرية، أنا هُزِمت لأنّي لا أملك نظرية، الآن أنا أقوى البشر.

أصبح الآن عندي نظرية فإلى عبود خذوني معكم.. "إخص□ صرعني عبود مرّةً أخرى.

ما العمل ما العمل ما العمل؟ إنّها الحنكة، هيا لنُحرج عبّود أمام أبو حسين.

سألجأُ للمرحليّة في صرع عبود، نعم سأتبنّى نقاطًا ستّة إذا ما خلطتُها بالنظرية والتنظيم الزيدي الهرميّ الحديديّ فسأصرعُه.

طرحتُ برنامج النقاط والمرحلية في صرْع عبود للأسف صرعني مرةّ أخرى.

لا بدّ لي أن ألجأ للعقلانية والواقعية في صراعي مع عبود، نعم وسأفتح خطوطًا مع أبي حسين بدايةً باتصالاتٍ سريةٍ ثمّ علنيةً لأوقّع اتفاقًا مع عبود.

عبود صرعني مرةً أخرى، إذن سأدخل في اتفاقياتٍ معه، لكنّه لا يحترم الاتفاقيات، إذن سأحرجه أمام الآخرين لأعزله.

لا بدّ لي أن أعترف أنّ لا سبيل لي لأصرع عبّود ولا بدّ لي أن أتعايش معه، لكنّه يرفض التعايش، مش مشكلة سأضغطُ عليه لكي يصرعني بنعومة.

ما العمل ما العمل؟ لا بدّ أن أُجرّده من نقاط قوّته، أصلًا لماذا أقاومه ما دام يصرعُني؟ وجدتها سأصرعُ ذاتي بذاتي.

٥٩

عن التعليم في فلسطين المحتلة

يُقدّم اليكس هيلي في روايته الجذور سردًا لطيفًا جدًا عن المنهج التعليميّ والتربويّ للأطفال في قبيلته في إفريقيا في القرن السابع عشر، يقوم المنهجُ التعليميّ على فكرةٍ مركزيةٍ واحدة: "أن يتحصّل الأطفال على المعرفة اللازمة ليظلّوا على قيد الحياة"، في بلاد السّبخات والمستنقعات يتعلّم الأطفال كيفية التعامل مع الأفاعي ولا يطولُ الأمر حتّى تُصبح تلك الأفاعي مُدجّنةً لهم، في الصحراء الماءُ وطريقةُ الحفاظ عليه وإيجاده من أهمّ ما يتعلّمه الأطفال هناك منذ نعومة الأظفار.

صديقي الذي يعاني من رهاب غير عقلاني من الزومبي لم يترُك أي جُهدٍ في سبيل تحصيل المعرفة الضرورية ليظلّ على قيدً الحياة عندما سيقوم الزومبي بغزونا، درسهم بتفصيلٍ مُملّ، درس نقاط ضعفهم ونقاط قوّتهم وأفضل السبل للقضاء عليهم وأعدّ عُدّته ليكون جاهزًا لذلك اليوم المحتوم، صديقي الآخر يخشى سمك القرش ويعتقدُ أنّ موته سيكون على فكّ أحد تلك المخلوقات؛ فلم يبخل بأيّ وقتٍ وجهد في سبيل قراءة كتبٍ ومتابعة برامج وثائقية ومعرفة كلّ أنواع أسماك القرش، حتّى أنّ الرجل لم يقُم بتركيب حوض استحمامٍ كبير (بانيو) في بيته خوفًا من أن يوفّر لها أساسيات العيش داخل حصنه.

أدّعي أنّ التعليم قد نشأ في الأصل ليوفّر المعرفة اللازمة للبشر ليظلّوا على قيد الحياة.

كلُّ مجموعة بشرية تقوم بصناعة منهجها التعليميّ بما يتوافقُ مع بيئتها واحتياجاتها وطبيعة عدوّها، كان هذا قبل الحداثة ولربّما قبل نشوء السوق، وكلّما كانت تتغيّر الظروف ويدخل طارئٌ جديدٌ على قائمة أعداء المجموعة البشرية تلك كانت تعدّل برامج تعليمها ليتوافق مع الظرف الجديد، مثلًا ملك قبائل الزولو "سيتشوايو" أعدّ معسكرات لتدريب الفتية من سنّ الثالثة عشر لمواجهة خطر الغزو الإنجليزيّ لبلادهم مع تعديلٍ تكتيكاتهم الحربية لتتوافق مع شروط الحرب الجديدة، ولم يعد المنهج

التعليميّ للأطفال فقط في كيفية الصيد والرعي والزراعة بل تعدّى ذلك ليُواجه الخطر المُحْدِق بهم.

في كلّ مرّة تنتشر صورٌ لمهرجانات اختتام تخريج دورة في برنامج "الفتوة" يعود النقاش على أشُدّه بين المعارضين والمؤيدين، المعارضون ينطلقون من أطروحاتٍ متعدّدة.

الطرح الأول يرفض الفكرة من الأصل لأنّ في هذا مصادرةً لطفولة الأطفال وتحريضً على العنف ولأنّ ذلك سينعكسُ سلبيًا على صورتنا في الغرب بأنّنا نعلّم أطفالنا على "الإرهاب" والولْوَلة على طفولتهم الضائعة.

الطرح الثاني ينطلق من أنّ هناك خطرًا في نشر ثقافة السلاح على الأطفال والمراهقين في هذا العمر خوفًا من أن يؤدّي ذلك إلى انتشار منطق حلّ الخلافات الداخلية باستخدام السلاح وأنّك تُوفّر لهؤلاء الأطفال أدوات القتل التي من الممكن أن لا يستخدمها في مكانها الصحيح.

الطرح الثالث يؤيّدُ التدريب العسكريّ لكنّه يخشى من المنهاج السياسيّ والثقافي والعقائديّ المرافق للتدريب العسكري والذي من المُمكن أن يكون منهجًا فصائليًا فئويًا ضيّقًا وليس وطنيًا شاملًا ليتسع للكلّ.

ممّا فهمتُه أنّ البرنامج له شقان، الأول حصّةٌ أسبوعيةٌ إلزاميةٌ في المدارس والثاني مخيماتٌ اختياريةٌ أثناء العطل المدرسية.

الطرح الأول يُجيب عليه ما سبق كتابته، نحن نتعرّضُ لحرب إبادة حقيقية فالأوْلى فعلًا تقديم كلّ المعرفة اللازمة للأطفال ليُحافظوا على حياتهم (هذه أكبر خدمة تقدّمها لأولادك)، والعدوّ الصهيوني هو الخطر الأكبر علينا وليس الانحباس الحراريّ أو الأسود المفترسة أو فايروس الكمبيوتر.

الطرح الثاني يشبه كثيرًا نقاش ضرورة تعليم الثقافة الجنسية في المدارس، فإن لم نمنحهم المعرفة الصحيحة عن الجنس وبطريقة علمية سيتحصّلون عليها من أماكن أخرى، كذلك المعرفة العسكرية في وضع يشبه غزّة؛ فالسلاحُ منتشرٌ بكثافة (وأؤيّد أن ينتشر أكثر)، فإن لم يتحصّل الطفلُ على المعرفة السليمة للسلاح وطريقة استخدامه ومُبرّرات استخدامه وأخلاقيات حمله فإنّه سيحصل عليها بطريقةٍ مُشوّهةٍ من مكانٍ

آخر، في اليمن وعمان الطفل يبدأ بحمل الخنجر منذُ نعومة أظفاره لكنّه يعلم تمامًا أنّ استخدامه ليس عبثيًا ويحتاج إلى مبرّرات مهمّة وضرورية لاستخدامه حتّى أنّه وفق القوانين العشائرية إذا سحبْتَ خنجرك في وجه أيِّ شخصٍ فيجب أن تدفع الدية حتى لو لم تستخدمه، ويتمّ حسم هذا التخوّف عبر المنهج المرافق.

الطرح الثالث مبرَّرٌ جدًا ويستند على مخاوف أتفهّمها ولربّما أيضًا أؤيّدها في كثيرٍ من أوجُهها؛ فالمجتمع تتعدّد فيه وجهات النظر والتصوّرات الفكرية والسياسية، وهناك خوفٌ من تعميم أفكار وتوجّهات الفصيل المسيطر على السلطة في غزة عبر هذه البرامج، طبعًا هنا ينقسم الأمر إلى شقّين، الأول البرامج الاختيارية، فلهم الحقّ في صياغة منهجهم السياسي والفكري والتربوي الذي يؤمنون به؛ فالمشاركة اختيارية وبموافقة أهل الطفل وليست جبرية، فإن لم تؤمن بما يعتقدون به فلن تشارك، وأغلب الفصائل أيضًا تقوم بمخيّماتها على نفس الشاكلة، وفي الثورة في الأردن ولبنان أيضًا كان هناك مثل هذه المخيمات.

أمّا الشقّ الآخر وهو الإلزاميّ والذي يكون حصّةً أسبوعيةً فلا أملكُ المعرفة الكاملة حوله إن كان الأمرُ فقط تدريبًا عسكريًا يخلو من العقيدة القتالية والتوجيه السياسي والفكري، فإن خلا من هذا فهي مشكلةٌ كبيرة، وإن تضمّن هذا وكان فصائليًا فئويًا فأيضًا مشكلة، الأحرى أن يُرافق التدريب العسكري إعدادٌ فكريٌ وسياسيٌ وعقيدةٌ قتاليةٌ بما تتّسع لكلّ التوجهات الموجودة في المجتمع ومبنيةٌ على ثقافة وطنية جامعة لا تقوم بإقصاء المخالف -طبعًا هناك من أقصوا ذواتهم بتمييعِهم لقضيةٍ أو التنازلِ- ولا تستعمِل بروباغاندا حزبية.

٦٠

تفقّدوا أنفُسكم أيّها المؤمنون

لم يمنحنا التاريخ كثيرًا من أمثال يهوذا الخائن الذي كان يعلم تمام العلم أنّه خائنٌ ولم يُغلّف خيانته بأي أوراق سوليفان، أصلًا التاريخ لم يمنحنا عددًا كبيرًا من الخَوَن الذين كانوا يعلمون تمامًا أنّهم خَوَن ...

للأسف التاريخ منحنا بالأغلب أناسًا خانوا بلادهم وكلّهم اعتقادٌ أنّهم يحمون ديارهم

وينفّذون "مشروعًا وطنيًا" لخدمة بلادهم، وكانوا يجترحون خطابًا -لربّما في بعض الأحيان- مقنعًا وله مُبرّراته وما يلزم لنشره، وفي كلّ مرة كانوا يملكون شرعيةً بطريقةٍ ما ومُستنِدة عادةً على مبرّراتٍ تاريخية أو دينية كالحقّ الإلهي مثلًا ...

لكن تعلّموا الدرس جيدًا، ألم تقرأوا التاريخ، هل تعلمون أين أصبح هؤلاء في الذاكرة وفي كتب التاريخ وفي موضعهم الدائم للشّتائم واللعنات؟

٦١

التسويق بالدين

ملاحظتان

الأولى أنّ الصورة تشبهُ صورة صلاة المسلمين في الأفلام الامريكية (مملكة السماء مثلًا)، أين رصُّ الصفوف، فعليًا أولُ شيءٍ يتعلّمه المسلم في صلاة الجماعة هو رصُّ الصف.

الثانية بما يختصُّ باتّجاه القبلة فإنّ الظلّ لا يكون عكس القبلة إلا قبل الظهر.

هذه الصورة من نوع صور "شرطي بساعد حجّة لقطع الطريق" لتحسين صورة أجهزة الأمن (التابعة لسُلطة أوسلو-للتوضيح). على كلّ حالٍ كلُّ نفسٍ بما كسبت رهينة.

٦٢

في اللحظة التي كانت كلُّ الصحف الصادرة في فلسطين تُتابع قضية اعتقال سليم عبد الرحمن صاحب جريدة الاتحاد، وتدعو للتظاهر لأجله في سنة ١٩٢٥/١٩٢٦م، كان يمرّ خبر إعدام بعض الشباب المتّهمين بقتل جنودٍ وضباط بريطانيين مرور الكرام ودون أيّ تعليقٍ ويأتي تحت بند "بلاغ رسمي" يصفُهم بالأشقياء...

في إحدى النشرات احتلّ سليم عبد الرحمن أغلب صفحات ذلك اليوم وأُخذ خبرٌ هزيلٌ جدًا في أقلّ من ٢٠ كلمةٍ عن إعدام لبنانيّ لقتله ٣ جنودٍ مُرافقين للمندوب السامي.

طيّب المفارقة: من هو سليم عبد الرحمن؟

هو ابن عبد الرحمن الحاج إبراهيم رئيس بلدية طولكرم في تلك الفترة، مارس عبد الرحمن الحاج وابناه سلامة وسليم وصهره علي القاسم السّمسرة وبيع الأراضي للعدوّ، والأرشيفُ الصهيونيّ يُبيّن أنّ عبد الرحمن الحاج كان عميلًا للصهاينة ويتقاضى أجرًا لقاء ذلك.

ابنه سلامة هو من قال عنه أكرم زعيتر: "ألا يوجدُ في الأمّة من يقتله!"

وصهرهم علي القاسم وُجِد مقتولًا في أحراش جنين وأغلب الظنّ أنّ الصهاينة قتلوه لإخفاء جرائم وأسرار ..

سليم تاب عن السّمسرة والخيانة في عام ١٩٢٨م ...

كنتُ قد قرأتُ أنّ شارل ديغول اعتزل السياسة لأربع سنوات قام فيها بقراءة كلّ أرشيف الصحف الفرنسية من نابليون حتّى انتهاء الحرب العالمية الثانية. فإذا لم تعرف التاريخ فلن تعرف المستقبل.

٦٣

الإغراق في دور الضحية

رحمةُ الله على الشهداء، الصحف والإذاعات والتلفزيونات ونقاشات الناس البيتية انشغلت طوال اليومين السابقين في الحديث عن شهيدي حاجز الكونتينر وزعترة.

وكان واضحًا أنّ النقاش يتمحورُ حول محاولة إثبات كذب الرواية الصهيونية التي ادّعت أنّ الشهيدين حاولا إيذاء جنود العدو، شهدتُ محاولة إنتاج عشرات السيناريوهات والاحتمالات والقصص والتحليلات حول ما حدث في النقاشات المجتمعية الجارية.

أكُلُّ همّنا أن نثبت كذب الرواية الصهيونية ونعتبر أنّه إذا حقّقنا هذا فإنّنا بهذا نستردّ لهما كرامتهما وأرواحهما وناخذ الثأر لهما؟

أكُلُّ همّنا أن نقول أنّهما ماتا وهما مؤدّبان في حضرة الجلاد؟

كنتُ سأستوعبُ لو أنّ الأمر من باب محاولة إثبات المثقفين للناس أنّه حتّى وأنت مسالمٌ فلستَ في أمان، كنتُ سأستوعبُ لو أنّ في الأمر محاولة إظهار العدوّ على حقيقته للناس

والعالم.

لكن للأسف ليست إلا محاولةً للإغراق في لعب دور الضحية بشكلٍ سلبيّ، وليست إلا محاولةً لإثبات أنّنا مؤدّبون في حضرتهم وليست إلا محاولةً لإثباتٍ أنّنا مواطنون صالحون نلتزم بالقانون.

نعم نحن ضحايا ولكن هناك فرقٌ بين من يُرسّخ لانتقام الضحية من جلاده ومن يستحضر الذاكرة الجريحة لتكون مدًّا ثوريًا له وبين من يريد أن يكون ضحيةً لإثبات أنّه لا يشكّلُ خطرًا ..

أثناء توثيقي أنا وصديقة لمجزرة عيلبون وللعودة لها اتّصلنا بأحد شهود العيان، وكذلك قرأنا عشرات الشهادات، كلّهم كانوا يُنكرون تمامًا أنّهم قاتلوا العدو وينكرون أنّ القرية كان فيها أسلحة (مع أنّنا كنّا نملك أعداد وأنواع الأسلحة الموجودة في القرية)، ويُنكرون قطعًا قتل بعض الجنود، حتّى بعد ٦٥ عامًا من ذكرى المجزرة ما زالوا يُحاولون الإغراق في دور الضحية.

ورحمة الله على الشهداء..

كان أحد الشيوخ ممّن قاتل وسُجن واستُشهد بعدها عندما يقف في المياتم لأيّ ميت يقول "اشهدوا فإن فلانًا قد مات وهو يحارب الاستعمار" أو يقول " اشهدوا بأنّ فلانًا قد مات ولم يُحارب الاستعمار".

٦٤

من جنازة محمود الطيطي

ظاهرة المُلثّم في الشارع الفلسطيني تعود لتأخذ حيّزها الطبيعي.

أخبرني أحدُهم والذمة على الراوي أنّ من المهام المُكلّف بها الأمن الفلسطينيّ حسب الدليل الذي صاغه دايتون هو إنهاء ظاهرة المُلثّم في الشارع.

٦٥

تقول القصة أنّ خمسة رجالٍ جمعوا كلّ أهل القرية وأخذوا بذبحهم تِباعًا، ذبحوا كلّ

الرجال والنساء والشيوخ والأطفال وألقوهم في بئرٍ قريبة، لم ينجو من المجزرة إلا رضيعان. كيف رضوا أن يُساقوا فُرادًا وزُمرًا إلى حتفهم دون مقاومةٍ وهم أكثرُ عددًا؟! بالضبط كما نسير الآن.

٦٦

كلّ المقولات التي كان يتمّ تناقُلها لترويج اللاعنف كأيديولوجيا تسقط الآن.

مقولة آنّ الكفاح المُسلّح غير مجدٍ الآن سقطت، غزة الآن تحاول انتزاع تحريرٍ حقيقيّ من العدو وهي قريبةٌ من ذلك وهنا تكمُن الجدوى.(إن تشابهت شروط المقاومة معَ استجداءات أوسلو من مطارٍ وميناء فلا مجال للمقارنة، هذا دون قيدٍ أو شرطٍ ودون اعترافٍ ودون تنازلٍ ويحاول عرّابو أوسلو خلط الأمر علينا).

غزة الآن بتكتيكات المقاومة تجيب على مقولة تحييد أسلحة العدو التي تُعتبر أهمّ حجةٍ لأيديولوجيا اللاعنف، النفقُ والتفجير عن بعدٍ والمقذوفات والقنّاص هي تحييدٌ لأسلحة العدو.

ظروف غزة اصعب عشرات المرات من ظروف الضفة ومع هذا تُخلَق المعجزات هناك ويُروَّج للوهم ها هنا.

والقول أنّ المقاومة في غزة ومُنجزاتها هي نتيجةٌ لأوسلو التي نشتمها، نجيبُ عليه بسؤالٍ واحد: "لماذا الضفة لم تصل لما وصلت له غزة؟"، الضفّة هي نتاج أوسلو وغزة هي نتاجُ الانتفاضة الثانية التي انتفضت على أوسلو.

السُّلطة في الضفة تستجدي خدمة 3G للهواتف، والمقاومة في غزّة تسحق جيوش حروب 4G.

٦٧

كتبت عام ٢٠١٤- عقب حرب غزة

من المستحيل أن تُقنع من لا يؤمن بالعنف الثوريّ طريقًا للتحرّر بأنّ ما شهدناه هو نصر، ومن المستحيل أيضًا أن تُقنع من يؤمن باللاعنف كأيديولوجيا بهذا أيضًا، ومن المستحيل أن تُقنع من لا يرى الصراع مع العدو صراعًا وجوديًا بأنّ غزة انتصرت، ومن

المستحيل أن تُقنع من يرى بأنّ للعدو حقًا في الوجود بهذا أيضًا، من المستحيل أن يفقه هذا النصر من لا يرى كرامته فوق حياته.

هؤلاء هُزمت مشاريعهم بهزيمة العدو فيصعب عليهم الإقرار بهذا.

لكنّ هذا يجب أن لا يتمّ استعماله لقمع الحريصين على المقاومة ونقدهم للأخطاء، هناك أخطاءً كبيرةً يجب دراستها والوقوف عليها، وطرحت المعركة أسئلةً ضخمةً تتعلّق بمفاهيم كثيرة، إذا لم تتمّ هذه الحوارات والنقاشات والاستنتاجات والمحاسبة والمساءلة سنكون ضيّعنا جزءًا من نتائج النصر.

والحربُ لم تتوقّف بوقف أزيز الرصاص، بل انتقلت إلى مساحات أخرى وبضجيجٍ أقل، حربُنا لن تنتهيَ حتّى يتمّ إنهاء إسرائيل وانهيار الرأسمالية العالمية.

٦٨

كمَنَ هو ورفاقه الثلاثة للدورية اليومية التي تحرس المستوطنة، كان قد أعدّ العبوة الناسفة التي تُشغّل عبر الأسلاك فلم تكن قد توفّرت له بعد تقنية التفجير عن بعد، اقتربت الدورية بسملٍ وكبرٍ وفجر، تطايرت الأشلاء وهجم هو ورفاقه باستخدام البنادق الأمريكية التي غنموها من دوريةٍ سابقةٍ قتلوا من فيها بالسلاح الأبيض.

ثلاثة جنودٍ ماتوا من جرّاء التفجير، الرابع يحتضر وهو يسبحُ في دمه، خامسهم يبكي ويُولْوِل ويضع رأسه بين قدميه، ما أن اقترب منه حتّى بدأ الجنديّ يستعطفُه، لكنّه تذكّر التعليمات: (لا رحمة لا أسرى)، أطلق النار ونزع بندقية تافور الجديدة من حضن الجندي، أخذوا كلّ ما كان في الدورية حتّى الملابس وأشعلوا النار فيها لإخفاء أيّ أدلةٍ وانسحبوا.

في اليوم التالي استيقظ مع الفجر، صلّى ثمّ انطلق إلى المعبر، كان قرار منع الصلاة على المعبر قد تمّ تطبيقه فعليًا بعد أوّل لطمة تلقّاها عاملٌ ما صلّى هناك، وقف لساعتين بمحاذاة الشيك ثمّ وصل (للمعّاطة) الأولى، عبقريٌّ من سمّاها بالمعّاطة فهي تشبه تمامًا آلة نزع ريش الدجاج المذبوح، كان ما يزالُ أمامه ثلاث معاطات وآلةُ كشف المعادن وفحص البصمة وتسليم التصريح والمُمغنطة والهويّة ليصل إلى المعلم اليهودي، ذلك المعلم اليهودي شخصٌ حُيّد البارحة قام بإذلال الشومير البدوي الذي

أهانه، العاملون العرب في قطاع الأمن العام والخاص أكثر لؤمًا من اليهود ذاتهم.

نظر له الجندي العشريني القادم من مكانٍ ما في إفريقيا ثمّ طلب منه العودة، أطاع بانكسار، ستّينيٌّ ما اشتبك مع أحد الجنود بصراخٍ عالٍ، سرعان ما عمّ الهدوء إثر صفعة قوية نزلت على وجه الستيني، بصق بعضَ الكلمات غير المفهومة فهو كما يقول المثل: "الكلمة اللي ما بتقدر تقولها نينها".

وقف وتأمّل وجه الجندي جيّدًا وقرّر أن يخوض معركته هذه الليلة كما الليلة السابقة على هذا المعبر. استغفر وتعوّذ من الشيطان وذهب لمعّاطةٍ أخرى ليصل العمل على أنّه قرر أن يقتلهم جميعًا في أحلامه الليلية.

٦٩

قالوا لذلك المناضل الفذّ: اخرج للعمل الجماهيري ولا تعُد للعمل السريّ.

قال لهم: هذا فراق ما بيني وبينكم، ماذا بعتُم وما هي الصفقة؟ تبيّن لاحقًا أنّهم وصلوا لاتفاقية أوسلو.

٧٠

قبل عدّة سنوات، جاءت دوريةٌ لحرس الحدود على أحد بيوت قريتنا لمنعهم من إكمال البناء، حدثت مشادةٌ كلامية، فما كان من ضابط الدورية إلا أن اعتدى على ربّة البيت -المهم انساك من الطويل وخلّيني في القصير، أبناء تلك السيدة أشبعوا تلك الدورية ضربًا مُبرّحًا، وأخذوا منهم أسلحتهم، وانسحبت الدورية بدون أسلحتها ومصابين بكسورٍ شديدة.

صحيحٌ أنه في النهاية تمّ اعتقالهم جميعهم، إلا أنّه لهذه اللحظة لا تجرؤ أيّة دورية جيشٍ من الاقتراب من ذلك البيت، وكسبوا احترام أهل كلّ القرية.

٧١

لم يكن هناك من نشازٍ أبدًا ولم يُعكّر صفو الرحلة ما بين رام الله وبيت لحم لا حاجز جبع ولا حاجز الكونتينر الذي أوقفنا أكثر من ٤٠ دقيقة، ولا المستوطنات التي تأكلُ رؤوس التلال،

ولا اللافتات العبرية المعرّبة بطريقة احترافية، ولا لافتات (مُقدّم من الشعب الأمريكي)، ولا ادفعوا الضرائب لكي نبني دولة، ولا تلك الشابة التي تصبغ شعرها بالأشقر وهي تُحدّث صديقتها عن تخلّف مجتمعنا وحقارة شعبنا، كلّ هذا لم يضايق أحدًا، لكنّ أكثر ما أذى الركاب هو صوت بكاء ذلك الطفل على الحاجز عندما خاف من الجنود.

٧٢

يقول يزيد صايغ في كتابه عن منظّمة التحرير أنّ حركة فتح لم تنظر أو تأخذ الصراع العسكري أبدًا على محمل الجد، ولم يُنظَر على الكفاح المسلح أنه غايةٌ في ذاته وسبيلٌ أوحد للتحرير، بل كان يعتبر الكفاح المسلح كأداةٍ للوصول إلى حلٍّ تفاوضيّ.

وأرى أنّ تجربة حماس في غزة تسير في نفس النهج؛ فالقيادة السياسية تنظر للكفاح المُسلّح بالضبط كما نظر عرفات له.

هذا هو فارقٌ جوهريٌّ ما بين تجربة حزب الله مثلًا وتجربتنا، كذلك هو فارقٌ بين التجربة الجزائرية والشيشانية والفيتنامية والكوبية وتجربتنا.

في حين أنّ كلّ تلك التجارب الأخرى آمنت أنّها تستطيع أن تهزم أعداءها من الدول العظمى، إلا أنّنا وصلنا لقناعة استحالة هزيمة إسرائيل، ولم نؤمن قطٌّ بأنّ العودة لفلسطين ستكون بتغيير المعطيات على الارض بل بالوصول إلى ترضيةٍ عبر عواصم النفوذ في العالم.

٧٣

٢٠١٢/١٠/١٦

في اللحظة قبل ١٢ ساعة قبل بضع سنين تسلّم ذلك الشاب وزملاؤه أمر تنفيذ الاغتيال، مع مسدّسين بكاتم صوت، وقُسّمت المهام وتمّ الكشفُ لهم عن الهدف، آخر اجتماعٍ قبل التنفيذ

زئيفي في مرمى النار.

في مثل هذه اللحظة

أغلق محمد الريماوي البيت على نفسه، أطفأ كلّ الأضواء وأغلق الستائر والشبابيك، البيت لرفيقٍ آخر يُدعى محمد.

يجب أن لا يثير البيتُ أيّ شكوكٍ أبدًا، محمّد الريماوي موالد ٦٦ في مخيم سوف في جرش، له أربع بنات يسكن مع زوجته وبناته في بيت ريما في رام الله، كان كهربائي سيارات تعلمها في أثناء خدمته في الجيش الاردني.

٧٤

أسواق النخاسة لم تنتهِ أبدًا بل اتّخذت شكلًا أكثر رقيًا، صناعة تجارة العبيد لها أوسع سوقٍ في فلسطين، كلّ يومٍ سيّدٌ جديدٌ .. التمويل الأجنبيّ هو عبوديةٌ مع ربطة عنق.

٧٥

تمّ الحكم على قاتل الشهيد فادي قفيشة بخمس سنوات أقلّ ممّا حكمته محكمةٌ فلسطينيةٌ على أحد عناصر القسام. كيف هذا؟ على كلّ حالٍ بيننا وبينه الزمن.

٧٦

سلواد هي بلدة يحبها الله ورسوله والمؤمنون، ولا يُبغضها ويكرهُها إلا منافق.

٧٧

الشرطي اللي وقف اليوم بالخليل وضرب غاز على الناس لا يختلف عن غسان عليان في شيء.

٧٨

السلاح زينة الرجال.

٧٩

صور الأطفال وأشلائهم المتطايرة وبكاء الأمهات وعويل الآباء جراء القصف الإسرائيلي

والتي يتم تناقلها على وسائل الإعلام الاجتماعي لن تؤدي حتماً إلا للهزيمة والخنوع، فهذا يجسّد فعلياً خطاب الضحايا، ولن يؤثر على المجتمع الصهيوني أبداً إلا بالإيجاب.

أصل العلاقة بيننا وبين الصهاينة علاقة القمع وحتماً يحتاج القامع / المضطهِد / القاهر إلى استمرار تغذية نرجسيته، نرجسية السيد، يحتاج إلى مزيد من تضخم أناه حتى لا يتهددها بروز الحس الإنساني، بروز التعاطف النابع من التكافؤ بين الذاتية والغيرية. لذلك لربما تلك الصور ستحفّز خلايا دماغه ليقاتل بشكل أشرس.

٨٠

كل من يجهر بدعمه للكيان في حربه هو عدو ومن حقنا استهدافه. أميركا فرنسا بريطانيا ألمانيا

كل ممثلياتهم في الضفة يجب أن تكون هدفاً مثلها مثل بيت إيل وعوفر.

٨١

العدو يخطط لأن يقيم حديقة وطنية لأبنائه على أراضي قريتي التي تقع بالقرب من الخط الأخضر والتي تم عزلها عن القرية بالجدار العازل غير المكتمل بناؤه إلى الآن.

كل المعارف التي أملكها واطّلعت عليها وعصر ذهني لفترة طويلة لم تسعفني إلى اكتشاف آلية لمواجهة المشروع بشكل مضمون وسريع.

إلا معرفة واحد ورثتها عن والدي هي التي ستستطيع أن تحمي الأرض، نملك بعض الدونمات في تلك المنطقة والتي دفعنا عشر أضعاف ثمنها الحقيقي في سبيل حمايتها من المصادرة على أكثر من ٣٠ سنة صراع مع العدو في تلك المنطقة.

بذلت العائلة أشهراً طويلة في العمل على تعميرها وزراعتها بالزيتون للحفاظ عليها، قررت أن أعود لأقوم بالمكوث فيها وزراعتها، أفكر جدياً في زراعة القمح.

كل التنظير والعمل الثقافي والعمل التعبوي ينهار أمام رصاصة واحدة وأمام ضربة معول، لا أستطيع أن أضرب رصاصة لكن أجيد الضرب بالمعول.

٨٢

ساري الفنيش وإميل الجميعان ضابطان أردنيان استقالا من الجيش الأردني لعدم رضاهما على نهج غلوب باشا وقاما بالالتحاق بالثوار الفلسطينيين في حرب النكبة. كانا على رأس ١٠٠ متطوع من العشائر الأردنية، من يعرف القليل من العلوم العسكرية يدرك مدى عبقرية ساري.

ساري تم تعيينه من قبل الششكلي قائد جيش الإنقاذ في الجليل كقائد لحامية صفد وتمّ تعيين إميل كنائب له في حين كان الشهيد إحسان كم الماز المتطوع السوري قائداً لقلعة صفد.

٨٣

يعلو بيتي على رأس الجبل مستوطنة لربما تعداد سكانها بنصف تعداد قريتي، أتخيل لو قرر هؤلاء أن يقوموا بترحيل القرية، أجد أنه لا نحتاج أكثر من ٣٠ دقيقة لانهاء عملية التهجير. كل قرية فلسطينية هي مثل قريتي ولن يحتاجوا وقتاً أكثر منا.

لا نختلف أبداً عن عشية انتهاء الثورة الكبرى باستثناء أن الناس وقتها كانوا أقل تشوّهاً وأكثر تمسكاً بالأرض، اليوم الأرض والبيت والسيارة للبنك فشو راح نخسر. وضع المستوطنين اليوم في الضفة والقدس لا يختلف كثيراً عن وضعهم بعد ١٩٣٩، اقتصاد منفصل وتنظيمات سرية وتدريب عسكري وأماكن استراتيجية وعداء للسلطة الحاكمة واعتداءات على العرب وتخزين سلاح وعقيدة قتالية مُحكمة.

لن يأخذ الأمر معهم أكثر من عشر سنوات ليصبح الأطفال المستوطنين الذين ألقوا المولوتوف على سيارة في قرية نحالين قادة سرايا في العصابات (بالمناسبة هؤلاء الأطفال وأكبرهم ١٤ سنة لم يعترفوا في التحقيق عن فعلتهم، أحدهم ١٢ سنة واستخدمت معهم أدوات تحقيق تشبه الأدوات التي تستخدم معنا لكن بحدّة أخف في حين زلام بشوارب عنا بيعترفوا في الجيب أثناء نقلهم من البيت للمعتقل)، هؤلاء الأطفال هم من سيجعلوننا نَعوي في الصحراء بلا مأوى إن بقيت حالتنا هذي الحالة ......".

٨٤

عند احتلال بيسان عام ١٠٩٥ ميلادية من الصليبين تم تهجير أهلها إلى عسقلان، يكتب القاضي البيساني العسقلاني عن حياته فيقول أن أهل بيسان هم الأكثر حنيناً إلى بلادهم وهم أكثر الناس بكاءً ورقّة. هذا الشخص ممن قادوا صمود عسقلان خمسين عاماً تحت الحصار الصليبي وهو من رجال صلاح الدين.

٨٥

يتعرض اللاجئون الفلسطينيون في سوريا لإبادة حقيقية، وتشارك الدول المحيطة (الأردن تركيا ولبنان والعراق) في الإبادة عبر منع أي فلسطيني من العبور نحو أراضيها، وأغلب اللاجئين لا يملكون وثائق سفر مما يعقّد الموضوع.

اضطر ضابط الحماية في وكالة الغوث المتابع لحالة اللاجئين الفلسطينيين من سوريا إلى الاردن إلى الاتصال بالسفارة الأمريكية والسفارة البريطانية طلباً لحماية اللاجئين بعدما تخلى عنهم الجميع، السفارة الفلسطينية في الأردن ردت على ضابط الحماية بالقول أن هذا الموضوع يجب مناقشته مع السفير مباشرة، والسفير لم يرد حتى الآن منذ ٦ أسابيع ويرفض استقبال الاتصال.

لاحقا لجأ ضابط الحماية إلى استغلال علاقته الشخصية ببعض القيادات الأمنية الفلسطينية ليتوسطوا له لترتيب موعد مع السفير الفلسطيني بالأردن، إلا أن الجواب كان (بأي صفة تريد التحدث في هذا الأمر مع السفير)، أجاب ضابط الحماية (انسَ صفتي الرسمية كموظف أمم متحدة لكني أطلب هذا الطلب كفلسطيني). السلطة الفلسطينية تشارك في إبادتنا.

٨٦

ما إن مزاجي بدأ يتحسن، حتى قررت أن أطلعكم على سر كبير، وسيتم اعتباري خائناً لقبائل يمن لأني أقول هذا.

تعود حقيقة صراع قيس ويمن في تلال القدس والخليل في جذورها إلى أن قيس والوا آل

البيت ورفضوا أن يوالوا الأمويين. تابعوا القصة ورح تحلوا بعض الرموز الموجودة الآن.

بالمناسبة، اللي ذكرني بهذا مشهد في مسلسل، حيث منع أهل العروس أن يأخذ العريس عروسه، دون أن يدفع "بلصة"، بتعرفوها البلصة؟ تذكرت أنه في خمسينيات القرن الماضي، حدثت طوشة ضخمة بين أهل قريتنا وأهل دورا، لأنهم طلبوا "بلصة" من عريس من قريتنا، ولم يكتفوا ببلصة للخال والعم وشباب البلد وقيس، بل أيضاً طلبوا فرى (طعام) لكلاب البلد، ودبّت الطوشة وأهل بلدنا رفعوا العباية البيضاء في إشارة للنخوة ليمن ضد قيس، وكادت أن تعود الحرب من جديد لولا أن البعض تعقّل.

والت القبائل القيسية التي كانت في القدس والخليل آل البيت، ورفضت أن توالي الأمويين، وهؤلاء أصولهم تعود تحديداً إلى "لخم". ومن هنا بالمناسبة، جاءت كلمة "لخمة" التي هي تحوير لكلمة "لخمي"، والتي تعتبر شتيمة تعبّر عن قساوة الرأس وعدم الاستيعاب. تخيلوا أننا نحن - معشر يمن- نعتبر أصولكم شتيمة، والأدعى من ذلك، ونظراً لأن آخر حرب حُسمت لصالح يمن، فإن اليمنيين مارسوا سطوة ثقافية على قيس، حيث إن قيس أيضاً افتتنوا بالغالب ومعاييره ههههههههه مجتمع متسامح بطبعه.

المهم أن الأمويين حاولوا أن يجعلوا من القدس مركزاً دينياً مهماً يوازي المدينة ومكة اللتين كانتا من أنصار آل البيت، فأنعموا وأسبغوا العطايا وعملوا بالمعمار لكي تصبح القدس تحفة من تحف العصر. كما قاموا باستجلاب قبائل يمن الموالية لهم من الجزيرة العربية إلى القدس لكي يناصروهم ضد قبائل قيس الموالية لآل البيت، لذلك يستخدم القيسيون كلمة "جلب" لإهانة اليمنيين، في إشارة إلى أنه تم استجلابهم، وأنهم هم السكان الأصليون، وقيس اختاروا علمهم باللون الأحمر للإشارة في نظرة استعلائية إلى الدماء التي بذلوها في سبيل تحرير هذه البلاد من الرومان، فهم أبطال أجنادين، ووصفوا قبائل يمن بأنهم يهود لأنها كانت ديانتهم قبل الإسلام (قبائل كندة وحمير، طبعاً اليوم ليس كل من يُعتبر من قبائل يمن هو من كندة وحمير، لكن القيسيين اعتبروا أن كل من والى الأمويين هم يمنيون، بغض النظر عن أصولهم، وطبعاً لاحقاً أصبح هناك حزب سياسي تتنقل القبيلة وفق هواه ومصالحه من قيس إلى يمن أو العكس).

طبعاً يمن قابلوا قيس أيضاً برموز استعلائية؛ منها العلم الأبيض، وقاموا بتحقير أصول

قيس عبر استخدامهم أصول القيسيين كشتيمة، فيقال "اللخمي"، في إشارة لقساوة المخ أو بالأحرى لأنهم لم يسايروا الواقع ولم يقبلوا الدولة الأموية .

ومع سطوة الدولة الأموية وسطوة حلفائها من اليمنيين على قيس، أصبح حرف الخاء حرف المعيبة والشتيمة والعار، ومن هنا جاء اسم عائلة اللحام، وهو في الأصل كان "اللخام" أو "اللخمي"، لكنهم قاموا بقلبها إلى حاء هرباً من تلك الخاء. وأيضاً، كان هناك سبب آخر في قلب الخاء إلى حاء، وهو رغبة القيسيين في تأكيد عروبتهم لأن اليمنيين اتهموهم أنهم نصارى من الرومان (طبعاً لخم وجذام اللي هما أصل القيسيين كانوا نصارى قبل الإسلام، وهم كانوا يسكنون شمال الجزيرة العربية)، فأصروا على قلب الخاء إلى حاء، لأن الرومان أو الأوروبيين لا يقدرون على نطقها .

وإلنا خراف طويل في الأمر لما نلتقي، وبخرفكم كيف ذبحناكم في آخر معركة "سهل عسلين".

المهم إني أقر أنكم من أنصار آل البيت تاريخياً، وأننا من أنصار الأمويين، وأنكم من كنتم الثوريين، ونحن كنا زلام الدولة.

٨٧

رافق دائماً انهيار الحضارات والدول والمشاريع ظاهرة غريبة جداً، نسمع مقولات ونضحك عليها، إلا أنه للأسف نطبقها دائماً.

مثلاً، كان يقال أنه عندما كانت القسطنطينية محاصرة، كان القساوسة يناقشون كم شيطان يستطيع أن يقف على رأس الإبرة، وهكذا دواليك من مقولات راجت، حتى انهيار الأندلس وسقوط بغداد كانت المقولات هكذا أيضاً.

في عصر انهيار الخلافة العثمانية وما بعدها لفترة طويلة، سار الأمر أيضاً على نفس النهج، ولغاية عدة سنوات سابقة كان أغلب الخطاب الإسلامي السلفي يدور- مثلاً- حول كيفية دخول الحمام وكيفية الطهارة، وكيف يقل أجرك لأنك لا تجلس جلسة الرسول (ص) في الصلاة. الإسلام تم تدمير مشروعه السياسي عبر تحويله إلى تقني بحت على حساب روحه .

ومع أني لا أحب أبداً أن استخدم "داعش" في توصيف الأشياء، إلا أن "داعش" ليست أكثر من جماعة تُقدّم التقني على الروح، إغراق هائل في تفاصيل ما يخرجك وما يدخلك إلى الإسلام بشكل مذهل، تقنيون إلى أبعد حد. الأمر ليس مرتبطاً فقط بالأديان، بل أيضا بالماركسية. مثلاً، تخيل أن تقضي وقتاً طويلاً، وأنت تسمع نقاشاً طويلاً عريضاً عن التروتيسكية، وهل هي هرطقة أم أنها إصلاح، ولاحقاً تكتشف أن الطرفين متحالفان مع قوى رأسمالية ومتصارعان في ما بينهما.

إن أردت تفريغ شيء ما من روحه، ليس عليك إلا أن تحوله إلى تقني، هذا الأمر سيصنع عندك قائمة طويلة لامتناهية من الأشياء الصغيرة التي ستنسيك الهدف الذي جاءت من أجله الفكرة. ومع الوقت، يتحول الأمر إلى لوائح من مثل لوائح التعليمات البيروقراطية في الدوائر الحكومية المصرية، لتصاب بالجمود الكامل والانهيار لاحقاً.

هكذا جرت إبادة العمل السياسي في فلسطين، نعم هكذا .مُذ جاءت أوسلو التي نسيت السياسي وتمسكت بالتقني، أبيدت السياسة في بلادنا، فهذا التحول إلى التقني هو ما أفز تغير مجالات العمل السياسي.

مثلاً، يجهد شاب حزبي من الداخل في وصف العمل السياسي في الداخل، في طرحها في مئات من الكلمات تتحدث عمّا هو العمل السياسي الحزبي، لتكتشف أنه يتحدث عن تقنية الإجراءات الديمقراطية والانتخابية والتراتيبية في الحزب، ويعتبر أن تلك التقنيات هي روح العمل الحزبي السياسي في فلسطين، في حين أن السياسة الحقة في فلسطين هي ما فعله أبناء أبو جمل الذين أنكرهم اعضاء الكنيست العرب.

الأمر أيضاً يرتبط بالعمل التطوعي، فالعمل التطوعي تعريفه تقنياً هو عمل بدون أجر، لكن بالمعنى الواسع هو عمل بدون أجر لتحقيق هدف سياسي، وإن غاب السياسي عن الأمر، فلستَ سوى أداة في المنظومة القائمة.

الطيرواي- مثلاً- بكل بساطة يشرح أن التنسيق الامني هو: "إسرائيل بتقلنا هاد بدو يعمل عملية روحوا اعتقلوه، بنروح بنعتقله، ليش بتكبروا الأمر؟ ". وكلامه صحيح، ليش بنكبر الأمر ما دمنا نقيس الأمور بناحية تقنية؟ وتقنياً، مش هالإشي الكبير ما يفعلونه بالتنسيق الأمني، لكن إن أعدت له السياسي، هناك سترى بشكل أوضح الأمور .

لاحظوا- مثلاً- عندما نتمسك بالتقني في نقاش التطبيع والمقاطعة، كيف يتم تفريغ محتوى وروح المقاطعة، يصبح الأمر ببساطة "وشو يعني اذا ختموا على جواز سفري اليهود ؟؟". الطرح التقني للمقاطعة هو ما أوصل إلى هذا، عندما يتم طرح السؤال، فعلياً أقف مع ذاتي وأقول صحيح شو هالمشكلة الكبيرة إذا ختموا على جوازه، لكن عندما أعود أنظر للأمر بمنظوره الصحيح السياسي، أجد الأمر يختلف تماماً، لا يصبح الأمر وصفاً ممجوجاً (التطبيع)، بل يتعداه إلى "عمالة لايت".

قِس أيضاً على مفهوم الفلسطيني، بين كل كلمتين بينط واحد بقلك "يعني أنا مش فلسطيني، ويعني أنا مش وطني، ومين أنت عشان توزع شهادات؟؟". تقنياً، تعريف الفلسطيني تم وضعه في الميثاق الوطني على أنه "هم المواطنون العرب الذين كانوا يقيمون إقامة عادية في فلسطين حتى عام ١٩٤٧، سواء من أخرج منها أو بقي فيها، وكل من وُلد لأب عربي فلسطيني بعد هذا التاريخ داخل فلسطين أو خارجها هو فلسطيني". وأجد نفسي مباشرةً أمام تناقض غريب، فحسب هذا التعريف الجندي الذي يخدم في جيش العدو هو فلسطيني، أما الشباب اللبناني والإيراني والسوداني والمصري الذين يهربون السلاح إلى غزة ليسوا فلسطينيين، وتقنياً الانتماء والفزعة يجب أن تكونا للأول وليس للثاني.

كيف يمكن أن أستسيغ أن يجمعني انتماء مع شخص يقر بأن أولاده أغلى من فلسطين، وأنه سيعترف بأي شيء لحماية أبنائه، في حين أن أم البطل أحمد الدقامسة التي صرخت في ابنها في المحكمة "ارفع راسك" ليست فلسطينية؟! لن تستسيغ هذا إلا إذا نظرتَ إلى التعريف والانتماء على أنهما أمر تقني وتناسٍ للسياسي. والسياسة في فلسطين هي "تحريرها من النهر الى البحر"، وتجاوز تحويلها إلى تقني (دولة واحدة، دولتان، دولة متوازية، ثنائية القومية، لكل مواطنيها).

٨٨

برنامج الجزيرة حول اغتيال الشهيد عمر النايف يفتح مجالاً لفرضيات جديدة، الفرضية الأولى هي الفرضية السائدة عن اغتيال الموساد للشهيد، لكن البرنامج يوضح مدى الاحترافية في طريقة الاغتيال ويؤكد أن الأمر لم يتم بتواطؤ فلسطيني بل بمشاركة أحد الأطراف أو الأشخاص إن كان بشكل رسمي أو فردي، والفرضية الثانية هي أن القاتل ليس الموساد، بل قُتِل بأيدٍ فلسطينية هاوية.

لكن الأكيد أن فرضية الانتحار قد سقطت، لأكثر من سبب، السبب الأول أن المادة المستخدمة "الميتفورمين" أحد أهم أعراض التسمم بها هو lactic acidosis ، وأيّ رياضي أو طبيب مبتدئ يعلم أن المصاب بهذا العرض لن يستطيع صعود ٣ طوابق، بالإضافة للأعراض الأخرى من القيء والدوخة والتعب الشديد والإنهاك، بالإضافة إلى أن المدة الزمنية لظهور أعراض التسمم بالمتفورمين تصل إلى ساعات طويلة، قد تصل إلى خمس ساعات بعد هضم المادة، والوقائع تشير إلى أن النايف بدأ بالشعور بالأعراض وهو في الطابق الأول والتي ظهرت بالقيء والإسهال، وهذا يعني أيضاً أن النايف تناول المتفورمين قبل أن يهاتف زوجته الساعة السابعة وصديقه الساعة الحادية عشر، وظهرت الأعراض بعد انقطاع آخر اتصال الساعة ٢ صباحاً، وتلف الأعضاء الداخلية بأثر السقوط استطاع إخفاء معلومات مهمة حول الساعة التي تناول فيها الشهيد السم المدسوس (تحديداً القلب والكلى).

أضف إلى أن الوقائع تنفي السلوك المنطقي المتَبع لدى المنتحرين بالدواء، فلا نعرف بالضبط هل وُجِدَت علبة الدواء فارغة تماماً أم لا، لكن إن كان بها بعض الحبوب فهذا يجزم تماماً بإنكار فرضية الانتحار، لأن سلوك المنتحر يشير إلى أنه يتناول كل الكمية الدوائية الموجودة في حوزته وليس بعضاً منها، وإن لم يصل إلى الموت في فترة قصيرة يبدأ بتعاطي كمية أكبر إن بقي منها، أو يعود إلى رشده ويطلب المساعدة. وطبعاً المتفورمين يحتاج إلى عدة ساعات لبدء ظهور أعراض التسمم منه.

على ضوء هذا وبتحليل الواقعة من زاوية تناول المتفورمين بكمية ضخمة لنناقش الفرضيتين.

الفرضية الأولى:

تفترض أن القاتل هو الموساد، وليس غريب أبداً على الموساد القيام بعملية من مثل هذا النوع فيها كثير من الضجة والعنف والتخريب وإظهار العملية بشكل غير احترافي، فقد قتل الشهيد يحيى المشد على أيدي الموساد ضرباً بالعصي حتى الموت رغبة منهم في إظهار أن القاتل غير محترف وللصق التهمة بطرف آخر. كما أن الموساد قام باغتيالات شبيهة في أوروبا كانت لدوافع انتقامية بحتة وطريقة القتل هدفها الانتقام وإيقاع أكبر أذى وألم للهدف.

لكن السؤال هنا، لماذا تم دس مادة المتفورمين له، بشكل تلقائي فهذه المادة هي المادة

الدوائية الوحيدة التي يتعاطها الشهيد، وهي من أدوية السكري، فَدَسٌّ تلك المادة للشهيد فيه نوع من التضليل، فإذا تم استخدام مادة أخرى، سيُثبت أنه تعرض للتسميم، لكن هذه المادة تطرح مباشرة فرضية الانتحار. لكن ما الداعي لتسميمه بالمتفورمين إذا أرادوا قتله بطريقة عنيفة، ونظراً لقناعتنا باحترافية (ولو بشكل جزئي) الموساد، فإنه من المؤكد أنهم قد حصلوا على استشارة من جهات طبية حول الميتفورمين، فيعلمون قطعاً أن الدواء لن يقتله في وقت قصير وأن الاعراض ستظهر بشكل متأخر، وكلتا الفرضيتان تفترضان أن الدواء تم دسه للشهيد عبر الطعام بكمية كبيرة، لذلك يجب العودة للتحقيقات ومعرفة السلوك الغذائي للشهيد.

لكن هذه الفرضية تفترض أن دس الدواء للشهيد تم إما للتضليل و/أو لإنهاك جسد الشهيد قبل استشهاده ليعجز عن المقاومة أو طلب المساعدة، فالتسمم بالمتفورمين سيترك جسد الشهيد منهكاً تماماً يعاني من شبه شلل بالإضافة إلى مشاكل في الكلى والتنفس والقلب والرؤية والحركة، مما يجعله هدفاً سهلاً للتنكيل به بروية مطلقة والحرص على عدم ترك أدلة ستظل في موقع الجريمة أو على جسد الشهيد.

الفرضية الثانية:

أن القاتل هو فلسطيني أو أن القتل تم بيد فرد بالوكالة عن الموساد وتكليف منه، أو بقرار رسمي فلسطيني، فهذه الفرضية تحيلنا إلى أن القاتل فعلياً غير محترف كما هو حال المخابرات الفلسطينية، وأن طريقة الاغتيال فعلياً تمت بمحاولة تسميمه بدوائه ونظراً لغياب المعرفة والمعلومات اللازمة عن المتفورمين وتسميمه، فقد تفاجئ القاتل بأن الشهيد لم يكن قد مات عندما وصل إليه الساعة الثانية صباحاً (لحظة انقطاع الاتصال معه)، فاضطر القاتل لقتل الشهيد عبر رميه من الطابق الثالث.

هذه الفرضية تفتح عدة أسئلة، السؤال الأول هو لماذا تأخر السفير ساعتين حتى وصل وقد ادعى بأنه ظنّ أن الحالة غير طارئة مع أنه يعلم أن حياة الشهيد مهددة بالخطر، لو كنت مكان السفير فإن أية مكالمة هاتفية أتلقاها من أي أحد وأول كلمة ينطق بها هو اسم عمر النايف لكان قلبي سينتزع من مكانه لأن اسم الشهيد يرتبط بحدث جلل ممكن أن يقع، ومما يؤكد تواطؤ أو مشاركة السفير باغتيال الشهيد هو عدم إخراجه من السفارة إلى المستشفى واكتفى باستدعاء الإسعاف، وادعى السفير أنه خاف أن تعتقله الشرطة البلغارية من المستشفى، وهذا ينافي تماماً مواقف السفير المتكررة في

محاولة طرد النايف من السفارة غير آبه بمصيره، ما كان يهمه فقط هو التخلص منه من داخل السفارة وليكن مصيره ما يكون خارجها.

السؤال الثاني هو حول الضابط ممدوح زيدان، الذي أصرّ في شهادته على أن الموساد من قتل النايف وافتعل عدم الاحترافية للتضليل.

هنا يجب طرح سؤالين حول ممدوح زيدان الذي اعتقد أن الشهيد كان يثق به إلى حدٍّ ما حسب تصريحات صديق الشهيد، الأول هل ممدوح زيدان متورط بقتل الشهيد وأن السفر إلى تركيا في اليوم السابق هو ليس إلا محاولة لأخذ حجة غياب، أم هل فعلياً ممدوح زيدان كان يحمي الشهيد لذلك كان لا بدّ قطعاً من إبعاده عشية تنفيذ الاغتيال، والطرحان يؤكدان تورط مسؤول الأمن الخارجي في المخابرات الذي كلّفَ ممدوح زيدان بمهمة اسطنبول هو متورط مباشرة في الاغتيال، وهو إما من أصدر أمر القتل بأيد فلسطينية أو أنه هو من جهّز الساحة تماماً للموساد لينفذ القتل عبر إبعاد ممدوح زيدان.

من سيجيب على هذا السؤال فعلياً هو سؤال لتامر المسحال، من هذا الشخص الذي قابلته في اسطنبول وكيف وصلت إليه وكيف عرف بالمهمة التي كُلِّفَ بها ممدوح زيدان في اسطنبول، فإما أن هذا الشخص تم الدفع به من قبل المخابرات الفلسطينية لإيصال المعلومة لتامر المسحال لكي يُظهِر براءة المخابرات التي كانت تحاول تهريب الشهيد، أو أن الذي دفع بهذا الشخص لتقديم المعلومة لتامر المسحال هو ممدوح زيدان نفسه الذي لا يملك القدرة على أن يقول أية كلمة علانية حول الحادثة لاشتراطات الوظيفة، فقام بالدفع بهذا الشخص ليكون صك براءة لممدوح زيدان الذي كان بعيداً عن ساحة الجريمة، والذي كان يرتب طريقة لتهريب الشهيد، وهذا لا ينفي احتمالات أخرى أيضاً حول هذا الشاهد، فلربما أيضاً ضابط المخابرات العربي هو من رتب نقل المعلومة إلى تامر المسحال.

على كل حال، الفرضيتان توصلان إلى أنه من المؤكد أن هناك يد فلسطينية هي التي دست الدواء للشهيد، وهي التي وضبت الساحة لإتمام عملية الاغتيال على أكثر من مرحلة (لا توجد كاميرات ولا توجد حراسة).

وأخيراً، لربما الحق الواجب علينا ليس التعامل مع القضية بعقل شرطي تحقيقي يشبه

كونان أو روايات أغاثا كريسيتي لتكريم الشهيد بالكشف عن قاتله، بل الواجب هو أخذ ثأر الشهيد من العدو الصهيوني والوقت كفيل لكي تأخذ أيضاً ثأره من جواسيس السلطة في الوقت المناسب.

٨٩

عزيزي،

من المستحيل أن تجد ثائرًا صادقًا إن كان يخالط قلبه شيءٌ من الأنانية، صفتان من المستحيل أن تجتمعا في نفس الحوض إلا أن تغلبَ إحداهما على الأخرى، هاتان الصفتان هما حبّ الذات وحبّ التضحية.

فما الثورة إلا تضحية، وما الثائر الأناني الذي يحبّ ذاته ولا يفكّر بالآخرين إلا شابٌّ طائشٌ ومتهورٌ وثوريّته غير صادقة.

لا يولد الإنسان من بطن أمه ثائرًا يحبّ الآخرين ويقدّمهم على نفسه ولو كان خصّاصًا كما وصف الله المؤمنين، إنما تُكتسب هذه الصفة بالتدريب والجهد والمشقة؛ لأن الإنسان بطبيعته أناني، فإذا أراد أن يتخلص من هذه الأنانية فعليه أن يبذل الجهد، ولكي تكون حقًا ثائرًا صادقًا عليك أن تبذل الجهد لتُخرج الأنانية من قلبك وعقلك.

التخلص من الأنانية لا يعني كره الذات وعدم حبها. بالعكس تمامًا؛ عندما تتخلص من الأنانية وتحب الآخرين ستكتشف حباً للذات من نوعٍ آخر.

عزيزي،

الثائر الأناني هو أول من يأكل وأول من يرتاح وأول من ينام وآخر من يموت، لكن الثائر الصادق هو آخر من يأكل وآخر من يرتاح وأول من يموت، هكذا علمتنا تجارب الثوريين العظام. ولنأخذ أبو بكر الصديق مثالًا لثوريٍّ نقتدي به. ألا تذكر يا عزيزي ما قيل عن أبي بكر وهو في غار حراء عندما اعتصر الألم قلبه ولمّ رجله التي نهشها العقرب ولم يصرخ؛ لأنه لم يُرد إزعاج سيدنا محمد. فكن مثل أبي بكر؛ فكّر بالآخر قبل أن تفكر بنفسك، ولقد كرّمه الله لهذا الموقف بأن جعله ثاني محمد إذ قال: "ثانيَ اثنينِ إذْ هُما في الغار".

عزيزي،

دعني أقُل لك ماذا يصبح الذي تتغلب أنانيته وحب الذات على حب الآخرين، عزيزي لا تتفاجأ إن قلت لك أن كلّ الخون والجواسيس هم من فكروا فقط بذاتهم ومن أحبّوا أنفسهم أكثر من الآخرين، ولا تنسى يا عزيزي أن هذه أيضًا صفة الكافرين والمنافقين، ألم يقُل سيدنا محمد: "لا يُؤمِنُ أحدكم حتّى يُحبّ لأخيه ما يُحبّ لنفسه".

عزيزي الثائر،

ما الثائر الحقّ الصادق إلا من يفكّر براحة الآخرين قبل أن يرتاح، ولا يأكل إلا إن أكل رفاقُه ولا ينام إلا بعد أن يناموا.

عزيزي،

كل من رأيتهم انقلبوا من ثوار إلى متخاذلين هم من أحبّوا ذاتهم أكثر من مجتمعهم ورفاقهم وقضيتهم، وهذا المتخاذل الذي كان ثوريًا وانقلب لم يتحول إلى جاسوس إلا لأنه لم يجد الفرصة.

عزيزي،

إذا أردت أن تكون ثوريًا صادقًا عليك أن تنبُذ كل الأنانية من قلبك وهذا لا يتمّ عبر القول بل عبر الفعل والسلوك وهذا يحتاج إلى جهدٍ ومشقّة، كما مشقّة حفر الخنادق فهذا هو جهاد النفس الذي هو أصعب من جهاد العدو لأنّ فيه مشقةً وصعوبةً وتعبًا وإرهاقًا.

عزيزي،

بإمكانك أن تُخفي أنانيتك في قلبك وتقول أنك ثائرٌ صادقٌ لكنّك في لحظة الحسم ولحظات الجدّ التي تحتاج إلى شجاعةٍ فائقةٍ سينكشف كلّ هذا، لأن الأناني جبانٌ ولا يفكّر إلا بنفسه والنجاة.

عزيزي فكّر بغيرك.

٩٠

لماذا نذهب إلى الحرب؟

صديقي العزيز،

سأبدأ منذ اليوم بالكتابة لك، سأكتب بدهشة الأطفال وإيمان الأنبياء، ولن أقلق أبداً فيما سأكتب، فإن عشت فإني سأكتشف إما أحلام الأطفال وفانتازياتهم، أو سأكتشف رؤيا الأنبياء، وإن متُّ فلن يضيرني أبداً ما دونتُ هنا.

أنت يا صديقي كثير التلوّن، تارة أراكَ ذكراً، وأخرى أنثى، تارة أراك رفيقي في السّلاح والنضال، وتارة أراك خصماً سياسياً لي، تارة أراك أحد أساتذتي العظام وتارة أراك أحد أصدقائي، فأنت يا صديقي لست إلا كل من أعرف. وعلى كل حال، كل رسالة ستكون عبارة عن مشاركتي لحوارٍ ذاتيٍّ مع صديق ما، أو رفيق ما، أو أستاذ، وربما أحياناً سيكون الحوار مع أكثر من شخص.

هل تعرف متى يكون أكثف مونولوج فردي أصنعه في عزلتي هذه؟ يكون عندما تبدأ سجائري بالنفاذ، لكني الليلة يا صديقي أجلس على نصف دزينة من السجائر، فدعني أحدثك عما يخطر في بالي.

صديقي العزيز،

لا أدري فعلياً لماذا أنشط في التفكير كلما أخذت سجائري بالنفاذ، إلا أنني تذكرت مقولة صديق آخر عني عندما وصفني "بالبدائي".

هل تذكر يا عزيزي يوماً ما قلت لك "ستقتلني وتقتلك المدينة، أنا ستقتلني بكراهيتي لها وهروبي منها ومن مدنيتها، وأنت سيقتلك سعيك ونهمك للمدينة والمدنية". على كل حال على قصة البدائي وسجائري، فإني وجدت تفسيراً فكاهياً للأمر، فقد سأل أحد المستكشفين رجلاً من الأسكيمو "بماذا تفكر؟"، فأجاب الرجل: "ليس هناك داعٍ للتفكير فعندي كمية وافرة من الطعام"، والأسكيمو يبدأ يُعمل عقله إذا بدأ طعامهُ بالنفاذ، وأنا أيضاً إذا بدأت سجائري بالنفاذ.

المؤسف أن كثيراً من الأشياء التي كنتُ أقولها كان هناك أحدٌ ما يأخذها على محمل الجدّ، حتى ترهاتي ونكتي حول النسوية مثلاً، كان هناك من يأخذها ويحاجج بها،

لذلك أرى من واجبي هنا أن أقول إنه للأسف لا يوجد عندي إدعاء بالحقيقة، فلا تبحث عنها هنا، وأخضِعَ كلَّ ما أقولهُ للشك حتى لو قلتُهُ بصيغة إيمان الأنبياء، لكن اجعل مجالاً للتفكير، حتى لو صنعتُ أفكاري بألفاظ الأطفال وتعابيرهم. فكما قال علي الوردي: "لم يبتكر العقل البشريّ أبشع من مكيدة الحق والحقيقة"، لذلك لن أدعي هنا الحق والحقيقة فإنّي على مذهب أستاذنا الذي قال: "الحقيقة ليست إلا الطريق التي تقطعُها في البحث عن الحقيقة".

صديقي العزيز،

لماذا نذهب إلى الحرب؟ هذا سؤالٌ طبعاً يراودني وحدي، وأعتقدُ أنّ هذا سؤالٌ لكل البشرية، هذا السؤال في عالم البالغين يشبه سؤال الأطفال عن كيف جاؤوا إلى هذه الدنيا. دعني أتحرر من البحث عن جزالة الألفاظ وانسيابية الأفكار، ودعني أتحرر من التعميمات أو التخصيصات، هذا السؤال ظلّ رفيقي منذ أكثر من عشرين عاماً، وبحثتُ عن جوابِه في بطون الكتب وفي أفئدة الأساتذة وبحثتُ عنه في سير الأبطال والشهداء، فأنت تعلم أن هذا السؤال يرتبط مباشرة بموضوع البطولة والشهادة، وأخيراً وجدتُ أن السؤال هذا لا يُحيرني أنا فقط، بل تقريباً كلّ من أعرف من صديق أو عدوّ، فكما تعلم فإن كتابات "مكافحة التمرد" تضج بهذا السؤال.

ربما من ٨ شهور انقضت منذ أن بدأت حياتي تأخذ سكتها الصحيحة، منذ الاختفاء الأول، ومن ثم السجن، وها نحن في الاختفاء الثاني، منذ تلك الأيام بدأت بعض الأمور تتكشف لي، ولا أعرف السبب هل هو التجربة أو/و الخوف، القلق أو/و صفاء الذهن والتفرغ. لا أعلم بالضبط السبب أو حتى الهلوسات، هلوسات الوحدة، هل هو انفصال عن الواقع، أم اشتباك مجرد مع الواقع؟

هل قرأتَ قصيدةَ عمر الفرا "رجال الله يوم الفتح في لبنان"، هو يتتبع أثر هؤلاء الرجال، هكذا أنا كنت كما عمر الفرا أبحث وأتتبع سير مثل هؤلاء الرجال وجغرافية البطولة والشهادة وتاريخ الفداء، يا الله كم أكون خاشعاً وأنا أسير في الجبال وأنزل إلى الوديان، خشوعي هناك لم أجد له مثيلاً حتى في الصلاة، كنتُ أبحثُ عن جواب لهذا السؤال في رحلة منذ عشرين عاماً، أبحث كما وصفني أستاذي "أبحث عن الحقيقة والوجوه الغائبة".

دعنا نعود إلى السؤال،

صديقي العزيز، لماذا نذهب إلى الحرب؟

في أحد الأيام طرحتَ علي سؤال "ما المشكلة في أن يكون الدافع إلى النضال هو دافعٌ فرديٌ شخصيٌ"؟ في اعتراضك على أحد الأقلام، ليس هذا المهم، المهم يومها أنت حدثتني عن قصة خلية جاسر البرغوثي، ذلك الشاب الذي قاد أحد أهم خلايا المقاومة في الضفة في الانتفاضة الثانية، وقلتَ لي إنه قرر تنفيذ عمليته الأولى لأنه تلقى صفعةً من جندي على الحاجز، ورغم أنني كنتُ أعرف بالضبط قصة هذه الخلية، وتابعت كلَّ ما نشر عنها، ورغم أنني أعلم أن السبب وراء الخلية ليس تلك الصفعة، إلا أنني يومها سرحتُ وأخذني التفكير، وطالبتُك أن تقصّ علي سردية الخلية، رغم أني أعرِفُ عنها أكثرَ منك. السببُ في هذا أنه راقتني تلك السردية أكثر بكثير من السردية الرسمية لجاسر البرغوثي، فلم تكن الصفعة هي السبب في تحديد خيارات الرجل، سرديتك أشعلت مخيالي، كما يقول صديقنا الزجّال.

لنقف هنا وننظر إلى كل سرديات البطولة والشهادة والتضحية التي عرفها التاريخ، كل سرديات أهل الأرض حتى سرديات عدوّنا، تأخذ نفس العامل المشترك. كان السؤال لماذا نذهب إلى الحرب؟ الدوافع، الواجب، والوطنية، والهروب من المأزق، والعقائد الدينية والطبقية، وثنائيات الخير والشر والحق والباطل، والانتقام والطمع؟ ربما هذه دوافع موجودة. لكنها ليست عاملاً مشتركاً بين كل سرديات البشر، فلكل عقيدة هناك عقيدة مضادة لها، وكل وطنية هناك وطنية مقابلة، وهكذا دواليك، فكل تلك الدوافع هناك ما يبطلها و/ أو يقابلها عند العدو أو الخصم.

وأنت تدرك يا صديقي أنه فعلياً لا توجد إيديولوجيا ثورية وأخرى محافظة رجعية، ولا يوجد كذلك أديان أو طرق أو أنماط على هذه الشاكلة، ولا حتى قوميات أو هويات أو بنية شعب، فكل هذه الأشياء تحمل الضدّ في داخلها، والأمر ليس أكثر من تأويل. لك أن تقرأ عن معارك فرسان قشتالة ضدّ مسلمي الأندلس، تعتقد أنك تقرأ سردية تعرفها جيداً من سير الفتوح الإسلامية، تلك القلة الخائفة الجائعة ضعيفة التسليح التي تضرعت إلى الله في الليل باكية راجية النصر، ومع شروق الشمس انهال هؤلاء الفرسان على خصمهم القوي كثير العدد وهزموهم، كل سرديات البطولة الوطنية والقومية والطبقية والدينية هي على هذه الشاكلة.

صديقي العزيز، اعتاد جدّي أن يحدثني عن قصة ثورة الدروز على الأتراك، وكانت القصة تدور عن أن سبب الثورة هو بيت عتابا، ورغم أني أعرف "الحقائق" التاريخية عن تلك الثورة، إلا أني لطالما أذهلتني سردية جدي.

خذ مثلاً سرديات العدو عن أبطالهم، أشطبْ الأسماء والأطراف المتقاتلة واسمع السردية ستجد نفسك تتفاعل معها، يا رجل وبما أنك مهتم بالأفلام فلاحظ مثلاً فيلم "كلنا جنود" لميل جيبسون، ورغم تعاطفنا الكامل وغير المشروط مع الفيتناميين إلا أننا حتماً وقعنا في أسر شخصية ميل جيبسون وبطولته. بالمناسبة قسْ الأمر على فيلم "باتريوت" وفيلم "القلب الشجاع" لنفس الممثل.

صديقي العزيز، أعتذر عن الإطالة، لماذا نذهب إلى الحرب؟ نذهب لها بحثاً عن الرومانسية، رومانسية الحرب التي تخلق صنفاً آخر من البشر، فلا أحدٌ قبل الحرب كما بعدها، نطارد الرومانسية، ولا يوجد أي شيء في الدنيا قادر على أن يثير الرومانسية أكثر من الحرب.

اقرأ كتاب "ذاكرة الجند"، الكتاب أذهلني وقال لي ما لم أستطع أن أعبرَ عنهُ سابقاً باللغة، ربما أنت وصديقنا الزجّال لم تتخل عنكم اللغة أبداً، فلن تعرفوا ما معنى أنك لا تستطيع التعبير عن الأفكار. صحيح أن ما يدفعنا للحرب هو البحث عن الرومانسية، وربما كنت أخجل أن أعترف لذاتي بهذا السبب، فأنت تعرف كم ابتذلوا هذا المصطلح، وكنتُ أهرب سابقاً من هذه الرومانسية كلما جرفتني، وأذهب لأعقلن الأسباب الدافعة، كلنا نتعالى عن الاعتراف بهذا السبب، لكن كلنا نعرف أن ما يجذبنا للبطولة والشهادة هو هذا السبب.

بأثر رجعيّ عدتُ إلى ما كنت أكتبُه عن سير هؤلاء الأبطال، لأجد نفسي أني طوال الوقت كنتُ أقرّ بهذا عبر اللغة التي كنت أكتب بها، دعني أقول لك أيضاً أني في هذه اللحظة ورغم أني أيقنت بعبثية الكتابة إلا أن ما يدفعني للكتابة الآن في هذه اللحظة ليس إلا الرومانسية، مخيال أن أرى ابتسامتك (وأعرف أنك لم تعد تدمع) أو دمعة أو انفعال لأحد آخر يقرأ، مخيال أن أسمع كلمة إطراء، وهكذا. هذا ما يدفعني إلى الكتابة. بهذا تصبح كل المقولات التفسيرية الأخرى لإيجاد جواب السؤال ليست الجواب، بل هي هروب من الجواب، هي عقلنة الرومانسية.

نحن نرى ونفسر اللحظة بتلك الدوافع، سؤال (لماذا أنا هنا) لا أستطيع الإجابة عنه إلا بالدوافع الوطنية والدينية والقومية والشخصية، ووو، ولكني أستطيع أن أرى الماضي برومانسية وأن أرى المستقبل كذلك بنفس النمط، وربما السبب لأن الرومانسية غير موجودة أصلاً، هي سراب نطارده دائماً، ننظرُ خلفنا فنراها، وننظر أمامنا فنراها، فنطاردها مرة أخرى لتهرب منا، في اللحظة التي نجد الرومانسية ليست سوى بعض نفحات أو لحظات تَأمُّل سرعان ما يعود العالم المادي ليخضعك إلى واقعك.

منذ اللحظة الأولى التي تحث فيها السير لأن تجد الرومانسية حتى تتهاوى أمامك، منذ أول صدام حقيقي مع الواقع تتبخر من بين أصابعك كما الدخان.

ودعني أقول لك بأني منذ الخطوة الأولى لي في الجبال تهاوت رومانسية الحرب إلا أني كنت أراها أمامي فأركض وأحاصرها وأحاول الإمساك بها وتظل تسحبني، ومع هذا فإن تلك الأيام القليلة كانت أجمل لحظات حياتي، فكنا نقول (العز في روس الجبال)، ومن ثم أضفنا لها في فترة السجن (العز في روس الجبال والجبال في صدور الرجال)، وهكذا في السجن أيضاً نطارد الرومانسية، هل تعرف ما هو الأمل؟ هو السعي الحثيث والإيمان بأنك ستصل إلى الرومانسية وتمسكها، وأصل إلى لحظتي هذه حيث تقرصني الكحة ودخان السيجارة يعمي عيني، فتهرب الرومانسية لأجدها أمامي هناك في المستقبل. في السجن وأنا أعطي محاضرات (تاريخ فلسطين الحديث) ورغبة في تفسير التاريخ ليعطي إجابة عقلية منطقية تساعد الشباب وتساعديني في تحمل السجن، كانت تلك الأطر التفسيرية لا تقوم بشيء سوى بمنحي رؤية واحة الرومانسية في الأفق.

الآن، قصة صديقتنا الغزية، كان تجوال وادي الرد والنابلسي أول تجربة لها مع الجبال، كانت المرة الأولى التي تمشي قدمها على الصخور، سألتها قبل التجوال بأيام عن انطباعاتها عن الجبال، فكانت انطباعاتها رومانسية بحتة، وفي يوم التجوال كادت أن تتحطم عظامها كلها، هناك تماماً فرّت الرومانسية التي جاءت تبحث عنها. في اليوم التالي بعد أن أكدتْ أنها تابتْ عن صعود الجبال، كتبتْ أجمل نص لها عن تجربة التجوال واستحضرتْ تاريخ البطولة والشهادة الذي تعرفه ويرتبط بالجبل، لما أصبحت تجربتها في الماضي استطاعت أن ترى هناك الرومانسية.

يخطر على بالي سؤال "ما هي الرومانسية أصلاً"؟

وأجد نفسي، كما وصفتني أنت يوماً، "إنساناً يقينياً غير شكاك"، أُيقنُ تماماً بأني لست بحاجة إلى تعريفها، هي من المؤكد كما عرفت نازك الملائكة القومية العربية حين قالت شيئاً تشعر به وتحسه لكن لسنا بحاجة إلى تعريفه، فلن أسألك عن التعريف أو التأصيل اللغوي له.

وأنتم عموم الأكاديمين تنزعون دائماً لنزع السحر عن الأشياء بتعريفها وتفسيرها، ظناً منكم بأنكم ستصلون إلى الحقيقة.

في هذه الأيام الماطرة سأقول لك أني لا أحتاج لإطارٍ تفسيريٍّ لكيف نزل المطر، إن كانت مطرقة ثور السبب أو رحمة الله بعباده أو تفسير العلم له، لا أريد كل هذا، ما أريده فقط هو دهشتي المستمرة وابتسامتي البلهاء كلما نزل المطر، كلما أراه كأنها المرة الأولى، دهشة الأطفال وسحر العالم.

لماذ أقول هذا عن الأكاديميين؟ لقد تذكرت طريقة كتابتهم للتاريخ، إنهم ينزعون كل الرومانسية عن التاريخ، لذلك لا يحب أغلبُ الناس قراءة التاريخ، مع أنه من الممكن أن يُكتَب التاريخ بمنهجية تحافظ على رومانسيته وتلك أدوات تحليل سليمة ومناسبة ومنهجية تاريخية جادة، إلا أنهم لا يستطيعون، فلن يأخذهم أي أكاديمي آخر بجدية إن لم ينزعوا السحرَ عن الأشياء، سحر الرومانسية.

وصدقاً لا أعرف ما هذا العداء الذي تكنه الحداثة للرومانسية؟ هل تعرف مثلاً أن أول تطبيقات عملية للكيمياء والفيزياء الحديثة كانت أصلاً من باب إضافة السحر للأشياء؟ لكن الحداثة كما السم في العسل توهمك أنها تريد سحر الأشياء وجاذبيتها ورمانسيتها حتى إذا ما استحكمت منك صادرت كل هذا. لاحظ مثلاً تعامل الإنسان "البدائي" مع التكنولوجيا، وبداية تعرفه عليها، لاحظ مثلاً كيف أن الاتصالات اللاسلكية سلبت أذهاننا في بدايتها (حدثتك عن قصتنا مع أول بلفون دخل حارتنا).

في البداية ترى سحر الأشياء ثم ها نحن هنا قد سُلِبنا ذلك السحر من كل شيء ولم يعد يدهشنا.

لماذا نحتاج الرومانسية؟

أحاجج بأن التاريخ البشري لم يكن لولا أن لإنسان قد ملك رومانسية مجنونة تفصلها

عن الابتذال شعرة، يا صديقي تخيّل سيدنا محمد، هارباً وملاحقاً وخائفاً وجائعاً، وعندما أمسكه سراقة بن مالك، لم يجد سيدنا محمد إلا أن يَعِد سراقة بسواري كسرى، لو كان سراقة شخصاً حداثياً عقلانياً واقعياً لَشَدَّ وثاق نبينا وسلمه لقريش وقبض المائة ناقة، يا رجل أنت هارب وكل سفهاء وسادة قريش يطاردونك وتعدني بسواري كسرى؟ إلا أن الحظ/ القدر قد منح سيدنا محمد شخصاً مثل سراقة يملك مخيالاً واسعاً وحلماً مجنوناً ورومانسيةً مفرطةً ليصدقه ويتركه. من المؤكد أن بعدها أحدٌ ما قال لسراقة "يا أبله يا ساذج".

نحن نحتاج إلى الرومانسية لكي نستمر في الوجود، لا أرى أبداً إمكانية لاستمرار البشرية دون رومانسية.

سأقول لك شيئاً عن الحرب والرومانسية، عندما جاء نابليون إلى مصر وقابله المماليك بشواربهم الطويلة وسيوفهم الصقيلة وطاساتهم ودروعهم على ظهر الخيول، وما هي إلا لحظات إلا وقد امتلأت الأرض بجثث المماليك برصاص ومدافع نابليون.

في ذلك الوقت وحتى وقت قريب قام العديدون من المؤرخين والمفكرين والكتاب بوصف العقلية التي كان يملكها المماليك "البدائيون" أمام عقلية نابليون الأوروبي الحداثي، وبالغوا في إضفاء صفة الغباء والسذاجة على المماليك.

لكني أرى الأمر بصورة مختلفة، أرى أن المماليك كانوا يدركون أنه لا يفصلهم عن إبادتهم سوى لحظات، ومع هذا رفضوا إلا قبول الإبادة، هل تعرف ما معنى أن يربى شخص طوال حياته على قيم الفروسية والمواجهة؟ وفي لحظة ما يحاولون مصادرة تلك القيم، المماليك الفرسان عرفوا هذا ورفضوا أن يتنازلوا عن رومانسية المواجهة والفروسية والشجاعة والموت.

في مكان آخر بعد عدة عقود، كانت هناك لحظة مشابهة للماليك، صورها فيلم "الساموراي الأخير"، بالمناسبة العسكري الذي حارب مع الساموراي كان فرنسياً وليس أمريكياً. الفيلم يصور مشهدية المعركة الأخيرة كما معركة المماليك مع نابليون، لاحظ حجم الرومانسية في مشهد مقتل "كاتسوموتو".

بعد عدة عقود وفي الحرب العالمية الأولى، تم إبادة ثلثي الجيش النظامي الإنجليزي في

أول شهرين من الحرب، هل تعرف لماذا؟ مذكرات الضباط الإنجليز من الارستقراطية العسكرية البريطانية تقول لنا الجواب، هناك أيقنوا بأن الحرب كما عرفوها سابقاً قد ولّت، لم تعد هناك إمكانية ولا مكان للفرسان والشجعان بعد هذا اليوم، بعد أن صلاهم الألمان بنفس طبيعة رشاش مكسيم والذي كان فخر عسكريتهم، هناك أيقنوا أنهم انتهوا، إلا أن عدداً كبيراً من تلك الارستقراطية العسكرية لم يرضوا أن يتخلوا عن رومانسية الحرب والفروسية، ليسقطوا صرعى لهجمات انتحارية يائسة من طبيعة بطولات الوقفات الأخيرة، وذهبوا إليها بكل شجاعة.

في الحرب العالمية الأولى عرف الأوروبيون أن الحداثة أول ما قامت بقتله هو الرومانسية، فما معنى أنك تجلس طوال أشهر في خنادق ويخطفك الموت دون أن تنظر في عيون قاتلك أو تشعر بإندفاعة حربته في صدرك، هناك أصبح يتخطفهم الموت بقذائف تنزل من السماء لا يكادون يرونها أو بصافرة ضابطٍ يأمرُهم بالتقدم ليارِدة واحدة ليموتوا خارج خنادقهم.

الحداثة قتلت الرومانسية وما زالت تفتك بها.

لاحظ يا عزيزي أنه بإمكانك أن تروي قصة شهادة أي شهيد في الانتفاضة الثانية وأن تكون قمة الحدث ليست حياته بل لحظة موته، إلا من استشهدوا بصواريخ ذكية من الطائرات، تستطيع أن تروي حياة أحمد ياسين برومانسية مفرط وتصادر خفة روح الشيخ إلى كيانك، إلا أنك لحظة استشهاده، معركته الأخيرة، لا تستطيع أن تقولها بأكثر من عشر كلمات في ٣٠ ثانية على عكس الشهداء الذين سقطوا في مواجهة مباشرة واشتباك مسلح مع العدو، هل تذكر حديثنا عن شهادة لؤي السعدي؟

أنت حتى كانت ملاحظاتك ونقدك للمفارقة في حرب ٢٠١٤ أنها جعلت أغلب المجتمع متلقياً جامداً ينتظر الموت، أنت اعترضت على موت بدون خلق سردية رومانسية حوله.

أنت تعرف أن موازين القوى بين الأمم تتحدد بـ "القوة الكامنة"، و"قوة التحطيم"، وتعلم أن القوة الكامنة ووظيفتها في الحرب هي أن تتحول إلى قوة تحطيم. وإني أرى أن إمكانية خلق سرديات رومانسية حول الشهادة والبطولة هي من أهم عناصر القوة الكامنة التي نتفوق فيها على عدونا.

في آخر عشر سنوات نستطيع أن نسرد عشرة آلاف سردية رومانسية عن البطولة والشهادة، سردية تتحول من قوة كامنة إلى قوة تحطيم للعدو عندما يلتقط المجتمع تلك السردية، في حين أن العدو لا يملك أن يروى أكثر من ٥٠ سردية منذ حرب ٢٠٠٦ إلى الآن، هذا هو التفسير لمقولة أستاذنا بأن العدو فقد القدرة على إنتاج الأبطال.

في عصر ما بعد الحداثة أو الحداثة السائلة، لا يهمني ماذا يسمونها لكن ما يهمني هو أن هذا العصر هو عصر موت الرومانسية وانتهاء البطولة، وطبعاً تعلم أننا نحن الفلسطينيون نعيش خارج هذا الزمان، نحن في زمان استعماري فلسطيني خالص، يدور حولنا عالم في زمان ما بعد استعماري وما بعد حداثي، لذلك ما زلنا قادرين على إنتاج سرديات رومانسية.

ودعني أخاطبك أنت وصديقنا الزجّال، هل تذكر مقولات صديقنا عن كمية التخيل في سرديات مجتمع الداخل؟ وكيف أنها تختفي في سرديات أخرى، لاحظ أن سرديات البطولة والنصر هي التي تضج بمخيال شعبي واسع مفعمة بالرومانسية، مثل حبات القمح في طية بنطال الشهيد في كفر كنا، في حين أن سرديات الضحية سريعة جامدة مملة توثيقية خالية من أي مخيال.

ولاحظ أن سرديات البطولة غنية بالرومانسية وسرديات الضحية قصيرة جداً، هذا يحيلني إلى تصور أن الأمم تهزم عندما تتخلى عن الرومانسية. وأحياناً عند الهزيمة والإقرار بها يحاول المهزوم أن ينقذ بعض الرومانسية القتيلة، فماذا ينتج؟ هنا تنتج فنتازيا مبتذلة، شيء يشبه الأبطال البشر الخارقين في الأفلام الهندية أو في أفلام هوليود في فترة أواسط السبعينات حتى أواسط الثمانينات. لا أتحدث عن أبطال خارقين في روايات سوبرمان وبات مان وسبايدرمان، هنا التخيل مسموح إلى ما لا نهاية، لكن أتحدث عن رامبو مثلاً، عندي قناعة أن رامبو وأفلام ارنولد ومعاصريهم ليست إلا محاولة لإنقاذ الرومانسية الأمريكية القتيلة في حرب فيتنام، لذلك هي أفلام فظة سيئة مبتذلة حتى أنها صار لزاماً عليها أن تسرق من رومانسيات العدو لتغذي سردياتها، مثل خدع رامبو في فيتنام التي استعاروها أصلاً من الفيتناميين.

ولربما الأفلام الهندية التي تبالغ في ابتذال البطولة وتختلق رومانسيات عبيطة سببها لربما، ولست متأكداً، أن المزاج الشعبي الهندي لم يعد أمامه إلا هكذا لإنقاذ الرومانسية

المفقودة، وأربطُ الأمر بالتراتبية الطبقية المحكومة للشعب الهندي.

من الجدير هنا التأكيد على أن هناك خيط رفيع فاصل بين الرومانسية والابتذال، وأيضاً هناك خيط رفيع في السرديات الرومانسية البناءة وسرديات التخاريف الفاقدة لأدوات التحليل السليمة.

في السؤال عن شهداء هذه الانتفاضة لن ترى إلا رجالاً يهرعون بكل سرعتهم واندفاعاتهم يحملون سكاكينهم وبنادقهم، وكأنهم يحاولون الإمساك بشيء يرونه ولم نكن نراه، ليس هذا الشيء إلا رومانسية الحرب.

"تلك هي حرفة الفرسان، أن يثوروا بلا ضمان، إن روح الرجل ليست حماسية ولكنها مقاتلة، نحن مقاتلون ولسنا أصحاب حوانيت"، كما ورد في رواية الحرية أو الموت لنيكوس كازانتزاكي. تلك كانت إجابة المقاتل المدرس الكريبي للقائد كامباتا روس، عندما طلب حقائق ثابتة قبل التحرك، سفن ومؤن وسلاح وجنود روس ويونانيون، وأطلق المدرس على هذه الروح بـ "الفطنة"، لربما هي نفسها "النباهة" عند علي شريعتي، وهي ربما تجريد وصفي لما هي الرومانسية.

وأجد نفسي أبتسم عندما اتهم بنكوس بسرقة تلك المقولة من أهزوجتنا الشعبية الولجية التي تسمى "الواو"، فنحن نقول:

"لا تحاسبونا خواجات يا واو

ولا بنبيع العطارة..

نحن حماة البيض

يوم يصير على البيض غارة".

أخيراً لعل الأصدقاء والصديقات ممن اختبروا غضبي في محاولتي الذود عن سير الشهداء أن يسامحوني، عندما كانوا يخدشون السطح الخارجي لرومانسية الشهيد والبطولة في وعيي.

باسل: من الميلاد إلى الاستشهاد

الولادة والنشأة

وُلِدَ باسل محمود إبراهيم الأعرج في الولجة، قضاء القدس، في السابع والعشرين من كانون الثاني لعام ١٩٨٤. تذكر أمُّه سهام شحادة (أم السعيد) أنّه جاء في ليلة شديدة البرودة، وأنّ ساعة الولادة كانت في حوالي الساعة الثانية عشر منتصفَ الليل، في مستشفى بيت جالا. كانت العائلة في ذلك الوقت مستقرةً في الأردن، ولكن مع اقتراب موعد الولادة، عادتْ والدتُه إلى فلسطين المحتلة لِتَلِدَه فيها. وقد سمّاه والده محمود الأعرج "باسلاً" تيمناً بشاب مهندس عمل معه في عمَان. لباسل من الإخوة اثنان: سعيد ومحمد، ومن الأخوات اثنتان: ثائرةٌ وضحى.

ارتدى باسل النظارة الطبيّة مبكراً، في سن الثالثة تقريباً، فقد انتبهت فاطمة الأعرج، وهي ابنة عم والده، وبمثابة عمته، إلى وجود مشكلة في عينيه، وعندما فحصه الطبيب تأكد قصر النظر في عينيه. وقد رافقته النظارة منذ ذلك الحين في مراحل شتى من حياته، فبواسطتها انكب على قراءة ما أحب، وساوموه عليها لوقف إضرابه في معتقلات السلطة الفلسطينية، ومن ثم دُفنت معه، كما أوصى، بعد استشهاده في السادس من آذار من العام ٢٠١٧.

باسل الفضولي

على الرغم من أنّه في أولى سني حياته كان باسل الطفل شديد الفوضى وكثير الحركة وقليل التركيز، إلا أنه منذ السنة الخامسة تقريباً أصبح طفلاً شديد التركيز في التفاصيل، مهتماً بشدة لما يدور، ومنتبهاً لما حوله. تصفه أمّه سهام بالقول: "كان عنده حب استطلاع فظيع جداً"، وأنّه لم يكن ليهدأ حتى يُشفي فضولَه للمعرفة والاستكشاف.

تَذكُر أم السعيد الكثير من القصص عن ذلك، فتقول إنه عندما كان يحصل على لعبة لم يكن يتعدى عنده زمن اللعب فيها بضعة دقائق، ومن ثمّ تأتي "المرحلة الأهم"، مرحلة الاكتشاف والتفكيك، فيسارع إلى تفكيكها والبحث في مكوّناتها الداخلية، وكانت هذه عادته المكررة في البحث والسؤال عن كل شيء.

وكان حب الاستطلاع هذا متعدياً بيئته القريبة إلى البيئة الأوسع، فعندما يخرج للخلاء

أو الجبال أو العيون برفقة أهله، كان يستهويه استكشاف المكان والبحث في أرجائه من مغارات، وبيوت قديمة، وعيون، وآبار، وغير ذلك. "لم يكن ينتظم جوة الدار بقدر انتظامه خارجها"، تقول أم السعيد عن طفلها الذي اعتاد قضاء نهاره كاملاً حتى مغيب الشمس خارج البيت، مع بقية الأطفال، مستكشفاً ما حوله، وباحثاً عما يشفي فضوله.

ولم يكن ذلك مؤثراً على تحصيله المدرسي، بل لم ينخفض معدله المدرسي عن التسعين في أغلب الأحيان، ولم يكن يقضي وقتاً طويلاً في الدراسة المنزلية، بل يكتفي بالتركيز الكامل مع المعلمة أو المعلم في شرح الدرس في الصف، ويعود بذلك جاهزاً للامتحانات. في أحد الأيام بينما أم السعيد في طريقها للبيت، وجدت باسل الطفل جالساً على طرف أحد الشوارع في قريته الولجة، وعلى بعد أمتار قليلة من منزله، فارداً كتبه ودفاتره، ويحلّ واجباته المدرسية في الشارع! تقول أم السعيد: "عمره ما روّح على الدار وعليه واجب مدرسة!".

وفي صف التوجيهي حصل على معدل ٧٤٪، بسبب الظروف التي مرّت بها فلسطين في عام تخرجه (٢٠٠٢) من حصار وتضييق على الناس، فقد كان يضطر للخروج مع زملائه من الولجة مشياً على الأقدام باتجاه قرية بتير وصولاً إلى قرية حوسان، حيث كانت قاعة الامتحانات.

باسل الشغوف بالقراءة والتاريخ

وما نعرفه عن باسل من حبّ التاريخ وتتبع سير الصالحين ، وحبّه للروايات أو ما كان يُسميه "الخُرَاف"، بدا واضحاً عند عائلته منذ سنّ مبكرة. تقول أم السعيد إنّه كان يحفظ كل القصص التي ترويها لهم معلمة الروضة ويرجع إلى البيت يكررها على مسامع العائلة، "ما يغيبش عنه اشي"،كما تقول أمّه. وكان يُعجَب بالذات بالقصص الخيالية والبطولية.

نما مع باسل هذا الحبّ للتاريخ حتى تملّكه وأصبح لا يترك أيّ رجل أو امرأة من كبار السّن ممن عاصروا أيام البلاد إلا وسألهم عما يعرفون من تفاصيل وأحداث وروايات، فكلّ من يعرفه يعرف عنه هذا الشغف المُلِح للسؤال عن تاريخ فلسطين وأحداثها من كبار السن. ويروي عنه أصدقاؤه بأنه إن سُئل عن أمر ما وكان لا يعرفه، يتفرغ للقراءة والبحث عنه أكثر، حتى يعودَ للسائل بإجابة. لم يكن يخطر في باله تساؤل أو يلهب خياله

أمر ما حتى يسارع إلى البحث عنه، وقد ينعزل عن محيطه لأيام حتى يتم القراءة فيه.

وكان باسل أكثر المستمعين والمتعلقين بأجداده، خاصّة عمّ والده، وهو خليل الأعرج، الذي وثّق عنه باسل ذات يوم قصة قرية الولجة، والتي ترد في هذا الكتاب تحت عنوان "غُربة، حيث ولدتُ وحيثُ لن أموت". تقول أم السعيد إن جدّه خليل هو أكثر من حبّبه في قصص التاريخ، وبالأخص قصص الثائرين والمعارك البطولية.

وعندما كان في الصف الثالث الابتدائي، لفت انتباهَ أبيه محمود أنّ باسل يحبّ القراءة، وأنّه يستعير القصص والكتب من أقاربه وأولاد العمومة، فاشترى له أبوه أول كتبه، وكان منها موسوعة "هل تعلم؟"، وموسوعة "قل لي".

وقد لازمتْهُ هذه الصّفة – الشغف بالقراءة – حتى استشهاده رحمه الله، وكلٌّ من يعرف باسل يذكر هذه الصّفة عنه. يقول أصدقاؤه ممن عاصروه في فترة دراسته الجامعية في مصر إنّ وقته خلال سنوات الدراسة الخمس كان موّزعاً ما بين دراسة تخصصه في الصيدلة، وما بين الانكباب على الكتب وقراءتها بنهم بالغ. كما كان يستغل خلو الصيدلية التي عمل بها في مخيم شعفاط من المراجعين، ليقضي وقته في القراءة.

لم يُعرف باسل مُحبّاً وقارئاً للتاريخ فحسب، بل عُرِف كذلك حكاءً، يتجمع الناس- كبيرهم وصغيرهم -حوله لسماع الحكايات والقصص..

ولم يكن باسل من ملتهمي الكتب لغرض القراءة فحسب، بل كان لكل ما يقرؤه تأثير على نفسيته وسلوكه وفكره. وقد تطوّرت أفكاره بتصاعد هذه القراءة وتنوعها وبغناء التجارب السياسية المختلفة التي خاضها. أحد الأمثلة التي يذكرها أحد أقاربه، على الصعيد الاجتماعي، أنه بعدما قرأ كتاباً عن سيكولوجية الإنسان المقهور، لم يعد يطلب من أيّ من أختيه أن تُحضِّر القهوة له، وبدأ يحضرها بذاته. وفي قصة ثانية، عندما عرف أن القبائل الإفريقية التي تعمل في استخراج الكاكاو الداخل في صناعة الشوكولاته، تعمل في ظروف عمل أشبه بالعبودية، قاطع منتجات الشوكولاته ولم يكن يأكلها على اختلاف أنواعها.

الدراسة في مصر

تخرّج باسل من مدرسة ذكور بيت لحم الثانوية عام ٢٠٠٢، وسافر بعدها إلى مصر

للدراسة في جامعة ٦ أكتوبر. على الرغم من ميوله القديم لدراسة التاريخ، إلا أن باسل سجّل لدراسة الصيدلة. بسبب قصر نظره، أراد أبوه محمود أن يدرس باسل موضوعاً مريحاً له، فأشار عليه بالصيدلة.

خلال فترة دراسته في مصر، انشغل باسل بأمرين أساسيين، الأول هو دراسته الجامعيّة والتحضير لامتحاناته، إذ يروي أصدقاؤه خلال فترة الجامعة أنه كان مجتهداً في الدراسة ولا ينام إلا بإنهاء كل المقررات قبل الامتحانات. والأمر الثاني هو إشباع نهمه لقراءة الكتب على اختلافها، الفكرية والسياسية. يقول عنه أحد أصدقائه ممن رافقوه في مصر، إنه كان يقضي جلّ وقته في قراءة الكتب، وخاصة كتب السياسة والتاريخ، وإنه في أحد الأيام قال لصديقه في السّكن "اليوم أنهيت قراءة ألف كتاب من أول حياتي".

خلال إقامته في مصر حرص باسل على الانخراط مع الطلاب الفلسطينيين، وكان حسب تعبير أحد أصدقائه ممن رافقوه هناك، أنه "كان مرجعاً للطلاب الفلسطينيين" هناك، وكان لا يبخل على أي طالب جديد بالمساعدة والإرشاد. ويضيف بأن باسل كان كثير العطاء، يُقدّم الآخرين وحاجاتهم على نفسه، وبتعبيره الحرفيّ: "باسل، كان إلي بإيده مش إله".

قضى باسل، أثناء دراسته في مصر، عدداً من العطل الصيفية في الأردن، في ضيافة المناضل الكبير الراحل محمد خليل الأعرج (أبو خليل)، ابن عّم أبيه. وُلد أبو خليل في السادس من كانون الأول من العام ١٩٥٥، والتحق أثناء دراسته في جامعة بيروت العربية في العام ١٩٧٤، بصفوف الثورة الفلسطينية، في حركة فتح، مناضلاً في الكتيبة الطلابية- كتيبة الجرمق. وكان رفيق السلاح للمناضلين الشهداء أبو حسن قاسم ومروان الكيالي والشهيد علي أبو طوق، الذي أحبه باسل كثيراً منوهاً بفخر بأن تاريخ ولادته (أي ولادة باسل) تصادف مع تاريخ استشهاده (أبو طوق).

نشط أبو خليل في تهريب السلاح في بداية الثمانينات لخلايا العمل الفدائي في الأرض المحتلة، وطورد من قبل قوات الاحتلال، واستقر منفيّاً في الأردن، رافضاً اتفاقية أوسلو والعودة بشروطها. نشأت صداقة وثيقة بين باسل وأبي خليل، تعرف من خلالها على فصول من تاريخ الثورة المعاش، ووفرت له مكتبة العم أبو خليل الزاخرة بالكتب مرجعاً مهماً للقراءة والتثقيف.

في ٢٥ كانون الثاني من العام ٢٠١٨، توفي أبو خليل في الأردن، وقد اجتمعت على قلبه المنهك حسرة المنفى وحسرة فراق باسل. رحل أبو خليل، شاكياً تآمر قلبه عليه: "والقلب يبدو انه صار يتامر علي، لحد ما ييجي اليوم اللي يضرب فيه عن العمل ويتوقف... حاولت ان يكون ذلك اليوم في القدس ولكن قدر الله وما شاء فعل".

التطوع في الولجة

بعد عودته من مصر في صيف العام ٢٠٠٧، عاش باسل في الولجة لعامين متتاليين، تطوّع خلالها في القرية من خلال مركز أنصار، وكان يتدرب لبعض الوقت في إحدى الصيدليات في بيت جالا، ويدرس لامتحان النقابة.

تطوّع باسل خلال تلك الفترة مع أبناء قريته في تنظيم دورات تثقيفية للأطفال ورحلات، وكان يستقبل بعض الوفود القادمة للقرية للاستماع عن أوضاعها وعن بناء الجدار ومصادرة الأراضي، ويشرح لهم قصة المكان. وقد شهدت تلك الفترة قرية الولجة مظاهرات عديدة ضدّ بناء الجدار ومصادرة أراضي القرية، وكان باسل مشاركاً فعّالاً فيها.

الانتقال إلى مخيم شعفاط

في أيلول من العام ٢٠٠٩، انتقل باسل للسكن في مخيم شعفاط شمال القدس، بعد أن حصل على عملٍ كصيدلي في إحدى الصيدليات هناك، واستمر بالعمل فيها حتى أواخر العام ٢٠١١ تقريباً. خلال إقامته في المخيم، قرأ باسل كتابه المفضل والذي أثّر فيه كبير الأثر، "معذبو الأرض" لفرانز فانون. وخلال هذه الفترة كذلك بدأ يكتب أكثر وأكثر عن فلسطين، ويحوّل معرفته واطلاعه إلى نصوص مكتوبة، فكتب مثلاً مقاله المشهور "بانوراما اغتيال زئيفي".

وشارك باسل في تلك الفترة بكثافة في جنازات الشهداء والمظاهرات التي تخرج ضدّ الاحتلال أو السلطة الفلسطينية. كان حريصاً على المشاركة في جنازة كل شهيد حتى لو لم تكن بينهما معرفة شخصية أو حتى قرابة جغرافية.

ومن بين المظاهرات التي شارك فيها: المظاهرات التي خرجت تضامناً من الأسرى المضربين في سجون الاحتلال أمام مباني الأمم المتحدة في رام الله، ومظاهرات أخرى في الخليل للمطالبة بفتح شارع الشهداء، ومظاهرات ضدّ مخطط برافر وأخرى في

ذكرى النكسة والنكبة، وكذلك مبادرته الفردية في إغلاق مدخل مستوطنة "معاليه أدوميم" احتجاجاً على تعطيل حركة الناس هناك لساعات طويلة، وغير ذلك.

شهد العام ٢٠١١ بدء انخراط باسل أكثر فأكثر في النشاط الشعبي العام، إذ شارك في عدد من التجوالات الهادفة للتعرف على الأرض، وشارك في اعتصام الخامس عشر من آذار في العام ٢٠١١ في ميدان المنارة تحت شعار "إنهاء الإنقسام". وجد باسل في ذلك التجمع الشبابي المتأثر بثورات الربيع العربي، والمطالب بإنهاء الإنقسام، فرصةً سانحةً للمشاركة أكثر وأكثر في الفعل السياسي والثقافي في فلسطين المحتلة. لم يكن باسل من المقتنعين بجدوى شعار "إنهاء الإنقسام"، ولكن ذلك لم يمنعه من التواجد مع المعتصمين، ومحاولة تحسس الأفق السياسي الشبابي الشعبي في فلسطين في تلك الأيام والتأثير فيه. قضى باسل خلال تلك الفترة أسبوعاً كاملاً في رام الله، حرص أن يأتي ومعه ما يلزم من الأدوية والأدوات الطبيّة لخدمة المعتصمين الذين أضرب بعضهم عن الطعام.

في ذلك العام، شارك باسل كذلك في مسيرات العودة التي نُظمت في مواقع عدة في ذكرى النكبة لعام ٢٠١١، وشارك هو في المسيرة التي نُظمت في قريته الولجة باتجاه الشيك الفاصل بينها وبين حدود بلدية الاحتلال. اعتقل باسل حينها ليوم واحد، وتعرض خلال عملية اعتقاله للضرب من قبل قوات الاحتلال، وكُسِرت في صدره ثلاثة أضلاع.

عاد باسل إلى الولجة أواخر العام ٢٠١١ وبقي فيها حتى بداية عام ٢٠١٣. خلال تلك الفترة انكبّ باسل مجدداً على القراءة، وكانت له بين الحين والآخر زيارات إلى رام الله، والقدس، والأراضي المحتلة عام ١٩٤٨، اختلط فيها بمختلف الشباب الفاعلين من مختلف الأطياف.

ومن نشاطات باسل خلال تلك الفترة، مشاركته في المسيرات التي خرجت في مناطق مختلفة من الضفة الغربية ضدّ غلاء الأسعار، ومشاركته في المسيرة التي نظمت في رام الله في تموز ٢٠١٢، احتجاجاً على ما نشر حول نيّة نائب رئيس حكومة الاحتلال آنذاك شاؤول موفاز زيارة رام الله.

وفي حزيران من العام ٢٠١٣، اعتدت قوات الأمن الفلسطينية على مظاهرة انطلقت في

رام الله باتجاه مقر المقاطعة، للتنديد بإعلان الرئاسة الفلسطينية التوجه للمفاوضات بعد ٣ أعوام من توقفها. وكان باسل من بين المعتدى عليهم، إذ أصابته هراوات الأمن بجرح في رأسه تم علاجه بـ٧ قطب.

في العام ٢٠١٣، انتقل باسل للإقامة في رام الله، ومنذ منتصف العام ٢٠١٤ تقريباً انضم للعمل مع فريق المتحف الفلسطيني كباحث في تاريخ فلسطين، وبالأخص في تاريخ المقاومة الفلسطينية. وخلال هذه الفترة تطوع في الجامعة الشعبية - فلسطين لتدريس مساق تاريخ المقاومة في فلسطين، والذي جمع ما بين المحاضرات والجولات الميدانية تحت مسمى "جولات في تاريخ المقاومة".

الاختفاء والاعتقال والشهادة

صباح الجمعة الأول من نيسان ٢٠١٦ اختفت آثار باسل واثنين من أصدقائه، هما محمد حرب وهيثم سياج. في الجمعة الثامن من نيسان ٢٠١٦ قالت الأجهزة الأمنية الفلسطينية إنها عثرت على الأصدقاء الثلاثة في إحدى الوديان في قرية عارورة قضاء رام الله. فيما بعد اعتقلت القوات الفلسطينية كل من سيف الإدريسي، ومحمد السلامين، وعلي دار الشيخ.

تعرض الشبان الثلاثة (هيثم ومحمد حرب وباسل)، خلال اعتقالهم لدى أجهزة السلطة الفلسطينية، لتعذيب شديد عن طريق الضرب والشتم والشبح والتهديد ومنع النوم ومنع الاستحمام والتحقيق المتواصل. وكان الأسبوعان الأولان من اعتقالهم شديداً بالذات على باسل، إذ حُوّل أكثر من مرة للخدمات الطبية العسكرية نتيجة توقف قلبه عن النبض لبضعة لحظات من شدة التعذيب.

منعت الأجهزة الأمنية الفلسطينية المحامين من لقاء الشبان المختطفين لديها في أيام احتجازهم الأولى، وادعت أنها تعتقلهم لـ"حمايتهم" من الاعتقال لدى سلطات الاحتلال الصهيوني، فيما اكتفت المحاكم بتمديد اعتقالهم بين الحين والآخر.

في مساء ٢٨ آب ٢٠١٧، وعلى إثر تعذيبهم واستمرار اعتقالهم دون محاكمتهم أو توجيه تهم محددة بحقّهم، قرر باسل ورفاقه الخمسة الإضراب عن الطعام للمطالبة بالإفراج عنهم من سجون السلطة الفلسطينية، فيما عُرِف بإضراب المختطفين الستة. تعرض باسل ورفاقه خلال الإضراب للإهانات والتعذيب ومحاولة المساومة لثنيهم عن

الإضراب، وقد عُرف أن إدارة سجن بيتونيا قد صادرت النظارة الطبية من باسل، وهو ما جعله يشعر بصداع شديد طيلة الوقت، عدا عن معاناته من بعض عوارض مرض السكري، ومعاناته من حصو في الكلى.

علّق المضربون الستة إضرابهم في السادس من أيلول، بعد أن عُرِضوا لأول مرة على محكمة، وقد وافقت المحكمة على الإفراج عنهم بكفالة. أفرج عن باسل ورفاقه من سجن بيتونيا في الثامن من أيلول لعام ٢٠١٦، وفيما أعادت قوات الاحتلال اعتقال بقية الشبان لاحقاً، بقي باسل الأعرج متخفياً عن الأنظار ومطارداً إلى يوم استشهاده السادس من آذار ٢٠١٧.

استيقظت عائلة باسل والشعب الفلسطيني يوم الاثنين السادس من آذار ٢٠١٧ على وقع خبر هجوم وحدة "اليمام" في جيش الاحتلال بقذائف "الأنيرجا" على شقة سكنية في مدينة البيرة فجر ذلك اليوم، عُرِف فيما بعد أن الشهيد باسل كان يتحصن فيها. استشهد باسل، ومن ثم استدعي والده محمود للتعرف على جثمانه، وعندها حاول ضابط الاحتلال هزّه بالقول إن وجه باسل متأثرٌ بجروح كثيرة من أثر الشظايا، ردّ والد الشهيد عندما رأى وجه ابنه: "عمري ما شفته أحلى من اليوم".

استمر احتجاز جثمان الشهيد باسل من قبل قوات الاحتلال حتى يوم الجمعة السابع عشر من آذار، حيث حاولت سلطات الاحتلال فرض شروط لتسليم الجثمان، كمنع دخول الجثمان إلى منزل العائلة، ونقل موقع العزاء إلى داخل القرية وليس على مدخلها، وهو ما رفضته العائلة، وأصرت على استلام ابنها وتشييعه بدون أي شرط. رضخ الاحتلال لإصرار العائلة، وسارت جنازة باسل من بعد صلاة العصر يوم الجمعة ١٧ آذار من منزل العائلة مدخل قريته الولجة بآلاف المشيعين، مكللةً بالتحية العسكرية التي أداها والده له، وبالـ"واو" الشعبية التي رددها أخوه سعيد فخراً به، ومحفوفة بالزغاريد والأهازيج الوطنية الشعبية والهتافات ضدّ الاحتلال وسلطة التنسيق الأمني، ووصولاً إلى مقبرة القرية حيث وارى جثمانه الثرى.

وقد وُجدت في الشقة التي استشهد فيها وصيته، ومجموعة من الكتابات الموجودة في هذا الكتاب.

وصية الشهيد باسل الأعرج:

بسم الله الرحمن الرحيم

تحيّة العروبة والوطن والتحرير، أمّا بعد ..

إن كنتَ تقرأ هذا فهذا يعني أنّي قد متّ، وقد صعدت الروح إلى خالقها، وأدعو الله أن ألاقيه بقلبٍ سليمٍ مُقبلٍ غير مُدبر بإخلاص بلا ذرّة رياء. لكَم من الصعب أن تكتب وصيّتك، ومنذ سنين انقضت وأنا أتأمّلُ كلّ وصايا الشهداء التي كتبوها، لطالما حيّرتني تلك الوصايا، مختصرة سريعة مُختزلة فاقدة للبلاغة ولا تشفي غليلنا في البحث عن أسئلة الشهادة.

وأنا الآن أسير إلى حتفي راضيًا مقتنعًا وجدتُ أجوبتي، يا ويلي ما أحمقني وهل هناك أبلغ وأفصح من فعل الشهيد، وكان من المفروض أن أكتبَ هذا قبل شهورٍ طويلة إلا أنّ ما أقعدني عن هذا هو أنّ هذا سؤالكم أنتم الأحياء فلماذا أجيب أنا عنكم فلتبحثوا أنتم، أمّا نحن أهلُ القبور فلا نبحثُ إلا عن رحمة الله.

عن باسل وإليه: مقالات وكلمات

مقالات

هذه مختارات مما كُتب عن الشهيد باسل واليه، على أن يتم رفع جميع ما كُتب على الموقع الإلكتروني الخاص بالشهيد حال إطلاقه.

الشهيد باسل الأعرج

منير شفيق

نشر بتاريخ ١٥ آذار ٢٠١٧.

بالتأكيد أن أول منٍ كان يتوقع أن يُستشهَد إذا ما عرف العدو مكانه هو الشهيد باسل الأعرج. فمنذ أن أطلِقَ هو وخمسة من رفاقه من سجن سلطة رام الله كان متأكداً أن ذلك تمّ بالتفاهم مع جهاز الشاباك الصهيوني وفقاً للتنسيق الأمني المطبّق من جانب أجهزة الأمن الفلسطينية.

وذلك باعتباره "مقدساً" كما عبّر عنه أو وصفه الرئيس محمود عباس.

ولهذا اختفى حتى لم ينم ليلة واحدة في بيت الأهل. وكان متأكداً أيضاً أن العدو يبحث عنه بجنون وإصرار حتى وصل عدد المرات التي اقتحم بها العدو بيت والديه وبيوت أقاربه عشرات المرات. وقد أبلغ الضابط والده في إحداها أن ولده سيُقتل لا محالة.

ثم كان متأكداً بأن الأجهزة الأمنية الفلسطينية تبحث عنه، وهي الأخطر في العثور على مكان اختفائه وتبليغ العدو، فتلك هي عادتها في حالات مماثلة. الأمر الذي وضعها فعلاً في موضع الذي أخبر العدو عن مكان اختفائه. وهو ما عبّر عنه، بيقين، العشرات من الشباب والشابات ممن استقبلوا خبر استشهاد باسل بخشوع واعتزاز، وبكل ما يليق ببطلٍ مقاوم وقائد شعبيٍّ فذ. ولهذا انصبّ غضبهم أول ما انصبّ على العدو الصهيونيِ المجرم ثم انصبّ في الثانية على الأجهزة الأمنية الفلسطينية والتنسيق الأمني. ولكن هنالك من جعل الغضب أولاً على السلطة والأجهزة الأمنية، وثانياً على العدو الصهيوني، بسبب هذا التعاون الخارج عن كل وطنية فلسطينية وعن كل معقول.

كان باسل الأعرج، كما تدل واقعة اختفائه، وواقعة المعركة التي خاضها بالنيران مع مهاجميه، قد راح، يستعد لمواجهة عسكرية. وقد أراد منها أن تفعَل فعلها في الشباب والشابات، ولا سيما في القدس والضفة الغربية. فيصبّ زيتاً على نار الانتفاضة الثالثة- انتفاضة القدس التي كان من مفجريها وقادتها. ولهذا اختار طريق الاختفاء

والاستشهاد في المواجهة العسكرية، على الذهاب إلى البيت والاعتقال. فالاختيار هنا تمّ من خلال حساب مدروس وليس تجنباً للتعذيب أو سجن لبضع سنين (فقضيته كانت إلقاء القبض عليه من خلال الأجهزة الأمنية الفلسطينية هو والخمسة الذين اعتقلوا وبحوزتهم بعض الأسلحة وقبل أن ينفذوا أيّة عملية).

إن الاختفاء لمن يعرف معنى العمل السريّ، وفي ظل مطاردة محمومة ومتجهة إلى القتل يحتاج إلى شجاعة فائقة واستعداد كبير للتضحية. وهو ما كان باسل الأعرج قد درسه جيداً. فما عُرِفَ عنه كان اهتمامُه بدراسة التجارب الثورية بما فيها العمل السريّ في المدن أو اللجوء إلى الجبال ومواجهة مُطاردة بالسلاح في الحالتين.

وكان ذلك جزءاً من دراسته للتجارب الثورية العالمية والعربية والفلسطينية وله محاضرات وزعت بالصوت والصورة بعد استشهاده. وكانت بين أيدي عدد من العاملين معه للتوعية والتثقيف. واللافت في تلك المحاضرات أنه اهتم بالعمليات العسكرية الجزئية وبتفاصيلها وليس فقط بعمومية التجربة.

ولهذا إن التأمّل جيداً في اختيار الاختفاء والاستعداد لخوض معركة عسكرية استشهادية عندما تأتي لحظة المداهمة يدل على أنهما جاءا من بعد تخطيط هادف. وقد أراد أن يصنع قدوة استشهادية ستصنع بدورها استشهاديين. وسوف يؤدي أثرها في الشباب والشابات والجماهير إلى تصعيد الانتفاضة، والحث لتحويلها إلى حالة تتسّم بالاشتباك الفردي والجماعي والجماهيري مع العدو.

فما سطرهُ باسل من بطولة لم يصدر عن يأس كما يشيع أعداء الانتفاضة الشبابية ولم يكن خياراً اضطرارياً ساقته ظروف قاهرة إليه. فكل الدلائل التي يمكن أن تُجَمَع من سيرة باسل الأعرج، ولا سيما خلال الأربع سنوات الأخيرة تشير إلى عكس ذلك، ولا سيما الدلائل التي يمكن أن تُرصَد منذ ألقت السلطات الأمنية، التابعة لسلطة رام الله، القبض عليه وخمسة من الشباب المقاوم بتهمة حيازة أسلحة، مع تقرير أرسل إلى الشاباك يضيف "مع النيّة للقيام بعمليات عسكرية ضدّ قوات الاحتلال"، كما كشفت عن ذلك تصريحات ليبرمان ضدّ الحراك الشبابي.

هذه الدلائل حين يُصار إلى التأمل فيها جيداً، تؤكد أننا أمام قائد استثنائيّ كان فاعلاً في التهيئة للانتفاضة وفي تفجيرها، وأراد من اختفائه واستشهاده في مواجهة عسكرية

مع قوات اقتحمت عليه مكمنه أن يقول لكل محبيه، وما أكثرهم، ولكل من سيهزه استشهاده، وبالطريقة التي خطط لها وطبقها أن لا لغة يمكن أن يُخاطَب فيها الاحتلال غير لغة المقاومة الشبابية والانتفاضة الشعبية الشاملة، ولو، في هذه الظروف، ابتداءً بالعمل الفردي- العفوي- الاستشهادي، وقد ارتفع به باسل إلى العمل الاستشهادي من قِبَل قائدٍ أراد من استشهاده أن يكون تصعيداً للانتفاضة. إن لم يكن شرارةً تُشعل السهل كله.

وتأتي أهمية ما اجترحه باسل تكمن في محاولته تصويب البوصلة في هذه الظروف الدقيقة وموازين القوى المعقدة. وقد ساد الكثير من الإرباك والضياع لدى نخب يفترض بها أن تعطي الأولوية لمقاومة الاحتلال والاستيطان وتهويد القدس بلغة الاشتباك مع العدو، وفقاً للمصطلح الأثير عند باسل.

أما من يُتابِع ردود الفعل التي تلت فوراً نبأ استشهاد باسل الأعرج فسوف يلحظ أن تقديره كان صائباً في ما سيفعله استشهاده بنفوس عشرات الشباب والشابات ووعيِهم وما راح يفعله على نطاق شعبي بدأ بوالديه وذويه لينتقل بسرعة الكهرباء إلى ذوي كل شهداء الانتفاضة، وإلى الآلاف وعشرات الآلاف في فلسطين وخارجها. وأن المرء لتعلو معنوياته إذ يرى كيف كان وقعُ هذا الاستشهاد عربياً وإسلامياً وعالمياً.

وأخيراً وليس آخراً، فإن من يقرأ رسالة أو وصية باسل يجب أن يقرأها كاملة من بسم الله الرحمن الرحيم مروراً بتحية العروبة والوطن والتحرير وانتهاءً بآخر كلمة.

فوداعاً يا باسل فأنت الحبيب والقدوة لمن عرفوك ولمن سمعوا عنك، ولمن سيقرأون عنك كيف بنيت نفسك وكيف أنكرت ذاتك من أجل هذه اللحظة من الاشتباك مع جيش العدو. وكيف رميت بنظرك بعيداً بعيداً إلى أبعد نجمٍ في السماء.

وداعاً يا باسل الأعرج. وقد أصبحت باستشهادك ابن فلسطين كلها وستبقى فاعلاً وحاضراً في الانتفاضة فمثلك ومثل استشهادك لا يغيب عن الفعل الثوري والوعي السديد في هذا الجيل الشبابي والآتين من بعده.

باسل الأعرج: الفدائي الكامل

سيف دعنا

نشر بتاريخ ١٨ آذار ٢٠١٧ في صحيفة الأخبار اللبنانية.

× "في يوم من الأيام، جاءوا وسألونا عمن ينبغي إبلاغه في حال وفاتنا، وحقيقة إمكانية حدوث ذلك صعقتنا جميعا. لكننا أدركنا لاحقاً أنها حقيقة، وأنه في الثورة الحقيقية أنت تنتصر أو تموت".

من رسالة تشي غيفارا في وداع فيديل كاسترو

× "هجم بهم العلم على حقائق الأمور، فباشروا روح اليقين، واستلانوا ما استوعَره المترفون، وأنِسوا بما استوحش منه الجاهلون، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى".

الإمام علي بن أبي طالب

"تشي غيفارا هو الإنسان الأكثر كمالاً في عصرنا"، ليست عبارة تبجيل أو مديح أو حتى رثاء بليغ صادر عن أحد أهم مفكري أوروبا في القرن العشرين لأحد أعظم المناضلين الأمميين الذين عرفهم العالم على الإطلاق. "الإنسان الكامل" هو توصيف فلسفي لنموذج فريد جداً من الثوار الذين عرفتهم الإنسانية.

فـ تشي غيفارا، يقول جان بول سارتر، "كان مقاتلاً ومُنَظِّراً"، ولم يكن مقاتلاً فقط (أو حتى مقاتلاً عادياً)، أو منظراً فقط (أو حتى منظراً عادياً)، ألهمت تجربته الثورية واشتباكه المباشر النظريات الثورية التي طورها وانتصر بها وتركها لنا من بعده. و"الإنسان الكامل" كمفهوم، وكرؤية فلسفية لدور الفرد في التاريخ، ما كان ليصدر حينها إلا من جان بول سارتر تحديداً (ربما من مارتن هايدغر أيضاً، لكن، وبالتأكيد، ليس من لويس ألتوسير)، ولم يكن ليصدر كذلك إلا في توصيف تشي غيفارا بالذات. فهو يختصر خلاصة مسيرة وعمل ونضال الفيلسوف الوجودي-الماركسي الأهم في مفردة مكثفة جداً تختصر أيضاً تجربة الثائر الجنوبي الأهم في العصر الحديث. فكل

مساهمات سارتر الفلسفية والنظرية وحتى الأدبية التي ساهمت في تغيير رؤيتنا للعالم، وكل نشاطه السياسي الطويل واشتباكه المباشر مع السلطة، تجسدت له في تجربة ثائر واحد حينها هو تشي غيفارا.

صحيح أن الثائر الجنوبي الفذ مكّن الفيلسوف الفرنسي حينها من تلخيص، وربما حتى إدراك، جوهر مشروعه الفكري الذي زاوج بين الوجودية والماركسية ونقاشه للحرية الفردية والمسؤولية الاجتماعية وتجربته الطويلة كناشط سياسي بعبارة واحدة: "تشي غيفارا هو الإنسان الكامل". لكن، في عبارة سارتر، الذي يحتل مكانة مهمة جداً ومميزة جداً بين مفكري وفلاسفة أوروبا في القرن العشرين (قارنه شارل ديغول بفولتير حين أمر بالإفراج عنه من الاعتقال) نوع من الحسد والاعتراف الواضح بأن هذه المكانة العظيمة جداً، رغم ذلك، تبهت جداً جداً أمام تجربة ثائر من الجنوب بقامة تشي غيفارا. ففي الوقت الذي كان سارتر يكتب عن الأدب المشتبك والكاتب المشتبك في نصه العبقري "ما الأدب؟"، كان تشي غيفارا يحمل بندقيته ورصاصه ودفتر ملاحظاته أيضاً ويتنقل بها بين الجبال والوديان والغابات من معركة إلى معركة ومن بلد إلى بلد ومن قارة إلى قارة.

لكن فكرة "الإنسان الكامل" ليست جديدة، وفي الحقيقة ليست أوروبية المنشأ على الإطلاق، برغم أنها كانت ولا تزال تكتسب معنى مختلفاً في كل حقبة وكل مكان وبحسب المرجعية الفكرية. وبرغم أن التأريخ للفكرة يسبق الحضارة العربية والإسلامية (المعتقدات الإيرانية الأبستاقية، مساهمات العصر الهيليني، المانوية، المعتقدات السامية المسيحية - انظر هيثم مناع "الإنسان الكامل في الثقافة العربية") إلا أن تاريخنا يتضمن سرديات جاهزة لفكرة "الإنسان الكامل" وهي أساساً على علاقة بـ "الحقيقة المحمدية" ("قطب الأرواح وروح الموجودات" النبي محمد، كما يذكر في بعض الفكر الصوفي). والفكرة تتمحور أساساً حول تصور فلسفي للإنسان ومكانته ووظيفته الكونية، وهو ما يستتبع إما إيماناً بحرية الإنسان ومساواة بين البشر أو عبودية وخضوع ولا مساواة. لم يكن بلا معنى، إذن، اقتباس الشهيد باسل للإمام الحسين في رسالته من سجون سلطة عباس: "ألا أن الدعي بن الدعي قد ركز بين اثنتين، بين السلة والذلة، وهيهات منا الذلة".

وفي السرديات العربية الإسلامية تكتسب الفكرة معاني مختلفة في الزمان والمكان

(وتأثير المرجعيات الفلسفية أحياناً) برغم تأويل الكثير منها لذات المصادر في أحيان كثيرة (سورة الإسراء: آية ٧٠ وسورة البقرة: آية ٣٠) التي تحدد مكانة ودور ووظيفة الإنسان الكونية. وبرغم أن الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي هو أهم المراجع الصوفية (الفتوحات المكية تحديداً -انظر محمود الغرّاب "الإنسان الكامل والقطب الغوث الفرد: من كلام الشيخ الأكبر محي الدين بن العربي") إلا أني أظن أن الصوفي المتأخر "الشيخ عبدالكريم الجيلي" الذي أفرد كتاباً بذات العنوان، "الإنسان الكامل"، لم تكن مساهمته أقل من الشيخ الأكبر، إن لم تكن أكبر في توسيعه للمفهوم.

و"الإنسان الكامل" ظل يكتسب معاني مختلفة في العصور المختلفة وشكلته رؤى فلسفية مختلفة من "إخوان الصفا" الذين رفضوا التعصب وانفتحوا على جميع المعارف من أجل "التكامل بين المعرفة الحكمية والمعرفة الدينية" كشرط للإنسان الكامل، إلى المعتزلة الذين قالوا بأن "كمال الإنسان في كمال العقل". لكن، وكما يشير مناع محمقا، فربما يكون كتاب "تهذيب الأخلاق" ليحيى بن عدي هو فعلاً الكتاب الأول في فلسفة الأخلاق باللغة العربية، حيث يقول: "الإنسان التام هو الذي لم تفته فضيلة، ولم تشنعه رذيلة، وهذا الحد قلما ينتهي إليه إنسان. فإذا انتهى الإنسان إلى هذا الحد، فهو بالملائكة أشبه منه بالناس".

يحتاج نقاش المفردة في السرديات العربية والإسلامية إلى مساحة كبيرة جداً، لا مكان لها هنا. لكن ذكرها هو للتأكيد فقط أن المرجعية للإنسان الكامل هنا ليست أوروبية برغم افتتاح هذه المحاولة بسارتر. المرجعية هي عالمثالثية/جنوبية رمزها تشي غيفارا وستيف بيكو وفرانز فانون وغسان كنفاني ووديع حداد الذين شكلوا، برأيي، نموذجاً للتكامل بين المقاومة والوعي، بين المقاومة كعلم وحقل معرفي والوعي المقاوم. هذا ما أعطانا المثقف المشتبك.

الاشتباك

الاشتباك هو مفهوم متخصص من ضمن قاموس المفردات السارترية (من سارتر) التي تشير إلى استعداد الكاتب/المثقف لقبول وتحمل المسؤولية عن تبعات المواقف السياسية الفردية. لكن سارتر الذي ناقش المفهوم من خندق الكاتب والفيلسوف أساساً (تحديداً في "ما الأدب؟" وطوره أكثر لاحقاً في تصديره لمجموعة ايميه سيزير وليوبولد سنغور "أورفيوس الأسود" بضمه الشعر للكتابة أيضاً كحقل اشتباك ممكن

بعد أن كان قد استثناه في "ما الأدب؟")، ورأى فيه أداة ممكنة لإعادة تشكيل الوعي، اختبره لاحقاً وبشكل مباشر وحقيقي سجناً وتعذيباً بسبب موقفه النقدي والرافض للاستعمار الفرنسي للجزائر (انظر تصديره الاستثنائي لكتاب هنري أليغ، "القضية"، عن التعذيب في سجون المظليين الفرنسيين).

لكن جوهر فكرة الاشتباك، في الحقيقة، هي في أساس تيار/تقليد أساسي في علم اجتماع المعرفة، إن لم نقل أنه جوهر تيار/تقليد أساسي في علم الاجتماع عموماً كحقل وفكرة، وتسبق كثيراً مساهمة سارتر لمفردة "الإنسان الكامل" ونظرية "الأدب المشتبك" (أنصح بقراءة ايرنستو لاكلو وشانتال موفيه: "الهيمنة والاستراتيجية الاشتراكية" كنموذج لطريقة التفكير المقصودة هنا). وهي أيضاً في أساس الجدل القديم الجديد حول المثقفين ودورهم. فالكاتب المشتبك (ولاحقاً الشاعر المشتبك عند سارتر) تبنى في الحقيقة على مفهوم المثقف العضوي، عند أنطونيو غرامشي، "المنخرط" دائماً والذي "يجهد لتغيير العقول"، كما عَرَّفَهُ إدوارد سعيد في "صور المثقف". في مقابل هذا التقليد الذي أصبح عنوانه الأساسي الفيلسوف الإيطالي أنطونيو غرامشي، هناك أيضاً من يفترض اشتباكاً من نوع مختلف مبني أساساً على تصور مختلف للمثقف ودوره، كما هو مثلاً عند جوليان بندا صاحب "خيانة المثقفين" أو حتى السوسيولوجي الأهم ماكس فيبر. فـ بندا، لا يفترض، مثل غرامشي أن "كل إنسان مثقف"، بل يرى أن المثقفين "فرقة صغيرة جداً من الفلاسفة فائقي الموهبة، وذوي التزام أخلاقي عال يجعلهم يشكلون ضمير الإنسانية." لكن، وبغض النظر عن التقليد والتعريف، فالاشتباك قائم في كل الأحوال، مرة عبر العمل الدؤوب لتغيير العقول، كما هو عند غرامشي، ومرة عبر الدفاع عن "المعايير الأزلية للحق والعدل"، كما هي عند بندا.

في "ما الأدب؟"، كان على سارتر أن يناظر "شاباً أبله"، كما وصفه، لم يفهم على ما يبدو ما يعنيه سارتر بـ "الكاتب المشتبك" وأهمية ذلك، فطالب الفيلسوف والأديب بـ "الانضمام للحزب الشيوعي" كطريقة وحيدة ممكنة للاشتباك. كان عليه، كذلك، أن يجادل "كاتباً عظيماً" يرى أن "أسوأ الفنانين هم الفنانون المشتبكون" مدللاً على ذلك بما يقوم به "الرسامون السوفيات" حينها. كان عليه، أيضاً، أن "يجادل ناقد عجوز" شبه دعوة سارتر للأدب المشتبك بمحاولة "قتل/اغتيال الأدب" كون سارتر، حسب رأيه، "ازدرى الكتابة الجميلة" كمقياس للقيمة الأدبية وفضل عليه مدى اشتباك الكاتب. كان

عليه أن يرد على "شخص تافه صغير العقل" وصف سارتر، ككاتب مشتبك، بـ "العنيد الأحمق". وأيضاً، كان عليه أن يجادل مؤلف يعتب على سارتر تنظيره للاشتباك وعدم اهتمامه بـ "البحث عن الخلود" الذي يمكن أن يوفره الأدب الرفيع للكاتب الفذ (انظر: "ما الأدب؟").

لكن الاشتباك اكتسب معنى جديداً ومختلفاً، وتجاوز مفهوم سارتر كثيراً، مع صعود فئة جديدة من المثقفين الذين عرفتهم مجتمعات الجنوب تحديداً في سياق النضال ضد الاستعمار والإمبريالية وجسدهم مفهوم "الإنسان الكامل" بشخصية تشي غيفارا. فالثقافة والمعرفة هنا لا تستهدف الاشتباك عبر الكتابة (كما في حالة سارتر) أو الشعر (كما في حالة ايميه سيزير أو ليوبولد سنغور)، بل عبر الرصاص والقتال بالمعنى الحرفي للكلمة.

لم يعد مفهوم الاشتباك يحصر دور المثقف في مجال واحد، فهو ليس صاحب موقف سياسي نقدي قد يدفع ثمنه الكاتب أو المثقف سجناً أو تعذيباً، أو حتى حياته أحياناً. الاشتباك الثوري، كما هو في حالة غيفارا مثلاً، هو ديالكتيك الفعل والفكر في أرقى صوره على الإطلاق. فالاشتباك، كما عرفه أبطال الجنوب، ليس الاشتباك الثقافي البحت مع مثقفي الطرف الآخر فقط، ولا تسخير المعرفة والثقافة في خدمة النضال السياسي، ولا حتى في جعل النضال الهم الأول والأخير للمثقف. الاشتباك هو إدراك أهمية أن تصبح المقاومة حقلاً معرفياً (علم المقاومة) قائماً بذاته مختبره الميدان الفعلي للمواجهة، وأن تصبح الثورة أيضاً، مادة المعرفة الأولى والأخيرة والهم الدائم للمثقف التي يختبرها بنفسه ومباشرة في الخنادق والدشم والمتاريس وبين أزيز الرصاص على طريق تغيير العالم. والمثقف المشتبك هو صاحب وعي مقاوم يدرك حقيقة وأهمية المشروع الذي يناضل من أجله وارتباطه بالمشروع الأكبر على المستوى الإنساني - تغيير العالم.

وفي فلسطين، عرف باسل أن الاشتباك يأخذ معنى أعمق حتى من كل ما سلف وعرف أن المطلوب في هذا الوقت بالذات هو المثقف المشتبك. عرف أن المثقف يجب أن يكون كذلك في الطليعة: "وإذا ما بدك تكون مثقف مشتبك، لا منك ولا من ثقافتك". والمثقف المشتبك كفكرة وممارسة ليس ظاهرة جديدة في فلسطين، كما يمكننا أن نستدل من كلمات غسان كنفاني، الذي وبرغم كونه عضو مكتب سياسي في الجبهة الشعبية في

حقبة خطف الطائرات كتب ما يلي: "كل قيمة كلماتي كانت في أنها تعويض صفيق وتافه لغياب السلاح وإنها تنحدر الآن أمام شروق الرجال الحقيقيين الذين يموتون كل يوم في سبيل شيء أحترمه". فوق ذلك، أدرك باسل، كمثقف حقيقي، كيف يأخذ المفهوم في السياق العربي والسياق الفلسطيني في عصر النيوليبرالية الرأسمالية معنى وتعريفاً نظرياً عميقاً وأكثر تخصصاً وتطوراً حتى مما عرفناه واختبرناه في حقبة مقاومة الاستعمار في عالمنا الجنوبي. هذا بالتأكيد عرفه باسل عن قرب، كما يبدو من كتاباته ومحاضراته عن المثقف المشتبك ومن قراءاته كذلك (انظر عادل سمارة: "ثورة مضادة: إرهاصات أم ثورة" وأيضاً "المثقف واحد، وإذا تعدد خان").

فتنة المقاومة

لم يعد سراً مدى افتتان الشهيد باسل الأعرج بمعركة "زقاق الموت". تسمع وترى باسل يروي تفاصيل العملية لرفاقه فتتخيل أنه كان مسكوناً بهذه العملية، يحلم بها كل ليلة، وتظن أن أمنية قوية راودته دائماً بأن يكون الاستشهادي الرابع في معركة هي في الحقيقة حلم كل مقاوم حقيقي وأمنيته القصوى ("كنت في الثامنة عشرة حين سمعت للمرة الأولى عن "إطلاق النار من مسافة الصفر"، يقول باسل). فتنته تلك المعركة، كما يبدو. وهذا ليس غريباً، فالمقاوم الحقيقي، والمثقف المشتبك، قد يصيبه الهوس الشديد حقاً بعمليات من نوع "زقاق الموت" أو عيون "الحرامية" أو "الدبويا"، أو مواجهة من طراز "بنت جبيل" و"الشجاعية"، أو صمود أسطوري "كقلعة شقيف" و"عيتا الشعب"، أو معركة عظيمة كـ "ديان بيان فو"، أو تسجيل رقم قياسي جديد مثل الصاروخ الأول الذي ضرب تل أبيب، أو حيفا، أو "ما بعد حيفا".

وليس غريباً أن تفتن عملية "زقاق الموت" بالذات مقاوم من نوع خاص كالشهيد باسل. فـ "زقاق الموت" (الخليل ١٥ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٢) كانت علامة فارقة جداً في تاريخ علم المقاومة بكسرها الكثير من الأرقام القياسية جعلت كل مقاوم حقيقي يحسد أبطالها فعلاً ويتمنى لو كان واحداً منهم. فوفق منطق علم المقاومة الذي كان باسل أحد تلامذته وأساتذته، أصبحت هذه العملية الفذة تشكل التحدي والرقم الصعب الذي يتوجب على كل مقاوم مبدع و"مثقف مشتبك" (مقدم ومصمم على المواجهة) أن يتعلم منها ويستخلص دروسها للارتقاء بالمقاومة وأن يعمل على كسر رقمها القياسي برقم قياسي جديد.

والرقم القياسي هنا ليس مقصود منه عدد قتلى العدو، فهذه قضية أخرى (رغم أن زقاق الموت شكلت رقماً قياسياً في هذا المجال أيضاً من ناحية عدد قتلى العدو وعدد الرتب العسكرية الرفيعة التي سقطت في عملية واحدة). الرقم القياسي المقصود هو معنى العملية في السياق العام للمواجهة زمانياً ومكانياً وحسب الظرف الذي تعيشه المقاومة والقضية التي يناضل المقاوم من أجلها، وتأثيراتها المتعددة (النفسية والعسكرية والثقافية) على كل الأطراف (تأثيرات عملية الويمبي للبطل خالد علوان ورفاقه بعد احتلال بيروت، مثلاً، كانت أكبر بكثير من عدد قتلى العدو حينها). المعنى المقصود، أيضاً، هو مدى وكم نتعلم من كل عملية مقاومة من أجل العملية القادمة والمعركة القادمة (لأن العدو أيضاً يتعلم ويستخرج العبر) ولأنه يجب على المقاومة أن تظل متقدمة على العدو دائماً خطوة واحدة على الأقل في التفكير والتنفيذ، لا لتحبط مفاعيل تفوقه التقني فقط، بل ولتنتصر عليه رغم ذلك.

اللافت أن أبطال "زقاق الموت" (ذياب المحتسب، ٢٢ عاماً، ولاء الدين سرور ٢١ عاماً، وأكرم الهنيني ٢٠ عاماً) كانوا مثل باسل مفتونين ومهووسين ومسكونين بإحدى عمليات المقاومة السابقة التي شكلت علامة فارقة في تاريخ المقاومة أيضاً وسجلت رقمها القياسي، كما يبدو من اختيارهم لهذا الموقع بالذات للعملية. يبدو أنهم كانوا يحلمون بعملية الدبويا (٢ أيار ١٩٨٠) رغم أن أياً منهم لم يكن حتى قد ولد حين حدثت، وحلموا بالمشاركة بها، وكانوا مصممين، بعد دراستها جيداً على كسر رقمها القياسي. فزقاق الموت هو، هو، ذات الطريق التي مر بها المستوطنون الصهاينة في الثاني من أيار ١٩٨٠ (ويسيرون بها كل مساء جمعة) باتجاه الحرم الإبراهيمي. هناك، وعلى أسطح بعض مباني المنطقة، كان أربعة فدائيين (عدنان جابر، ياسر زيادات، تيسير أبو سنينة، ومحمد الشوبكي) بانتظارهم وأمطروهم بالرصاص والقنابل (انظر المقاوم تيسير أبو سنينة يروي تفاصيل العملية على يوتيوب).

لكن زقاق الموت بعدها، وخصوصاً في ليالي الجمعة والسبت يتحول إلى ثكنة عسكرية لحماية المستوطنين الذين يعبرون باتجاه الحرم الإبراهيمي. كان هذا الرقم القياسي الذي أراد ذياب وأكرم وولاء كسره وتسجيل رقمهم الجديد: أرادوا أن يعيدوا الكرة في ذات المسار الذي اختبره العدو قبل سنين وكَسْرْ كل إجراءاته الأمنية الاحتياطية والوقائية التي تعلمها من الدبويا والانتصار عليه وتسجيل رقمهم القياسي الجديد.

كان عليهم، لذلك، دراسة المعركة الأولى جيداً والتحضير جيداً للتأثير المطلوب تحقيقه من عملية من هذا النوع. باسل، بدوره، درس عملية زقاق الموت وروى تفاصيلها مراراً وكانت تعليقاته عليها لافتة جداً تؤكد التزامه القوي بفكرة المثقف المشتبك، التي أثبتها يوم استشهاده بتبادل الرصاص مع جنود العدو لساعات.

الفدائي الكامل

ربما يكون من السهل جداً تصنيف الشهيد باسل الأعرج ضمن فئة خاصة جداً من الثوريين الذين جمعوا الفكر الثوري والفعل الثوري (تشي غيفارا، ستيف بيكو، غسان كنفاني، أميلكار كابرال، فرانز فانون، ومالكولم اكس، وغيرهم من أبطالنا في الجنوب). وربما من السهل أيضاً حتى إطلاق وصف "الإنسان الكامل" عليه، بالمعنى الذي ناقشته هذه المحاولة، لإدراكه العميق كيف تَرْسُمُ جدلية الثقافة والمقاومة خريطة تغيير هذا العالم في عصرنا أيضاً. لكن الحقيقة ليست كذلك تماماً. فبطلنا الجديد، باسل، لم يكن محظوظاً كسابقيه بحالة ثورية عالمية أو عالمثالثية ضد الاستعمار والإمبريالية. وباسل، أيضاً، لم يكن محظوظاً حتى بحالة فصائلية فلسطينية ثورية حقيقية مناهضة للاستعمار الصهيوني لفلسطين تستطيع استيعابه واستيعاب رفاقه وطاقاتهم وطموحهم وأحلامهم، كما كان حال الأجيال التي سبقتهم من المناضلين. ربما لهذا السبب اختار أن يناضل من خارج الفصائل ليصبح باستشهاده حجة عليها وفاضحاً لعوراتها.

وباسل، الفدائي المثقف من النوع الجديد، كذلك، جاء في عصر هيمن فيه نوع رديء جداً من المثقفين ("المثقف الريعي" أو "المأجور" أو "مثقف البترودولار") على المشهد الثقافي والسياسي في فلسطين والوطن العربي. لكنه، باستشهاده بتلك الطريقة البطولية، رفع السقف من جديد فأصبح عالياً جداً جداً على الجميع، وأعاد الاعتبار لفكرة المثقف والمقاوم. فالمثقف الحقيقي يعرف الآن أن للثقافة والكتابة أثماناً يتوجب دفعها بالدم في أحيان كثيرة في أيامنا هذه وعليه أن يكون مستعداً لذلك دائماً، وإلا "لا منه ولا من ثقافته"، كما كان يردد باسل.

باسل لم يكن فدائياً عادياً. كان هذا سيكون صحيحاً لو أنه كان من الجيل الذي عاش زمن الثورة. كان ذلك ممكناً لو أن باسل عاش زمناً كانت فيه المقاومة بيِّنة والثورة بيِّنَة والخيانة ليست من المشتبهات. لكن باسل عاش وقاوم وطورد واستشهد في زمن

محمود عباس. هل من مفردة في اللغة العربية تستطيع توصيف هذا المسخ وعصره؟ دلونا عليها.

خاتمة: مع السلامة يا مِسْكْ فايِحْ

ربما كان باسل يحلم ويخطط لمعركة أخرى يستشهد بها ورقم قياسي مقاوم جديد يسجله، لكن المعنى الذي أخذته معركته الأخيرة فاقت كل ما يمكن أن يتخيله أي بطل وجعلت منه الفدائي الكامل. فباسل واجه القوات الصهيونية التي حاصرته وواجه رصاصها وقذائفها وحده لساعات حتى نفذت ذخيرته. كان صدى أصوات الرصاص وقذائف الأنيرغا يتردد في مقار الأجهزة الأمنية ومقر رئيسهم عباس على بعد عشرات الأمتار ولم يفعلوا شيئاً. كانوا بانتظار الرسالة التلفونية التي تبلغهم بانسحاب قوات العدو حتى يخرجوا من جحورهم مجدداً ليبطشوا بأبناء شعبهم. كان صدى المعركة يتردد في مكاتب كل الفصائل الفلسطينية القريبة ولم تهتز لهم قصبة. كانوا "كدكة غسل الموتى". كان صدى أزيز رصاص المعركة يتردد في مقاهي المثقفين حيث يشربون قهوة الـ "ستار بكس" المعتادة علها تلهم مقالاتهم الجديدة عن "التسامح" و"معرفة الآخر" و"العقلانية السياسية"، لكن أحداً منهم لم يقرأ ولم يكتب ولا يعرف شيئاً عن الكرامة. كان صدى صوت قذيفة الأنيرغا التي هدمت البيت على باسل يتردد في كل بيوت وشوارع رام الله، وبقي باسل يقاوم وحيداً متمترساً في شقته حتى الرصاصة الأخيرة.

ربما بدا باسل في استشهاده بتلك الطريقة وكأنه الفدائي الوحيد فعلاً، الفدائي الأخير حقاً، وربما حتى الفلسطيني الحقيقي الأخير الذي يحمل روحه وبندقيته دفاعاً عن فكرة فلسطين. لكن باسل باستشهاده بتلك الطريقة لم يرسم لنا وبدمه خريطة الطريق لتحرير فلسطين، بل أصبح، كذلك، ودون أن يدري أو يخطط، الفدائي الحقيقي الأكثر كمالاً وجمالاً في عصرنا. وداعاً أيها الباسل. من سماك كان نبياً.

باسل الجديد

ساري عرابي

نشر بتاريخ ٢٠١٧/٣/٩ على موقع المركز الفلسطيني للإعلام

وأنا أنظر في صور باسل الأعرج، وجدتُ باسلاً آخر غير الذي كنت أراه، ونحن على أية حال لا نرى بعيوننا، وإنما بوعينا المنطبع من تصوراتنا وأفكارنا، وأنا الآن واثق أن الذين عرفوه عن قرب، كلهم مثلي يرونه باسلاً آخر، ويرون ملامح جديدة قد انضافت إلى ملامحه التي نعرفها جيدًا، حتى ونحن نعيد الاستماع لكلامه المسجل، ونستدعي أحاديثه التي جمعتنا به في المقاهي، نجد وترًا جديدًا في صوته، ومعنى آخر ينضاف إلى كلامه.

لستُ أدري كيف أقولها، ولكن دعوني أضرب مثلاً. بعد استشهاد باسل وفي منتصف ليلنا الفلسطيني، طلب صديق قديم محادثتي، يعرف باسلاً مثلي، ولكنه، أي صديقي القديم، لم يعد مؤمنًا بالأفكار التي نؤمن بها عن المقاومة، ولم يعد يرى فعل المقاومة، ولا حدث الشهادة، بالعيون المتحفّزة في وعينا، ولكني كنت واثقًا وهو يسأل إن كنت مستيقظًا، أنه يريد الحديث عن باسل. اختصر الصديق القديم ما يريده بكلمة واحدة: "باسل حينما استشهد كأنه أخرج لسانه لي، أو كأنه بصق علي".

لا يعني ذلك أن هذا الصديق استرجع عينيه القديمتين. بات صديقي باردًا، ويفكر بعقل مجرد، ولكنه لم يكن كذلك إزاء استشهاد باسل، كان حارًّا، حتى حينما أخذتُ الكلام إلى مكان آخر، لأنني لم أكن أدري ما أقول، أرجعني إلى مكاننا الأول، وقال: "دعنا نظل عند باسل. الموضوع ليس نقاشًا وطنيًّا، ولكنه إنساني صرف".

وحدهم الذين عرفوا باسل جيدًا، عن قرب، الذين يلسعهم دمه المتوهج، ويبدو لهم حضوره فيهم جارحًا، ويرونه بعيونهم التي منحتهم إياها شهادته فاضحًا، سوف يرون الحدث، وإن لفترة من الزمن، فوق سياسي، وفوق إيديولوجي، وفوق الكلام كلّه عن نظريات المقاومة، والسجالات التي يمكن أن يخلقها هذا الحدث تحديدًا، عن المثقفين والفصائل والسلطة، لأن الصورة الجديدة التي يُطلّ بها باسل بعد شهادته، هي فعلاً

فوق ذلك كله، والمعنى الذي فيها، يجعل كل ما سواه، دونه.

مثلاً، وجدتني اليوم غير مهتم بمناقشة أطروحة تحاول توظيف باسل لنقد فصائل المقاومة، وهي كما هو شأن أكثر هذه المقاربات، انطباعي، وقصير الذاكرة، وفقير بالمعلومات، وينطلق من التصورات المسبقة، لا من الوقائع، ويعيد توظيف الواقعة لتعزيز تلك الصورة الانطباعية.

نظريًا، كان باسل أكبر من هذا النوع من المقاربات، فقد كان مَنحازًا لكل فعل أو كيان مقاوم، وشديد الولاء لتجارب شعبنا في المقاومة، ولم تسلبه تجارب أخرى، وقد وصف لي ذات مرّة بعض الذين تذهلهم تجارب الآخرين ويغمطون مقاومة شعبنا، بأنهم "كارهو أنفسهم".

لكن بعد حدث الشهادة تحديدًا، يصير للذين عرفوا باسل، كل شيء دون هذا النقاش، لأن وجه باسل يقول اليوم شيئًا جديدًا، وهذا الذي يجعل صورته -على الأرجح- تبدو مختلفة، وهو شيء يخصّهم هم، ولكنهم محمولون على ضرورة قوله، لأنه جوهر القصة، وأهم ما في الحكاية.

جذرية باسل، التي كانت تبدو لنا نظرية في حينه، جعلت البعض ممن يخالفه في خيارات حياته وشغله وعلاقاته ينفر منه، لكن تأكد بعد ذلك أن باسل كان أكبر من هذه الصغائر، وقد قرأت لأحدهم أخيرًا اعتذارًا عن شيء من هذا القبيل، وتحول المقاومة إلى موضة نظريّة لدى بعض الأوساط الثقافية، كان يحيل أطروحات باسل في ظن بعضنا إليها، ولكن تأكد أن باسل كان أكبر من هذا الاستعراض الذي يعوّض فيه بعضنا عن قعوده ويشرعن فيه حقه في التنظير وتوزيع الأحكام والمواقف، وحريته في الحركة، دون اعتقال أو ملاحقة لفترة طويلة من الزمن، بالرغم من كلامه الجذريّ والواضح والمباشر، كانت توحي لبعضنا بأنه يتحرك في إطار أذاه قليل، ولكن تأكد، وكما قال بالحرف في وصيته إنه يسير إلى حتفه راضيًا مقتنعًا. كل ما قلته في هذه الفقرة من نقد يشملني قبل غيري. حتى نقاشاتنا الفكرية، والسياسية حول الأحداث المحيطة بفلسطين، لم تكن لتثير نزاعًا معه، فهو قابل لأن يتفق معك في كل ذلك، طالما أن موقفك ثابت من فلسطين ومقاومتها.

على أي حال، كان جذريًّا؛ نعم، ومباشرًا وواضحًا؛ نعم، ولكن أحدًا لم يتوقع، أن يتحول إلى فعل في الواقع، وحتى حينما اختفى المرة الأولى، تكاثرت نقاشات معارفه عن خطأ الأسلوب، وعن استحالة استنساخ تجربة ثورة الـ ٣٦، أو تساءلوا عن جديّة وحقيقة ما جرى، ولكنه فيما بعد كشف عن تماهيه المدهش مع أفكاره، وبكلمة أخرى كان كلمة صدق تمشي على قدمين.

الصدق، والفناء في الفكرة، هو المعنى الذي يشع الآن من وجه باسل، ويعيد طبع صورته من جديد في وعينا. حينما استشهد باسل، لم يدر في عقلي سوى حقيقة واحدة، أنه كان أصدقنا، كما قلتُ أول الأمر، وأنه كان يؤمن بالمستحيل، كما قال لي صديق أخيرًا.

الذين يؤمنون بالمستحيل وحدهم الذين يغيرون التاريخ، والصادقون وحدهم الذين يتركون فينا هذا الأثر.

باسل الأعرج المثقّف الثوريّ في زمن الاشتباك

خالد بركات

نشر بتاريخ ٢٠١٧/٣/٢٨ في مجلة الآداب اللبنانية

باسل الأعرج، الفدائيّ والمثقّف الثوريّ الشابّ الذي اغتاله جيشُ الاحتلال، في مدينة البيرة المُحتلّة فجرَ الإثنين ٦ مارس/ آذار الجاري، اكتشف، في لحظة وعيٍ فارقة لمعتْ في رأسه، فكرةً عميقةً تتلخّص في كلمة ــ مهمّة واحدة: الاشتباك. إنّها قناعة فكريّة تجذّرتْ تدريجيًا في وجدانه، وظلّت تؤكّد حضورَها، وتقول له: إنّ مهمّةَ المثقّف الثوريّ هي أن يكون في قلب المواجهة، وأن يعيشَ متمرِّدًا على الواقع وشروطه، من أجل تجاوزه، لا من أجل قبوله أو التكيّف معه؛ ومهما ضاقت السبلُ بكَ، واشتدّ الحصار، فسيظلّ في وسعك أن تصنع ثقافةَ الاشتباك كطريقة عيشٍ وسلوكٍ وحياة، ولو بدا الانتصارُ الآن أقربَ إلى المستحيل.

لقد قرأ باسل أفكارَ غسّان كنفاني جيّدًا، وتأمّل مقولات مهدي عامل وفرانز فانون وأنطونيو غرامشي ومالكوم إكس، فازداد اقتناعًا باستحالة وجود أيّ دور للمثقّف الثوريّ خارج ميادين الاشتباك الشامل.

ولأنّ الوعي الثوريّ لا يأتي دفعةً واحدة، بل أساسُه العملُ والتجربةُ المعيشة، ومرجعيّتُه حقائقُ الواقع الماديّ، فإنّ تعميقَه وترسيخَه يقتضيان امتلاكَ أدوات البحث والمعرفة والمنهج العلميّ. من هنا، توجّه باسل نحو الكتب، ونحو التنقيب والحرث في أرض التاريخ الفلسطينيّ المعاصر والقديم. وصار "الماضي" شغلَه الشاغل، وتحديدًا تاريخ المقاومة الفلسطينيّة الشعبيّة المسلّحة في مواجهة الاستعمار الاستيطانيّ، مذ رَسَت أساطيلُ الإمبراطور نابليون بونبارت قبالة أسوار عكّا.

واكتشف باسل أيضًا أنّ المثقّف الوطنيّ يجب ألّا ينفصل عن واقع الحركة الوطنيّة الفلسطينيّة وهمومها، ولو أصابها الكلسُ والصدأ؛ وأنّ هذا المثقّف، من خلال الجهد اليوميّ والتثقيف الذاتيّ والمشاركة في النشاط النقابيّ والجماهيريّ، سيظلّ يراكم الدروسَ ويصقل تجربتَه ويمتحن إرادتَه وأفكارَه في الميدان، وفي المحاولات المتكرّرة

والمتعثّرة، علّها تكون شرارةً تخلق حالةً من الوعي والنهوض الشعبيّ الفلسطينيّ في الأرض المحتلّة. ولكنْ، سرعان ما كان صدرُه يضيق، فيطلب المزيدَ من الفعل، ومن توسيع مساحات الاشتباك.

ولأن لا وعيَ ثوريًّا من دون ممارسة ثوريّة، فقد بدأ باسل هذه الممارسة. وكانت تجربتُه الأولى في قريته "الولجة،" وهو الطفل الذي يتذكّر صورَ الانتفاضة الشعبيّة الكبرى بين العامين ١٩٨٧ و١٩٩٣. ثمّ تواصلتْ تجربتُه في المدرسة والجامعة، وفي "الحَراك الشبابيّ،" و"فلسطينيون من أجل الكرامة،" ولجانِ المقاطعة والتصدّي للاستيطان، ومناهضة جدار الضمّ والنهب العنصريّ. وشارك في الحملات الشعبيّة ضدّ التطبيع، وضدّ سياسات السلطة الفلسطينيّة والمفاوضات مع العدوّ، وغيرِها من الحملات والمبادرات التي كان له دورٌ في إطلاقها وتأسيسها إلى جانب رفاقه وزملائه من طلائع القواعد المناضلة في التنظيمات الفلسطينيّة، وخصوصًا في الحركة الطلّابيّة على اختلاف تيّاراتها ومشاربها. لقد أرادها باسل حركةً شبابيّةً وطنيّةً وحرّة، تقف خارج القوانين الرتيبة، بعيدًا عن جدران التقليد والاجترار؛ لكنّه لم يَشبع من مستوى الاشتباك، فقرّر أن يتمرّد مرّةً أخرى.

لو بحثنا عن شبيه لباسل، فسنجده في العشرات من الشباب الفلسطينيّ الثوريّ الذين حملوا القلمَ والسلاح، ولم يروْا أيَّ تناقض بين الفكر والنار في أتون الصراع مع العدوّ الصهيونيّ. ذلك أنّ الوعي الجذريّ العميق ـ إذا لازمتْه الإرادةُ والقيمُ الأخلاقيّةُ والإنسانيّة ـ سيكون بمقدوره أن يحدّد وجهةَ السلاح، ومجرى البوصلة، والطريقَ، والغايةَ، ويفتح كوّةً من الأمل في جدار الواقع الصلد. ولأنّ الوعي بالتاريخ وقوانين الصراع وأحوالِ العدو ضرورةٌ لا بدّ منها، فإنّه يسبق تعلّمَ إطلاق الرّصاص. فالسلاح ـ الحديد لا روحَ فيه ولا حياةَ إلّا إذا كانت له عينان، ورؤيةٌ وطنيّةٌ ترشده إلى الهدف الصحيح. وإذا انتشر السلاح وامتلكه المعذّبون والمستضعفون، استعادوا وعيَهم بحقيقة وجودهم وحقوقهم، واكتشفوا قدرتَهم على الصمود والنهوض واستئنافِ مسيرة العودة والتحرير.

يَحضر باسل المقاوم، فيَحْضر معه شهداءُ الثقافة الوطنيّة من الشباب الذين غابوا موقّتًا، لكنّهم يعودون مرّةً أخرى. ذلك لأنّ الشهداء لا يحتاجون إلى جواز مرور؛ فهم وحدهم مَن يستطيع الخروجَ من القبور، ومن الملصقات والكليشيهات، والتمرّد، كلّما

ضاقت الأرضُ وحضر شهيدٌ آخر. الشهداء في وسعهم أن يُستحضروا دومًا كي يحتجّوا ضدّ الخيانة والتزييف، وكي يَحرسوا الحلمَ والذكرى. وهل ثمّة من يشكّ في أنّ الشهيد وديع حدّاد تململ في قبره حين تبرّع "الرئيس" الفلسطينيّ بمدينة صفد المحتلّة إلى صحفيّ صهيونيّ صغير لا يستحقّ "فرنكَين"؟!

يَحْضر دمُ باسل التلحميّ اليوم، وتُستنفر الذاكرةُ الشعبيّةُ الفلسطينيّة/العربيّة. هكذا يُستحضَر، عند استحضار دم باسل، السيّدُ المسيحُ، الفدائيُّ الأوّل، حاملًا صليبَه وعذابَه في درب الآلام. ويُستحضَر دمُ الإمام الحسيْن الزكيّ في كربلاء، فيترسّخ الإيمانُ بقدرة الفدائيّ الفلسطينيّ على تقديم النموذج على "انتصار الدم على السيف." وفي الصراع الدامي بين الحقّ والباطل، وبين شعب أعزلَ وكيانٍ عنصريّ مدجّج بالسلاح، يُستحضَر الشبابُ الثوريُّ المثقّف في صورة غسّان كنفانيّ، ثائرًا ومُجلجلًا، ليؤكّد وصيّتَه الأخيرة: "لا تمُت قبل أن تكون ندًّا." وتصدح أشعارُ الشهيد الشاعر عبد الرحيم محمود، وخصوصًا أبياته الشهيرة قبل استشهاده:

سأحملُ روحي على راحتي/ وأُلقي بها في مهاوي الرَّدى
فإمّا حياةٌ تسرُّ الصديقَ/ وإمّا مماتٌ يغيظُ العدى
ونفسُ الشريف لها غايتان:/ ورودُ المنايا ونيلُ المنى
وما العيشُ؟ لاعشتُ إن لم أكن/مَخُوفَ الجناب حرام الحمى!
إذا قلتُ أصغى لي العالمون/ودوّى مقالي بين الورى
لعَمرُكَ إنّي أرى مصرعي/ولكنّ أغذُّ إليه الخُطى!

وتُستحضر قصائدُ الشاعر الوطنيّ إبراهيم طوقان، وأغاني المقاتل النقابيّ خليل أحمد خليل الذي استشهد في قلعة الشقيف في جنوب لبنان سنة ١٩٨٢، وقصائدُ علي فودة الذي استُشهد في بيروت في ذلك العام نفسه، ومقولاتُ النقابيّ الثوريّ إبراهيم الراعي، وريشةُ الفنّان ناجي العلي... فباسل الأعرج لم يولدْ من العدم، بل هو امتدادٌ طبيعيٌّ لهذا الإرث التاريخيّ المقاوم، ولذلك الدم المسفوك الذي استباحه المستعمِرُ الأبيضُ ــ ولمّا يزل ــ في فلسطين المحتلّة، وعلى امتداد الأرض العربيّة.

تشْبه قصّة باسل الأعرج، الشاب الفلسطينيّ العنيد، قصّةَ القائد الشبابيّ الراديكاليّ الجنوب أفريقيّ ستيف بيكو، الذي قتله نظامُ الفصل العنصريّ بعد أن ضاق ذرعًا

بحضوره ونشاطه. فبعد غيرِ محاولة فاشلة لكسر بيكو، وبعد حرمانه من التنقّل والدراسة، وبعد اقتحامات متكرّرة لبيته، واعتقال رفاقه وأفراد عائلته وجيرانه، اغتالوه في زنزانة ضيّقة وباردة. وكان بيكو قد أسّس حركة شبابيّة ثوريّة في منتصف السبعينيّات من القرن الماضي، أطلق عليها اسم "حركة الوعي الأسود" ضدّ نظام الأبارتهايد وفي مواجهة القمع الذي بلغ ذروته في عموم البلاد. كانت مقولته الأشهر "أقوى سلاح في يد القاهرين هو عقل المقهورين" شبيهةً بمقولات باسل عن لزوم "الوعي" في عمليّة التحرير. وباستشهاد بيكو، انطلقت انتفاضةٌ في الوعي، وفي الميادين والشوارع، أعادت إلى حركة التحرّر في جنوب أفريقيا جذوتها وبريقها، وجدّدت الأملَ بالحريّة والنصر. وهذا ما يُرجى أن يؤدّيه استشهادُ باسل في وعي الشباب الفلسطينيّ، وفي ميادين فلسطين وشوارعها.

هكذا اذًا، في الزمن الفلسطينيّ الصعب، يولد المثقّفُ الثوريُّ الشابّ باسل الأعرج. يحمل جعبته، يخبّئ فيها سلاحَه وكتبَه، ويتقدّم بخطًى واثقة ثابتةٍ، عكس المرحلة، نحو شمس فلسطين.

المثقف المشتبك، أو النقطة صفر في الثقافة المعاصرة

خضر سلامة

نشر بتاريخ ٢٠١٧/٣/٢٨ في مجلة الآداب اللبنانية

تكمن بلاغةُ اللقب الذي كسبه باسل الأعرج، أي "المثقف المشتبك،" في أنّه نظريّةٌ في الثقافة لم تُكتَب بعدُ، بل بُثّت مباشرةً، بالاقتباس والصورة والقصصِ المنقولة عن "حكّاء" فلسطين، إلى جمهورٍ لم ينقّحْ منذ زمنٍ قاموسَ لغته. فمن هو المثقف المشتبكِ؟

حتّى كتابة هذه الأسطر، نستطيع أن نلخّص بحثَنا في كلمتين: باسل الأعرج.

قدِم باسل إلى بيروت واثقًا بأنّ حدودَ دولة فلسطين، التي أعلنتها الشهيدة دلال المغربي من على باصٍ في تل أبيب يومًا، يجب أن تمتدّ حتّى نهر الأوّلي في جنوب لبنان. وهو يريد إعادتَنا، نحنُ أهلَ جبل عامل الذين سطا نيجر[١] على لكنتهم، إلى فلسطين.

وماذا عن ضاحية بيروت الجنوبيّة؟ هل نترك الضاحية يا باسل؟

هي استراحةٌ من كسل التاريخ في شارع الحمرا، أو من سكونه، كما يصف غرامشي فعلَ التشابه إنْ سيطر على مجتمع ما. خارجَ التشابه في المرحلة العربيّة، وفي ضاحية بيروت الجنوبيّة، كان باسل يستفيضُ في تشريح فكرة "الشعوب الكامنة في شعبٍ واحد"؛ ويتحدّث عن "سيطرة السلطة الفلسطينيّة كثقافةٍ وأسلوبِ حياة،" تزامنًا مع سيطرتها الأمنيّة والاقتصاديّة، ومع فكرة "التعوّد على القبول" المزعجة.

فالسلطة الفلسطينيّة، في رأي باسل، ليست رئيسًا متخاذلًا يُقتل باسلٌ على بعد عشرة أمتارٍ من غرفته، الكائنة في الفندق الإسرائيليّ الكبير المسمّى "أوسلو." ولا هي جهازُ مخابراتٍ يكتفي بأن يرنَّ اسمُه في أكثر من فضيحة وطنيّة، لو أنصفَ التاريخُ حكمَه. السلطةُ الفلسطينيّة هي تغييرُ العقيدة الفلسطينيّةً ببطء: في المنهاج الدراسيّ (مثال: قضيّة الالتزام بـ"الحياد" في عقود تمويل مدارس الأونروا)، وفي المدرسة العسكريّة الرسميّة لما يُفترض أنّه الوريثُ الشرعيّ لمنظومة منظّمة التحرير العسكريّة.[٢] والسلطة الفلسطينيّة

هي تغييرُ العقيدة الفلسطينيّة في العمل اليوميّ: عبر إلغاء القطاع الزراعيّ، وضربِ القرى التي تحصّن الفدائيين في الضفّة، ونقلِ الفلسطينيّ إلى المصارف والخدمات ووظائف الجمعيّات المموَّلة أجنبيًّا. السلطة الفلسطينيّة، باختصار، هي دخولُ الفلسطينيّ في "غسّالة" البنك الدوليّ، والخروجُ منها عاريًا من قضيّته.

يرتّب باسل الأعرج الروايةَ الفلسطينيّة على طريقة غسّان كنفاني، أيْ بالتراكم الزمنيّ: من ضياع الهويّة في حيفا، إلى ضياع الخيار في الخزّان، فإلى تلقّف الحلّ عند أمّ سعد، وانتهاءً بالاشتباكِ الدائم مع حرّاس الهيكل من دون أن نُضطرّ إلى لعب "البطولة" على طريقة شمشوم (فلماذا نهدُّ الهيكل إذا كنّا قادرين على احتلاله على طريقة القرامطة الحُمر، وقادرين على قتال السلطة بوعي الناس، وقتالِ العدوّ بمعرفتهم؟).

هامش: يُحكى أنّ الشهيد السودانيّ عبد الخالق محجوب سُئل في المحكمة: "أنت شنو قدّمتَ للشعب السودانيّ؟" فأجاب: "الوعيَ... ما استطعتُ."

الوعيُ كثقافة يوميّة هو أن نَحفظَ لهجاتنا، أسماءَ شوارعنا، قصصَ كلّ زاوية، ألقابَ الشهداء وأعمارَهم وأحوالَ أهلهم. الوعيُ عند باسل الأعرج يعني الإعجابَ بالمقاتل اللبنانيّ الذي يشكّ الدخانَ في موسم التبغ، ويقاتل في موسم الحرب، ويستحيي أن يستعمل حقلَ الجيران لكمينٍ لأنّه يعرف شقاءَ الزرع.

هذا الوعي يَفرض على الكتل المتحرّكة، المثقّفة، أن تكون كتلًا متّصلةً لا منفصلة؛ ذلك لأنّ الخطر يكمن في تحوّل الثقافة إلى طبقة مستقلّة، إلى "طائفة" بالمفهوم اللبنانيّ، علاقاتُها الشخصيّة والثقافيّة والنشاطيّة مُغلقةٌ على دائرتها الطبقيّة وسلوكيّاتها، بحيث تنفصل عن الصراع، وتصبح زبونةً لدى رأس المال. وهنا تبدأ الهيمنةُ الثقافيّة.

أمّا المثقّف العضويّ (الذي سـ"يشتبك" حتمًا مع قوى الاستعمار وفق سلّة المصطلحات القتاليّة التي تزخر بها أدبيّاتُ غرامشي)، فلا ينفصل عن طبقته الاجتماعيّة: لا يُنكر قيمَها وأفكارَها، ولا يتصادم معها، ولا يضع قناعَ طبقة أعلى ليجاملها على أساس الوظيفة أو أسلوب العيش أو انحناءً للثقافة السائدة المهيمنة. يبقى المثقّف العضويّ إنسانًا كادحًا، ولا يستقلّ عن الجماعة؛ بل تنتفي برأيه ضرورةُ هذا التعريف ("المثقّف") أساسًا لأنّ الجميع كذلك: صاحب المهنة أو الحِرفة أو المعرفة الزراعيّة أو اليدوية أو الشعبيّة... لكلّ امرئٍ ثقافةٌ في أمر.

كيف نكرّس هذا الوعيَ في غياب تنظيمٍ جماعيٍّ عابرٍ للقرابات المحلّيّة؟

يصبح الوعيُ هنا مهمّةً فرديّةً أو خَلَويّة (على أساس خلايا عمل صغيرة): "كلُّكم راعٍ، وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيّته." فنُبادر، ونخلق الأُطُرَ، ونبدع الأفكارَ، ونذكّر بتواريخَ قديمةً، ونعيد الأسماءَ والقضايا، ونسمّي القرى بأسمائها، ولا نحتفظ بأيّ معرفة لأنفسنا. باختصار: نرفض القبول، ونمارس الرفضَ على أساس الجدوى المستمرّة: المقاومة.

وعيُ باسل الأعرج كان موجَّهًا بخطوط أفقيّة تمتدُّ من بلدته "الولَجة" إلى كلّ زاويةٍ في فلسطين، لا زواريبَ فيه ولا منعطفاتٍ. يُشْبِهُ باسل الأعرج خلاصةَ مقالٍ للراحل جوزيف سماحة، أواخرَ الثمانينيّات من القرن المنصرم، في مجلة اليوم السابع، "هل تقبل تحالفًا في أفريقيا يا ناجي؟" في هذا المقال يتذكّر سماحة لعبةَ "ريسك" مع ناجي العلي في مكاتب جريدة السفير، عشيّة سقوط بيروت الغربيّة في يد الإسرائيليين صيفَ العام ١٩٨٢، واصفًا مهاراتِ ناجي في نسج التحالفات من أجل بلوغ هدفٍ واضحٍ مباشرٍ لا مواربةَ فيه. يقول سماحة إنّ ناجي يعتبر أنّ الطريق إلى "الشجرة" (قريةً ناجي) هو خطّ مستقيم من بيروت إلى رأس الناقورة، ولم يكن يفهم كلَّ المعارك الجانبيّة والداخليّة والشخصيّة؛ وكان يبني على أساس ذلك معاركَه: ضدّ "إسرائيل" وأعوانِها.

وهكذا كان مفهومُ باسل الأعرج للصراع. فلقد أتى ليلومَنا على تلهّينا بنقاشات الزواريب، وليقول إنّ الخلاص يكون في الحرب المعرفيّة على المحتلّ؛ وفي اختيار توقيت المعركة وزواياها وأدواتها، كما فعل أبطالُ عمليّة زقاق الموت (الخليل، ١٥/١١/ ٢٠٠٢)؛ وفي القطيعة مع أدوات هذا المحتلّ المحلّيّة، من دون الاضطرار إلى الصدام الفتنويّ معها، بل عبر تعطيلها وعصيانها "الناعم."

لقد قرع باسل معذّبو الأرض كما تُقرع الأجراس، ووصّى به كلَّ من عرفه.[٣] لعلّ ثمّة مَن يعقل فينجو من "التفاصيل،" ويعود إلى أولويّة الصراع: هزيمةِ المستعمِر قبل أيّ معركةٍ أخرى.

يستطيع باسل أن يناقش في أيّ حدث فلسطينيّ في القرنين الماضيين، مستندًا إلى عشرات البحوث والكتب، وإلى شهاداتِ أناسٍ لم يتركْهم يومًا. ويكاد يشمل كلَّ قرية وكلَّ زاوية بقصّة. باسل الأعرج مؤرِّخٌ جوّالٌ، متنقّل بين الكُتل، حجمُ حركته واضحٌ في شبكة علاقاته التي جعلتْ وقعَ استشهاده أوّلَ خبر فلسطينيّ يفعل هذا الفعل منذ زمن العدوان الأخير على غزّة.

لقد أصبح للثقافة دورٌ، بعد قلب باسل لكراسي مقاهيها. ودورُها ليس أن تجْمع علمًا فقط، بل أن تستخدمَه أيضًا: كأن تتعلّمَ معنى إطلاق النار من النقطة صفر في الثامنة عشرة من عمرك، كي تستخدمَ هذه المعرفة في الثانية والثلاثين إلّا قليلًا، من على سقيفة غرفة، في الثانية صباحًا، من أجل الاشتباك مع جيشٍ بأكمله، لساعتين، وحولك أمّةٌ نائمةٌ.

المعرفة، عند باسل الأعرج، هي أن تصبح في نظر عدوّك كلَّ خاطف طيّارات، ومفجِّرَ باصات، وناسفَ دبّاباتٍ ومواقعَ معادية. هي أن تُحْسِنَ حساباتِ النقطة صفر عند نصبك كمينًا للانقضاض على ثقافة الاحتلال: سرعة رياحِ انهيارِ السلام فوق رؤوس صنّاعه؛ اتّجاه الشمس من نافذة سجن السلطة؛ حركة المحتلّ من شارع إلى شارع، ومن فصيلٍ إلى فصيل.

باسل الأعرج اليوم هو "النقطة صفر" في ثقافتنا المعاصرة، أيْ نقطةُ البداية لتأسيس ثقافةٍ مقاتلة حديثة. وقصّتُه هي الرصاصاتُ التي علينا أن نبذلَ كلَّ الجهد لتحسين هدفِها، عبرَ استنهاض أبنائنا والشبابِ والجامعات والنوادي الثقافيّة، وجيرانِ الحيّ، ورفاقِنا في كلّ بلد، وأصدقائنا الافتراضيين.

وهنا مسؤوليّةُ كلِّ مَن عرفَه.

أستطيع أن أجزم أنّ باسل الأعرج اليوم، كما عرفتُه من خلف شاشةٍ منذ سنين، يسير بخطٍّ مستقيم إلى فلسطين التي يريدها هو، لا التي أعطاها رابين غيرَه، حاملًا بندقيّةً في كلِّ يدٍ، وشَنطةَ كتبٍ على ظهره سيُكمل قراءتَها بعد انتهاء المعركة.

لقد بدأ الاشتباكُ صباح السادس من آذار، ولم ينتهِ بعد.

الهوامش:

(١) حملة الجنرال الفرنسيّ نيجر على جبل عامل في أيّار ١٩٢٠ لإنهاء مفاعيل مؤتمر وادي الحجيْر وضمّه بالقوة إلى "دولة لبنان الكبير"؛ راجع: نوال فيّاض، صفحات من تاريخ جبل عامل في العهدين العثمانيّ والفرنسيّ (بيروت: دار الجديد، ١٩٩٨).

(٢) راجعْ عقيدة/ خطّة الجنرال كيث دايتون، المنسِّق الأمنيّ الأميركيّ بين الكيان الصهيونيّ وسلطة أوسلو، الواردة في محاضرة "حول صناعة الفلسطينيّ الجديد،" معهد واشنطن لسياسة الشرق الأوسط، ٧ أيّار/مايو، ٢٠٠٩

(٣) فرانتز فانون، معذّبو الأرض (بيروت: دار القلم، ١٩٨٥، ترجمة/تحقيق: سامي الدروبي، جمال الأتاسي).

الفلسطيني الجديد

معز كراجة

نشر بتاريخ ٢٠١٧/٣/٢٨ في مجلة الآداب اللبنانية

إذا كان الشهيد باسل الأعرج وجد أجوبتَه ومضى، فنحن ـ الأحياءَ ـ نقف الآن أمام جملة من الأسئلة التي ينبغي أن نبذلَ الجهدَ الكافي للإجابة عنها؛ من قبيل: هل هذا الشابّ المتعلّم المثقّف الذي اختار ـ بوعي ـ السيرَ عكس التيّار مجرّدُ حالة عابرة، أمْ يمثّل ظاهرةً فلسطينيّةً شبابيّةً نضاليّةً جديدة؟ وإذا كان ظاهرةً فعلًا، فما هي معالمُها ونماذجُها؟ وإذا صحّ وجودُ مثل هذه النماذج الشبابيّة النضاليّة، فهل تشكّلتْ لأسباب ذاتيّة، أمْ لأسبابٍ موضوعيّة فرضتها البيئةُ الاجتماعيّةُ السياسيّةُ الاقتصاديّةُ الفلسطينيّة؟ وكيف نفهمُ ردّة فعل "الشارع" الفلسطينيّ الإيجابيّة على هذه النماذج؟ ثمّ كيف نفسّر التناقضَ الظاهرَ في ردّة الفعل هذه: فالشارع يشجّع شيئًا، ويخاف منه في الوقت نفسه؟ أهوَ انفصامٌ يعانيه الفلسطينيون، أمْ مرحلة متقدّمة من الإدراك والتململ؟

قد يصعب تقديمُ إجابات كاملة عن هذه الأسئلة، ولكنّ طرحها ـ في حدّ ذاته ـ أمر واجب. فلن نتحرّر من واقعنا إلّا إذا فهمناه وحلّلناه ونظرنا إليه بعيدًا عن العموميّات والكليشيهات المسبّقة التي تعزّز لدينا وعيًا زائفًا بأنّ الواقع "على حاله" وأنْ لا شيءَ في الأفق. وكشرط مسبّقٍ للحصول على إجابة مختلفة، فإنّ علينا التحرّرَ من ميثولوجيا "الشهيد والبطولة" ـ على أهمّيّتها بالنسبة إلى الوعي الشعبيّ ـ والعمل على التحليل بتجرّد وموضوعيّة.

باسل المثقّفُ أوّلًا، والناشطُ المنخرطُ في العمل الاجتماعيّ ثانيًا، والمناضلُ الشهيدُ ثالثًا، يمثّل خطوةً متقدّمةً ونضجًا جديدًا في ظاهرة تتنامى باستمرار. وهذه الظاهرة، وإنْ بدأتْ في التشكّل سنة ٢٠١٤، اكتسبتْ نفَسًا جديدًا مع عمليّة الطالب الجامعيّ مهنّد الحلبي في أكتوبر من العام ٢٠١٥، وأخذتْ بعدًا جديدًا مع عمليّة المثقّف والناشط الشهيد بهاء عليان في الشهر نفسه من ذلك العام. سيلٌ من العمليّات الفرديّة شهدتْه

تلك الفترة فاجأ الجميعَ، على شاكلة مفاجأة الانتفاضة الأولى نهايةَ العام ١٩٨٧، خصوصًا أنّ المنفّذين شبابٌ، متعلّمون ومثقّفون، معظمُهم من الطبقة الوسطى، ولهم نشاطُهم المجتمعيّ. بكلمات أخرى: ليسوا شبابًا محبَطًا أو يائسًا، وإنّما فعلُهم نابعٌ من إرادةٍ حرّةٍ ووعي.

على أنّ اعتبار حدث ما "ظاهرةً" يحتاج إلى أكثر من مجرّد تكرارٍ للفعل نفسه؛ إذ يجب توفّر سمات مشتركةٍ بين الأفعال المكرَّرة، ويجب توفّر ظروف وسياق وعلاقات سببيّة بين هذه الأفعال، بحيث لا تبقى حالات عابرةً لا رابط بينها. والحقّ أنّ الرابطَ الأبرز بين هؤلاء الشباب ـ غير موقعهم الطبقيّ وسماتهم الاجتماعيّة ـ وهو الذي جمعهم من دون أن يلتقوا، ووحّد نضالَهم من دون أن ينسّقوا في ما بينهم، وحوّلهم نموذجًا من دون أن يقصدوا ذلك، إنّما هو: وعيُهم المشتركُ بطبيعة الحالة الفلسطينيّة الراهنة، بكلّ تفاصيلها السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة. وقد تجسّد هذا الوعيُ، أوّلَ ما تجسّدَ، في إصرارهم على التحرّر من الحالة الفلسطينيّة القائمة، بل التبرّؤ من ممثّليها أيضًا. لذا جاءت مبادراتُهم النضاليّةُ شخصيّةً تمامًا. وخوفًا من ألّا نفهمَها ـ نحن الأحياءَ ـ على ذلك النحو، فقد حرصوا على أن يتركوا لنا في وصاياهم أنْ لا حزبَ يمثّلهم، وأنْ لا انتماء لديهم... إلّا إلى فلسطين.

وقد عبّروا أيضًا عن قطيعتهم مع الحالة الفلسطينيّة القائمة بعملهم الناشط على تأسيس مرحلة جديدةٍ بوعي جديد. وتأتّى لهم ذلك عبر الانخراط في العمل المجتمعيّ، والنشاط الثقافيّ، وعبر قيادة مبادرات شبابيّةٍ وتطوّعيّة في مجالات مختلفة. كما أعادوا ربطَ هذا العمل المجتمعيّ والثقافيّ والتطوعيّ، عن قصدٍ وإدراكٍ عميقيْن، بالبعد الوطنيّ والنضاليّ للقضيّة الفلسطينيّة ـ وهو الرابط الذي كانت قد شوّهتْه، خلال السنوات السابقة، أغلبُ المؤسّسات الأهليّة المموَّلة أجنبيًّا. لذلك، حين اختار بهاء عليان أن ينظّم أطولَ سلسلةِ قراءةٍ للأطفال والشباب، اختار لها أسوارَ القدس مكانًا. أمّا باسل، فراحَ ـ من دون تنسيقٍ مع بهاء، بل ربّما من دون أدنى معرفةٍ به ـ يحمل معه التاريخَ السياسيَّ والنضاليَّ كلّما نَظّم زياراتٍ إلى منطقةٍ ما في فلسطين، على عكس "المؤتمرات الشبابيّة السياحيّة" المموَّلة.

بمعنًى آخر، فقد ربط هؤلاء الشبابُ ـ بوعيهم المشترك الذي نتحدّث عنه ـ بين نضالهم الوطنيّ من جهة، ومحاولات ترميم الوعي الفلسطينيّ الداخليّ وإعادة بنائه من جهة

ثانية، بسبب معرفتهم بمدى الترابط بين الجبهتين. وبالمناسبة، فإنّ هذه المبادرات تمثّل أيضًا قطيعةً مع مرحلة سابقة يمكن أن نسميَها "مرحلةَ النضال بالوكالة،" وذلك حين وصل الناسُ إلى درجة من السلبيّة أقعدتهم عن مجرّد التحرّك ضدّ جدارٍ يُبنى على أرضهم، وتحت شبّاكِ بيتهم، على اعتبار أنّ هنالك سلطةً فلسطينيّة "تتولّى الأمر"!

هنا، علينا أن نتتبّع، ولو بعجالة، ثلاثَ مراحل مرّت بها السلطةُ الفلسطينيّة في الوعي الشعبيّ، حتّى وصلنا أخيرًا إلى المرحلة التي توفّرتْ فيها الشروطُ الموضوعيّةُ لظهور هذا الفلسطينيّ الجديد الذي ينتمي إلى المستقبل، رافضًا الحاضرَ.

في المرحلة الأولى كان الشارعُ الفلسطينيّ منقسمًا حول ما إذا كانت هذه السلطة تمثّل، فعلًا، مشروعًا سياسيًّا يمكن أن يوصلنا إلى حقوقنا الوطنيّة. وقد استمرّ هذا الانقسام حتّى الانتفاضة الثانية صيف العام ٢٠٠٠. بعد هذه الانتفاضة سقطت الجدوى الوطنيّةُ لهذا المشروع من وعي الفلسطينيين.

ولكنّ السلطة سرعان ما أدخلتنا في المرحلة الثانية، ألا وهي: وهْمُ الجدوى الاقتصاديّة. فظهرتْ مجموعةٌ من أشدّ الشعارات قبحًا وخداعًا في تاريخ القضيّة الفلسطينيّة، مثل: "بناء مؤسّسات الدولة،" و"التنمية تحت الاحتلال،" و"لنثْبتْ للعالم جدارتَنا"... إلخ. وقد مثّل سلام فيّاض عنوانَ هذه المرحلة. ولم تمضِ سنواتٌ قليلة حتّى استفاق الناسُ ليجدوا أنفسَهم يرزحون تحت ديونٍ وهمومٍ معيشيّةٍ لا نهايةَ لها. وهنا سقط أيضًا وهمُ الجدوى الاقتصاديّة.

نحن الآن في المرحلة الثالثة والأخيرة، قبل أن يحصل التحوّلُ الجذريُّ المنشودُ، وتُطوى هذه الصفحةُ الكالحةُ من تاريخنا المعاصر. وعنوانُ هذه المرحلة: الفراغُ السياسيّ التامّ، وموتُ الشرعيّات الفلسطينيّة الداخليّة بكلّ أشكالها. اليوم، يشعر الفلسطينيُّ بأنّه وحيد، وبأنْ ليس هناك مَن يمثّله أو يمثّل مصالحَه. كما لم يعد لديه حدٌّ أدنى من الثقة، لا بالخطاب السياسيّ السائد فحسب، بل بـ"المثقّف" السائد وبخطابه الثقافيّ السائد أيضًا؛ فالجميع ــ في رأي الناس ــ في فلك المصلحة يَسْبحون. بل بدأ الناس يشاهدون، بوضوح، ظاهرةً جديدةً عنوانُها: "الاحتلال يصيب الفقراءَ وحدهم"؛ ذلك أنّ النخبة السياسيّة والاقتصاديّة التي أفرزها وهمُ السنوات السابقة انسلختْ عن الشعب، حتى باتت تعيش بعيدًا عن أذى الاحتلال (وبموافقته بطبيعة الحال)... بل هي

لم تعد تسمع شكوى الناس من هذا الأذى.

حالةُ الفراغ هذه، وموتُ الشرعيّات، واستنفادُ المشاريع الوهميّة، هي التي تفسّر موضوعيًّا ضرورةَ ظهور بديل، تطبيقًا لمبدأ "الطبيعة تكره الفراغَ." والفراغُ هذا، بكلّ إفرازاته السيّئة المذكورة، يفسّر ببساطة هذا التعاطفَ الشعبيَّ الكبيرَ مع ظهور "الفلسطينيّ الجديد" صاحبِ المبادرة؛ مع العلم أنّ العمل النضاليّ قبل أقلّ من عشر سنوات لم يكن يحظى بكلّ هذه الشعبيّة. الفلسطينيّ اليوم يعاني الفقرَ وانعدامَ العدالة وتعمّقَ الطبقية من جهة، والذلَّ والقتلَ ووقاحةَ المستوطنين من جهة أخرى. وكلما زاد خنوعُ الفلسطينيّ لظروفه الداخليّة، زادت وقاحةُ المحتل. لذلك، ليس مصادفةً أن تظهر العمليّاتُ الفرديّةُ في أعقاب تكرار حوادث الحرق: من الطفل أبو خضير إلى عائلة الدوابشة.

والشارع الفلسطينيّ الآن يعيش نزاعًا داخليًّا: بين قناعته بسوء حاله وضرورةِ تغييرها، ومدى قدرته على فعل ذلك. فالقناعة بالشيء لا تتجسّد في سلوك مباشر، ولا سيّما إذا أدركنا كمَّ السياسات النيوليبراليّة ونوعَها وتجذّرَها خلال السنوات الماضية. من هنا، جاء ظهورُ "الفلسطينيّ الجديد،" الواضحِ بخياراته وقراراته وأجوبته، وكأنّه بوصلةٌ للاتّجاه الذي ينبغي على "الشارع" أن يحسمَ عبورَه. ولأنّ الحسمَ سيقع لا محالة، ولأنّ الاشتباك "جايٍ جاي،" فإنّ دورَ هذا الفلسطينيّ الجديد لن يقتصرَ على إخراجنا من هذه الحالة، بل سيكون قيادةَ المرحلة الجديدة كذلك.

يبقى أن نقول إنّ كلَّ ما كُتب وقيل في باسل، وكلَّ ما كُتب وقيل في مَن سبقوه من الشهداء، سيعزّز في وعي الشباب هذا النموذجَ الجديد، الذي سيُسقط في النهاية نموذجَ الاستسلام والاستهلاك.

الباحث المشتبك في مواجهة الكولونياليّة الاستيطانيّة: فلسطين نموذجًا

وسام الرفيدي

نشر بتاريخ ٢٠١٧/٨/١٤ في مجلة الآداب اللبنانية

مقدّمة

"وأنا الآن، [إذ] أسيرُ إلى حتفي راضيًا مقتنعًا، وجدتُ أجوبتي. يا ويلي ما أحمقني! وهل هناك أبلغُ وأفصحُ من فعلِ الشهيد؟! كان من المفروض أن أكتبَ هذا قبل شهورٍ طويلة، إلّا أنّ ما أقعدني عنه هو أنّ هذا سؤالُكم، أنتم الأحياء، فلماذا أجيبُ أنا عنكم؟ فلتبحثوا أنتم! أمّا نحن، أهلَ القبور، فلا نبحث إلّا عن رحمة الله."[١]

في هذا المقطع من وصيّة باسل الأعرج، كما في استشهاده، قدّم باسل جوابَه عن السؤال المتعلّق بموقف الفرد من قضايا شعبه. من دون تنظيرات ومقولات فخمة، كان الاستشهادُ جوابَه. جوابه كان بسيطًا، وقاله في وصيّته بوضوح: أنا أجبتُ عن السؤال، ودورُكم أن تجيبوا عن أسئلتكم!

كان باسل باحثًا مشتبكًا. وهذا ما يؤشّر عليه نشاطُه البحثيّ، المحموم والمنمنم، في السرديّة الفلسطينيّة، توثيقًا لكلّ مظهر مقاوم: من السلاح، حتى الأغنية، والقصيدة. وكان نشاطًا امتلك عليه عقلَه المتحفّزَ أبدًا، وروحَه الوثّابةَ دومًا، ليغوصَ ويغوص، مستحضرًا تاريخَ المقاومة منذ العشرينيّات.[٢] ولذلك قلنا إنّه كان باحثًا مشتبكًا.

ولكنّ ذلك لا يكفي![٣]

فباسل لم يتوقّفْ عند حدود الاشتباك المعرفيّ الثقافيّ على أهميّته، سعيًا إلى ثقافةٍ تناقض الوضعَ السائد، وإلى معرفةٍ تستنفر طاقاتِ الفعل النقيض، بل تعدّى ذلك إلى مَدَياتٍ أرحب وصلتْ باشتباكه إلى غايةِ المنتهى: الاشتباك الفعليّ قتالًا حتى الاستشهاد!

ولذلك حُقَّ لنا، نحن الذين ننعم بتوصيفاتٍ من قبيل "باحث" و"مثقّف" و"مفكّر"

و"مبدع"....، أن نتأمّل حدودَنا الضيّقة أمام رحابة حدود الاشتباك التي رسمها باسل باستشهاده. فكأنّه يعيد أمامنا نماذجَ عديدةً: كفرانتز فانون، الذي كان مثقّفًا رفيعًا ومقاومًا رفيعًا؛ وغسّان كنفاني، الذي حمل القلمَ والمسدّسَ معًا؛ وحنّا ميخائيل، الذي ترك موقعَه الأكاديميّ ليحملَ الكلاشينكوف في قواعد الثورة في السبعينيّات.

قال باسل مرّةً في إحدى محاضراته المبثوثة على مواقع التواصل الاجتماعيّ: "إذا بدّك تصير مثقف، لازم تصير مثقّف مشتبك. إذا بدكاش تشتبك، ما في فايدة لا منك ولا من ثقافتك."

وتلك مقولةٌ/ صيحةٌ ستكون مدخلي إلى هذا المقال.

حين ناقش مفكّرون اجتماعيون علاقةَ الفرد بالبنية العامّة للنظام الطبقيّ المعاصر، لاحظوا أهمّيّة دور العلم الاجتماعيّ، المدعوم بهيمنة الإيديولوجيا والإعلام والتربية والتعليم، في صياغة الإنسان، بما يَكفل خضوعَه التامّ للنظام والعمل [4] وهذا ما يحيل على دور الباحث الاجتماعيّ، باعتبار العلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة ألصقَ من غيرها بالأدوار والقوى الاجتماعيّة الفاعلة؛ ويَربط، بشكلٍ وثيق، العلومَ الإنسانيّة والاجتماعيّة بالإيديولوجيا، على الرغم من المحاولات العديدة (الإيديولوجيّة هي نفسُها في أيّ حال!) لفكّ الارتباط بين الطرفين. [5] ومن الطبيعيّ أن تكون، حينئذ، "موضوعيّةُ" الباحث على المحكّ. وفي المقابل، فقد طَرح الفكرُ الاجتماعيّ قضايا سعيٍ تحرّر العالم من أسْر النظام، وعملِه على تثوير البنية الاجتماعيّة وطاقات الفرد من أجل التحرّر من الهيمنة والسلطة والتهميش.

في الحالة الكولونياليّة تبدو علاقةُ السلطة بالباحث أكثرَ سفورًا ووضوحًا: فإمّا أن يكون الباحثُ المثقّفُ جزءًا من بنية الاستعمار، وإمّا أن يكون على النقيض منها وفي مواجهتها. لا مجال في الحالة الكولونياليّة لبعض ديكورات التمويه التي تَسمح بـ"وسطيّة" ما، كما هي الحال في النظام السياسيّ الرأسماليّ. أن تنتصبَ في الحالة الكولونيالية مهمّةُ "التحرّر من الاستعمار" مهمّةً واحدةً ووحيدةً، وأن تتحدّدَ طبيعةُ العلاقة بين المستعمِر والمستعمَر بـ"التناقض" الذي يتطلّب نفيَ الثاني للأول شرطًا للتحرّر (بمفهوم فانون)، فذلك يضع الباحثَ الاجتماعيَّ، والمثقّفَ على العموم، بين خيارين لا ثالث لهما:

- إمّا خيار المقاومة إلى جانب شعبه؛

- وإمّا الانخراط في بنية الاستعمار، مقابل فتات الراتب أو الشهرة والنجوميّة أو أبواب دُور النشر أو الترفيع الأكاديميّ أو الامتيازات الطبقيّة.

الحالة الاستعماريّة في فلسطين

ومع ذلك يبدو "انخراطُ المثقف" في الحالة الاستعماريّة في فلسطين مستحيلًا بشكل مباشر وسافر، وإلّا كان مثقفًا عميلًا للاستعمار على نحو يثير الرفضَ العلنيّ. إنَّ الانخراط في بنية الاستعمار يتّخذ شكلًا يمكن وصفُه بـ"البنيويّ،" وذلك نتيجةً للبنية التي خلقها الاستعمارُ في مرحلة العولمة الرأسماليّة [٦] في الحالة الفلسطينيّة تتشكّل تلك البنيةُ من مَحاور ثلاثة، ليست متساويةً من حيث أدوارُها وتأثيرُها في البنية، بل تنتظم وفق حالة من التبعيّة البنيويّة التي فصّلها خليل نخلة في كتابه أسطورة التنمية: الرأسمال الفلسطينيّ المحلّيّ، والمؤسّسات الدوليّة المانحة، والمنظّمات غير الحكوميّة. [٧]

عبر هذه البنية المتشابكة يمارس الاستعمارُ الصهيونيُّ كاملَ سيطرته السياسيّة والاقتصاديّة والعسكريّة، مدعومًا بالمركز الإمبرياليّ العالميّ، وباتفاقات رسميّة وقّعها مع "الممثّل الشرعيّ والوحيد" (منظّمة التحرير الفلسطينيّة) تضمنُ تأبيدَ الحالة الاستعماريّة! وهكذا يبدو "المثقّف/الباحث المنخرط" في تلك البنية وقد مُوِّهتْ خدمتُه للبنية الاستعماريّة؛ فتلك البنية الناشئة منذ ٢٤ عامًا (تاريخ توقيع أوسلو) هي، في التحصيل الأخير، نتاجُ مشاركة فلسطينيّة "وطنيّة" ممهورة بتوقيع مؤسّسات "تمثيليّة"!

تتجلّى خدماتُ المثقّف المنخرط في البنية الاستعماريّة على صعد عديدة، منها البحثُ الاجتماعيّ. فلمّا كانت بنيةُ الاستعمار محمولةً إيديولوجيًّا على محَفّة الليبراليّة الجديدة، فقد حايث تشكّلُها في فلسطين شيوعَ الفكر الليبراليّ الجديد في أوساط ثلاثة هي:

- المنظّمات غير الحكوميّة، وورَشها، وتدريباتها، ومؤتمراتها، ونتاجاتها "البحثيّة".
- أكاديميّو أقسام العلوم الاجتماعيّة، والإنسانيّة، واللغات الأجنبيّة، في الجامعات.
- كبار موظّفي السلطة و"خبراؤها،" الذين يشكّلون حلقةَ الوصل، على الصعيدين الإداريّ والثقافيّ، بين السلطة والمركز الإمبرياليّ المموَّه بمسمّى "الجهات المانحة".

أما المستفيد الثاني، بعد الاستعمار الصهيونيّ، فهو رأسُ المال الفلسطينيّ التابع للاستعمار.

عبر هذه الأوساط الثلاثة لا يجري إنتاجٌ ثقافيٌ، بل إعادةُ نسخ وتعميمٌ للمنتَج الأصليّ الوافد، ألا وهو الليبراليّة الجديدة، مع كلّ مفرداتها التي أسماها سمير أمين "موضة فكريّة": الديموقراطيّة، والجندر، والحوكمة، والشفافيّة، وحقوق الإنسان.. [٨] وجميعُها يحملها المثقفُ المنخرطُ في البنية الاستعماريّة ويعيد ترويجَها عبر نشاطه الأكاديميّ والبحثيّ. ولذلك فإنّ مراجعةً سريعةً لما يَنتج من الأوساط الثلاثة أعلاه ستلحظ الخيطَ الناظمَ: إعادةَ إنتاج مفردات الخطاب الليبراليّ الجديد، وأحيانًا بطريقة مضحكة (لدينا في فلسطين "حزبُ الخضر" مثلًا، الذي لم يسمع به إلّا مَن قرأ أسماءَ الأحزاب الحاصلة على الترخيص الرسميّ!).

الباحث المشتبك مع البنية الاستعماريّة

هنا خصوصيّة الباحث المشتبك. إنّه باحثٌ يضع نفسَه خارج بنية الاستعمار، ينقدُها، بل يقف على النقيض منها، وكلّ هدف عمله: هدمُها. إنّ الباحث المشتبك يَعتبر بحثَه أداةَ مقاومة، فينطلق من الانفصال التامّ بين مجتمعَي المستعمِر والمستعمَر، تمهيدًا لنفي الاستعمار جذريًا. وهذا يتطلّب خطابًا بحثيًّا جذريًّا يفترق عن الخطاب البحثيّ الليبراليّ.

هذا الخطاب موجود إلى حدّ ظاهر في فلسطين. وهو يستند إلى الرفض الجذريّ للمنطلقات التي تأسّستْ عليها بنيةُ الاستعمار الكولونياليّ من الأساس (أي المشروع الصهيونيّ)، وإلى الرفض الجذريّ لدعامة هذه البنية لاحقًا، أي اتفاقيّات أوسلو، وما نجم عنها من بنية استعماريّة مموَّهة وإنْ بشكلٍ رديء. وهذا الرفض لا يقف عند مستوى نقد الخطاب الليبراليّ المستنسَخ، بل يتجاوز ذلك إلى خوض الممارسة الاجتماعيّة الثوريّة بمفهومَيْ غرامشي وبورديو. [٩] كما تتجسد سماتُ هذا الخطاب في الربط بين الوطنيّ والقوميّ في مناهضة الاستعمار الصهيونيّ، وفي التأكيد على دور القوى والفئات الطبقيّة التي يُفترض أنّها الأكثرُ جذريّةً في حمل مشروع التحرّر الوطنيّ والطبقيّ.

ومن الطبيعيّ أن تقودَ تداعياتُ موقف الباحث المشتبك إلى سلسلة مواقف، مثل: مناهضة التطبيع مع الصهاينة على الصعد كافّةً؛ والانتصار لمقولة "العمل الحزبيّ" في مواجهة "العائليّة" و"المنظّمات غير الحكوميّة"؛ واحترام تجربة الفئات والطبقات الشعبيّة وخياراتها النضاليّة، بديلًا من فوقيّة الليبراليّ في التعامل معها وتوصيفها؛

وعدم التحرّج من العنف الشعبيّ ضدّ المستعمِر، بل احتضانه وتقعيده علميًّا وبحثيًّا وعدم نعته بنعوت مستوردة من جعبة الاستعمار التقليديّ.

ومن هنا ينتصب الأسئلة المتعالقة:

أين موقعُ العالم والباحث الاجتماعيّ من الحالة الاستعماريّة؟ أيندرج في بنية النظام الاستعماريّ، الَإيديولوجيّة والثقافيّة والتعليميّة، فيُسهم في إنتاج الإنسان وفق مقاس النظام الذي سبق أن أنتج المثقفَ المنخرط في بنيته؟ أمْ يتمرّد على النظام، فيؤدّي دورًا في إطلاق طاقة الفرد في مواجهة الحالة الاستعماريّة؟

إنّ كاتبَ هذه المقالة يعتقد إنّ موقع الباحث من قضايا مجتمعه لا تتحدّد وفق صيغة "الموضوعيّة" المزعومة التي دحضها بورديو، بل بالالتحام بتلك القضايا، وبالانحياز إلى القوى والطبقات الاجتماعيّة المتضرِّرة من البنية الاستعماريّة. وسيكون هدفُ الباحث من ذلك: التمهيدَ، أقلّه على المستوى الثقافيّ، لمجتمع خالٍ من الإستغلال وامتهان كرامة الإنسان. وبغير ذلك يَفقد المثقفُ مصداقيّتَه الوطنيَّة كباحث.

فإذا سحبنا تلك الوظيفة على الحالة الفلسطينيّة تحديدًا، فإنّ البحث الاجتماعيّ لن يساوي شروى نقير إنْ لم يؤدِّ دورَه كأداةٍ للمقاومة في وجه الاستعمار. وهذا ـ لعَمري ـ يتّفق ووظيفةَ المثقّف التي تناولها فانونَ مثلًا لكي يميّزَ بين نوعين: مثقفٍ يقاتل مع شعبه، ومثقف يخدم المستعمرين؛ وليقدّمَ في حياته ذاتها نموذجًا للمثقف الثوريّ والنقديّ الذي لم يكتفِ بالبحث الاجتماعيّ، بل حَمَلَ السلاحَ أيضًا.

بيت لحم

الهوامش:

[١] مقطع ممّا عُرف بأنّه "وصيّة الشهيد باسل الأعرج،" وقد أوردها الإعلامُ وشبكاتُ التواصل، وقيل إنّها كانت موجودةً في دفتر عُثر عليه في الموقع/ البيت الذي استُشهد فيه.

[٢] جمعني والشهيدَ باسل الأعرج وفريقًا من الباحثين الشباب عملٌ بحثيٌّ مشترك لتوثيق الرواية (السرديّة) الفلسطينيّة، باعتبارنا باحثين في المتحف الفلسطينيّ قيد الإنشاء. ومن ثمّ تابعتُ، كمشْرف، نشاطَه البحثيّ.

[٣] نشر أكثرُ من موقع من مواقع التواصل تسجيلات لعدة محاضرات وجولات تثقيفيّة كان الشهيد باسل قد نظّمها للشباب، توعيةً وتحريضًا، حول مفهوم" المقاومة." وقد ظهر بعد استشهاده إقبالٌ محمومٌ على تداول تلك التسجيلات.

[٤] يَحْضر هنا علماءُ اجتماع ومفكّرون من أمثال التوسير ومفهومه حول أجهزة الدولة الإيديولوجيّة وإعادة إنتاج الإنسان. ويَحْضر بورديو ومفهومُ "صناعة العقول." كما يحْضر الجهدُ البحثيّ والتنظيريّ لمدرسة فرانكفورت، كهربرت ماركوز ومفهوم "الإنسان ذو البعد الواحد،" ومن بعد ذلك هابرماس ومفهوم "صناعة الرأي العامّ".

[٥] وما إعلان فوكوياما عن "موت الإيديولوجيا" إلّا إعلانٌ لتأبيد الإيديولوجيا الرأسماليّة الليبراليّة الجديدة بطبعتها الأكثر وحشيّةً: الطبعة الأمريكيّة.

[٦] لا يعني هذا قطعًا اقتصارَ الانخراط البنيويّ على مواقع الحالة الاستعماريّة، بل يمكن سحبُه أيضًا على هذا الانخراط في العالم الرأسماليّ. ولكنْ في الحالة الاستعماريّة تختلف شروطُ الانخراط ومحدّداته، لا أكثر.

[٧] المؤسّسة الفلسطينيّة لدراسة الديمقراطية، رام الله، ٢٠٠٤.

[٨] سمير أمين، "الحركات الاجتماعيّة والديموقراطيّة في مواجهة إمبرياليّة العولمة،" في كتاب:الحركات الاجتماعيّة في العالم العربيّ، تقديم سمير أمين، تحرير عزّة خليل (مكتبة مدبولي: مركز البحوث العربيّة والإفريقيّة والمنتدى العالميّ للبدائل، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦)، ص ٩-٢٥.

[٩] أحمد موسى بدوي، "ما بين الفعل والبناء الاجتماعيّ: بحث في نظريّة الممارسة لدى بيير بورديو،" مجلة إضافات، المجلة العربيّة لعلم الاجتماع، العدد الثامن، خريف ٢٠٠٩، ص ٩ ـ٢٣. وكان بورديو قد انتقد الصيغة المفتعلة للفصل بين الذاتيّ والموضوعيّ في المنهج الديكارتيّ، وهي صيغة انسحبتْ على حقل العلوم الاجتماعيّة من أجل تبرير "موضوعيّة" مزعومة تفصل ذاتَ الباحث عن حقله المبحوث. كما كان بورديو، بنشاطه السياسيّ والبحثيّ، شأن ألان تورين أيضًا، من أولئك الذين دمجوا بين ذات الباحث وموضوعه، فانخرطوا في العمل السياسيّ الاجتماعيّ بروحيّة نقديّة تؤطّر فعل الباحث.

كلمات

كلمة عائلة الشهيد باسل الأعرج
في ذكراه السنوية الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

تحية العروبة والوطن والتحرير،

تلك التحية لن نتنازل عنها يوماً، بعد أن استهللت بها وصيتك، نخاطب بها شرفاء أمتنا الذين لا يزالون يرافقوننا نهجاً ومنارةً .

مرّ عامٌ على فراقك دون أن تنفك تفاصيل الاشتباك الذي خضته وحدك عن شَغْل أذهاننا وعقولنا. لم تستقر في القلب فكرةُ ذهابك إلى غير رجعة بَعد؛ ربما لأنك لم تذهب بالكامل، فصورك وكلماتك حاضرة كل يوم، فيما ظل صوتك واضحاً مسموعاً، وصادحاً في آذان الشهداء: "المقاومة جدوى مستمرة"، واستحلت شوكةً في حلق العدوّ الصهيوني وأعوانه.

بقيت بيننا بأحبابك الحاضرين دوماً في بيوتنا، وبقيت حياً في أحاديثنا مع الغرباء عنك. سكنت قلوبنا حياً كما عند ربك حياً ترزق. لن نستطيع بعدك حياة خالية من ذكرك.

لم يمنعنا حزننا على عذابك على يد الخونة وقتلك من الافتخار بك واقتران أسمائنا باسمك. لقد شرفتنا حياً، وزدتنا شرفاً بشهادتك وبطولتك. وكما قال فيك عمك الثائر "أبو خليل": أول اللاحقين بك من أحبابك، والذي لم يدُر في خلده أنه لن يتمكن من كتابة هذه الكلمات عنك، كما كان متفقاً عليه: "أتدري (وأنت الآن تدري) أنك نجوت من الموت الطبيعي عدة مرات، ورفضت اللباس الأبيض مرتين، وآثرت أن يكون لباسك مخضباً بالدماء، وأنك لم تمت عندما توقف قلبك عدة مرات تحت التعذيب لأن الله اختار لك ميتة الشرفاء الأبطال، مقبلاً غير مدبر؛ ميتةً حددتَ بها معالم الطريق، ما تبعها إلا صديقٌ، وما حاد عنها إلا "زنديق"؟! باسل، يا من مهرت كلَّ كلمة قلتها وكلَّ موقف لك بالدم. إنه الختم النهائي الذي لا مراء فيه". ستظل باقياً فينا ما حيينا، وسنموت ونمضي نحن، وتبقى أنت الفكرة الخالدة.

نهديك شاهداً وشهيداً لأشراف أمتنا وكل أحرار العالم.

عائلة الشهيد باسل الأعرج

كلمة خالد عودة الله ثالث أيام العزاء في قرية الولجة

٢٠١٧/٣/٨

ماذا يقول الحيُّ الميت عن الميت الحي؟!

إنّ الحديث عن باسل حديث طويل، وهو حديث ذو شجون، لا يمكن لي أن أتحدث عن هذا الإنسان دون أن تتملكني عواطف وعواصف تدور في قلبي وتدور في عقلي، وخلال الأيام الثلاثة الماضية، وفي بيت العزاء هذا، سمعنا الكثير عن مناقب الشهيد، وسمعنا الكثير من الخطب، وسمعنا الكثير من البلاغة، ولكنني لن أتحدث بهذه الروح وسأتحدث ببساطة عن باسل بدون ألقاب، عن باسل الذي لا يمكن أن نُصنِّفَه، باسل الذي لا يمكن أن نختزله، باسل الإنسان، باسل الذي قادته إنسانيته لكي يكون مقاوماً بالفطرة وليست الثقافة. ما يميّز باسل ليس هو ثقافته ومع أن هذه الثقافة هي ثقافة عظيمة ومشهود لها، ما يميز باسل صفتان اثنتان في نظري. الأولى هي العشق، عشق فلسطين، والثانية هي الصدق، وإذا اجتمع العشق مع الصدق فإن المحصلة وإن النتيجة بالضرورة هي الشهادة.

باسل لم يقل لنا كونوا مقاومين، ولم يقل لنا كونوا ثواراً، باسل كان يقول لنا كونوا صادقين، وكفى، وإن كنتم صادقين ستكونون ثواراً ومقاومين.

باسل كانت رحلته هي البحث عن الطهر.. عن البساطة .. كان يبحث عن الينبوع الأول، عن ما الذي يجعل هذا الشعب لمدة مئة عام يقاوم أقصى وأقسى وأعقد حركة استيطان عرفها التاريخ؟ وبعد مئة عام من المشروع الاستيطاني في فلسطين، لا يمكن للصهيوني أن يقول إنني انتصرت.. ولا يمكن للفلسطيني الوطني الصادق أن يقول إنني هزمت، ولا يمكن للصهيوني إلا أن يبني قلاعاً، لا يبني بيوتاً، ولا يمكن له عندما يذهب إلى ما يسميه بيتاً إلا أن يذهب وسلاحه في يده، ومن يذهب إلى النوم وسلاحه في يده، فهذا ليس بيته، إنه قلعة، معسكر، إنّها إقامة مؤقتة في هذه البلاد ..وهم يعرفونها.

ما قاله باسل بكل بساطة إننا إذا بحثنا ودققنا وعرفنا تاريخنا على هذه الأرض فإننا لا يمكن إلا أن نرى تاريخاً للمقاومة في فلسطين. مع كل ما تتعرض له المقاومة وممارسة المقاومة من هجمة من الجواسيس والخون، ممن عذبوا باسل في الزنازين، والذين لم يكتفوا بتعذيبه في الزنازين فقط، وإنما حاولوا تشويه صورته وحاولوا أن يحاصروا

فكرته، وحاولوا أن يغتالوه معنوياً في التمهيد لقتله وتصفيته جسدياً.

ربما، لا أدري إذا كانت رصاصات باسل قد أصابت جندياً صهيونياً جرحته أو قتلته، لستُ متأكداً من ذلك، الله يعلم، ولكني متأكدٌ بأن رصاصته قد أصابتنا نحن، أصابت زيفنا، وكذبنا، ونفاقنا، نحن الذين نقول نريد هذا الوطن، ونحن الذين نقول نريد هذا الوطن ونقوم بعمل كل ما هو ضدّ الوطن. ما قاله باسل ببساطة وما فعله وما بحثه وما قام به من أعمال خلال مشواره الطويل، مرة أخرى.. كان مصدره العشق لفلسطين. الثقافة لا تنتج معرفة ولا تنتج مقاومة. العشق، العشق هو الذي ينتج المقاومة وينتج الثقافة ويجعل الثقافة لها معنى ويجعل المثقف صادقاً مع نفسه قبل أن يكون صادقاً مع الآخرين، وهذا ما كانه باسل ببساطة، عاشقاً صادقاً، وجمع عشقه للبلاد لتفاصيل البلاد، لكل حجر من حجارتها لكل قصة من قصص مقاوميها، بحث عنها ودوّنها وأرّخها لأنه يعلم بأنه لا وجود لنا على هذه الأرض إلا مقاومين، ولا هوية فلسطينية بالمعنى العميق للكلمة دون أن تكون هوية مبنية على إرث المقاومة وفعل المقاومة وتاريخ المقاومة في فلسطين. بعيداً عن الرمزية وبعيداً عن الخطابة، المقاومة هي البداية والمقاومة هي النهاية، مع أنني أعلم أن هذا المصطلح قد تم ويتم الهجوم عليه وتسفيه من يقولون به، ويتم خوض حرب نفسية ضد من يقول بهذا المصطلح وهذه الممارسة.

مرة أخرى يذكّرنا باسل بمعنى، أو بالسؤال: ماذا يعني بأن نستشهد؟، وماذا تعني الشهادة، وماذا تعني الشهادة في زمان معين وفي مكان معين. الزمان هو الزمان الرديء،الزمان الذي يريد أبناء جلدتنا ويريد "قادتنا ورؤساؤنا" الذين لم نختزهم ولم ننتخبهم، يريدوا أن يحولوننا إلى عبيد، كل فعل باسل هو بكل بساطة، كيف لا تكون عبداً، كيف للإنسان ألا يكون عبداً وما معنى أن يكون الإنسان حرّاً.

وفي النهاية أقول إن مشروع تدوين إرث باسل الشهيد العظيم، هو مشروع بإذن الله سوف نقوم به قريباً، سوف نجمع كل ما كتب وكل ما قال وكل أعماله ومساهماته بإذن الله تعالى على أن تنشر قريباً وتصبح متاحة للجميع.

في النهاية أقول: أنا لا أرثيك يا باسل ولا أنعيك، وإنما أنا صديق مشتاق، وليس للمشتاق من غاية إلا الوصل واللقاء، وبإذن الله سيكون هذا اللقاء قريباً، نلقاك شهداء مضرجين بدمائنا، وقد وجدنا أجوبتنا التي قلت عنها في وصيتك وقد سكنتْ نفوسنا حقيقة ورمزاً. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

«يا لثاراتك يا باسل!»

عبد قدورة- مخيم البداوي

حقك علينا الف مرة
وانت ادرى الناس فينا
والقيامة قايمة
ونحنا بسبات
وما صحينا
حقك علينا
لو تيجينا بخاطرة
تدمع عينينا
حقك علينا بس بدري تروح
وتتركنا
وانت كفيت بنزالك
بس نحنا ما اكتفينا
حقك علينا
لو بشي لحظة شردنا
او سهينا
حقك علينا
وان نسينا
يبتلى النسيان فينا
تعرف.. ونحنا شيعتك
وانت علينا
xxx

برد الليلة وانا متخفي
قاعد وسلاحي. على كتفي
حامل الكتاب وبتفكر
لمين الجندي يا بلدي
ولمين السجن والمخفر
لمين الدفى عم تهدي
وانا طالب حضن مش اكتر

حسيت برعشة بجلدي
والبارودة حضنت زندي
واتاريها يافا عشمالي
وحيفا قامت ربطت شالي
والولجة وقفت ع قبالي
وصرخت فيني: البس عسكر

صار الوقت..
غريمك يا بنيي تحت
صار الوقت
تسلح ياقلبي عالسكت
وتسلحت

وانا وحدي يا يما وحدي
صوت النار بنص الليل
تخيلتو يا يما يودي

تخيلت الدورية يما
حيحاصرها اهل البلدة
فكرك خايف ! لا مش خايف
متاكد لكن مش عارف
مين الجايي دوره بعدي

لبيتك يما لبيتك
بس البارودة ما لبت
لا تجاهلتك ولا رديتك
بس الدورية الي تخبت

وبالاخر يلي ساويتو
وقفت بوجه الدورية
وهسا صوت رفاقي جنبي
مخنوق ويتغنو فيا
سامع صوتي فيهم عالي
شايف فيهم الحرية
مش حاسس حالي لحالي
واهلي ورفاقي حواليا
اخر شي يما غنيتو
شدو الهمة الهمة قوية
اخر شي يما حسيتو
ابوي بيعطي التحية

وعاخر غفوة لعيونك
صحيت اشيا كتيرة فينا
ويلي حامل نعشو .. هونك
خلينا نودع غالينا

باخر غفوة لسمعنا
صوت الباسل بينادينا
صوتي عالي! صوتي واضح؟
اوضح مرة سمعنا صوتك
حضرة مولانا ووالينا
اعلى مرة بيطلع صوتك
ارعب فيها محتلينا
مين احنا لنرثي الباسل
لولا فهمتو شو الوصية
لشفتو باسل راثينا
xxxx
إصرخوا مثل اليتامى
البطل نامت عيونه
عاش يلي مات لكن
مات كل الشعب دونه

إندبوا مثل الثكالى
والطموا مثل الأرامل
واسألوا الويلات حالا

ع المثقف والمناضل
يوم ترويلو الحنونة
عن نبي ثائر مقاتل
تصغر بعينه النوازل
يصرخ بوجه المحقق
يا دعي يابن الدعي
جاهل وخادم لسافل
نحنا عسكر بالشوارع
وانتوا مخباكوا المنازل
نحنا هيهات المذلة
وانتم ذيول وذلائل

اندبوا مثل الثكالى
وارضخوا تحت السلاسل
وارضوا بالذلة ونادوا:
الكفّ ما تناطح مَغازِل
واللي ما يرضى المذلة
يمشي ع درب الأصايل
درب أولها عارورة
تزهر قلوب ومنازل
تمر بالولجة، تواصل
ع صفد يا دربي واصل
ويا جبل إركع وضوّي
بالعتم نار المشاعل

واستمدّ من البارودة
السمرا، في إيد المقاتل
حبلى بالنار وتزغرد
بالعتم، أصل المراجل
سلِمْتي يا سمرا، سلِمتي
سلِمْتي يا سمرا، سلِمتي
يسلم البطن اللي حامل
والبطل دمّو يلقح
أرضنا، تحبل زلازل
والسما تصرخ بصوتك
والرعد جايي وحامل
عهدي ع جدار الوريدِ:
"يا لثاراتك يا باسل!"
عهدي ع جدار الوريدِ:
"يا لثاراتك يا باسل!"

باسل

طارق خميس

٢٠١٧/٥/٢١

هكذا باسل بدون لفظة "الشهيد" يسبقه، ولا الجملة المضافة "الله يرحمه" التي لم يعتاد الواحد عليها بعد، وكأنّك حين تقولها تؤكّد الأمر، لا يعني أننا نعيش حالة إنكار، فكل من عرف باسل ولو لجلسة واحدة أو محادثة عابرة على "الفيس بوك"، يدرك أنه رجل "بلا مستقبل"، -ربما لم نظن أنه سيكون شهيدًا يوماً- لكننا متأكدين أنه "بلا مستقبل"، لم نفكر كثيراً أن هذا قد يعني -فيما يعني -بأنه لن يكون صديقاً لشيخوختنا، ولم نعر كثير اهتمام لكلّ هذه التأملات إلا على وقع الخاتمة؛ نحن الذين نخطط للخمسين سنة مقبلة من حياتنا.

هكذا حين تضيف لقب "الشهيد" قبل اسمه، لا يعود باسل الذي يخصّك وحدك، إنه يخص الجميع، ملكيّة مشتركة تتكاثر بالاستخدام والتملك، أسطورة خالدة بقدر ما تهرب منك وتتفلّت.

ألا يمكن للأسطورة أن تبقى كذلك دون أن نخسر ما يخصنا فيها؟

كل الكلام بعدها يصبح شبكة متراكمة تحجب عنك القدرة على التذكر، تريد في أوقات معينة أن تطفئ كل "الكشافات" وتتذكر ما يخصك في صورته، هكذا بوجهه وهو يعضّ على أصبعه السبابة حين يتحلّف لأحدهم اشتياقًا، وذلك المزيج الساحر بين الأدب والبذاءة، القدرة على أن تكون الخصومة بالغة الوضوح، دون أن يمنعه ذلك من دفع حساب الطاولة عن خصمه، الدخول "بطوش" مع الجميع ثم جرهم من آذانهم حزَانى إلى جنازته.

باسل مهووس بفلسطين، هوسًا يعفيه من كل أسئلتنا الوجودية، لم يكن ينتمي لفلسطين -ليس هذا ما يصف وضعه- لأن الانتماء على الأقل يشترط مسافة ما، الأشياء كانت خفيفة بيده وطازجة، ودائماً ما كان يبدو لي كما لو قد سمع خبر استشهاد "القسام" في أحراش جنين للتو.

كل هذه الحماسة لفلسطين لم تكن تعجبني، بدت لي ثقيلة أكثر من اللازم، فنحن بالنهاية صرنا لما ترتضيه لنا طبقتنا الوسطى(التي هي أصبع أكثر منها طبقة) ولا داعي أن نفتتح للـ"سلاح" صالونات ثقافية، أصبحت فلسطين ثقيلة علينا وينبغي أن نكسرها بشيء من الماء، هذا ما بدأنا ندركه بتواطؤ صامت، بعد الانتفاضة الثانية.

حين أصبح الشهداء أصغر منا سناً، عرفنا وقتها أن القطار قد فاتنا، وأنّ هذا البلد يحيلك على التقاعد بأسرع مما يفعل أي بلد آخر، كان باسل يحب شُرب الأشياء "سيك".

أستدرجه لموضوعات أخرى دائمًا، عندما يصل النقاش للحظة أتهمه فيها بالشرود ويتهمني فيها بالعدمية، نتحول لموضوع آخر على الفور؛ عن الأفلام والطعام وقصص الجن و"نهفات" القرية، والنساء (وكان ذوقنا مشتركًا في الاخيرة)، يحب الزجل الشعبي ومقلوبة أم السعيد (أمه كما كان يناديها)، ولديه موقف "ايديلولوجي" واضح تجاه طرق أرياف شمال الضفة في طبخها. مرّة سألته:

- أين العدل يا رجل؟ كيف يعطيك الله "عينان زرقاوتان" بهذا الجمال، ثم يحتّم عليك اخفائهم بنظارات طبية سميكة؟ ها أين العدل في ذلك؟
- "مايدريك لعله أراد أن يحميهما من الحسد" ويضحك.

هل "الثقافة" كانت مدخلك لـ"فعل الشهيد"؟ نحن نحب تخيّل الأمر على هذا النحو، حتى نعطي للثقافة منجزاً خَسرته منذ زمن، حتى نصبغ بعض الشرف على مواقعنا المتعبة، وكأنّ الثقافي في حين يُحرَج من فعل ما، ينسبه لنفسه ليتحاشاه.

وفي الحقيقة باسل كان يمقت "الثقافة"، (لدرجة كنت معها أهاجم الثقافة في كل مكان إلا أمامه؛ أدافع عنها بشدة؛ لأنني لم أتحمل مقته لها). كان يقرأ هذا صحيح، لكنه دائمًا يقرأ بحثًا عن "شيء ما"، يأخذ جملة ويلفّ بها على كل من حوله، لم تكن هذه قراءة كانت عمليات تهريب؛ يُهرّب المفاهيم والأفكار والشخصيات؛ يُهرّب "فانون" من النص ويركض معه في زقاق البيرة، ثم يأخذه إلى الجبال ليجرّبه، من رأى كتاب "معذبو الأرض" معه سيتبين بسهولة أنه كان يأكل عليه حرفياً من أثر بقع الزيت (فلافل على الأرجح).

يخبرك أشياء كثيرة عن قرى ومعارك في فلسطين؛ تسأله عن مرجع، يحيلك إلى عجوز في قرية ما (بالطبع أنت لا تعرفها)، لم يكن يحيل إلى الكتب إلا نادراً، لم تكن هذه "ثقافة تفكر" بقدر ما كانت "عاطفة تتدفق"، ريفي لم تنل منه رام الله (بما تيسّر لها من مدينية)، حتى أنك حين تزور قرية الولجة ويحلف عليك أهله بكل الإيمان المغلّظة أن تجلس لسفرة الطعام، وهم لا يعرفون أصلاً من أنت؟ تشعر بأنك تفهمه أكثر.

مغرمًا بالحكايا حتى أنه صنع من نفسه حكاية وصاغ حبكاتها بطريقة غامضة، ثم وضع نقطة وقال لنا عاودوا القراءة من جديد، لا نروي اليوم قصته دون الكثير من التفاصيل الناقصة والتخمينات، حكاية بنهاية شديدة الوضوح ومن فرط وضوحها هي نهاية مفتوحة، حتى أننا تورّطنا في تأويل كل شيء بأثر رجعي، (هل كان يبحث عن "برغوث" مقاتل وهو يفتش تحت أظافره في عادته أثناء الكلام؟...) "هوستنا" النقطة التي ختم بها وصيته، تلك الوصية التي لا تشبه وصية شهيد، بل تشبهه هو وحده بعد أن تمكن من أن يصبح شهيدًا، حيث كان يمكنه أن يسخر منا ولآخر مرّة على طريقته "ابحثوا بأنفسكم" مع امالته لرقبته إلى الخلف وهو يضحك.

نحن نكتب عن الشهداء يا رجل لكن لا نكونهم، ما لذي فعلته الآن؟

كل هذا فكرت فيه، وأنا داخل على "الفيس بوك" وأجد نفسي أمام حقيقة بسيطة يجب التعامل معها: "لن يعود باسل "أون لاين" بعد اليوم".

كلمة خالد عودة الله في تأبين باسل الأعرج في ذكرى الأربعين

بسم الله الرحمن الرحيم

سلامٌ عليك يا باسل

يا زعتراً برياً ترفعه الريح فيزرَق، وتخفضه الريح فيخضر

يا صبارنا الأبدي، يا هدأة ليل البيادر، يا نجم سهيل في ليل الحائرين

يا خِنجر سليمان يفقأ قلب المُستعمِرين

يا دقات القلب مكتومةً في الكمين.

سلام عليك يا نحيب أم الشهيد في ليل الشتاء الطويل،

يا عين الحَنيّة لا تنام

يا حنين الولجة إلى الولجة، يا صهيل الخيل في مَراحها الفسيح.

سلام عليك، يا كرامة زيتونة البدوي "تعض القيظ وتَسقي"

يا وفاء القصب "كل ما عتق بِحِن"

يا حجارة وادي علي يمضي السيلُ وتبقى

يا كل ما تبقى لنا.

سلام عليك، يا دروب البلاد إلى البلاد

يا لَسعاتِ مَدفع غسان

يا حنظلة ناجي العلي يُدير ظهره للدنيا ويَستقبلُ فلسطين

سلام عليك، يا ريح البلاد لا تهدأ، يا "سناسل" الكروم تمتد وتمتد لا تنتهي،

يا موج القمح في سهل زِرعين .

سلام عليك، يا وصايا الشهداء مكتوبةً على عَجل

يا نوار الزعرور،يا عبق الطيّون،يا مارتين ثوار الجليل

يا طُهر طفلة المخيم تَذودُ بالمقص عن القدس.

سلام عليك يا مواواة الأعراس في زفة الشهيد
يا هديل الحَمام الرُقطي.
يا حروفنا الأبجدية وقد صارت أربعة
سلام عليك يا نشيدنا الوطني.
سلام عليك يا وَخزَ بلور الدم المتجمّد في أبو كبير
يا "هيهات منا الذِلة" في وجه الأدعياء الخائنين.
سلام عليك، يا هامة عبد القادر على القسطل تعلو وتعلو
يا علماً على العلم يعلو ويعلو
يا شوق الشهيد إلى الشهيد.
سلام عليك يا بياض النوارس على مآذن يافا
يا عباءة القسام تلوذ بها حيفا
يا مِزاج سلواد العنيد.
سلام عليك يا بعضاً من حديث أبي ذَر لنفسه، يمشي وحيدا ويموت وحيداً ويبعث وحيداً
يا صدق العاشق في موته
يا موت الصادق في عشقه،
يا كل ما اشتهيتَ وصرتَه
يا كل ما كَتبتَ وكتَبك.
يا كل ما بحثت عنه ووَجَدَك.
سلام عليك يا رعشة الحوّرِ مُبللاً بالأحمر القاني
سلام عليك يا وجعنا الباقي،
سلام عليك إلى أن نلقاك، كما لَقيناك مُطرزاً بالشظايا، موشوماً بالرصاص.
سلام عليك ...سلام عليك... سلام عليك.



"أنا جيد، أعاني قليلاً من الوحدة والاغتراب كالعادة، يبدو أنه أصبح مألوفاً عندي لدرجة أنه لم يعد غريباً عليّ، القرارات الصعبة تحتاج يا عزيزي إلى حزم وجزم، لكن بإمكاني أن أدلك على شيء يخفف عندك بعضاً من ألمك، الأمر فيه ألم بكل تأكيد، حاول أن تتذكر أن أزمتك الوجودية فعلاً ترتبط بقضية سامية أكبر من أي صراع آخر، دع هذا الأمر في رأسك سيساعدك على تخطيه، دع فلسطين أمام عيونك"

ISBN-13: 978-3899-11-239-9
9783899112399

$ 12.00

بيرسان